

الأمير شكيب أرسلان



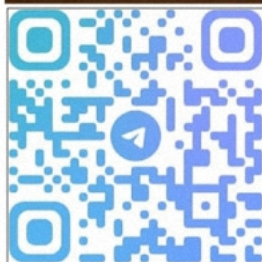
الكتاب والحفظ



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com



شوقي

أو

صداقة أربعين سنة

الأمير شكيب أرسلان / شوقي أو صداقة أربعين سنة

قدم له:

الأستاذ نجيب البعيني

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقدمية

المختارة - الشوف - لبنان

هاتف: ٩٦١_٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١_٥/٣١٠٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb

http://www.daraltakadoumya.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

الأمير شكيب أرسلان

شوقي

أو

صداقة أربعين سنة

قديم له

أ. نجيب البعيني

الدار التقدّمية



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل

كلمة لا بدّ منها

إنّ هذا التراث القيّم مدين بالتنقيب عنه وجمعه وتنظيمه
إلى الأساتذة:

المرحوم الدكتور يوسف إيبش، والدكتور يوسف خوري،
والمحامي الأستاذ توما عريضه،

الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبّد العناء
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية
بحثًا واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،
طيّ النسيان والضياع.

فلهم دائم العرفان لما بذلوه من توضيحات في سبيل جمع
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

مقدمة

يقول أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، في ردّ على سؤال وُجّه إليه، في مفاضلته ما بين النظم والنثر: «إنّي أفتخر بأن أكون كاتبًا، وأستحي من أن أكون شاعرًا (...). لأنني طول حياتي لم أحاول أن أكون في الشعر سباق غايات وطلاع أنجد، على حين أنني أرى منتهى السعادة في الدنيا في أن أكون من الكتاب المعدودين».

قال الأمير هذا وهو يحضر في جبال الشعر حروفًا مشعّة، سجّلتها الذاكرة، والقلم، وستصدر قريبًا عن الدار التقدّمية في عملين اثنين هما: «ديوان الأمير شكيب أرسلان» و«باكورة»، وهذا الأخير فيه جمع لأولى القصائد التي كتبها الأمير واعتنى بنشرها.

وما يعيننا في هذا السياق، هو أنّ التجواب في رحاب الأمير الفكرية والمعرفية الغضّة، يحمل دائمًا على زيادة في العلم والتعلّم، وإعلاء في مستوى الثقافة والثقف؛ هذا الأمير الذي كان يلاحق بنظرته الحافظة لكلّ تاريخ وتراث، آثار من جمعهم جيله إلى جانبه، نراه يهرع إلى حفظ مؤلّفاتهم واحتضان سيرتهم وإيفائهم الوعود بالعهود المخلصة، وذلك في ما عبّر عنه في كتبه ومقالاته التي لم تخلُ من روعة الكلام ومن بلاغة لا توصف، وهذا ما عهدناه في ما قمنا بنشره سابقًا لأمر البيان ولا عجب، فكيف بنا الحال اليوم، ونحن في حضرة أميرين اثنين تربعا على عرش الإمارة الفكرية العربية، وجمعهما حبّ الشعر وإتقانه، وربطت في ما بينهما صداقة أربعين سنة من الوفاء والمودّة، ألا وهما أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، وأمير الشعراء، أحمد شوقي؟!!

عزيزنا القارئ، بين يديك اليوم مؤلّف جديد للأمير شكيب أرسلان أنفله عنوانًا معبرًا وصادقًا ينمّ عمّا فيه من معانٍ سامية: «شوقي، أو صداقة أربعين سنة»، وفيه ستجد وجهًا جديدًا إلى جانب الوجوه المتعدّدة التي جمعها أمير البيان في شخصه. وفي إبحارك في أعماقه ستراءى لك صورة هذا الأمير النبيل الذي كان يعتدّ بصداقاته ويحفظها ويوليها كلّ اهتمام، ليس أقلّها نشر مسيرتها في كتاب، مانعًا أن تمسّها يد النسيان، وهو المدرك والمتأمّل لذلك حينما ذكر في مقدّمته لهذا المؤلّف الهامّ: «ما حال حولان على انتقال شوقي رحمه الله إلى عالم الخلود حتّى رأيت الناس كأنهم قد نسوا أمير الشعراء».

واليوم، ونحن على بعد ٧٤ عامًا من وفاة أمير البيان، نقول: أين الأمير شكيب أرسلان في حافظتنا وهو الذي لم يهمل ذكر تاريخنا، وحفظ تراثنا، وتسجيل مآثرنا في عمق أعماق التاريخ الخالد؟!

سؤال نتركه رهنا بالمستقبل الآتي، على الرغم من وجود أمير جديد يحفظ تراث الأمير القديم ويسهر عليه، ولكن، تبقى الحاجة إلى من سيستمّر في رفع الراية، تبقى الحاجة إلى مجتدين ثقات في خدمة المعرفة الحقّ والثقافة الخالدة.

الدار التقدّمية

في، ٢١ ت ٢٠٠٩

صداقة الشعر بين أميرين أمير البيان وأمير الشعراء

بقلم: الأستاذ نجيب البعيني*

جمعت بين الأميرين، أمير البيان شكيب أرسلان وأمير الشعراء أحمد شوقي، وشائج متينة وصداقة حميمة، خالصة الودّ والوفاء، تواصلت على مدى أربعين سنة؛ منذ أيام الشباب إلى الشيخوخة. وهذه الصداقة كان لها أبعادها، إذ إنَّ الأميرين علّمان بارزان في عالم الأدب والشعر في العصر الحديث، وقد ساهما في إذكاء النهضة العربية الحديثة المعاصرة، وأديا أجلاً للخدمات للعروبة والإسلام في زمنيّهما، وكانت لهما نظرة واحدة إلى الاستعمار ومختلف أشكال الظلم والاضطهاد، بدءاً بالغزو الأجنبي، مروراً بالحملات الصليبية، إلى الحكم العثماني (الرجل المريض)، إلى الاستعمارين الفرنسي والإنكليزي اللذين جثما على أرض العروبة فترة طويلة من الزمان.

كان الأمير شكيب في الواحدة والعشرين من عمره عندما قدم إلى مصر في عام ١٨٩٠م، فمكث شهراً واحداً في "الإسكندرية"، ثمّ ذهب إلى "القاهرة"، حيث جرت أكثر حلقاته التي كان يعقدها في ذلك الوقت مع أستاذه الإمام الشيخ محمّد عبده ورهط من رعيّل المثقّفين والرجال الوطنيين، أمثال: سعد باشا زغلول وشقيقه فتحي، والشيخ علي الليثي، والشيخ عبد الكريم سلمان، وابراهيم اللقاني، وحفني ناصف، وأحمد محمود من الرحمانية، وابراهيم الوكيل من دمنهور، والشيخ علي يوسف صاحب "المؤيد" في مصر، وأحمد زكي باشا شيخ العروبة. وكانت الاجتماعات مع هؤلاء المثقّفين متواصلة، وصداها ينتشر في الآفاق، ويتناقلها القريب والبعيد. وكلّهم كانوا مُجمعين على أنهم لم يسمعوا في ذلك الحين برجل اسمه "شوقي"، ولا عرفوا أنّ له مركزاً أو أنّ له أهمّية معروفة في الوسط الشعري والأدبي.

وبينما كان الأمير شكيب يهملُ بترك مصر في أواخر سنة ١٨٩٠م، وقعت عيناه وهو يقرأ جريدة "الأهرام"، في صبيحة يوم، على قصيدة لامية في مدح الخديوي توفيق، نظّم أحمد أفندي شوقي، وكان هذا الناظم مجهولاً عند الأمير، فلم يشأ أن يضيّع وقته في قراءة شعر هذا الرجل الذي يقال له "أحمد أفندي شوقي"، كما يقول الأمير شكيب عنه في كتابه.

* باحث وأديب لبناني. له مؤلّفات عدّة، منها: دموع الوداع، ثمن الخطيئة، رحلة إلى لبنان، الحميّ الغربي، شعراء عرب معاصرون...

وإذا به يقرأ القصيدة كلها في مدح الخديوي، وقد أعجبه إعجاباً شديداً، ومنها هذه الأبيات:

إنَّ الوشاةَ وإن لم أُحصِهِم عَددا
لا أَخْلَفَ اللهُ ظنِّي في نواظِرِهِم
هم أَغْضِبوكَ فراحَ القَدُّ مُثَنِّيا
وصادفوا أذنا بيضاءَ لِينةً
لولا احتِراسِي من عِينِكَ قلتُ ألا
الله في مُهْجَةٍ أَيْتَمَّتْ واحِداً
وروحِ صَبٍّ أَطالَ الحَبُّ غُرَّتْها
دعِ المِواعِيدَ إِنِّي متٌّ من ظمإِ
بالله رُدَّ على العَبَّاسِ شاعِرِهِ
مَنْ للعَزِيزِ يُناجِي رَوْضَ نِعْمَتِهِ
تَعَلَّموا الكِيدَ من عَيْنِكَ والفَنَدا^(١)
ماذا رَأَتْ بِي مِمَّا يَبْعَثُ الحَسَدا
والجفنُ مُنكسِرًا والحَدُّ مُتَقِدا
فأسمَعوها الذي لم يُسمَعوا أحدا
فانظر بعِينِكَ هل أَبْقَيْتَ لي جَلَدا
ظُلماً وما اتَّخَذتَ غيرَ الهوى وَلِدا
يخافُ إن رجعتُ أن تنكِرَ الجَسَدا
وللمِواعِيدِ ماءٌ لا يُبَلُّ صَدِي
بنظرةٍ واتَّخِذها في الزَمانِ يَدا
إن أُسكَّتَ الدهرُ هذا الطائرَ الغَرِدا

قرأ القصيدة من أولها إلى آخرها، وأعاد قراءتها مراراً وتكراراً، وعلم أن وراء هذا الشعر شاعراً مطبوعاً، وأيقن أن في تلك المغارة أسداً، وصار كلما عثر على شعر لأحمد شوقي تهافت عليه تهافت الظمآن على ماء نير، لأنه رأى فيه شاعراً حقاً، وأنه سيكون له شأن عظيم في عالم الشعر، وأنه سيتوصل إلى أن يكون أمير شعراء العصر على الإطلاق.

وقرأ الأمير قصيدة أخرى لشوقي في مدح الخديوي توفيق، يهنته فيها بحلول شهر الصيام، لا تقل روعةً وشأناً عن القصيدة الدالية، نقطف منها هذه الأبيات:

يا خَيْرَ مَنْ شَهِدَ الهِلا
بشِراكَ بالشَّهرِ الذي
تسعى المِوالي فيه مُز
لَ وخَيْرَ مَنْ سَمِعَ الأذانُ
لك فيه عندَ اللهُ شانُ
لِفَةٍ لِعَلياك التهانُ
هذا هو السهلُ المَنِيعُ فهل سمعتَ عن ابن هان^(٢)

(١) الكذب وجحد النعمة.

(٢) هو الحسن ابن هانئ المعروف بأبي نؤاس.

قدّرتُهُ ووزنْتُهُ ونظمتُهُ نظمَ الجُمانِ
وبعثته لك مدحةً تجلو مناقبك الحسانِ

عندما قرأ الأمير هذه القصيدة وجدها من النوع المرقص الذي لا يقع نظر أديب عليه إلا اهتز له طربًا وراح نشوان، وكما قال شوقي عن نفسه، كانت أبياته هذه من السهل الممتنع أشبه بشعر البهاء زهير، لو اندمجت في ديوانه ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شوقي لكانت حقيقة شعر البهاء لا تقلّ عنه شيئًا، ولو سمعها الحسن بن هانئ لارتضاها لنفسه ولم يتكبر عليها. أما ابن هانئ الأندلسي الذي قال فيه المعري إن شعره أشبه برحى تطحن قرونا، فإنه بعيدٌ عن هذا الأسلوب بُعد الشرق عن الغرب.

«...ومذ ذاك الوقت صرنا نترقب قصائد شوقي رُقبة الصائم هلال العيد، ونعلم أنه سيكون الشاعر الذي يجري ولا يُجرى معه. نعم، كنت إلى ذلك الحين أرجح عليه محمود سامي البارودي، ولا أرى أحدًا يعلو علوه في المتأخرين، وقد يُلَزَّ في قرن واحد مع أفصح المتقدمين» كما يقول الأمير شكيب.

وبقي الأمير يتحجّن الفرص لمعرفة شخصيته، إلى أن كانت سنة ١٨٩٢م، إذ ذهب من «الآستانة» إلى فرنسا للسياحة والاستشفاء.

كان أحمد شوقي يدرس الحقوق في مونيخ، وفي أثناء العطلة المدرسية جاء إلى «باريس» ومعه رفيق اسمه دولاور، وجمعتهم المصادفة في «الحيّ اللاتيني» مع الأمير شكيب، وتعارفا، وتكرار اللقاءات أصبحا كأخوين يجتمعان كل يوم مرّة، بل مرتين، وكانت أكثر لقاءاتهما في مقهى داركور Dharcourt. وكان الأمير أول من أشار عليه بأن يجمع قصائده في ديوان يسير في الأقطار، فسأله شوقي: وأيّ أسم أعطيه؟ فقال له: سمّه بالشوقيات نسبةً إليك. فلما جمع ديوانه أطلق عليه «الشوقيات»، وقد أشار شوقي إلى هذه القصّة في ديوانه، الطبعة الأولى، سنة ١٨٩٨ إذ قال: «جمعتني باريس في أيام الصبا بالأمير شكيب، وأنا يومئذٍ في طلب العلم، والأمير، حفظه الله، في التماس الشفاء، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة. وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبار، وكان الأمير يقرأ ما يرد عليه منها منشورًا في صحف مصر، فتمنى أن تكون لي يومًا مجموعة. ثمّ تمنى عليّ إذا هي ظهرت أن أسميها «الشوقيات»، ثمّ انقضت تلك المدّة، فكانها حلم في الكرى أو خلسة المُختلس، أو هي كما قلت:

صَحبتُ شَكيبًا برهَةً لم يُفْز بها
سِوَايَ عَلَيَّ أَنَّ الصَّحَابَ كَثِيرُ
حَرَصتُ عَلَيَّهَا أَنَّهُ ثُمَّ أَنَّهُ
كَمَا صَنَّ بِالْمَاسِ الْكَرِيمِ خَبِيرُ
فَلَمَّا تَسَاقِينَا الْوَفَاءَ وَتَمَّ لِي
وِدَادُ عَلَيَّ كُلِّ الْوِدَادِ أَمِيرُ
تَفَرَّقَ جَسْمِي فِي الْبِلَادِ وَجَسْمُهُ
وَلَمْ يَتَفَرَّقْ خَاطِرُ وَضَمِيرُ

هذا أصل التسمية سبقت به إشارة لا تخالف، ودفعت إليه طاعة واجبة، وأنا بين هاتين هدف للقال والقليل، يظنّ بي نسبة الأثر الضئيل إلى الاسم القليل.

ومن غريب المصادفات أنه في سنة ١٩٢٦ تلاقى الأمير و شوقي في "باريس" مرّة ثانية، إذ زاره في فندق "ماجستيك" لإلقاء التحيّة عليه، فردّ له الأمير الزيارة في فندق كان نازلاً به في الحيّ اللاتيني، فسأل عنه فقيل له إنّه خرج إلى النزهة. وكان هذا الفندق يقع على مسافة مائة متر من مقهى داركور، فذهب الأمير إليه، فوجد شوقي جالساً فيه ومعه مطربه الأثير محمّد عبد الوهّاب، وإذا بالأمير يستعيد الذكريات، يوم كان يجلس وشوقي في هذا المقهى منذ ستّة وثلاثين حَولاً.

فقال لشوقي: أتدري كم سنة مضت على اجتماعنا في هذا المقهى؟

فقال له شوقي: لا أدري لِمَ تَمَسَّكَ بهذه التواريخ؟

فضحك الأمير، وعرف أنه ضاق صدره من هذه الذكرى. وفي أثناء اللقاء الأول بينهما، تذاكرا في أمور كثيرة، ولكن أهمّها كان الحديث عن اشعر.

وبقي هو وشوقي يتبادلان عواطف الإخاء والودّ مدّة شهر من الزمن، إلى أن حان وقت إيابه إلى الشرق، فودّعه وداع الأخ لأخيه، وفارقه فراق الصفيّ لَمَن يَصَافِيهِ.

وأرسل إليه مرّة من "بيروت" صورته الفوتوغرافيّة، وكتب تحتها:

لئن كنتَ أحمدَ شوقي إليَّ
فما زلتَ أحمدُ شوقي إليك
رعى لك قلبي وداداً به
أضنُّ على الكلِّ إلا عليك

ويقول الأمير في كتابه عن أحمد شوقي:

"... ومن نِعَمَ اللهُ عَلَيَّ أَنَّهُ عَافَانِي مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ الَّذِي قَدْ يُبْتَلَى بِهِ الْكَثِيرُونَ، وَلَا سِيَّامَا مِنْ رِجَالِ الْأَدَبِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَتَعَقَّبُ وَيَتَرَقَّبُ، حَتَّى يَجِدَ لِأَخِيهِ غَلْطَةَ يَبْرُدُ

غلته بتكرارها وتنبيه الأفكار إليها. وأنا لم أكن حاسداً لشوقي، ولا كافياً إياه حسدي ونفاستي وغصتي برفيع مقامه فحسب، بل كنت مفتخرًا به، فريحاً بنوغيه، سعيداً بعبقريته، أجده من حسنات هذا الزمان الكبرى، ولا تتاح لي الفرصة للإتيان بذكره، أو للاستشهاد بشعره إلاّ تورّدتها. وقد كان يبدو لي من كتبه إليّ أنّ ذلك يروقه، ولا سيّما عندما كان في أول ميدانه ولم يكن أحرز ما أحرزه فيما بعد من الشهرة الطائفة والزعامة القاهرة. وقد كان يُفضي بما يشعر به من افتتاني به إلى خليله وخليلي معاً، شاعر القطرين وثالث القمرين، خليل بك المطران، فكان الخليل يقول له: "إنّ شكيب لا يحسدك ولا يحسد أحدًا، ولذلك تراه دائماً مفتخرًا بك". ولمّا نشر الأمير كتابه "في تاريخ الأندلس" تذيلاً على رواية (آخر بني سراج) للفيكونت شاتوبريان، ختم ذلك الكتاب بفصل في حالة الشرق وما آل إليه، واستشهد لشوقي بأبيات ذكر بمناسبة أنها شاعر العصر، وهي:

وذا دلال من بني الروم حولها	إذا ما تبدّت إخوة سبعة مُردُّ
عنيّتُ بها حتّى التقينا فهزّها	فتى عربيّ ملء بُردته مجدُّ
فقلتُ أطيبُ بعد عُسرٍ وشدةٍ	فقلتُ نعم مسكُ الأحاديثِ والندُّ
عطلنا من النُعمى وطُوقَ غيرُنا	تداولتِ الأيامُ وانتقلَ العقدُ
وما ضاعتِ الدنيا علينا وحُسْنُها	ولكن عن أغصانه رحلَ الوردُ

وكانت بين الأمير وأحمد شوقي مراسلات ومكاتبات كثيرة، لكنّ معظمها "ضاع بين الأوراق والطرّوس المكتوبة"، كما يقول الأمير، ضمن صناديق عديدة تشتمل على مئات الأوراق. ومن هذه المكاتيب رسالة مؤرّخة في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧، يقول له فيها:

أميري الحبيب الكريم،

"سلام الله العليّ العظيم على جناب ذلك الكريم. وبعد، فإنّ أخي بيومي بك الذي يتقدّم إليك برسالتني هذه، هو رجل كلّه أدب، وإن لم يكن من رجال الأدب، وقد عزم على أن يقيم بيروت أياماً معدودة، وأبى إلاّ أن أدله على علّمها ومنازلها، والأثر الفخم الجليل من آثارها، وهو أنت، وها قد دلّته وإليك أرسلته، وأنا أغبطه بهذه الوفادة وأحسده على تلك السعادة".

المخلص
أحمد شوقي

وعندما جاء شوقي مرة إلى سورية وصل إلى «عاليه»، وكان الأمير مصطافاً في «صوفر»، فبعثوا إليه يقولون: إن شوقي في عاليه، وإنه يريد مشاهدتك. وصادف أنه كان في ذلك اليوم ملتات المزاج، فبعث إليه بأن ينتظره وأن يكون في الغد عنده. وفي اليوم الثاني بكر إليه وذكر له سبب تأخره، فقال له على سبيل المداعبة: رجوت أن تكون كاذباً ولا تكون مريضاً. فقال له الأمير: المرض أحب إليّ من الكذب. ثم دعاه إلى صوفر لزيارته. وقبل ذلك كان شوقي في «الآستانة»، فحصلت معارفة بينه والأمير مصطفى أرسلان، عندما كان يصطاف في تلك العاصمة، فأحبَّ الأمير مصطفى شوقي كثيراً وكانا يتجالسان ساعات طوالاً، وقد ارتاح كلٌّ منهما إلى الآخر.

ولما كان شوقي في «عاليه» سأله أحد أعيان جبل لبنان قائلاً: «بلغنا أنك لقيت الأمير في الآستانة». فأجابه شوقي: «ده (أمير؟ ده ملك!) قالها وهو ملاّن إعجاباً بالأمير مصطفى. وكان هذا دلالة من شوقي على أنه أحبَّ الأمير مصطفى محبة مقرونة بالإعجاب.

وذهب الأمير إلى مصر في سنة ١٩٢١، وبقي فيها شهوراً، فتغافل شوقي عن زيارته، أو الاجتماع به، لأكثر من أسبوعين، ولم يعلم الأمير سبباً لذلك. وفي هذا الصدد، يعطي الأمير تفسيرات عن هذه الجفوة التي لا سبب لها فيقول: أهي بسبب مكانته من الجناب الخديوي، وكثرة ما رأى من احتفال سيّده به؟ أم جاء من ألقى في أذنه أن الأمير سيزاحمه في محله من القرب للجناب العالي؟ وفي أحد الأيام، أخذ الأمير القلم وكتب إلى شوقي:

أحِنُّ إلى شوقي وأهوى لقاءهُ	وأصبو ولكن ما إليه وصولُ
ويخبرني قلبي بأن فؤادهُ	كما كان لكن يعتريه ذهولُ
ووالله ما يَمُمْتُ مصرَ وفوقها	يدانيه عندي صاحب وخليلُ
فشوقي إلى شوقي بقدر محبتي	وعندي حسابٌ للعتاب طويلُ

فلم يجب شوقي على هذا الخطاب لا بشعر ولا بثر ولا بفعل.

وفي أحد الأيام زار الأمير شكيب خليل مطران، وكان يعلم المودة التي بينهما، فكاشفه بما في نفسه من أمر شوقي قائلاً له: إنّه لا شيء يمكنه أن يكدر صفو ما بيني وبين شوقي من المودة، وإنني هنا من شهر وشوقي لم يتكرّم بزيارتي. فقال له خليل: لا يكن في نفسك شيء

(١) هذه باللهجة المصرية.

من هذه النبوة، فشوقي له من هذا القبيل الشيء الكثير، ولكننا نحن لا ينبغي أن نحمل ذهوله هذا على محمل الهجران.

وذهب الخليل وجاء في اليوم التالي، وقال للأمير: لنذهب إلى فندق كونتيننتال. فسارا معاً إلى هناك وإذا بشوقي ينتظرهما، فجلس الثلاثة نحو الساعتين من الزمن وهم يتسامرون. وفي ذلك المساء جرى تمثيل رواية صلاح الدين الأيوبي، ويعود ريع تلك الحفلة إلى الإعانات الخاصة بجرحى طرابلس الغرب، فالتفت الخليل إلى الاثنين قائلاً: دعاني أتلو عليكما القصيدة التي هيأتها لهذه الليلة. فقرأ لهما القصيدة التي مطلعها:

كم بطلٍ ماتَ ولم يسمِرِ تحت هلالِ الرحمةِ الأحمرِ

وأتى عليها كلها. وقد أبدى الأمير ملاحظة على بيت من تلك القصيدة، فأسرع الخليل إلى تغييره. فأما الأمير وشوقي، فلم ينظما شيئاً لتلك الحفلة، وقد سألهما الخليل: هل ستقولان شيئاً؟ فأجاب كلّ منهما بالسلب.

وبعد أن انصرف الثلاثة من المكان، ذهب الأمير إلى مركز الهلال الأحمر الذي ستجري فيه الحفلة، وكان المكان خالياً. فاستغلّ الأمير هذا السكون وبدأ نظم بضعة أبيات، ولكنّ الوحي انصبّ عليه واثالت الأبيات كأنها تنحدر من صَبَبٍ، فما مضت ساعة إلا وفي يده قصيدة تامة.

وكذلك أصاب شوقي ما أصاب الأمير، فانتبذ موضع مُناجاة ونظّم قصيدة. ولما جاء الثلاثة إلى ملهى الأوبرا، كان في جيب كلّ واحد منهم قصيدة ليلقيها في الاحتفال.

وكان شعور شوقي نحو الأمير أنه قال لأحد أصحابه بعد الانصراف، إنه كان في أثناء إنشاد المنشد لقصيدته لا يفكر إلا بالأمير. وقال الأمير لأحد أصحابه إنه كان متمثلاً شوقي من أول إنشاده إلى آخره.

وذهب الأمير بعد أيام إلى «برقة»، وبقي في الجهاد ثمانية أشهر، وعندما عاد في شهر رمضان إلى الإسكندرية، نزل ضيفاً على جناب الخديوي في سراي رأس التين.

وشاهد الأمير شوقي نهار العيد، عندما اكتظّ السراي بوفود المهتئين. وبعدها لم يشاهد شوقي إلا في الأستانة، مع بداية نشوب الحرب الكبرى.



وللأمير شكيب رأي في صناعة الشعر، وفي شعر شوقي بالذات وإبداعه فيه. فهو يقول عن ذلك: ومن المعلوم أن صاحب الصنعة إنما يتقدم فيها إذا كان راغباً لا متكلفاً ومغرمًا لا متبرمًا، وكان مجتهدًا أن يُبدع فيها لأجل الإبداع ولأجل سبق غيره من الصناع. فأما شوقي فكان كلّه شعراً، قد وقف نفسه على هذه الصنعة، لا يهّمه أن يُتقن غيرها وصارت له غرامًا. فهو آناء ليله، يفكر في الشعر وأطراف نهاره، يستنبط المعاني الغربية، وكلّما عنّ له معنى قيّده، وكلّما انفتق في ذهنه مرمى أحرزه وهياً له قالباً رائعاً، حتّى إذا جاءت أول فرصة أودعه إياها. ومن أهمّ ما يغفل عنه الناس، وهو من أحقّ الحقائق، أن نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر، وأنها في أوقات الصفاء قد تُبرم قوانين وتخلق معاني، لا تتأتى لها في جميع الأحيان. وربّما لاح في فكر الأديب خاطر في إحدى السويعات، لو استرسل فيه لأتى فيه بالعجائب، على حين أنه إذا نشده في وقت آخر، وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء، لوجد زنده فيه صلداً، ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه، يطمع أن يقتنص تلك الشوارد التي كانت بين يديه فإذا هي الآن لا تطيعه، ومنها ما ذهب غير مُعاود، ومنها ما عصى غير مقرن. ولذلك كان يجب على الأديب شفاف الطبع، أنه إذا عنّ له في سويعات الصفاء معنى مبتكر، أو خاطر شريف، ووجد هذا الموضوع مثلاً عليه، أن يسرع إلى قيد أوابده، ويأخذ القلم فيحرّره، وإذا كان شعراً نظمه، وإذا كان نثرًا دبجه، حتّى لا يفوته فيما بعد. فإنّ الأفكار من جملة حظوظ الدنيا، تهبّ أحياناً وتركد أحياناً، فإذا هبت مرّة، وجب اغتنامها ولم يجز إهمالها على نيّة أن يعاد إليها مرّة أخرى. وإنّ الأفكار نظير الأقدار، ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كلّ حين، وقد تفيض على الرؤوس أشعة إذا ولّت تعذّر استردادها. فاللييب اللييب هو الذي يقنص الشاردة لأول سنوحها، ولا يدعها تذهب على أمل أنه يصطادها فيما بعد، فإنّها إذا شردت قد تفوت والفلاة طويلة عريضة، فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء.

وقد كان شوقي ممّن يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، وممّن يقف في المظان التي تختلف إليها الطرائد، فكلمًا عنّ سانح رمى بسهمه، فلهذا عظم توفيقه في الصيد وجاء بما لم يجيء به غيره، ولم يقل لنفسه في وقت من الأوقات: دعينا من هذا الآن لأنّ لنا ما يشغلنا عنه وسنعود إليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المبتكر هدفًا له كيفما عنّ وأنى عرض، فلا يكاد يتراءى له شيء إلا وترّ قوسه وفوق سهمه.

وهكذا ينبغي أن يكون الشاعر، إذا أراد أن يجيد وأن يقول فيه الناس: مَنْ ذا قالها؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة، أو الاقتصاد، أو الصناعة، أو الفقه، أو شيئاً آخر من مناحي الحياة، فوق الشعر، بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأول، وأن تدور حياته من حوله. فجميع المشاغل تكون له فُضلة، ويكون الشعر هو العمدة، ولهذا قال خليل مطران: إنَّ شوقي كان يفكّر في الشعر قاعداً، وقائماً، وحاضراً، وبادياً، وسائراً، وسارياً، وفي المركبة وماشياً إلى غير ذلك. فقد قام نحو الشعر بالواجب الذي لم أقم به أنا، ولا غيري ممّن جعل الشعر فُضلة عمله، ولم يقله إلا عند الضرورة. قد أعطى شوقي نفسه للشعر، فأعطاه الشعر ما لم يُعطِ غيره في هذا العصر.



وفي عام ١٩٢٥، بعث الأمير شكيب بكلمة عن قصيدة شوقي «الدمشقية» نشرتها مجلة «الزهراء» في الجزء الثاني، ١٥ صفر، سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م، وقد أعجبه القصيدة إعجاباً شديداً، بما فيها من المرامي القومية والمنازع الوطنية، التي تزيد شوقي حباً وإكباراً عند أمته العربية، والتي كان مطلعها:

قُمْ نَاجِ جَلِّقْ وَانشِدْ رَسْمَ مَنْ بَانُوا مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثٌ وَأَزْمَانُ
هَذَا الْأَدِيمُ كِتَابٌ لَا كِفَاءَ لَهُ رَثُّ الصَّحَائِفِ، بَاقٍ مِنْهُ عَنَوَانُ

وهنا، نصّ ما قاله الأمير في تلك القصيدة:

ماذا يقول الإنسان عن شعر شوقي بأجمعه، فحسب الإنسان أن يقول إنه شعر شوقي أو ينشد قول شوقي نفسه:

مَا كَلَامُ الْأَنَامِ فِي الشَّمْسِ إِلَّا أَنهَا الشَّمْسُ لَيْسَ فِيهَا كَلَامُ

وقصيدته التي قالها مؤخراً في دمشق، لا أتوخى وصفها من حيث أنها شعر، لأنها من النسج نفسه ومن القريحة بعينها التي لا تسيل إلا بالبدايع، والتي هي كالغيث لا يُدرى أوله خيرٌ أم آخره. ولكنني معجب بما فيها من المرامي القومية والمنازع الوطنية، التي أثبتت لنا ما كنا نأمله من مبادئ شاعرنا الأكبر، التي تزيده حباً ومكانة لدى الأمة العربية، وتبين به عن غيره من المصريين، الذين لمّا دعاهم الفرنسيين في الصيف الماضي إلى اجتماع عقوده في لبنان، تقارضوا وإياهم الثناء، وتكلّموا عن سوريا في كلّ شيء إلا عن استقلال سوريا...

أما شوقي، فحقق أنه كما ضارع أبا تمام والمنتبي في الشعر، فقد ضارعهما في الحمية على قومه، وأنه بالفعل شاعر أمة.

انظر إلى قوله:

حتى انحدرتُ إلى فيحاء وارفةٍ فيها الندى وبها طيٌّ وشيبانُ
نزلت فيها بفتيانٍ جحاحجة^(١) آباؤهم في شباب الدهر غسانُ
بيض الأسيرةِ باقٍ فيهم صيدٌ من عبد شمس وإن لم تبقَ تيجانُ

فهل تجري هذه الألفاظ على لسان لم يكن وراءه قلب مُفعم بالعربية؟

ثمّ انظر كيف يُثير همم الشاميين إلى تحرير وطنهم، ونفض غبار السيطرة الأجنبية عن أنفسهم، وهم أهل السماحة والسّجاجة، فهو يقول:

ما فوق راحتكم يومَ السماح يدٌ ولا كأوطانكم في البرِّ أوطانُ
خميلةُ الله وشتّها يداه لكم فهل لها قيّمٌ منكم وجنانُ

نعم إن شوقي يقول: إنَّ الشام هي جنةُ الله في أرضه، لكنّه يريد أن يكون جنانها منها لا غريباً عنها، ثمّ إنّه يقول ولا يتلجلج:

شيدوا لها المُلْكُ وابنوا ركنَ دولتها فالملكُ غرسٌ وتجديدٌ وبنيانُ

نعم والله ما الملك إلا الغرس والتجديد، وإدارة الحائط حول ما غرست وجددت. ثمّ إنه يُعرّف الملك بقوله:

الملك أن تعملوا ما اسطعتمُ عملاً وأن يبين على الأعمال إتقانُ

أي أن تصلوا في العمل إلى الدرجة القصوى، فلا تدخروا مجهوداً ولا تحجموا عن مستطاع، فإنّ الممالك أعمال لا مال ولا بدّ لكم من أن تجودوا الأعمال حتى يظهر عليها أثر الكمال.

ثمّ كأنه لحظّ ما في برّ الشام من خلق الكرم وفرط السخاء، منحصرًا ذلك في الولايم والمآذب، والمطاعم والمشارب، حتى إذا جيء إلى مصلحة وطنية ومشروع عام، كزّت الأيدي

(١) جحاحج، مفرد ما جحجج: وهو السيد المسارع إلى المكارم.

وجمدت النفوس، واثقل من عهده أسرع الناس مهزّة، فقال:

الملك أن تُخَرِّجَ الأموال ناشطة لمطلب فيه إصلاح وعمرانُ

فعساک تُسمع الصُّمَّ يا شوقي، ويكون كلامك صُورَ إسرائيل^(١)!

ثمَّ حثَّ الناس على العلم والأدب، لأنهما من لوازم الملك وأبنية الدول. فقال:

الملك تحت لسانِ حوله أدبٌ وتحت عقلِ على جنبه عرفانُ

لغة ذات آداب، وعلمان مطبوع ومسموع، ثمَّ قال:

الملك أن تتلاقوا في هوى وطنٍ تفرقت فيها أجناسٌ وأديانُ

وهي النصيحة الكبرى والعروة الوثقى، التي لا بدَّ منها لإحراز الملك وتأسيس

الاستقلال، ولا سيَّما في قطر كثرت أجناسه وتعدّدت أديان أهله. ثمَّ قال:

والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفةً أو حكمةً فهو تقطيع وأوزانُ

أبى شوقي، بحمىة نفسه وجائشة صدره، أن يجعل قصيدته عن دمشق أوصاف جنان،

وذكرى روح وريحان، والترنم بأفواف نبات هي أصباغ وألوان، دون أن يذكر قومه بمجدهم

السالف، ويعطف عليهم في بؤسهم الحاضر، ويبيدي لهم رأيه فيما يجب أن يعملوه ليلموا

شعثهم. وبمثل هذا تتفاضل الرجال، وتتفاوت الآماد في الأخلاق. ثمَّ صرَّح بالتضامن، الذي

كنا نحبُّ أن نسمعه من كثير من المصريين، ونادى بالأخوة بين الناطقين بالضاد والمتجاورين

في الشرق نداءً أعلى قيمة عندنا، إنَّه صُدَّاح بلبل وادي النيل والطائر المحكي في الشرق كلّه.

وأشار إلى أنه إن لم يكن لنا جامعة سوى تشابه الحالات، وكون السلسلة واحدة لكفى، فقال:

ونحنُ في الشرق والفصحى بنورِ حِمٍ ونحن في الجُرح والآلام أخوانُ

كانت هذه القصيدة برهاناً لشوقي على أنه في الحمىة القومية والنصرة العربية، كما هو

في الملكة الشعرية والعبقرية البيانية ندُّ لأبي تمام في قصائده في وصف غزوات المعتصم،

وللمنتبى في وصفه غارات سيف الدولة، وأنه لا يكتفي بأن يكون عربي اللسان حتّى يكون

عربي الجنان. والله ما أشجى قوله في هذه القصيدة:

بنو أمية للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا

(١) هو الملاك الذي ينفخ في الصور يوم القيامة.

بالأمس قمتُ على الزهراء أندبهم
واليوم دمعي على الفيحاء هتَّانُ
لولا دمشق لَمَا كانتْ طليطلةُ
ولا زهت بني العباس بَعدانُ

هنا مجرى السوابق ومجرُّ حديث الغابر، ومفاض العبرات من المهاجر، ومجلى روح شوقي بتمامها بين ذلك الأول وهذا الآخر.

ثمَّ يقول:

تغيَّر المسجدُ المحزون واختلفت
على المنابر أحرارٌ وعبدانُ
فلا الأذان أذانٌ في منارتهِ
إذا تعالَى ولا الآذان آذانُ
كنتُ أحبُّ أن أقول هنا:
إذا الأذان أذانٌ في منارتهِ
وقد تعالَى فما الآذان آذانُ

لأنَّ الأذان باقٍ كما هو في الواقع، ولكن السامعين اليوم غير السامعين بالأمس. والخاصة، إننا نسأل الله أن لا يسكت "هذا الطائر الغرد"، والشاعر الفرد الذي يُسلي العرب عن مصائبهم، وينهض بهم إلى استئناف معاليهم واسترداد ماضيهم.

شكيب أرسلان

جنيف، في ٩ سبتمبر سنة ١٩٢٥

وأسعدته الحظُّ بلقاء شوقي، في سنة ١٩٢٦ في باريس، حيث كان شوقي يصطاف في أوروبا، وكان الأمير مع إحسان الجابري يفاوضان الحكومة الفرنسية بخصوص القضية السورية. وكانا نازلين في فندق "ماجستيك"، وفي ذات يوم رأى الأمير شوقي بدون سابق علم، وفرح به لأنه لم يجتمع به منذ بضع عشرة سنة. وتكررت اللقاءات في مقهى "داركور" الذي كان مثابة لهما في السنين الخاليات.

عاد شوقي إلى مصر، وذهب الأمير إلى سويسرا. ومنذ ذلك الوقت لم يتيسر للأمير الاجتماع بشوقي، لأنَّ الأمير ممنوع من دخول مصر، ولأنَّ شوقي لم يأتِ إلى سويسرا. وعندما ذهب الأمير إلى الحج، في سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م، مرَّ بالسويس حيث سمحت له الحكومة المصرية بعد تدخلات الإقامة بضعه أيام فيها، فأُتيح له أن يشاهد والدته وأن يشاهد

أيضاً عدداً كبيراً من أصدقائه منهم: أحمد زكي باشا وحافظ عوض، صاحب "كوكب الشرق"، وأسعد داغر، ومحمد علي الطاهر، صاحب "الشورى"، ونسيم صبيعة، وأحمد شوقي. وهذا الأخير مكث عنده النهار بكامله، وكان هذا آخر لقاء بينهما، إذ إن شوقي لقي وجه ربه، في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١هـ - ١٩٣٢م. وحدث قبل ذلك في عام ١٩٢٦ أن قرّرت مصر الاحتفال بيوبيل أحمد شوقي الخمسين، ففكر الأمير في أن يرسل قصيدة تُتلى في عرس شوقي الأدبي. وكان الأمير في طريقه إلى "نيويورك" ليذهب بعدها إلى "دترويت ميتشغان"، لإلقاء محاضرة بدعوة من حزب سورية الجديدة. وعند وصول الأمير إلى نيويورك، بعث بقصيدة تلاها عنه خليل مطران في الاحتفال، وقد عنوانها "إلى الأخ القديم أحمد شوقي بك"، نذكر منها المطلع:

نادِ القريحة ما استطعت نداءها	إنَّ الحقوق لتقتضيك أداها
مهما ينلُ منك الجمود قاناً من	إعجاز أحمد ما يفجر ماءها
مهما تراكمت الغيوم بأفقها	فاليوم عندك ما يُعيد جلاءها
لا تعتذر عنها بكرُّ نوائبِ	سدّت عليها نهجها وسواءها
فأهمُّ ما همّت السحاب إذا مرّت ^(١)	هُوج العواصف درّها وسخاءها



وبينما كان الأمير في أحد الأيام يقرأ جريدة "الطان Le Temps" الفرنسية، وقعت عيناه في الجريدة على خبر وفاة أمير الشعر، فاضطربت أعصابه وساءه الخبر، إذ كانت وفاته في منتصف الساعة الرابعة من صباح الجمعة، ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢. وقد رثاه الأمير بقصيدة طويلة، منها هذه الأبيات:

هذا أمير الشعر غير مُدافعٍ	في الشرق أجمع منذ فتق لهاته
لو كان حيٌّ بعد وحي "محمد"	لانشقَّ ذاك الوحي عن آياته
السحرُ في نفثاته والزهرُ في	نَفحاته والدَّهرُ بعضُ روائه
رَقَّتْ لنغمته القلوبُ فكيفما	غنى بها رَقَصَتْ على نبراته

(١) مَرَى (الناقة): مَسَحَ ضَرْعَهَا لَتُدْرَ.

فيقودها قود الغلام لِسَاتِهِ
إلا أصاب صميمها بحصّاته

تغدو المعاني العُضْم سُمسَ مُقَادَةٍ
ما رامَ شارِدَ حِكْمَةٍ فِي نَظْمِهِ

وكان الأمير شكيب أرسلان، قد وعد إسعاف الناشيبي بأن ينشر قصصه وحكاياته وقصائده وذكرياته مع أحمد شوقي، فأبرّ بهذا الوعد بإصداره كتاب "شوقي أو صداقة أربعين سنة"، الذي صدر عن عيسى الحلبي، مصر، ١٩٣٦.



وعاد الأمير شكيب أرسلان إلى لبنان بعد غياب قسري، متعبًا منهكًا في أواخر أيامه. بعد قضاء فترة طويلة بعيدًا عن أمه وأهله وأصدقائه، متنقلًا في بلاد الغرب بسبب ملاحقة الاستعمار له، وذلك نهار الأربعاء، في ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٦، على ظهر الباخرة "بروفيدانس" مع شقيقه الأمير عادل. وكم كان سروره عظيمًا، عندما وطئت قدماه أرض الوطن. وبعد شهرين من وصوله ما لبث أن فارق الحياة، في ٧ كانون الأول ١٩٤٦ على أثر تصلّب الشرايين وإجهاد النفس في الردّ على الرسائل، واستقبال الزائرين وفجيئته بأخبار الحرب في فلسطين بين العرب واليهود ومؤامرة الدول الكبرى عليها.

نجيب البعيني



مقدمة

ما حال حولان على انتقال شوقي، رحمه الله إلى عالم الخلود، حتى رأيت الناس كأنهم قد نسوا أمير الشعراء. ومن عادة الناس أنهم مهما كان الفائق عظيم القدر، تناسوه سريعاً ونشدوا غيره، على حد ما قال أحد الشعراء:

في الحال يعتاضون منه بغيره
الورد كان العندليب حليفه
ويعود ربُّ الحزن غير حزين
لما انقضى غنى على النسرين

ولكنني أرى مثل شوقي جديراً، كلما مضت عليه السنون بأن يزداد حياة في النفوس، ويعظم قدراً في الصدور، لأنَّ الخلود إنما يكون لمثله. وهل المتنبّي اليوم أقلّ حياة بروحه، ممّا كان في عصره وهو حيّ بجسمه؟ وهل صاحب الشوقيّات التي شرّقت وغرّبت وأحزنت وأطربت، ورواها الحادي والعادي وامتلات بها الحواضر والبوادي، يجوز أن ينساه ناطق بالضاد أو يزهّد فيه ضارب من الأدب بسهم ولو في برك الغماد^(١)؟

وقد كنت لما فجع الأدب العربي، بطي هذه الصحيفة البشرية العبقريّة التي يقال لها أحمد شوقي، وعدت بأن أنشر عنه وعن ذكرياتي معه كتاباً أسمّيه "شوقي أو صداقة أربعين سنة"، وحالت الأشغال والأسفار وما يتقاذفني من عوامل الأقدار دون إخراج هذا الكتاب الذي لا يزال يحكّ في صدري. ولما مررت على فلسطين في هذا الصيف، قافلاً من جزيرة العرب، وتلاقيت مع صديقي سراج العرب وطراز الأدب، الأستاذ إسعاف النشاشيبي حفظه الله، وهو من عشاق أدب شوقي والمولعين بحفظ آثاره وإحياء تذكّاره. استنجزني ما كان من وعدي من وضع هذه الرسالة الشوقية، ولما اعتذرت له بما أنا فيه من مشاغل، ومشاده^(٢) أجبني: إنَّ الأليق بوفائك والأخلق بأخلاقك، هو أن تقدّم هذه الرسالة على غيرها من الرسائل، وأن تبادر بإنجاز وعد وعده صريحاً في حقّ صديقك وأخيك، الذي ذكره عندك مقدّس وقدره لديك مُرجّب^(٣). فوجدت كلامه في محلّه، وعوّلت على أن لا أماطل في هذا الدين الذي يجب إيفاؤه لأهله.

(١) برك الغماد: هو بقعة في جهنم، وأراد بها الكاتب: الموضع البعيد.

(٢) مشاد: مشاغل.

(٣) مُرجّب: مُعظّم.

- زيارتي الأولى لمصر -

سنة ١٨٩٠، كانت أول قدمة لي إلى مصر، وكنت بين العشرين والواحدة والعشرين من العمر، فمكثت شَيْعَ شهر^(١) في الإسكندرية ثمَّ جئت إلى مصر، وكان أكثر اجتماعنا ذلك الوقت بأستاذنا الإمام الشيخ محمد عبده وبرهظة المعهودين، سعد أفندي زغلول وأخيه فتحي، والشيخ علي الليثي، والشيخ عبد الكريم سلمان، وابراهيم أفندي اللقاني، وحفني أفندي ناصف، والسيد أحمد محمود من الرحمانية، والسيد ابراهيم الوكيل من دمنهور، والشيخ علي يوسف لأول ظهور (المؤيد)، وأحمد زكي باشا الذي هو خاتمة مَنْ أتذكره من رجال تلك الحلقة، رحمهم الله أجمع. وكانت اجتماعاتنا متواصلة وأسماونا متطاولة ومذاكراتنا للقاصي والداني شاملة، ولكننا لم نكن نسمع في ذلك الوقت بشخص، يقال له "شوقي"، ولا أحسنا له ركزاً^(٢).

ولما برحت مصر، كان المرحوم الخديوي توفيق في الإسكندرية، فقال لي أستاذنا الشيخ محمد عبده إنه لا يكون خطأ إذا ذهبت إلى سراي رأس التين، وودعت الجنب العالي الخديوي، ونظمت له بعض الأبيات لأنَّ من عادة الشعراء أن يتحفوا بشعرهم الملوك. وكان الأستاذ، رحمه الله لا يرغبني في الشعر، وما عهدته أوصاني بنظم شيء إلا مرتين لا غير، إحداها عندما طبعت ديواني المسمى "الباكورة"، وهو مجموع ما نظمته من سنّ الرابعة عشرة إلى السابعة عشرة من العمر. فلما أطلع عليه في بيروت، قال لي لأبعث منه بنسخة إلى المرحوم عبد الله باشا فكري، وكان من أعزّ أصدقائه. وأن أبعث مع النسخة بأبيات تناسب المقام، فأرسلت نسخة من الباكورة إلى عبد الله باشا، ومعها أبيات لا أتذكرها جميعاً وليست عندي الآن صورتها، وإنما أذكر منها ما يلي:

بذذت الناس في نظم ونشر
وفقت الخلق من بدو وحضر
فكيف يقوم عندك نزر شعر
يذيب الرعب منه كل شطر

ولما كان ديواني، إذ ذاك خالياً تقريباً من الغزل والتشبيب، أشرت إلى هذا المعنى بقولي:

جعلت القول في سيف ورمح
وعفت النظم في قدٍ وخصر

(١) شَيْعَ شهر: مقدار شهر.

(٢) الرِّكْز: الحِس، والمقصود: لم نشعر بوجوده.

ولي نفسٌ فداؤك نفس حُرٍ
يكونُ بمدحِ (عبدِ اللهِ فِكْري)

فإني عاشقٌ غرُّرَ المعالي
إذا فكَّرتُ يوماً في كلامٍ

فتلقَى عبدالله باشا، رحمه الله (باكورتى) والأبيات التي تصحبها بأحسن قبول، فأجاب على الشعر بقصيدة من نظمه المنسجم المهلهل رقة وسلاسة، فهو يقول:

على العشاق لا كُبر وكِبرِ
مَشيبٌ في العذار أقامَ عُذري
بدائعُ نظمها نفثاتِ سحرِ
ولبنان الحيا مُنهلٌ قَطْرِ
ويمزج تُربَ أرضيها بتيرِ
زمانا مرَّ فيها غير مُرِّ

أنتُ تختالُ في حَبْرٍ وحَبْرِ
منعمة الشبيبة لم يرُعها
لقد وافتُ على سحر تُريني
الأحيا رُبى بيروتَ عني
بدرٌ يملأُ الأرجاءَ دُرًّا
وحيا من بها رَبِّي وحيا

وأظنّ هذه القصيدة منشورة في ديوان عبد الله باشا، وهو يشير إلى تجانفي عن العبث والتشبيب في أبيات أتذكرها:

لعهد صبا وشرخِ شبابِ عُمرِ
على رغم الصبا سفسافَ أمرِ
وتوجبُ هجرَ كلِّ مقالِ هُجرِ^(١)

وإن يلعب فما لعبٌ بعيبِ
ولكنْ تأنفُ الهِمَمُ العوالي
تحرّمُ قربَ أمرٍ فيه إمرُ^(٢)

فأما المرّة الثانية التي أشار فيها شيخنا بالشعر، فهي عندما ذهبت إلى الإسكندرية قاصداً السفر منها إلى الآستانة، فأوصاني أن أقدم إلى الخديوي توفيق أبياتاً. فذهبت إلى رأس التين، وقابلت المرحوم الخديوي توفيق، ولم أنشده الأبيات. وإنما بعد الانصراف، دفعتها إلى قلم المعية السنية. وما مضى يومان قبل أن أبحر إلى الآستانة، حتى رأيت قصيدتي منشورة في جريدة الوقائع المصرية، أي جريدة الحكومة الرسمية. وقد كان الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان، رئيساً لتحرير الوقائع، وكان له قلم سيّال ونثر أشبه بالقطر إذا انثال، فانتهز هذه الفرصة وأورد بمناسبة القصيدة مقدّمة أوسع فيها هذا الناظم ثناء وإطراء. وليس عندي محفوظاً، بكثرة ما تناثر من أوراقى بين المشرق والمغرب عدد الوقائع الذي فيه هذه القصيدة،

(١) الإمر: المُنكر.

(٢) الهُجر: القبيح من الكلام.

وإنما أذكر منها ما يلي:

أقول لنطقي اليوم إن كنت مسعدي
وأنظم من القول النفيس فرائدا
إذا أنا لم أوف المكارم حقها
فلا سُغِفَت لي بالمكارم مُهْجَةٌ
ولا بلغت بي رتبة من مكانة
وأذكرُ علياه وذكر محمد
عزيزُ حمدتُ الدهرَ عند لقائه
ولا غرَو إن حنت لتقبيل كفه
وشاقت له ربّ الرقائق طلعة
ومنها:

لقد كفَّ كفَّ الدهر أصمَّت سِهامُهُ
وردَّ جَمَاح الدهر بعد كُروره
ومنها:

فدُونَكها يا غُرَّة الملكِ غادة
ومن رام من إدراك كُنْهِك غايةً
وآخرها:

وإني إذا أهدي العزيز مدائحي
وإلا فما حاولت إدراك غايةً

إذن أرق أسباب السماء بمصعدِ
تنزل شعري^(١) الأفق في شعر منشدِ
من الشكر في سلك القريض المنضدِ
ولا عزَّ آبائي ولا طاب محتدي
أنالُ بها لقياً العزيز محمدِ
ألذَّ كلام قيل بعد التشهدِ
ومن لقي (التوفيق) للسير يحمدِ
على البعد نفس تلمسُ النجم باليدِ
لعمرك تُذَكِّي الشوق في قلب جَلَمَدِ^(٢)

قلوب بني الأيام من كل مقصدِ
عليهم لعمري قاعداً كل مرصدِ

تميسُ كخُوط^(٣) البانة المتأودِ
يجد غاية ما تذن للوصول تبعدِ

أبوء بصدق القول غير مُفَنَّدِ
بشعري ولا نُظَمُ القصائدِ مقصدي

أي لم أنظم هذا الشعر إلا للقيام بفرض الشكر، على انعطاف الجناب الخديوي نحوي، ولست باغياً على ذلك مكافأة. وبعد أن عرفت شوقي في باريس، وتذاكرنا الشعر والشعراء، وجدته معجباً بقصيدتي التوفيقية هذه، وقال لي: إنها تركت في ذلك رنيناً في وادي النيل.

(١) شعري: كوكب في برج الجوزاء.

(٢) الجَلَمَد: الصخر الصلب.

(٣) الخُوط: الفصن الناعم، يشبهون به غصون البان.

- أول ما قرأت لشوقي

خرجت إذن من مصر، في أواخر سنة ١٨٩٠، وأنا لا أسمع بشاعر اسمه شوقي في مصر. وكنت أوانثذِ أرسل جريدة الأهرام، وكان صاحب الأهرام، يكتابني كثيراً وييني كثيراً من الآراء على ملاحظاتي. وإذا أرسلت إليه بمقالة جعل عنوانها «لأحد الأفاضل السياسيين»، فإذا راجع القارئ أهرام سنة ١٨٩٠، والتي بعدها وجد بقلم «أحد الأفاضل السياسيين» فصولاً سياسية كثيرة. وبينما كنت أطلع الأهرام في ذات يوم، وقع نظري على أبيات لامية في مدح الخديوي توفيق، فيما أذكر قال عنها الأهرام أنها من نظم «أحمد أفندي شوقي»، ولما كان هذا الناظم مجهولاً عندي، لم أشأ أن أضيع وقتي بقراءة تلك الأبيات، فلم أعلم منها كثيراً ولا قليلاً. إلا أنه لم يطل الأمر، حتى قرأت شعراً آخر لهذا الذي يقال له أحمد أفندي شوقي، فجربت هذه المرة أن أقرأه، فلما قرأته لم أمجه، ووجدته من الشعراء الذين يقال فيهم «من حقه أن تسمعه»، فقد قالوا كما لا يخفى:

الشعراء في الزمان أربعه فشاعر يجري ولا يُجري معه
وشاعر ينشد وسط المعمه وشاعر من حقه أن تسمعه
وشاعر من حقه أن تصفعه

ولم يطل الأمر أيضاً، حتى قرأت لأحمد شوقي هذه القصيدة الآتية في مديح الجنب الخديوي:

إنَّ الوشاةَ وإنْ لمْ أُحصِهِمْ عدداً تعلموا الكيدَ من عينيكَ والفندا
لا أخلفَ اللهُ ظنِّي في نواظرهم ماذا رأَتْ بي ممَّا يبعثُ الحسدا
همْ أغضبوكَ فراحَ القدُّ مُشنياً والجفنُ منكسراً والخدُّ مُثقدا
وصادفوا أذناً صغواءً^(١) ليّنةً فأسمعوها الذي لمْ يُسمعوا أحدا
لولا احتراسيَ من عينيكَ قلتُ ألا فانظر بعينيك هل أبقيتَ لي جلدًا
الله في مُهجةٍ أيتمتَ وأحدها ظلماً وما اتَّخذتَ غيرَ الهوى ولدا
وروحِ صَبٍّ أطالَ الحبُّ غربتها يخاف إن رجعت أن تُنكرَ الجسدا

(١) صغواء: صاغية.

وللمواعيد ماءً لا يبُلُّ صدى^(١)

بنظرة وأتخذها في الزمان يدا

إن أسكت الدهر هذا الطائر الغردا

دع المواعيد إني متُّ من ظمًا

بالله ردَّ على العباس شاعره

من للعزیز يُناجي روضَ نعمته

إلى آخر ما قال في ذلك اليوم. فتلوت القصيدة من أولها إلى آخرها، ومن شدة ما طربت لها، أعدت قراءتها مرارًا وعلمت أن هناك شاعرًا مطبوعًا، وأيقنت أن في تلك المغارة أسدًا، وصرت كلما عثرت على شعر لأحمد شوقي أتهافت عليه تهافت الظمان على نيمر الماء، لأنني رأيت فيه الشاعرية بجميع شروطها: النسج الرقيق المتين والأسلوب الرشيق الرصين، اللغة العربية الفصحى التي لا تؤتى من جهة، والمعنى المتناهي في الدقة، اللابس من اللفظ أجمل حلة، والانسجام المطرد من الأول إلى الآخر في سكب واحد وسبك متوارد. فعند ذلك، حكمت بأن هذا الشاعر سيكون من شعراء العصر، وإن لم أصل في الحكم إلى أنه سيكون أمير شعراء العصر. وأذكر الآن أنني كنت أطلعت له على قصيدة قبل هذه في مدح الخديوي توفيق، يهنته فيها بشهر الصيام، لم تكن أقل رقة وانسجامًا من القصيدة الدالية، المار ذكرها وهي التي يقول فيها:

في شكله إن قيلَ بانُ

نُ وما لهنَّ به يدانُ

دَ ففي يديه الخافقانُ

فعمسى يشيرُ الحاجبانُ

مَن لا له في الحُسنِ ثانُ

رُ فإنَّه ملكُ العنانُ

في كلِّ جارحةٍ مكانُ

لاءِ العزیز^(٢) تُكذِّبانُ

لِعُفاته مَبسوطانُ

وعلى مكارمه الضمانُ

ماضي الإشارةِ والبديهةِ والعزيمةِ والجنانُ

يا حُسْنَهُ بين الحِسانُ

كالبدْرِ تأخذه العيو

ملكَ الجوانحِ والفؤا

ومنايَ منه نظرةُ

فيها يُزكي حُسْنَهُ

خَلَّوه يعدلُ أو يَجو

حقَّ الدلالِ لَمَن له

يا أصغريَ بأيِّ آ

ملكُ يدها بالندی

الناسُ تشتترطُ الغنى

(١) صدى: عَطَش شديد.

(٢) (تورية) فالعزیز هو سبحانه وتنزله، وأراد شوقي عزیز مصر.

قالت له الآباءُ كُنْ	في المجدِ ما كُنَّا فكانُ
ولمجدِه من نفسه	نجمٌ تسامى عن مدانُ
وكذا معالي الملكِ تالدها	بطارفيها يُزانُ
عوذت ملكك يا أبا العباس بالسبع المشانُ	والعدل عنوان الأمانُ
ملكٌ بعدلك آمينُ	من لا يدين به يدانُ
مولاي حبك مذهبُ	وأبو حنيفتها الزمانُ
الناس فيه أئمةُ	ل وخير من سمع الأذانُ
يا خير من شهد الهلا	لك فيه عند الله شانُ
بشراك بالشهر الذي	لفةً لعلياك التهانُ
تسعى الموالي فيه مز	هذا هو السهل المنيع فهل سمعت عن ابن هانُ
قدرته ووزنته	ونظمته نظم الجمانُ
وبعثته لك مدحة	تجلو مناقبك الحسانُ
آيات حمد فيك تر	جمها عن القلب اللسانُ
والله ما كذب الفؤا	د ولا أشطّ الترجمانُ

فعندما قرأت هذه القصيدة، وجدتها من النوع المرقص الذي لا يقع نظر أديب عليه، إلا اهتز له طرباً، وراح نشوان. وكما قال هو عن نفسه، كانت أبياته هذه من السهل الممتع، أشبه بشعر البهاء زهير^(١)، لو اندمجت في ديوانه. ولم يقل أحد لقارئ الديوان إنها من نظم شوقي، لكانت حقيقة بشعر البهاء زهير، لا تقل عنه شيئاً. ولو سمعها الحسن بن هانئ لارتضاها لنفسه، ولم يتكبر عليها. أما ابن هانئ الأندلسي، الذي قال فيه المعري إن شعره أشبه برحى تطحن قروناً، فإنه بعيد عن هذا الأسلوب بعد الشرق عن الغرب. ومذ ذاك الوقت، صرنا نترقب قصائد شوقي رقة الصائم هلال العيد، ونعلم أنه سيكون الشاعر الذي يجري ولا يُجرى معه، نعم كنت إلى ذلك الحين أرجح عليه محمود سامي البارودي، ولا أرى أحداً يعلو علوه في المتأخرين، وقد يلز في قرن واحد مع أفصح المتقدمين.

(١) البهاء زهير (١١٨٥ - ١٢٥٨)م. شاعر مكّي، امتاز شعره بالرقة والظرف والسهولة.

- اجتماعنا الأول في باريس

وبقيت لا أعرف شوقي معرفة شخصية إلى سنة ١٨٩٢، إذ ذهبت من الآستانة إلى فرنسا قاصداً السياحة ومستشفياً من مرض طراً عليّ. وكان أحمد شوقي يدرس علم الحقوق في مونبلييه. وفي أثناء العطلة، جاء إلى باريس ومعه رفيق اسمه دولار، فبينما نحن في الحيّ اللاتيني بحسب قولهم، إذ جمعتنا الأقدار، وما عدت أتذكر كيفية اجتماعنا وتعارف بعضنا مع بعض، ولكن لم نجتمع حتى صرنا كأخوين وغدونا نجتمع كل يوم مرة بل مرتين وأكثر، تلاقينا كان في مقهى يقال له مقهى داركور Dharcourt.

ومن غريب الاتفاقات، أنا في سنة ١٩٢٦ تلاقينا أنا وشوقي، رحمه الله، في باريس، جاء فسلم عليّ في فندق "ماجستيك"، فذهبت أردّ له السلام في فندق "كان" نازلاً به في الحيّ اللاتيني، فسألت عنه فقيل أنه خرج إلى النزهة. وإذا بهذا الأوتيل على مسافة مائة متر من مقهى داركور، وإذا بشوقي جالس هناك ومعه مطربه محمّد عبد الوهاب، فجلست إليهما، وأخذت أتأمل في دوران الدهر وردّ العجز على الصدر. فقد كنت أول مرة عرفت فيها شوقي، أجلس وإياه في هذا المقهى نفسه، ومضى على ذلك ستّة وثلاثون حولاً ولم نجتمع في باريس. فلما اجتمعنا إذا بنا من دون تعمد في هذا المقهى أيضاً. فقلت لشوقي: أتدري كم سنة مضت على اجتماعنا في هذا المقهى؟ هذه ستّ وثلاثون سنة. وكان رحمه الله لا يرتاح إلى الأحاديث التي تذكّره بالشيخوخة، فقال لي: تمسك بهذه التواريخ لا أدري لم؟ فضحكت وعرفت أنه ضاق صدره من هذه الذكرى، وأنا قصدت أن أتذكر نعمة بقائنا طول هذه المدّة ولقائنا من بعدها. هذا إذا كان طول العيش معدوداً من النعم.

وفي أثناء لقائنا الأول، كنّا نتذاكر حول أمور كثيرة، ولكن أهمّ حديث كنّا نخوض فيه، هو الشعر. وكان مع شوقي ديوان المتنبي، وكان يحفظ منه. ولا شكّ أنه انطبع عليه، وسيأتيك في هذا الكتاب فصل تعلم منه أنني شبّهت شوقي بالمتنبي، في دقة معانيه وكثرة أبياته الجارية مجرى الأمثال. وشبّهت البارودي بأبي تمام، في علوّ نفسه وفحولة نظمه. وشبّهت حافظ ابراهيم بأبي عبادة البحرري، في طلاوته وانسجامه. هذا وبقيت أنا وشوقي نتساقى كؤوس الصفاء، وتبادل عواطف الإخاء مدّة شهر من الزمن، إلى أن حان إيابي إلى الشرق، فودّعته وداع الأخ لأخيه، وفارقتة فراق الصفيّ لمن يضافيه. وقد علمت منه أنا في عمر واحد، فقد كنت سنة ١٨٩٢ في الثالثة والعشرين من عمري. وظهر لي فيما بعد من مقدّمة ديوانه، الجزء الأول، أنه سنة ١٨٩٨ كان شوقي في سنّ الثلاثين. والحال، أنني في تلك السنة كنت في التاسعة

والعشرين، وعليه يكون شوقي أكبر مني بسنة أو بعدة أشهر. وأنا الذي أشار عليه، بأن يجمع قصائده، ويجعل منها ديواناً يسير في الأقطار. فسألني: وأي اسم أعطيه؟ فقلت له: سمّه بالشوقيات، فنسبة هذا الشعر إليك هي عندي كافية. فلما جمع ديوانه، أطلق عليه اسم «الشوقيات»، كما أشرت عليه به، وقد ذكر، رَوِّحَ اللهُ رُوحَهُ هذه القصّة في ديوانه، الطبعة الأولى سنة ١٨٩٨، فقال: «جمعتني باريز في أيام الصبا بالأمير شكيب أرسلان، وأنا يومئذ في طلب العلم، والأمير حفظه الله في التماس الشفاء، فانعقدت بيننا الألفة بلا كلفة. وكنت في أول عهدي بنظم القصائد الكبرى، والأمير يقرأ ما يرد عليه منها، منشوراً في صحف مصر؛ فتمنى أن تكون لي يوماً مجموعة. ثمّ تمنى عليّ، إذا هي ظهرت أن أسميها «الشوقيات»، ثمّ انقضت تلك المدة فكانها حلم في الكرى، أو خلسة المختلس أو هي كما قلت:

صحبت شكيباً برهةً لم يفز بها	سِوَايَ عَلَيَّ أَنَّ الصَّحَابَ كَثِيرُ
حرصت عليها أنه ثمّ أنه	كَمَا ضَنَّ بِالْمَاسِ الْكَرِيمِ خَبِيرُ
فلما تساقينا الوفاء وتمّ لي	وَدَادَ عَلَيَّ كُلُّ الْوَدَادِ أَمِيرُ
تفرّق جسمي في البلاد وجسمه	وَلَمْ يَتَفَرَّقْ خَاطِرٌ وَضَمِيرُ

هذا أصل التسمية، سبقت به إشارة لا تخالف ودفعت إليه طاعة واجبة، وأنا بين هاتين هدف للقال والقليل، يظنّ بي نسبة الأثر الضئيل إلى الاسم القليل.

ثمّ قال: «كانت وفاة والدي من نحو ثلاث سنوات، فكان لي عجباً أن وجدت بين أوراقه شيئاً كثيراً من مشتت منظومي ومنتوري، ما نُشِرَ منهما، وما لم يُنشر قد كُتِبَ بعضه بالخبر والبعض الآخر بالرصاص، والكلّ خطّ يد المرحوم، وقد لفته في ورقة كُتِبَ عليها هذه العبارة: «هذا ما تيسر لي جمعه من أقوال، ولدى أحمد وهو يطلب العلم في أوروبا، فكنت كأني أراه. واني أمره أن يجمعه، ثمّ ينشره للناس لأنه لا يجد من بعدي من يعتني بشؤونه، وربما لم يوجد بعده من يُعنى بالشعر والآداب، فبينما أنا ذات يوم تعب بهذه الأوراق، حيران لوصيّة الوالد، كيف أجريها. زارني صديقي مصطفى بك رفعت، فحدّثته حديثي، فسألني أن أعيره الأوراق أياماً، ثمّ يعيدها إليّ، ففعلت. ثمّ لم يمض شهر، حتّى بعث بها إليّ، وإذا هي قد نسخت بقلم مليح يؤيده ذوق صحيح، بحيث لم يبق إلا أن تدفع إلى المطابع. فأخذتها وبودّي لو وفيت صديقي المشار إليه حقّه من شكر الصنيع، وأنا أقول في نفسي: لئن صدق أبي في الأولى، لقد ظلم في الثانية. فإنّ الخير لا يزال في الناس.»

انتهى كلام شوقي. وأنا أزيد على ذلك أنَّ والد شوقي، رحمهما الله، قد أفرط في التشاوم. فإنَّ نابغة مثل ولده، لا يمكن أن يهمل وأن يعدم مَنْ يعتني بشؤونه، وإن لم يكن للمرء مَنْ يحنو عليه حنو والده. فكم قام الأدب مقام الوالد، وقد قيل:

إن فاتنا نسب، يؤلّف بيننا
أدب أقمناه مقام الوالدِ

وهذه الأبيات وتلك القصائد، التي كان منها ما هو مكتوب بالخبر وما هو مكتوب بالرصاص، جاء وقتٌ، نسخها فيه ناسخ بخطّ مليح، ثمَّ جاء وقت آخر يقال فيه: إنَّ هذه القصائد التي كتبت بالخبر جديرة بأن تكتب بماء التبر. وهكذا رجال الدهر تنمو أقدارهم بطول الدهر.

- صداقة ومكاتبات

وأعود إلى ما قاله شوقي، من أنه تفرّق جسمي وجسمه ولم يتفرّق الضمير والخاطر. فقد صدق في هذه الأبيات وأحسن الشعر ما حكى الحال، فقد كررنا من الوفاء بنمير، وتفارقنا ولم يتفارق خاطر و ضمير، وبقينا أكتب له ويكتب لي، وأبّته ما في نفسي ويثني ما في نفسه، وأداعبه ويداعبني ونتاجي على بُعد الديار، ونترأى بالقلوب لا بالأبصار. وكنت لا أجد أعزّ عليّ ولا أغلى لديّ منه، مع كثرة الأصحاب ووفرة الأتراب، وهذا ما ترجمه هو بقوله:

صحبتُ شكيباً صحبةً لم يفز بها
سوايَ عليّ أنَّ الصحابَ كثيرُ

فقد كنت أحبّه لعذوبة أخلاقه وحُسن معاشرته، وأجلّه لعلوّ فكره وبداعة شعره، وأجمع فيه بين الحبّ والحرمة. وما أسعد الإنسان إذا كان يحبّ مَنْ يحترم ويحترم مَنْ يحبّ، وما أصدق قول المتنبي:

ضروب الناس عشاق ضروباً
فأعذرهم أشفهم حبيباً

وإنّي أتذكر من جملة ما كان بيننا من النكات، كتاباً بعث به إليّ من فرنسا، ضمّنه عدّة جُمَل متتابعة، قلّد في كلّ واحدة منها أديباً من الأدباء المعدودين، حاكياً أسلوبه الخاصّ. وليس الكتاب مع الأسف محفوظاً عندي، ولا غيره من تلك المكاتبات، ولكنني أتذكر بعضه. فهو يقول: لم يتمّ له ما أراد من إيصال النفيعة إلى أبناء الجلدة (بكرية)، وقد مرق ذلك مروق السهم من الرمية (شكيبية). ثمّ ذكر جملة ثالثة، ما عدت أتذكرها ولا أتذكر مَنْ حاكى بها.

والحاصل أنه في الجملة الأولى يشير إلى أسلوب السيد توفيق البكري^(١)، الأديب المشهور. وفي الجملة الثانية إلى أسلوب هذا العاجز. وفي الجملة الثالثة، التي نسبتها، إلى اسماعيل صبري باشا، وهلمَّ جرًّا.

وأرسلت إليه من بيروت صورتني الفتوغرافية، وكتبت تحتها:

لئن كنت أحمد شوقي إليّ
رعى لك قلبي وداذا به
فما زلت أحمد شوقي إليك
أضنُّ على الكلِّ إلا عليك

وكنت أبعث إليه من فرنسا بكثير من حلوات الشام، وأتلذذ على البعد، بأن يتذوقها ويتلذذ بها. وكنت كلما قرأت له قصيدة من تلك القصائد الرثانة - لأنَّ شعره بدأ يرنُّ من ذلك العهد - تمتلئ جوانيحي بها مسرة ونواظري قرّة، وبقي ذلك ديدني^(٢) معه إلى أن مات، لا أتلو له شعراً إلا كان له سبب سرور. وإلى هذا أشرت بقولي في القصيدة التي نظمته له، بمناسبة يوبيله، سنة ١٩٢٧.

أقرأ قصائده فتملأ مهجتي
وأظلم مغتبطاً بها فكان لي
جذلاً يُزيل شجونها وعناءها
دون الأنامِ ثناءها وسناءها

ومن نعم الله عليّ، أنه عافاني من داء الحسد الذي قد يتلى به الكثيرون، لا سيّما من رجال الأدب الذين لا يزال الواحد منهم يتعقب ويترقّب، حتّى يجد لأخيه غلطة يبرّد غلته بتكرارها وتنبية الأفكار إليها. وأنا لم أكن حاسداً لشوقي، ولا كافياً إياه حسدي ونفاستي وغصّتي، برفيع مقامه فحسب، بل كنت مفتخرًا به، فرحًا بنبوغه، سعيدًا بعبقريّته، أجده من حسنات هذا الزمان الكبرى؛ ولا تتاح لي الفرصة للإتيان بذكره أو للاستشهاد بشعره إلا تورّدتها. وقد كان يبدو لي من كتبه، إلى أن ذلك يروقه لا سيّما عندما كان في أول ميدانه، ولم يكن أحرز ما أحرزه فيما بعد من الشهرة الطائرة والزعامة القاهرة. وقد كان يفضي بما يشعر به من افتتاني به إلى خليله وخليلي معاً، شاعر القطرين وثالث القمرين خليل بك المطران، فكان الخليل يقول له: إن شكيب لا يحسدك ولا يحسد أحدًا، ولذلك تراه دائماً مفتخرًا بك.

(١) توفيق البكري (١٨٧٠ - ١٩٣٢)م. شاعر عالي الطبقة، وأديب مترسل من أعيان القاهرة، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية في مصر، له "فحول البلاغة" و"أراجيز العرب" و"المستقبل للإسلام".

(٢) ديدن: كلمة فارسيّة (دخيلة) تعني روية وطريقة.

ولمّا نشرت كتابي في تاريخ الأندلس، تذيلاً على رواية «آخر بني سراج» لل«فيكونت شاتوبريان»، ختمت ذلك الكتاب بفصل في حالة الشرق وما آل إليه. واستشهدت لشوقي بأبيات، ذكرت بمناسبة أنها شاعر العصر وهي:

وذا دلال من بني الروم حولها	إذا ما تبدّت إخوة سبعة مردُّ
عنيت بها حتى التقينا فهزّها	فتى عربيّ مِلء بُردته مجدُّ
فقلت أطيبٌ بعد عُسرٍ وشِدّةٍ	فقلت نعم مسك الأحاديث والنَّدُّ
عَطَلْنَا من النعمى وطُوقَ غيرُنَا	تداولت الأيامُ وانتقلَ العقدُ
وما ضاعت الدنيا علينا وحُسْنُها	ولكنَّ عن أغصانه رَحَلَ الوردُ

- معارضات

وكنت مع ذلك، أعارضه في الأحيان، فإنّه نظم مرّة قصيدة لدى زيارته الأولى للأستانة، وحلوله ضيفاً كريماً على السلطان عبد الحميد، فإنّه قال يومئذ:

رضي المسلمون والإسلامُ	فرعَ عثمان دُمُ فِداك الدوامُ
كيف نُحصي على عُلاك ثناءً	لك منك الثناءُ والإكرامُ
هل كلامُ العباد في الشمس إلاّ	أنها الشمس ليس فيها كلامُ؟
ومكانُ الإمام أعلى ولكن	بأحاديثه يتيهُ الأنامُ
إيه (عبد الحميد) جلّ زمانُ	أنت فيه خليفةُ وإمامُ
ما رأيت مثلَ ذا الذي تبتني الأ	قوامُ مجدداً ولن يرى الأقوامُ
دولة شاد ركنها ألفُ عامٍ	ومئاتُ تُعيدها أعوامُ
وأساسُ من عهدِ عثمان يُبنى	في ثمانٍ ومثلهنَّ يُقامُ
حكمةٌ حالٌ كلُّ هذا التجلي	دونها أن تنالها الأفهامُ
يسأل الناسُ عندها الناسَ هل	في الناسِ ذو المُقلّة التي لا تنامُ؟
أم من الناس بعدُ من قوله وحُ	يِّ كريمٌ وفعلُهُ إلهامُ
صدق الخلق أنتَ هذا وهذا	يا عظيماً ما جازَه إعظامُ

شرفٌ باذخٌ وملكٌ كبيرٌ
(عُمَرُ) أنتَ بِيَدِ أَنْكَ ظِلٌّ
ما تَتَوَجَّتَ بِالْخِلافةِ حَتَّى
وسرى الخصبُ والبهاءُ ووافى البِشْرُ وَالظِّلُّ وَالجَنَى وَالغَمَامُ
وتلقى الهلالَ منك جبينٌ
فسلامٌ عليهمُ وعليه
وبدا الملكُ ملكُ عثمانَ من عد
يهرع العرشُ والملوكُ إليه
هكذا الدهرُ حالَةٌ ثمَّ ضِدٌّ
ولأنتَ الذي رَعِيَتْهُ الأُسْدُ
أُمَّةُ التُّركِ والعراقِ وأهلوا
عالمٌ لم يَكُنْ لِيُنظَمَ لولا
هدبتهُ السيفُ في الدهرِ واليو
أيقولون سكرةٌ لن تجلَى
ليذوئُنَّ لِلْمَهْلَهْلِ^(٢) صحوا
وضع الشرقُ في يديكَ يديه
بالولاءِ الذي تريد الأيادي
كيف تُهدى لِمَا تُشيدُ عيونٌ
مُقلٌ عانت الظلامَ طويلاً
قد تعيشُ النفوسُ في الضيمِ حَتَّى
أيُّها النافِرونَ عودوا إلينا
غرضٌ أنتمو وفي الدهرِ سهمٌ
نمتمو ثمَّ تطلبون المعالي

ويمينٌ بَسَطٌ^(١) وأمرٌ جسامٌ
للبرايا وعصمةٌ وسلامٌ
تُوجُّ البائسونَ والأيتامُ
وسرى الخصبُ والبهاءُ ووافى البِشْرُ وَالظِّلُّ وَالجَنَى وَالغَمَامُ
فيه حُسْنٌ وبالْعُفاةِ غرامٌ
يومَ حَيَّتَهُمُو بِهِ الأيَّامُ
ياك في الذرِّوةِ التي لا تُرامُ
وبنو العصرِ والولاءُ الفِخَامُ
ما لحالٍ مع الزمانِ دوامٌ
دُومَسرى ظلالها الآجامُ
هـ ولبنانِ والرَبى والخيامُ
أنك السلكُ وَسَطُهُ والوئامُ
مَ أتمَّتْ تهذيبَهُ الأَقلامُ
وقعودٌ مع الهوى وقيامُ
تشرف الكأسُ عنده والمُدامُ
وأنتَ من حُماتِهِ الأقسامُ
والولاءِ الذي يريد المقامُ
في الثرى ملؤها حصىً ورغامُ
فَعَمَها في أن يزولَ الظلامُ
لثرى الضيمِ أنها لا تُضامُ
ولجوا البابَ إِنَّهُ الإسلامُ
يومَ لا تدفعُ السهامَ السهامُ
والمعالي على النيامِ حرامُ

(١) يمِينٌ بَسَطٌ: مبسوطة، كناية عن الكرم.

(٢) المهلهل: هو عدي بن ربيعة، وكان صاحب شراب، فلما قُتل أخوه كليب، صحا، وطلب الحرب والثار، فذهبت مثلاً، أي ليدوقن صحوا كصحو المهلهل.

شرُّ عَيْشِ الرِّجَالِ مَا كَانَ حَلْمًا
 وَيَبِيتُ الزَّمَانُ أُنْدَلَسِيًّا
 عَالِيَ الْبَابِ هَزًّا بِأَبْكَ مَنَا
 وَتَجَلَّيْتَ فَاسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّا
 نَسْتَمِيحُ الْإِمَامَ نَصْرًا (لِحَلْمِي)
 فَلِحَلْمِي وَآلِهِ وَالرَّعَايَا
 يَشْهَدُ اللَّهُ لِلنَّفُوسِ بِهَذَا
 وَإِلَى السَّيِّدِ الْخَلِيفَةِ نَشْكُو
 وَعُدُوهَا لَنَا وَعُودًا كِبَارًا
 فَمَلَلْنَا وَلَمْ يَكُ الدَّاءُ يَحْمِي
 يَمْنَعُ الْقَيْدُ أَنْ نَقُومَ فَهَلْ تَا
 فَارْفَعُ الصَّوْتِ أَنَّهَا هِيَ مَصْرٌ
 وَارْعَ مَصْرًا وَلَمْ تَزَلْ خَيْرَ رَاعٍ
 إِنَّ جَهْدَ الْوَفَاءِ مَا أَنْتِ آتٍ
 وَلِيَصُولُوا بِمَنْ لَهُ الدَّهْرُ عَبْدٌ
 فَالِلْوَاءِ الَّذِي تَلَقَّوْا رَفِيعٌ
 مَنْ يُرَدُّ حَقُّهُ فَلِلْحَقِّ أَنْصَدُ
 لَا تَرُوقَنَّ نَوْمَةُ الْحَقِّ لِلْبَا
 إِنَّ لِلْوَحْشِ - وَالْعِظَامُ مُنَاهَا -
 رَافِعَ الضَّادُ لِلْسَهَى هَلْ قَبُولٌ
 قَامَتِ الضَّادُ فِي فَمِي لَكَ حَبًّا

قَدْ تَسِيغُ الْمَنِيَّةَ الْأَحْلَامُ
 ثُمَّ يُضْحِي وَنَاسُهُ الْأَعْجَامُ
 فَسَعِينَا وَفِي النَّفُوسِ مَرَامُ
 س بِالرَّكْنِ (١) ذِي الْجَلَالِ اسْتَلَامُ (٢)
 مِثْلَمَا يَنْصُرُ الْحُسَامَ الْحُسَامُ
 بِكَ يَا حَامِي الْحِمَى اسْتَعْصَامُ
 وَكَفَاها أَنْ يَشْهَدَ الْعُلَامُ
 جَوْرَ دَهْرٍ أَحْرَارُهُ ظَلَامُ
 هَلْ رَأَيْتِ الْقُرَى عَلَاها الْجَهَامُ (٣)
 أَنْ تَمَلَّ الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَامُ
 ج؟ فَبِالْتَّاجِ لِلْبِلَادِ قِيَامُ
 وَارْفَعِ الصَّوْتِ إِنَّها الْأَهْرَامُ
 فَلِها بِالذِّي أَرْتَكِ ذِمَامُ
 فَلِيَقْمِ فِي وَفَائِكَ الْخُدَامُ
 وَلِهُ السَّعْدُ تَابِعٌ وَغُلَامُ
 وَالْأُمُورُ الَّتِي تَوَلَّوْا عِظَامُ
 أَرُّ كَثِيرٌ وَفِي الزَّمَانِ كِرَامُ
 غِي فَلِلْحَقِّ هَبَّةٌ وَانْتِقَامُ
 لِمَنَايَا أَسْبَابِهِنَّ الْعِظَامُ
 فُيَاهِي النُّجُومَ هَذَا النُّظَامُ (٤)
 فَهِيَ فِيهِ تَحِيَّةٌ وَابْتِسَامُ

(١) الركن: الكعبة أو ركنها.

(٢) الاستلام: اللمس (شرعاً).

(٣) الجهم: السحاب لا ماء فيه.

(٤) هذا النظام: أي الشعر.

أنا صَبُّ بلطفها مُستهامٌ
في كمالِ بَدَتِ له أعلامٌ
والزَمَ البدرَ أي هذا التَّمَامُ

إنَّ في يَلدزٍ^(١) الهدى لِخِلالاً
قد تجلَّتْ لخيرِ بدرٍ أَقلَّتْ^(٢)
فالزَمَ التَّمَّ^(٣) أيها البدرِ دوماً

وهذه القصيدة غير خالية من أبيات فيها غموض، وأخرى فيها تعقيد، ولكنها على كلِّ حال، عامرة بشوارد الأبيات وشوقيّة كسائر الشوقيات، وفيها دُرر يتائم وألفاظ كسجع الحمائم. ولما طالعتها نظمت من البحر والقافية:

أمَّ بيانُ آياتهُ الإحكامُ؟
ويُوقِي حقَّ الثناءِ الإمامُ
ضَ فَحَفَّ البريّةُ الإكرامُ
مثلما دامَ للصلاةِ إقامُ
وَدَنَتْ عن خياله الأوهامُ
زَ تهاوتُ من دونه الأفهامُ
في الذرورةِ التي لا تُرامُ
كلُّ طرفٍ للجري فيه كَهَامُ^(٥)
وعندَ الفعالِ يُخفي الكلامُ
تُ عَدَاً والحجّةُ الأرقامُ
لا كما سَحَّ من يديه غَمَامُ
سِ من القولِ إِنَّه الضرغامُ
في البرايا لباسهُنَّ الدوامُ
تَكْفَلُ الناسَ مثلما يكفلُ الغبراءُ غَيْثُ له عليها انسجامُ
فهِي في مدحه لَعَمري حَمَامُ

هل لسانُ أقواله الإلهامُ
فُتباري الألفاظُ شأوَ المعاني
الذي شَرَفَتْ خِلافتهُ الأُر
وَعَدَتْ لهجةُ الثناءِ عليهِ
قَعَدَتْ نهضةُ البلاغةِ عنهِ
قَعَسُ^(٤) في الصفيحِ من أطلسِ العِ
إنَّما وَصَفَهُ على فاتحِ الأفكارِ
كلَّ طَرَفٍ للفكرِ عنه كليلُ
قَصَرَ الوصفُ دونَ مَنْ يفضحُ الوصفِ
ينبذُ الشعرَ والشهودُ الرياضياً
إنَّ ما سالَ في ثناءِ يراعُ
وفعالُ الضرغامِ أوقعُ في النَّفْ
كلَّ يومٍ له صنائعُ تَتْرَى
تَكْفَلُ الناسَ مثلما يكفلُ الغبراءُ غَيْثُ له عليها انسجامُ
طَوَّقَ الخلقَ جوْدُه ونَداءُه

(١) يلدز: قصر السلطان عبد الحميد في الأستانة.

(٢) أَقلَّتْ: حَمَلَتْ.

(٣) التَّمَّ والتَّمَامُ: الكمال.

(٤) قَعَسُ: وهو الثابت.

(٥) كَهَامُ: بطيء، كليل.

وجديرٌ أن تنطقَ الطيرُ والوحد
نُسخت عنده الملوك وأمسى
ما رأى مثله الزمانُ عظيمًا
جاء من ضئضيءٍ^(٢) الخِلافة فردًا
فرع عثمان وكفى المجدُّ والأحسا
دولةٌ حجّةُ الزمان على الخدِّ
ليس للشرق غيرها فبنو المش
قد أقامت سُرداقَ العزِّ يُعليه
فوقه راية الهلال منيرًا
ينضوي تحتها النقاد^(٤) مع الأشد
مجدُّ عثمان ليس غيرك مجدُّ
لم تزل شامخًا بأنفِ عزيزٍ
لا ترى دولةً هُزالًا وضعفًا
وعلى رأسها خليفةُ عصرٍ
لم يزل قائمًا لديه بأبوا
حيثما تهطع^(٧) الملوك وتعنو
موقفًا تخشع النواظرُ فيه
قد حباه عثمان أسًا متينًا
شابَ قرنُ الزمان وهو مكينٌ
وغدا ألفًا سهامَ الليالي

شُ فیتلو الصُّداحَ فيه البُغام^(١)
خبيرًا من أخبارِ كان الكرامُ
صبيّةٌ عنده الرجال العظامُ
هتو من معشرِ الملوك السنمُ
بُ والمكرماتُ والأحلامُ
ق بها دون مريّةٍ إلزامُ
رق طرًا بدونها أيتامُ
الوشيج^(٣) الرِّماحُ والأقلامُ
يُذبرُ الظلم عندها والظلامُ
بد وترعى الذئباب والآرامُ
كلُّ مدحٍ من دون مدحك ذامُ^(٥)
ولكم أعطسَ الملوك الرغامُ^(٦)
حولها المسلمون والإسلامُ
دهره تابعٌ له وغلامُ
بِ عليهنَّ للجباه ازدحامُ
تحت تيجانها الطلّى والهامُ
وتسوى الرووسُ والأقدامُ
مثل البيتُ عنده والمقامُ
وتخطت مئاتها الأعوامُ
فلذا لا تنالُ منه السهامُ

(١) البُغام: صوت الظبية.

(٢) ضئضيء وضئضئ وضئضئ: الأصل والنسب.

(٣) الوشيج: القرابة، وأراد اتحاد الرماح بالأقلام.

(٤) النقاد: الغنم.

(٥) ذام: مذمومٌ، كربه.

(٦) الرغام: التراب.

(٧) تهطع: تُسرع والطلّى: الأعناق.

إِيهِ عَبْدِ الْحَمِيدِ إِنَّ زَمَانًا
أُولِهِ نَصْرَكَ الْعَزِيزِ وَأَيَّدُ
أَشْخَصْتَ نَحْوَكِ الْعَيُونَ حِيَارِي
وَتَصَبَّبِي الْقُلُوبَ مِنْكَ خِلَالَ

أَقْبَلَ الْعَصْرَ يَرْتَجِيكَ وَفِي الْيَمْنَى كِتَابٌ وَفِي الشَّمَالِ حُسَامٌ
حَبَّذَا الدَّوْلَةَ الَّتِي صَارَ فِيهَا

هُوَ ذَا الشَّرْقِ فِي حِمَاكَ لَكَ الْأَمْرُ جَمِيعًا وَفِي يَدَيْكَ الزِّمَامُ
هَزَّهُ هَزَّةً تَثُوبُ بِهَا الرُّوحُ

أَرْهَفَ الْحَدَّ لِلْخُطُوبِ فَمَا يَنْفَعُ
لَمْ تَزَلْ أَرْضُنَا مَاسِدًا بِاللَّهِ

إِنَّ لِلشَّرْقِ هَبَّةً بَعْدَ نَوْمٍ
هَبَّةً تَبْعَثُ الْحَمِيَّةَ فِي النَّاسِ

يَسْأَلُ الْغَرْبُ عِنْدَهَا الشَّرْقَ هَلْ جَاءَ
تُرْسِلُ الْكَهْرِبَاءَ فِيهَا شِعَاعًا

وَتَشَبُّ النِّيرَانَ فِي كُلِّ أَرْضٍ
إِنَّمَا تُثَلِّجُ الصَّدُورَ بِسَلِيمٍ

يَا إِمَامَ الْهَدْيِ هَنِيئًا وَأَوْلَى
إِنْ أَحَاوَلَ عَلَيَّ عُكْلًا ثَنَاءً

أَوْ أَعَارَضَ فَتَى الْقَرِيضِ^(٤) فَمَا عَا
ذَا مَجَالَ رَضِيَّتِ فِيهِ مِنَ السَّبْقِ

وَإِذَا كَانَ بَدْعٌ وَصَفِكَ سِمَطًا^(٦)

أَنْتَ فِيهِ عَبَاسُهُ بِسَامٌ
وَارَوْ مَصْرًا لَهُ إِلَيْكَ أُوَامٌ^(١)

أُمَّمُ الْخَافِقِينَ وَالْأَقْوَامُ
يَحْرَمُ الْعَشْقَ دُونَهَا وَالْهَيَامُ

تَوَأْمِينَ الْعُلُومِ وَالْإِعْلَامُ
تَوَأْمِينَ الْعُلُومِ وَالْإِعْلَامُ

تَحْيَى الْأَمَالَ وَهِيَ رِمَامٌ
مَعَ هَذِهِ اللَّيَالِي احْتِشَامٌ

وَمَاوَى رِجَالِنَا الْآجَامُ
أَزْعَجْتَهُ خِلَالَ الْأَحْلَامُ

سُ كَمَا يَبْعَثُ الْخُمَارَ^(٢) الْمَدَامُ^(٣)
عَكَ رُوحٌ تَحْيَا بِهِ الْأَصْنَامُ؟

وَيُرَى لِلْبَخَارِ فِيهَا رِكَامٌ
فَتَعُودُ النِّيرَانَ وَهِيَ سَلَامٌ

حِينَمَا يَوْقِدُ الصَّدُورَ ضِرَامٌ
أَنْ يُهْنَى بِالْعِيدِ عَنْكَ الْأَنَامُ

فَهُوَ مِمَّا قَضَى عَلَيَّ الذِّمَامُ
رَضَ وَرَدَّ الْحَدَائِقَ الْقَلَامُ^(٥)

بِعِزْمٍ لَمْ يُثْنِهِ الْإِحْجَامُ
جَاءَ عَفْوًا مِنَ الْقَرِيضِ النِّظَامُ

(١) أوام: عطش شديد.

(٢) الخُمار: ما تشبَّه الخمرة من سُكر أو من ألمٍ وصداع.

(٣) المدام: الخمرة.

(٤) فتى القريض: شوقي.

(٥) القلام: نوع من النبات، حاد الطعم يشبه حب الخردل والرشاد.

(٦) السمط: الخيط المسلوک باللؤلؤ أو الخرز.

إنَّ يومًا به الجلوسُ تجلَّى
كفَّرَ الدهرُ فيه عن كلِّ ماجرٍ
جاء ختمًا لِطارقاتِ الليالي
ليس يلحي على أواليهِ عصرٌ
هو يومٌ خدامُه الأيامُ
فلم يتَّجه عليه ملامٌ
فاختلافاتها إلينا لِمامٍ^(١)
بمعاليك طابَ منه الختامُ

ولم أجادب أخي شوقي الحبل، إلا في هذه القصيدة، ولم أنسَ أن أشير فيها إلى المعارضة، معترفًا بأنَّ الدرَّ لا يعارض بالحصى، وذلك عند قولي:

أو أعارض فتى القريض فما عا
رض وَرَدَ الحدائقُ القُلامُ

وقد وُجد مع هذا، مَنْ رجَّح قصيدتي على قصيدته، ومنهم الشاعر الأديب داود بك عمّون، الذي صار فيما بعد الحرب، رئيسًا لحكومة لبنان، وهو من أترابي في السنّ، وقد تذاكرت وإياه في موضوع هذه المعارضة، فرأيته يستحسن قصيدتي على قصيدة شوقي، فقلت له وأين أنت من قوله؟:

ما كلامُ الأنامِ في الشمسِ إلا
أنها الشمسُ ليس فيها كلامُ

فقال لي: وأنت جعلتَ بإزاء هذا البيت قولك:

وفعالُ الضرغامِ أوقعُ في النفِ
س من القولِ إنَّه الضرغامُ

وعلى كلِّ حال، فلست أدعي سبق شوقي في هذا الميدان، وأنا الذي يقول فيه في القصيدة التي قلتها في يوبيله:

وفرتَ يا شوقي السباقَ على الورى
برئاسةِ باتِ السباقِ وراءها

تتقطعُ الأعناقُ عن إدراكها
حتَّى الأمانى لا تحومُ إزاءها



ولكن ممّا لا مِرية فيه، أنني أنا منذ أيام الشباب، قلّما نظمت الشعر رغبةً فيه ونزوعًا متي إلى الاتّصاف بالشاعرية، بعكس النثر الذي كان أبدًا مرمى آمالي ومطمح خيالي. وسألني مرّة ابراهيم بك المويلحي، الكاتب المشهور، عندما اجتمعنا في الأستانة سنة ١٨٩٠، فقال لي:

(١) لِمام: مفرد هامة، تقول: ما تزورنا إلا لمامًا، أي في الأحيان.

أيُّهما أفضل عندك النظم أم النثر؟ فأجبت: لا مقايسة عندي بينهما، إني أفتخر بأن أكون كاتبًا، وأستحي من أن أكون شاعرًا. فاستحسن المويحلي هذا الجواب الذي لا شكّ أني بالغت فيه، ولكنه كان يعرب عن ذات صدري، لأنني طول حياتي لم أحاول أن أكون في الشعر سباق غايات، وطلاع أنجد، على حين أني كنت أرى منتهى السعادة في الدنيا، في أن أكون من الكتاب المعدودين. وقلّما نظمت الشعر انبعثًا من نفسي لمجرد خاطري، فليس لي على هذا الوجه إلا قصائد معدودات؛ وكلّ ما عدا ذلك من شعري، إنّما نظمته قيامًا بواجب، أو امتثالًا لرسم، أو نزولًا عند رغبة. ولهذا تجد أكثر شعري مرثي للأصحاب أو للأعلام الذين لا مناص من رثائهم. وسيظهر ديواني قريبًا إن شاء الله، فيقف القراء منه على تحقيق كلامي هذا.

- صنعة الشعر وإبداع شوقي فيها

ومن المعلوم أنّ صاحب الصنعة، إنّما يتقدّم فيها إذا كان راغبًا لا متكلفًا، مغرمًا لا متبرّمًا، وكان مجتهدًا فيها لأجل الإبداع ولأجل سبق غيره من الصناع. فأما شوقي فكان كلّ شعرًا، قد وقف نفسه على هذه الصنعة، لا يهّمه أن يتقن غيرها وصارت له غرامًا. فهو آنا ليله، يفكر في الشعر، وأطراف نهاره يستنبط المعاني الغريبة، وكلّما عنّ له معنى قيده، وكلّما انفتق في ذهنه مرمى أحرزه وهياً له قالبًا رائعًا، حتّى إذا جاءت أول فرصة أودعه إياها.

ومن أهمّ ما يغفل عنه الناس، وهو من أحقّ الحقائق، أنّ نفوس الأدباء لها أوقات صفو وأوقات كدر. وأنها في أوقات الصفاء، قد تُبرم قوانين وتخلق معاني لا تتأتى لها في جميع الأحيان. وربّما لاح في فكر الأديب خاطر في إحدى السويعات، لو استرسل فيه لأتى فيه بالعجائب، على حين أنه إذا نشده في وقت آخر وحاول أن يستأنف ما كان يلوح له في ساعة الصفاء، لوجد زنده فيه صلْدًا^(١). ورأى أنه يهيب بتلك الخواطر السابقة فلا تجيبه، ويطمع أن يقتنص تلك الشوارد التي كانت بين يديه، فإذا هي الآن لا تطيعه، ومنها ما ذهب غير معاود، ومنها ما عصى غير مقرن. ولذلك كان يجب على الأديب، شفاف الطبع، أنه إذا عنّ له في سويعات الصفاء معنى مبتكر أو خاطر شريف، ووجد هذا الموضوع مثلاً عليه، أن يسرع إلى قيده أو ابده، ويأخذ القلم فيحرّره، وإذا كان شعرًا نظمته وإذا كان نثرًا دبّجه، حتّى لا يفوته فيما بعد. فإنّ الأفكار من جملة حظوظ الدنيا، تهبّ أحيانًا وتركد أحيانًا، فإذا هبت

(١) الزندُ الصلْدُ: الذي تسمع صوته، ولا ترى شراره. ومنها: «أسمعُ جعجعةً ولا أرى طحناً»، والمعنى: إنك تكتب شعرًا لا إبداع فيه.

مرّة وجب اغتنامها ولم يجز إهمالها على نيّة أن يعاد إليها مرّة أخرى. وإنّ الأفكار نظير الأقدار، ليس في مقدور الكاتب أو الشاعر أن يجيدها كلّ حين، وقد تفيض على الروس أشعة إذا ولّت تعذّر استردادها. فالليب اللبيب هو الذي يقنص الشاردة لأول سُوحها ولا يدعها تذهب، على أمل أنه يصطادها فيما بعد، فإنها إذا شردت قد تفوت، والفلاة طويلة عريضة، فلا يحيط بها الصائد ولا تطوى له كيف يشاء.

وقد كان شوقي، ممّن يقيد الشوارد ولا يدعها تفوت، وممّن يقف في المظان التي تختلف فيها الطرائد، فكلمّا عنّ سانح رمى سهمه، فلهذا عظم توفيقه في الصيد، وجاء بما لم يجيء به غيره، ولم يقل لنفسه في وقت من الأوقات: دعينا من هذا الآن، لأنّ لنا ما يشغلنا عنه، وسنعود إليه في ساعة أخرى، بل كان المعنى المتكرّر هدفًا له كيفما عنّ وأنى عرض، فلا يكاد يتراءى له شيء إلا وترّ^(١) قوسه وفوق سهمه.

وهكذا، ينبغي أن يكون الشاعر إذا أراد أن يجيد، وأن يقول فيه الناس: من ذا قالها؟ ولا يجوز للشاعر أن يجعل السياسة، أو الاقتصاد، أو الصناعة، أو الفقه، أو شيئًا آخر من مناحي الحياة، فوق الشعر، بل ينبغي أن يكون الشعر هو غرضه الأول، وأن تدور حياته من حوله؛ فجميع المشاغل تكون له فضلة، ويكون الشعر هو العمدة، ولهذا قال خليل مطران: إنّ شوقي، كان يفكر في الشعر قاعدًا وقائمًا وحاضرًا وباديًّا وسائرًا وساريًّا وفي المركبة وماشيًّا إلى غير ذلك. فقد قام نحو الشعر بالواجب الذي لم أقم به أنا ولا غيري، ممّن جعل الشعر فضلة عمله، ولم يقله إلا عند الضرورة. قد أعطى شوقي نفسه للشعر، فأعطاه الشعر ما لم يعط غيره في هذا العصر.

- انصراف شوقي إلى الشعر -

هذا وكان شوقي متصلاً بخدمة سموّ الخديوي السابق، ومنذ نبوغه لقبوه بشاعر الأمير، فصار ذلك اللقب باعثًا له على زيادة الاجتهاد وفرط الارتداد، حتّى تكون مكانته الشعرية متناسبة مع المقام العالي الذي يخدمه بشعره. وبعبارة أخرى، من حيث قيل له شاعر الأمير، إلى على نفسه أن يكون أمير الشعراء، فانصرف بكتليه إلى الشعر، حتّى تعطيه الإجابة. ويعلم العزيز سيّده، أنه إن كان هو سيّد الأمراء، فإنّ شاعره سيّد الشعراء؛ وإنّ هذا المقام

(١) وترّ: استعدّ لإطلاق السهم، وإصابة الغرض.

الذي يشغله شوقي برسمه، يشغله أيضًا بنظمه. فإذا لزم أن يكون شاعر الأمير سباق الحلبة ومقدام العصابة، فإنه كذلك وإن سليقته قبل وظيفته. وقد كان هذا الحرص منه على إفهام سيده، أنه الشاعر الذي لا يُشَقُّ له غبار، والذي اتفقت على تقديمه الأقطار، هو الذي يدعوه أن يكون أبعد من غيره نجعة وأوسع فتوحات عقلية، فلا يقول الشيء الذي يقوله سائر الناس. فكان يقضي معظم أوقاته في تجويد نظمه وتسديد سهمه، في تعمير صدره بالمعاني العالية وشحذ خاطره بالمرامي الدقيقة والأغراض السنية، حتى صار ذلك خلقًا له غير منفك عنه، وصار إذا قال كلمة سارت في الآفاق، وتناولت إلى قراءتها الأعناق وبذخ فيها على الشعراء بالاتفاق. وأظن أن أصوب آراء شوقي، هو أنه لم يرد أن يكون شيئًا غير شاعر كبير، لا يقال لسيدته أنه يوجد في غير المعية السنية من هو أشعر منه. فكان طبع شوقي ظرفًا لا يسع مع الشعر حاجة أخرى.

ولم يخلط شوقي الشعر بالسياسة، ولا التجارة، ولا الفقه، ولا الإدارة، ولا الزراعة، ولا عمل من الأعمال الأخرى، التي يتعاطاها الناس، وكثيرًا ما قرنوا بعضها ببعض، فأخذ العمل الواحد من قوة العمل الآخر. وقلما زاول الإنسان عملين إلا غلب أحدهما عليه أو قصر في الاثنين. وقد علم شوقي بثقوب فكره، أنه إن حاول أن يكون سياسيًا عظيمًا أو إداريًا ماهرًا أو زراعيًا متقنًا أو اقتصاديًا مدققًا، سلبت عنايته بمهمته هذه من ملكته الشعرية، بمقدار انصرافه عنها إلى غيرها، فقصر عن إدراك الأمد الأقصى الذي لم يزل مطمح نظره في الشعر، وقعد عن الرتبة الأدبية اللائقة بمن يقال له شاعر الأمير وأمير الشعراء. وكما أن لقب شاعر الأمير وأمير الشعراء، كان يزيد شوقي نفاذًا في صنعته وصقالًا لقريحته، كان يكسوه أيضًا أمام الناس بهاء يستمدّه من منصبه ويلمع عليه، بسبب حظوته عند الجناب العالي، فكان كل من لقبه وأدبه عونًا للآخر.

- القول في مدح الأمراء والملوك

وقد عاب بعضهم على شوقي، قضاءه عمره في مدح الأمير ومدح السلطان والإشادة بذكر ذوي السلطة، وربما عابونا نحن أيضًا لمثل ذلك، وغمزوا بالكثيرين الذين وقفوا أشعارهم على مدح الأمراء والملوك، وزعموا أن في ذلك دليلًا على طلب الزلفى أو التماس الجائزة.

والجواب على ذلك، يحسن بنا أن نوّضح إيضاح من لا يُبقي عليه ظلمة الإبهام، وهو: جرت عادة الملوك والأمراء، سواء في الشرق أو في الغرب من قديم الزمان، أن يتدبوا لأنفسهم رهطاً من الفصحاء، من شاعر مفلق وكاتب مبرّز وخطيب مُفوّه ونديم مطرب، وأمثال هذا الضرب من ذوي المواهب العقلية الوافرة والحظوظ الأدبية الراجحة، يشيدون بذكرهم في المحافل، بالقصائد الشوارد، أو بالخطب الأوابد، أو بالمناشير الصادرة كعقود الفرائد، ممّا يزيد في وقار الملك وسنام العرش وحرمة الرعيّة للراعي، ويلقي على الأفعال أقوالاً تزيد في بهائها وتضاعف من بقائها. إذ لا يوجد مثل الشعر والنثر تقييداً للمآثر وتخليداً للمفاخر، فالشاعر الذي يتصل بملك من الملوك، أو أمير من الأمراء، سواء في شرق أو في غرب، لم يكن يجد من الغضاضة في شيء التغمّي في مدح سيّده حتّى لو لم يكن أهلاً لكلّ ذلك الإطراء، لأنّ مثل هذه الطبقة من الشعراء والأدباء يذهبون إلى أنّ الكلام إنّما هو للمقام لا للمقيم، وأنّ المقام إنّما هو رمز الأمة وعنوان الملة. ثمّ قد شاءت الأقدار في أخريات الزمان، أن يدخل الضعف على الدول الإسلامية بأجمعها، وأن تغلظ شوكة الأجانب الغربيين بين أيديها ومن خلفها، وأن تحيط بكثير منها وتأخذ على أيدي ملوك الإسلام، فلا تبقى لهم سوى الرسوم والألقاب، ويتغلغل نفوذ الأجانب في هذه الحكومات المغلوبة على أمرها، فتصير الأمة التي في مثل هذا الواقع وقد أخذ الأجانب بخناقها تتطلّع إلى أميرها الأصلي، وتعزّز من مقامه وتضاعف من إجلاله، بناءً على أنه هو رمز استقلالها الوحيد؛ فالمبالغة في إجلال هذا الرمز، إنّما هي المبالغة في حفظ الاستقلال نفسه.

فعندما يهتف شوقي، ومَن في نمطه بتلك القصائد الرنانة، إمّا في مدح عزيز مصر، أو في مدح الخليفة الأعظم، فإنّما هو في الحقيقة يشيد باستقلال مصر في وجه الأجانب الطامعين المستأثرين بالأمر، وعندما يرسل كلماته الخالدة في مدح السلطان الخليفة، فإنّما يقُدّس مقام الخلافة، العزيز على المسلمين، الناظم لشملهم، القائم في وجه عدوّهم. فليس في هذا المذهب ما يدلّ على سلوك طريق التزلّف، كما يظنّ من لا يدقّق في أسرار الأمور، ولكنّها الصارخة القومية والنزعة الإسلامية والنّضح عن حوض الخلافة والذود عن بنیان السلطنة، وهذا أشبه شيء بالدعاء الذي يقال في الجوامع، نهار الجمعة، استنزالاً من عند الله لنصر سلاطين الزمان، المحافظين لكيان الأمة في الداخل والخارج، وليس هذا الدعاء خاصّاً بأشخاصهم، وإنّما هو للمقام الذي يتبوّونه، لا يزال الخطيب يدعو لهم حتّى إذا زال الواحد منهم عن كرسيّه، دعا لخلفه. ولا يقال في مثل هذه الحالة، إنّ خطباء الجوامع متزلفون، وإنّهم لذلك ليسوا على شيءٍ

من حرية الفكر. فالكلام هنا راجع كلاً للدولة، مقصود به مجد الأمة، وليست هنا الأشخاص هي القصد من الرسوم. وأيضاً فإن هؤلاء الملوك والأمراء يبرّون شعراءهم ويغمرونهم بالنعم الجسام ويحسنون إليهم بأنواع الأحسان، والنفوس مطبوعة على حبّ من أحسن إليها، وقد قال المتنبي: "ومن وجد الإحسان قيّداً تقيّداً".

فلا عجب أن يكون أحمد شوقي، قد قال في الخديوي السابق، القصائد التي سارت في البلاد وترنم بها الحاضر والباد، وقال مثلها وأحسن منها في السلطان عبد الحميد، خليفة المسلمين، الذي بمدحه تطيب نفوسهم وتهتّز أعطافهم. ويزيد هذا البرهان ظهوراً أنه لم تكن تقع حرب، تظهر فيها قوّة الدولة ويتلأأ مجد الملة، إلا وجدت شوقي قد جاء يجرّ جحفل فصاحته ويرفع لواء بلاغته. كما نظم في حرب الدولة مع اليونان تلك القصيدة الباقية، التي بدّ فيها شعراء العالمين، وساوى فيها شعر المتقدمين. وسنذكر فيما بعد ما يأخذ بالألباب منها.



ولقد درّت دُرر شوقي في مديح الخديوي السابق بخيرات، وشت بروده وكفّته مؤونة العيش الأبله، فما من شعر اخضرّ له رعيّ وأورق له غصن كشعر شوقي، وهذه هي عائلته تتقلّب والله الحمد في النعماء التي أثّلها شعره.

وأما أنا، فقد كان أكثر فراري من الشعر، خشية أن يُظنّ بي مزاولته تكسّبا لا تأدّباً، وذلك لكثرة الشعراء الذين سلكوا تلك الشُعاب، فكنت إذا مدحت السلطان فإنما أمدحه لأجل أمّتي التي هو سلطان عليها، وكنت أنشر قصيدتي في الجرائد ولا أقدمها إلى الحضرة السلطانية. وفي إحدى المرات، عندما كنت في ريعان الصبا، نظمت قصيدة واستنسختها بخطّ أنيق وموهتها بالذهب، وقصدت تقديمها للمابين الهمايوني كما يقال، ثم عدلت عن ذلك واكتفيت بنشرها في الجرائد. وقد سبق أنني لما أشار إليّ الأستاذ الإمام^(١)، بأن أنظم شيئاً للخديوي محمّد توفيق رحم الله الاثنين، نظمت تلك القصيدة الدالية التي تقدّمت في رسالتي هذه، ولم أغفل أن أختمها بهذين البيتين:

أبوء بصدق القول غير مفنّد
بشعري ولا نظم القصائد مقصدي

وإنّي إذا أهدي العزيز مدائحي
وإلا فما حاولت إدراك غاية

(١) الأستاذ الإمام: هو الشيخ محمّد عبدو (١٨٤٩ - ١٩٠٥). من أعلام الدّاعين إلى التجديد والإصلاح في عصر النهضة، مفتي الديار المصرية، وأستاذ الأمير شكيب أرسلان.

وهذا حرصاً منّي على أن لا يفهم الخديوي، رغبةً منّي في المكافأة، وفي هذا منّي نظر
إلى قول أحد شعراء الأندلس، وكان من أبناء البيوتات:

وما أنا بالباغي على الشعرِ رشوةً أبى ذاك لي جدُّ كريمٌ ووالدُ
وإنّي من قومٍ قديمًا وحادثًا تُباع عليهم بالألوفِ القصائدُ

- عفة لسان شوقي وبُعده عن الهجاء

ولنعد إلى أوصاف شوقي الشعرية، فنقول: إنه وإن كان أسرف في المديح، وفي مديح
أمير بلاده خاصّة، فلم يلوث شعره بالهجاء، ولم أسمع له قصيدة يهجو بها أحدًا، قد عصمه
الله من ذلك، فإنّ من أقبح ما قبح سمعة الشعراء، وجعل الخلق ينظرون إليهم بشيء من
الريبة، أنّ كثيرًا منهم رتعوا^(١) في لحوم الناس وسيروا المثالب^(٢) التي قد تكون بلا أصل أو
يكون لها أصل ضعيف، ولكن الناس حفظوها وتدارسوها، لبداعة قوالها خلفًا عن سلف،
حتى انتهى الأمر بأن صدّقوا فحواها وصارت في نظرهم وقائع تاريخية. فلو كان شوقي
شتمًا مقدّمًا مع ما أوتي من الإجادة، لكان ثلم أعراضًا وخلد مقابح وأورث أحقادًا وقيد
فضائح، وكان هجا نفسه بهجوه لغيره. وما أصدق هذه الجملة: الإناء ينضح بما فيه. فعفة
لسان شوقي وتنكبه طريقًا طالما سلكها شعراء كبار وصغار ومتوسّطون، هذا دليل على زكاء
طبعه وفرط حيائه، وأيضًا على رجاحة عقله وأصالة رأيه؛ فكم أحدث الشعر من فتنة وأراق
من دم وأخرج من جماعة وحرّم العالم من نعمة. وأية نعمة كانت أعظم من شعر المتنبي،
الذي كانت حياته كلّها أقوالاً عبقرية، أخذًا بعضها برقاب بعض، ولكنه برغم جميع حكمه
الاجتماعية وآرائه الفلسفية، لم ينتبه إلى ما في الهجو من الاستهداف للمقت والتعرّض
للهلكة. فقال من الأقوال الصغار ما يخالف تلك الحكّم التي تفرّد بها، وأسفًا في الهجو
إسفافًا، يحار العقل لصدوره من مثله، وانتهى بأن ذهب فريسة إقذاعه. وكلّ يعلم أنّ
قصيدته المسخوطة التي أولها:

ما أنصف القوم ضبّة وأمّه الطرطبة

قد كانت سبب قتله على يد فاتك الأسدي، خال ضبّة، الذي انتقم لشرف أخته وحرّم الناس
مواهب تلك النفس العظيمة، في إبان إجادتها وأوج مجادتها. ونكتفي بهذا المثال عن الأمثلة

(١) رتعوا في لحوم الناس: اغتابوهم.

(٢) المثالب: العيوب.

الكثيرة، التي كانت مآسي في تاريخ العرب. وجراحات اللسان ليس لها التأم. فمن محاسن شوقي التي يجب أن تُذكر وتؤثر، أنه لم يستمطر عارض خاطره، في تقييد شغاء أو تخليد صلعاء، وما أجدره بقول نصيب الشاعر: ما قلت بيتاً قطّ، تستحي الفتاة الحية من إنشاده في ستر أبيها. كان شوقي عفاً، طاهر اللفظ، صافي النفس، تنعكس على مرآة نفسه النقيّة المحاسن دون القبائح. وكان لا يسلم من الحسد والمنافسة، ومثله من يحسد ويغصّ بمكانه. ولكنّه كان يمرّ باللغو كريماً وبالحدس عظيماً، وكأنه كان يرى نفسه فوق أن يزاحم، ويجد شوطه أبعد من أن يسابق، فيعفّ عن قدرة ويتواضع عن أنفة. وقد صدق حيث قال:

فلا حكمتي دعوى ولا منطقي هوى	ولا مبدئي لؤم ولا قلمي وغدُ
جعلتُ مديحي آية الود في الورى	فجاب به الدنيا وما انتقل الودُ
قوافٍ لرَبّ الشعر، لا النظم طائل	إذا هي سارت في البلاد، ولا النقدُ
يهذبها العلم الذي العلم بعضه	وهذا البيان الوحي، والفطنة الوقدُ
أوانس أحياناً شوارد تارة	لها لعب أنالها جدُ

وما قال هذه الأبيات، إلا على أثر قالة بلغته، وهذه كانت غاية ما ثار ثائره، ويجوز أن يكون وقع له غيرها، ولكنني لم أطلع على ذلك بمكاني من برّ الشام، والمصريون أدري بهذا مني، وأنت ترى أن في تعريضه هذا بمن ينافسه أو يحاول الغض منه، ما لا يجد فيه قائل مقالاً.

وقد كان يتجنب أيضاً المساجلات والمناقشات في شعره، فلا يهاجم ولا يهاجم. وربما نيل منه في غيابه، ولكنّه كان يقابل بالسكوت، ولعلّ سكوته هو لما تقدّم من ثقته بنفسه وشعوره، بأنه الصخرة التي ينحطّ عنها السيل. وربما لو ذهب في المناقضات مذهب الغابرين، لكان أتى ببدائع أبقاها عزوفه عن هذا الأمر ملفوفة في غلافها، مكنونة في أصدافها. فقد قرأنا، فعلمنا أن الشعراء المفلّقين، إنما يحلقون في سماء الفصاحة، عندما يناقض بعضهم بعضاً. انظر على سبيل التمثيل، قول رماح ابن ميادة يمدح قيساً، ويفتخر بها ويهجو تميماً وأسداً:

وأحقرُ محقور تميمٍ أخوكُمو	وإن غضبت يربوعُها ^(١) وربأُها ^(٢)
ألا ما أبالي أن تُخندِف ^(٣) خندِف ^(٤)	ولستُ أبالي أن يطنّ ذبابُها

(١) يربوع بن حنظلة بن تميم.

(٢) الرباب: هو تميم، وعدي، وعُكل.

(٣) تخندِف: هرّول.

(٤) خندِف: امرأة الياس بن مُضَر بن نزار.

ولو أن قيسًا قيسَ عيلان أقسمت
إذا غضبت قيسٌ عليك تقاصرت
وإن غضبت من ذا قريش فقل لها
وإني لقوالُ الجوابِ وإنني

فأجابه عبد الرحمن بن جهيم الأسدي:

لقد كذبَ العبدُ ابنُ ميادةُ الذي،
أرمّاحُ إنْ تُغضبِ صناديدٌ^(٢) خنْدِفِ
ولو أغضبتَ قيسٌ قريشًا لجدّعت^(٣)
لقد جرّ رمّاح^(٤) بن واقصة الخصى
وقد علّمَ المملوحُ بالشؤمِ رأسه
ولو أن قيسَ عيلان^(٥) أصحرت^(٦)
ولو أن قرْنَ الشمسِ كان لمعشرِ
ولكنها لله يملكُ أمرها
لعمري لئنْ شابتَ حليلةُ نهْبلٍ^(٧)
ولم تدرِ حمراءُ العِجانِ^(٨) أنْهَبَلُ
ووالله لولا أن قيسًا أذلةُ
لألحقْتُها بالزنجِ ثم رميتها

على الشمسِ لم يطلعَ عليكم حجائبها
يداكِ وفاتَ الرجلَ منك ركائبها
معادَ الإلهِ أنْ أكونَ أهابها
لمفتجِرٍ^(٩) أشياء يُعيبُ جوابها
ربًا وهو وسطُ الشولِ تدمى كعائبها
يَهجُ لكِ حربًا قصبها^(١٠) واعتيابها
مسامعَ قيسٍ وهي خُصعُ رقائبها
على قومهِ حربًا عظيمًا عذابها
قتيبة أنْ لم تحمِ قيسًا غضابها
لأنواءِ غنمٍ أغرقتها شعابها
لكانَ لنا إشراقها واحتجابها
بتقدّرتِه إصعادها وانصبابها
لبئسَ شبابِ المرءِ كان شبابها
أبوه أمّ المرى تبّ تبابها^(١١)
لئامٌ فلا يرضى لحرّ سبابها
بشنعاءِ يُعيبُ القائلينَ جوابها

(١) افتجّر الكلام: قاله من غير أن يسمعه فيتعلّمه.

(٢) صناديد: مفردا صناديد، وهو السيد الشجاع.

(٣) القصب: العيب.

(٤) جدعت مسامع: كناية عن أنهم صمّوا عن السّماع، والأصل في الجدع: القطع.

(٥) رمّاح: هو اسم ابن ميادة الشاعر.

(٦) قيس عيلان: جدّ جاهلي من مضر يعود نسبُه إلى نزار ثم عدنان.

(٧) أصحرت: خرجت إلى الصحراء، ويريد أن قيسًا لا تنتصر بحرب ولا تفوز بمغام.

(٨) النهبل: المعجوز.

(٩) حمراء العِجان: حمراء الدّبر، وهو سبٌ كان يجري على السّنة العرب.

(١٠) تبّ تبابها: دُعاء بالخُسرانِ والهلاك.

لا جَرَمَ أنَّ في هذا الشعر سواء من المهاجِمِ أو المُدافع، من جزالة اللفظ وبلاغة التأثير وعلو النفس وقوة الطبع، ما يندر أن يكون في شعر شاعر، وقد كان يلدُّ للقارئ ويحلولي في ذوق السامع، ويستعاد مرارًا لولا ما في جواب الشاعر الأسدي من المقادر؛ ولو أنهم كانوا اقتصروا على المفاخرة والمعاتبة، لكان بهم أحجى ولهم أنجى، وبالأفتدة أعلق وبزكاء شمائلهم أنطق. وعلى كلِّ حال، لم يعلم ماذا كان يكون من شوقي لو فاخره مُفاخر أو كآثره مكآثر، فإنَّه لم يسلك هذه الطريقة ولا اختار هذا المركب، ولو أنه كان اختاره أو دُفع إليه، لوجد مَنْ يجاذبه الحبل، ومَنْ يقف في وجهه وقوف الكفاء للكفاء. فلا حافظ إبراهيم ولا خليل مطران ولا الكاظمي ولا الرصافي ولا مَنْ في درجتهم، كان يعجز عن أن يقابل شوقي السَّجَلِ بالسَّجَلِ، ولكن إمامًا لرغبة منه عن الشحناء، وإمامًا لترفع منه عن مباراة النظراء، ربأ بنفسه عن القال والقييل وتباعد بها عن كلِّ نزاع من هذا القبيل، وأصبح الفذُّ الذي لا يُساجَلُ والجواد الذي لا يُجارى. حتَّى إنِّي قلت فيه، عند وفاته من جملة رثائي له:

ولقد رَوَيْتُ الشعرَ عن آحادهِ	وألفتُ للسَّبَّاقِ في حَلِباتِهِ
وقضيتُ فيه صَبوتِي وصَبابَتِي	وقطفتُ منه خَيْرَ نُواراتِهِ
وأثرتُ في الميدانِ بُزْلَ فُحولِهِ	وأطرتُ في الآفاقِ سُهبَ بُزاتِهِ
فرايتُ شوقي لم يدعُ في عصرِهِ	قِرْنا يهزُّ قناتَهُ لِقناتِهِ

- شوقي في بداية أمره -

ولمّا نشر شوقي الجزء الأول من ديوانه، وذلك سنة ١٩٠٠، بعث إليّ بعدد لا أتذكّر مقداره من النسخ، فنشرتها في بيروت ولبنان وسورية، وأعلنت عن ذلك الديوان في الجرائد السورية، وقلت في الإعلان: إذا كان الشعراء أربعة، فإنَّ الشاعر الذي يجري ولا يُجرى معه في هذه الأيام، والذي أحيى بشعره عهد أبي نواس وأبي تمام، إنما هو أحمد شوقي بك، شاعر مصر وصنّاعة العصر. إلى أسطر لم تبقَ في بالي. وكان شوقي، قد اشتهر وسار شعره في برّ الشام. ولكن هذا الديوان زاد في لمعانه، وجمعت أثمان النسخ وبعثت بها إلى شوقي. ولما كان الكثيرون لم يدفعوا أثمان النسخ التي خصّصناها بها كما هي عادة الشرقيين في استهداء المطبوعات مجانًا، فقد أرسلت من جيبي بثمان ما لم أقبض بدله إلى شوقي، ولم أخبره بأنَّ ذلك هو متي، لئلا يردّه إليّ.

وكان شوقي إلى ذلك العهد، ضعيف الحال لم يحصل على الثروة التي جمعها فيما بعد، والتي كان السبب فيها شعره بدون نزاع. ولما بعث إليّ بذلك العدد من نُسخ ديوانه، أهداني نسخة خاصة بي بجلد مُذهَّب، لاتزال في حوزتي، وقد كتب عليها في الصفحة الأولى: "إلى أميري وأخي شقيب أرسلان "شوقي" والتاريخ ٢٧ مارس ١٩٠٠". أما النسخة التي طُبعت في السنين الأخيرة، فهي تشتمل على قصائد مثبتة في الطبعة الأولى وعلى قصائد جديدة. ولكن مقدمة شوقي في الطبعة الأولى محذوفة من الطبعة الثانية. وهي المقدمة التي ترجم فيها نفسه، فقال:

- شوقي كما ترجم نفسه

"الآن أدخل في الحديث مع فريق، طلبوا منّي أن أجعل صورتني في هذه المجموعة، وآخرين رغبوا إليّ في كلمة تقال عنها وعن صاحبها، وأن لايقولها سواي. معذرتي إلى الفريق الأول، أن من يعرض صورته على الناس كمن يعرض وجهه عليهم، وأعوذ بالله وبالحيين أن أكون ذلك الرجل. على أن صورتني ما عشت بينهم ينظرون إليها، فإذا مت فليأخذوها من أهلي إذا جدّ بهم الحرص عليها. وللآخرين أقول: إني لا أزال في أول النشأة، وإن حياتي لم تحفل بعد بالعجائب ولم تمتلئ من الفوائد ولا المصائب، حتى أحدث الناس بأخبارها. لكنني لا أثق بيومي الآتي وأخاف بعدي رجوم الظنّ وضلّات الأحاديث، فلي العذر أن أجيب طلبهم، على أن يكون الحديث بيني وبينهم كما يكون بين الأحاب. سمعت أبي، رحمه الله، يردّ أصلنا إلى الأكراد فالعرب، ويقول أن والده قدم هذه الديار يافعاً، يحمل وصاة من أحمد باشا الجزار إلى والي مصر، محمّد علي باشا. وكان جدّي، وأنا أحمل اسمه ولقبه، يحسن كتابة العربية والتركية خطأ وإنشاءً. فأدخله الوالي في معيته، ثم تداولت الأيام وتعاقب الولاية الفخام، وهو يتقلّد المراتب العالية، ويتقلّب في المناصب السامية، إلى أن أقامه سعيد باشا، أميناً للجمارك المصرية. فكانت وفاته في هذا العمل عن ثروة راضية، بدّدها أبي في سكرة الشباب، ثمّ عاش بعمله غير نادم ولا محروم. وعشت في ظلّه وأنا واحده، أسمع بما كان من سعة رزقه، ولا أراني في ضيق، حتى أندب تلك السعة فكأنه رأى لي كما رأى لنفسه من قبل، أن لا أقتات من فضلات الموتى.

(إلى أن يقول): "أما ولادتي، فكانت بمصر القاهرة، وأنا اليوم أحبو إلى الثلاثين".

حدّثني سيّد ندماء هذا العصر المرحوم الشيخ علي اللبثي، قال: لقيت أباك وأنت حمل لم يوضع بعد، فقصص عليّ حلمًا رآه في نومه، فقلت له وأنا أمازحه: ليولدنّ لك ولد يخرق - كما تقول العامّة - خرقًا في الإسلام.

”ثمّ اتفق أني عدت الشيخ في مرض الموت، وكانت في يده نسخة من جريدة الأهرام، فابتدر خطابي يقول: هذا تأويل رويًا أبيك يا شوقي، فوالله ما قالها قبل في الإسلام أحد. قلت: وما تلك يا مولاي؟ قال: قصيدتك في وصف (البال)، التي تقول في مطلعها:

حفّ كأسها الحَبَبُ فهي فضّة ذهبُ

وها هي في يدي أقرأها. فاستعدتُ بالله، وقلت له: الحمد لله الذي جعل هذه هي ”الخرق“ ولم يضرّ بالإسلام فتيلًا“ اه .

”أخذتني جدّتي لأمي من المهد، وهي التي أرثيها في هذه المجموعة، وكانت منعمة موسرة، فكفلتني لوالدي، وكانت تحنو عليّ فوق حنّوهما، وترى لي مخايل في البرّ مرجوة. حدّثتني أنها دخلت بي على الخديوي اسماعيل، وأنا في الثالثة من عمري، وكان بصري لا ينزل عن السماء من اختلال أعصابه، فطلب الخديوي بَدْرَةَ^(١) من الذهب، ثمّ نثرها على البساط عند قدميه، ف وقعتُ على الذهب أستغل بجمعه واللعب به. فقال لجدّتي: اصنعي معه مثل هذا، فإنّه لا يلبث أن يعتاد النظر إلى الأرض. قالت: هذا دواء لا يخرج إلّا من صيدليتك يا مولاي. قال: جيئي به إليّ متى شئت، إنّي آخر من ينثر الذهب في مصر“ اه. ولا يزال هذا الارتجاج العصبي في الإبصار يعاودني، وكان الشيخ علي اللبثي كلّما التقت عينه بعيني ينشد هذا المِصرع للمنتبّي ”محاجر مسك ركبت فوق زئبق“ . انتهى، إلى آخر ما ذكره من صفحات حياته إلى السنة التي طُبِعَ فيها الجزء الأول من شوقيّاته. فتعرّض له ابراهيم بك المويلحي^(٢)، الكاتب المشهور ونشر مقالة في ”المؤيّد“^(٣)، ليست محفوظة عندي، إنّما الذي أتذكّره أنّ المويلحي هزأ بشوقي، فيما ذكره عن ارتجاج عينيه. وفي قول الشيخ اللبثي له: ”محاجر مسك ركبت فوق زئبق“، وخطأه في ترجمته لنفسه، زاعمًا أنّ مثل هذا غير مألوف عند المؤلّفين، وأنه لم يعهد أنّ مؤلّفًا ترجم نفسه في مقدّمة كتابه؛ وغير ذلك من المزاعم

(١) البَدْرَة من المال أو الذهب: الكميّة الكبيرة، وقيل هي عشرة آلاف درهم.

(٢) ابراهيم المويلحي (١٨٤٦-١٩٠٦). صحافي مصري من أدياء النهضة، أسّس جريدة ”مصباح الشرق“، له ”حديث عيسى بن هشام“، صاغه على نسق المقامات.

(٣) المؤيّد: جريدة مصرية أسّسها علي يوسف بالقاهرة سنة ١٨٨٩م.

المستغرب صدورها من أديب كبير مثل ابراهيم بك المويلحي. فلم أستطع على ذلك صبراً، ورددت على المويلحي بمقالة في جريدة "المؤيد"، هي أيضاً غير محفوظة عندي. وقد بعثت إلى مصر أبحث عنها في مجموعة المؤيد، بخزانة الكتب الملوكية، فأجابوني بأنهم بحثوا عنها، فلم يعثروا عليها. ولذلك لا أقدر أن أروي منها طائلاً يُذكر، لأن النثر لا يُحفظ كما يُحفظ الشعر. وقد وقع لي أن فقدت بعض قصائدي، فأمليتها كلها عن ظهر قلب، وأملت من قصائد أخرى مفقودة أبياتاً غير قليلة. ولكن لو فُقدت مقالة من المقالات أو فصلاً من الفصول، كما تسنى لي أن أروي من ذلك سطرين متتابعين. فلهذا أكتفي بأن أقول، أنني رددت على المويلحي متعجباً من مكابرتة، فيما هو محسوس لا خلاف فيه، فإن كثيراً من فحول المؤلفين قد ترجموا أنفسهم في كتبهم، ولسان الدين بن الخطيب، أعظم كتاب الأندلس ومن أعظم كتاب العرب، قد ترجم نفسه في كتابه (الإحاطة في أخبار غرناطة). وكذلك الإمام السيوطي شيخ المؤلفين، لا في العرب وحدهم بل في العالم كله^(١)، وهو الذي صنّف أربعمئة وستين كتاباً، وقد ترجم نفسه أيضاً في (حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة).

وعددت ذلك اليوم علماء آخرين ترجوا أنفسهم، فلم يجاب المويلحي على ردّي وقطع عن الكلام لعدم اتساع المجال للمماحكة، فكتب شوقي إليّ على أثر هذه المناقشة كتاباً يقول لي فيه: "دفعت اليازجي عني بيدٍ هدمت كيانه وألغت بيانه، وتحامل عليّ المويلحي فرددت عني الردّ الذي قطع حجته، فبعد أن كانوا يرمونه بالحسد والتحامل، جعلوا يرمونه بالجهل والتطاول، فسبحان من جعلك جلاّداً لأعدائي وروبرتسا لحسادي... إلخ". يريد بروبرتس القائد الإنجليزي، الذي دوّخ الترانسفال، وكان العهد بحرب الترانسفال قريباً.

- نموذج من رسائل شوقي -

وأكثر كُتب شوقي مفقود من عندي، بكثرة أسفاري، وضياع كثير من أوراقه، ثمّ هناك سبب آخر لصعوبة العثور على الأوراق التي أنشدها فلا أجدها، وهو أنّ ما عندي من الأوراق والطرّوس المكتوبة يملاً صناديق عديدة، بل الظروف التي تشتمل على تلك الأوراق، تخصّص عندي بالمئات لا بالعشرات. وهذا كلّ عدا المطبوع الذي منه صناديق أخرى مفعمة لزاماً. فإذا أردت أن أبحث عن مكتوب، لزم لذلك أيام وليالٍ وتعطيل أشغال. وبديهي أنّي لا أملك

(١) قال سيديو، مؤلف كتاب مدنيّة العرب بالإفريقية: إن السيوطي ألف من الكتب ما لم يقرأ كثير من الأوروبيين في حياتهم بعدد.

من الوقت، ما أتفرغ فيه للبحث عن أوراق غائصة في تلك اللجج الخضر، ولا شك في أن مكاتيب شوقي هي بين هذه الأوراق، ولكن لا تصل اليها. وقد عثرت اتفاقاً على كتاب منه، في تاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٠٧، يقول لي فيه ما يأتي:

أميري الحبيب الكريم

سلام الله العلي العظيم على ذلك الجنب الكريم وبعد، فإن أخي بيومي بك الذي يتقدم إليك برسالتني هذه، هو رجل كلّه أدب وإن لم يكن من رجال الأدب، وقد عزم على أن يقيم بيروت أياماً معدودة، وأبى إلا أن أدله على علمها ومنارها والأثر الفخم الجليل من آثارها وهو أنت، وها قد دلتته وإليك أرسلته، وأنا أغبطه بهذه الوفادة وأحسده على تلك السعادة.

المخلص
شوقي

- شوقي في سورية

وجاء شوقي مرة إلى سورية، لا أتذكر أية سنة، فوصل إلى عاليه، وكنت مصطافاً في صوفر فبعثوا إليّ يقولون: إن شوقي في عاليه، وإنه يريد مشاهدتك. وصادف أنني كنت ذلك اليوم ملتأثاً، فبعثت إليه بأن ينتظرنني وأني أكون في الغدّ عنده. وثاني يوم بكرت إليه وذكرت له سبب تأخري، فقال لي على سبيل المداعبة: رجوت أن تكون كاذباً ولا تكون مريضاً. فقلت له: المرض أحب إليّ من الكذب. ثمّ دعوته إلى صوفر، فمكث عندي يومين لا غير، وكان العهد قد طال عليّ بلقائه، وكان اشتدّ بي الشوق إليه، فوجدت عليه في قصر مدّة إقامته عندي، ولكنه كان أشبه بالطير يريد أن يبقى حرّاً طليقاً. وكان شوقي قبل ذلك في الأستانة، فحصلت معارفة بينه وبين المرحوم عمي الأمير مصطفى أرسلان، رئيس العائلة الأرسلانية في وقته، وكان ذهب يصطاف في تلك العاصمة، فأحبّ العمّ شوقي كثيراً، وكانا يتجالسان ساعات طوالاً وكلّ منهما حريص على عشرة الآخر، وكلّما طالت مدّة اجتماعهما طابت لهما.

ولما كان شوقي في عاليه، سأله أحد أعيان لبنان قائلاً: بلغنا أنك لقيت الأمير في الأستانة. فأجابه شوقي: ذا أمير؟ ذا ملك؟ قالها وهو ملآن إعجاباً بالأمير مصطفى. فكان وداده لعمي إلى هذه الدرجة، ممّا يزيدني تعلقاً به.

- زيارتي لمصر في أيام الحرب الطرابلسية -

ولمّا هاجمت إيطاليا طرابلس الغرب، سنة ١٩١١، كاتبُ الجهات، في اعمال الرحلة إلى تلك البلاد، نجدة لأهلها وفي تسريب الإمدادات المالية إليهم، وأبرقتُ إلى الآستانة ببرقيات في ذلك المعنى، جاءني عليها الجواب من محمود شوكت باشا، ناظر الحربية ببرقية طافحة بالشكر على ما كنت أبديه من الهمة في أمر المدافعة عن الوطن، وكان لي يد في استجاشة المصريين، لإمداد إخوانهم الطرابلسية سواء، فيما كنت أكتبه من المقالات المؤثرة في جريدة «المؤيد»، أو بما كنت أكتبه في رسائلي الخاصة إلى بعض أصحابي بمصر. وأخيراً كتبوا لي، ومن جملتهم الشيخ علي يوسف، صاحب المؤيد، يقترحون عليّ قدومي إلى مصر لأجل العمل معاً في إنجاد طرابلس. وصادف هذا الاقتراح هوى في فؤادي، إذ كنت أحدث نفسي من أول يوم هوجمت فيه طرابلس، بأن أذهب إلى هناك عن طريق مصر. وخالصة الأمر، أني جئت إلى مصر في خبر ليس هنا موضع تفصيله، وإنما أتيت به لمناسبة اجتماعي هذه النوبة بشوقي، وكيف كان ذلك؟

- استطراد -

جئت إلى مصر، فعين لي الجناب الخديوي ثالث يوم وصولي موعداً للملاقاة، وجلست في حضرته أكثر من ساعة، تتذاكر في تلك الحوادث المهمة والخطوب المدلهمة، ولقيت من سموه كل حفاوة وانعطاف. وما مضت أيام، حتى أدب الخديوي مأدبة لكامل باشا وفريد باشا، الصدرين السابقين في الدولة، فدعاني إليها، وكان ممن دُعي أيضاً شفيق باشا المؤيد من أعيان الشام، وبصري بك من أعيان الأرناؤوط، والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد. وعاد الخديوي فاستدعاني مرّة ثالثة، وأرادني على الإقامة بمصر وصرف النظر عن الذهاب إلي بركة. أرادني على ذلك بكل ريدة، فلم أقتنع وقلت له: إنني ما جئت من لبنان، إلا قاصداً الجهاد في طرابلس. فلما يئس من إقناعي بالبقاء في مصر، وودّعه لأجل السفر، أراد أن يساعدني مساعدة مالية فاعتذرت له، بأنه لا يلزمني شيء من ذلك، وأنه موجود في جيبي ما يسد حاجتي في هذه الرحلة، فألحّ في قبول المساعدة إلحاحاً شديداً لم أقدر على صرفه عنه، إلا بقولي: إنني إذا أنفقت ما لديّ ومست بي الحاجة إلى شيء، فلا أتأخر عن أن أستمدّ عاطفة سموكم. وكان هذا الحديث أمام أحمد بك العريس ومحمد بك عثمان.

- في طريقي إلى بنغازي وعودتي

وودّعت الجناب الخديوي وذهبت إلى الإسكندرية، ومنها ركبت السكّة الحديدية إلى مريوط، ومن آخر محطة لها ركبنا الخيل أنا ومَن معي من أتباعي الذين حضروا معي من جبل لبنان. وكانت جمعية الهلال الأحمر المصري، قد عهدت إليّ بقيادة قافلة ستمائة جمل موقرة أرزاقاً للمجاهدين في برقة، وخصّصت منها لي ولجماعتي الذين معي، محمول ثلاثين جملاً موقرة من كلِّ شيءٍ من مأكول وملبوس. فعندما وصلت إلى طبرق، لقيت في ذلك الموقع أدهم باشا الحلبي، وتركت في طبرق جانباً من الأرزاق للمجاهدين. ولما وصلت إلى معسكر عين منصور المشرف على درنه، حيث كان القائد العام أنور بك. سلّمتُ البعثات المصرية من الهلال الأحمر، ما به من نقود وأرزاق وحوائح. ولما وصلت إلى معسكر بنغازي، الذي كان أميره عزيز بك علي المصري، سلّمتُ الباقي للبعثات المصرية التي هناك، وكان منها الدكتور حافظ عفيفي.

أما محمول الثلاثين جملاً الذي خصّصه الهلال الأحمر ولجنة الإعانة بي، أتصرّف به كيف أشاء، فقد وزّعته على مشايخ الزوايا السنوسية مثل: سيّدي العلمي الغماري، شيخ زاوية البراعصة. وسيّدي محمّد الغزالي، شيخ زاوية ترت. وسيّدي الدردفي، شيخ زاوية شحات، وغيرهم. وأهديت جميع ما بقي إلى أنور باشا، ولم أستأثر لنفسي بشيء. وكذلك، كانت لجنة الإعانة خصّصت لي مائتيّ جنيه لنفقتي الخاصّة، فوزعتها إعانات وهدايا، لأجل تطيب خواطر المجاهدين، وبقيت أنفق على نفسي من صُلب مالي الذي كان معي مذ برحت منزلي في جبل لبنان.

ولما رجعت إلى مصر بعد قضاء سبعة أشهر في موطن الجهاد، كان قد نفذ كلّ ما معي من النقود، فلم أراجع الجناب الخديوي حسبما وعدّته، بل أرسلت إلى أهلي بأن يبعثوا لي ما يقوم بأودي، لأنني كنت ذاهباً إلى الآستانة لمذاكرة الدولة في قضية طرابلس، وكيف يجب أن لا تقطع إمدادها لها بالطرق الممكنة، حتّى بعد عقد الصلح مع إيطاليا.

- استطراد آخر

ليس هذا من موضوع شوقي في شيء، ولكنّه جاء استطراداً بسبب يعذرني الناس فيه، وهو أنّ كثيراً من الحساد لا يزالون يتشدّقون بأني بقيت في سويسرة عدّة سنوات أقبض

ثلاثين جنيهاً في الشهر من الخديوي السابق، ويجعلون هذه القضية مطعنا يحاولون به شفاء إحنة^(١) صدورهم. والحال، أن الخديوي السابق نفسه، يعترف بأنه الذي أرادني على قبول هذا المرتب، الذي كان يراه ضئيلاً بالنسبة إلى نفقاتي في القضية العربية الإسلامية عامة، وأني أنا مع ذلك اعتذرت له بادي ذي بدء، عن قبول هذا الراتب. وما وُطنت النفس على قبوله إلا بما شاهدت من إحاحه ومن إحاح صديقي سليمان بك كنعان اللبناني، الذي يسفر بيني وبين سمو الخديوي السابق، ويبيّن لي أنه ليس من الطمع في شيء أن يرضى مثلي بمكانه من قضايا عامة معلومة عند كل أحد، وفي هذه الغربة المتمطّية بصلبها، بقبول مساعدة أمير كبير، ذي ثروة طائلة، جلس على كرسي إمارة مصر ٢٣ سنة.

وكذلك، لا ينسى الخديوي السابق أنني لما ودّعته في سراي القبة، قاصداً موطن الجهاد في برقة، اعتذرت عن قبول أيّ رُفد منه، رغم ما راودني على القبول، ومع معرفتي أنه لا يعيب مجاهداً ذاهباً يقاتل عن قُطرٍ متّصلٍ بمصر، أن يقبل مساعدة من عزيز مصر.

وليس هذا الحديث بذني صلة مع ما نحن بسبيله، لولا ما لا يزال الحساد يثرثرون به في هذا الموضوع، بُكرةً وأصيلاً، وما لا يزالون يذيعونه لدى مَنْ لا يعرفني في بلادِي، من أنني لا أملك شيئاً ولا أقدر أن أعيش أنا وعائلي من وارداتي الخاصة. وهذا هو أيضاً بهتان صريح مخالف للمحسوس، يعلمه جميع أهل وطني. فلست أدعي كوني من ذوي الثروة المعدودة، ولكن ليس بصحيح أنني لا أقدر أن أعيش أنا وعائلي من ريع عقاراتي وأملاكي. إنّه لمستهجَن جداً الخوض في أحاديث كهذه، ولكن تحامل الحساد وتتبعهم العورات يحملان المرء أحياناً على تعقّب أكاذيبهم ولو على كُره منه. وأعود إلى شوقي، فأقول:

- جفوة لا سبب لها -

مضت عدّة أسابيع على مقامي بمصر، قبل أن ذهبت إلى برقة، ولم أشاهد شوقي. وقد كتنا أخوين، ونحن على البعد، وكنت «جلاداً لأعداء شوقي» وكنت أسترخص كلّ غالٍ - ومن جملة هذا الغالي صداقة مثل اليازجي - في سبيل مرضاته - فما غدا ممّا بدا؟ الجواب، أنني لا أعرف سبب تلك الجفوة، ولا موجب تلك النبوة، إلى هذه الساعة؛ أغصّ شوقي بمكاني من الجناب الخديوي، وكثرة ما رأى من احتفال سيّده بي؟ أم جاء من

(١) الإحنة: الحقد.

ألقى في أذنه أنني سأزاحمه في محلّه من القرب للجناب العالي؟ أم هو رجل له بدوات وغفلات، بينما هو حفيّ بخلافه، وفيّ مع إخوانه إذا هو مُعرض عنهم، متهاونٌ بحقوق المودّة التي بينه وبينهم؟ أم هو شاعر لا يتقيّد بشيء، ولا يريد أن يكون خاضعاً لتكاليف الحياة حتّى مع أعزّ أصحابه؟ أم هناك عذر آخر لا أعرفه، ولا يهتمني أن أعرفه؟

كنت نازلاً ضيفاً على صديقي المرحوم أحمد بك العريس، من أعيان بيروت ومن مأموري المعية الخديويّة، وكان منزله في العباسية. فلما وصلتُ إلى القاهرة، جاء إلى الأوتيل الذي نزلت به، وأبى أن يتركني فيه ليلة واحدة وسار بي إلى منزله، وأبقيت الرفاق الذين كانوا معي في أحد الفنادق. وكنت أختلف^(١) كل يوم إلى إدارة المؤيد، فأكتب مقالة افتتاحية. وهكذا كان دأبي مدّة الأربعين يوماً، التي سبقت سفري إلى برقة. وقال لي أحمد بك العريس ذات يوم: إنني قابلت شوقي، وقلت له: أفلا تدري أنّ أخانا الأمير هو هنا؟ قال: نعم. قال العريس: فهل اجتمعت به؟ قال شوقي: كلاً، لم أشاهده حتّى الآن، ومرادي أن أقوم له بحفلة تكريم في منزلي. ولما كان ناظر المعارف غائباً هذه الأيام، فقد أرجأت هذه الحفلة إلى ما بعد رجوعه. فقال العريس: الرجل لا ينتظر منك حفلة تكريم، وليس ما بينكما من الإخاء ممّا يوجب هذه المراسيم، ولكن الأشبه بك، والأليق بوفائك، أن تذهب وتسلم عليه. فقال له شوقي: سأفعل. إلا أنه مضت مدّة ولم يأت لزيارتي.

فأخذت القلم في أحد الأيام، وكتبت إلى شوقي:

أحِنُّ إلى شوقي وأهوى لقاءه	وأصبو ولكنّ ما إليه وصولُ
ويخبرني قلبي بأنّ فؤاده	كما كان لكنّ يعتريه ذُهلُ
ووالله ما يممتُ مصر وفوقها	يدانيه عندي صاحبٌ و خليلُ
فشوقي إلى شوقي بقدرِ محبّتي	وعندي حسابٌ للعتابِ طويلُ!

فما أجاب شوقي على هذا الخطاب، لا بشعر ولا بشر ولا بفعل. ولكنّه بقي يقول لأحمد العريس، إنّه يريد أن يعمل حفلة تكريم. وفي أحد الأيام زارني الأخ خليل بك المطران، وهو من العقل وكرم الأخلاق، ورعي الذمام بالمقام الذي يندر بين الأخوان، وكان يزيدني حبّاً له، ما كان بيني وبين عمّه حبيب باشا المطران من عيون أعيان سورية، وبينني وبين أولاده، ولا سيّما ندرّة بك المطران، من ذمام قديم وودّ متين. وكنت أعلم ما بين خليل

(١) اختلف: بمعنى أذهب.

وشوقي من المؤدّة، فكاشفته بما في نفسي من أمر شوقي، وقلت له: إنّه لا شيء يمكنه أن يكدر صفو ما بيني وبين شوقي من المؤدّة، ولكنّي أصبحت أستحي من الناس أن يعلموا بأني هنا من شهر، وأنّ شوقي لم يتكرّم بزيارتي، والقادم يُزار. فقال لي الخليل: لا يكن في نفسك شيء من هذه النبوة، فشوقي له من هذا القبيل الشيء الكثير، ولكننا نحن لا ينبغي أن نحمل ذهوله هذا على محمل الهجران.

- اجتماع بعد انقطاع

وذهب الخليل، وجاءني ثاني يوم، وقال لي لنذهب إلى أوتيل كونتنتال. فسرنا إلى هناك، فإذا بشوقي ينتظرنا، فجلسنا نحن الثلاثة ساعتين من الزمن. وفي ذلك المساء، كان تمثيل رواية (صلاح الدين الأيوبي) لأجل ضمّ ريعها إلى الإعانات الخاصّة بجرحى طرابلس. وكانت أُقيمت سوق خيرية للغرض نفسه، وأقبل الناس يشترّون منها. وكان الشيخ علي يوسف سألني: أتريد في هذه الليلة أن تنشّد شيئاً من الشعر، فإنّه يحتمل أن تتقدّم الرواية قصائد تُتلى على الجمهور. فقلت للشيخ علي: لا أرى نفسي هاتفة هذه الأيام بالشعر. وذلك أني كنت في كلّ صبيحة أكتب في المؤيد، مقالة إفتاحيّة خمسة أو ستّة أعمدة، أكتبها قطعة وراء قطعة ومرتبّ الحروف يصفها، بينما أنا لم أنته منها. فرجّحت في هذه المدّة كفة النثر، وأشالت كفة^(١) الشعر، وصرت أخشى أني إذا حاولت الشعر لا أبلغ منه درجة الإجادة. فلما اجتمعنا، الخليل وشوقي وكاتب هذه السطور، قال لنا الخليل: دعاني أن أتلو عليكم القصيدة التي هيأتها لهذه الليلة. فقرأ لنا قصيدة رائيّة، مطلعها:

كم بطلٍ مات ولم يسمر تحت هلال الرحمة الأحمر

وأتى عليها كلّها، وهي كسائر شعر الخليل، دقة معنى ورقة شعور وجزالة لفظ وعلوّ طبقة، وما كان لقب الخليل بشاعر القطرين تجوّزاً ولا تسامحاً. وأبدت له ملاحظة على بيت من تلك القصيدة، فأسرع بتغييره. فأما أنا وشوقي، فكنا لم ننظم شيئاً لتلك الحفلة، وسألنا الخليل عمّا إذا كنا سنقول شيئاً. فقال كلّ منا: ما هيأت شيئاً. إلّا أننا بعد أن انصرفنا وجئنا إلى مركز الهلال الأحمر، وجدت المكان خالياً، وقلت: لأستفيدنّ من هذا السكون، وأنظم بضعة أبيات بالأقلّ. فلما بدأت بالنظم، انبعث بي الشعر وانثالت عليّ الأبيات، كأنها

(١) أشالت الكفة: خفّت وعلّت، ورَجَحَ غيرها عليها. والمقصود أن الأمير شكيب قدّم النثر - في هذه المرحلة - على الشعر.

تنحدر من صبيب، فما مضت ساعة إلا وهي في يدي قصيدة تامة. وأصاب شوقي ما أصابني كما حدثني فيما بعد، وهو أنه انتبذ موضع مناجاة بعث به الشعر، فنظم قصيدة كما نظمت أنا بدون أن تكون سبقت له نية. ولما جئنا ملهى الأوبرا، جئنا نحن الثلاثة وكل منا قصيدته في جيبه. وكان الخليل قد علم منا أننا لم نهيء شيئاً، فما راعه إلا وأنا أنشد قصيدتي، وأحد الشعراء ينشد من بعدي قصيدة شوقي.

- حفلة السوق الخيرية

التي أقيمت لمعاونة مجاهدي طرابلس، وقصائد شوقي والمطران والمؤلف

أما قصيدة المطران، فليست تحت يدي لأثبتها في هذا الكتاب، وأما شوقي فقال ما يلي:

واكتب ثواب المحسنين وسطر	جبريل هلل في السماء وكبر
واطلب مزيداً في الرخاء لموسر	سل للفقير على تكرمه الغنى
يفتح على أمم الهلال وينصر	وادع الذي جعل الهلال شعاره
واقعد بهم في ذلك المستمطر	وتول في الهيجاء جند محمد
لله من ملأ كريم خير	يا مهرجان البر أنت تحية
والله زانك بالقبول الأنور	هم زينوك بكل أزهر في الدجى
من كل أبلج في الأكارم أزهر	حسنت وجوهك في العيون وأشرقت
فكانها قطع الغمام الممطر	كثرت عليك أكفهم في صوبها
بيع الحصى في السوق بيع الجواهر	لو يعلمون (السوق) ما حسنتها
أين المساوم في الثواب المشتري؟	جبريل يعرض والملائك باعة
ومن المهابة بين ألف معسكر	ومجاهدين هناك عند معسكر
لا يسمحون بها وبين الكوثر	موفين للأوطان بين حياضها
لا يطعنون القرن ما لم يندر	عرب على دين الأبوة في الوغى
أخذ المعازل بالقنا المتشجر	ألفوا مصاحبة السيوف وعودوا
لا يسألون عن السعير الممطر	يمشون من تحت القذائف نحوها

في أعينِ الباري^(١) وفوق يمينه
من كلِّ ميمون الضماد كأنما
جدلان هينةً عليه جراحه
ضمدتْ بأهداب الجفون وطالما
عوادُهُ يتمسحون برُدْنه^(٢)
وتكاد من نور الإله حياله

جرحى نُجلَّهُمُ كجرحى خيبرِ
دمُ أهلِ بدرٍ فيه أو دمُ حيدرِ^(٣)
وجراحه في قلب كلِّ غَضنفرِ
ضمدتْ بأعراف الجياد الضميرِ
كالوفدِ^(٤) مسحَ بالحطيمِ^(٥) الأطهرِ
تَبَيَّضُ أثناءً (الهلال الأحمرِ)



يا بنت (إلهامي) دعاءٍ معظمِ
توفيق مصر وأنت أصل في الندى
أنتم جمال الشرق زين ملوكه
لكم الندى آثاره وحديثُهُ
النيل فجرَ مشرعين وعيلاً^(٦)
أحييت في فضل الملوك وعزهم
إنَّ الذي قد ردها وأعادها
فنظمت ما نثرت يمينك شاكرًا
إني رأيت على الرجال مظاهرًا
وعلمت أن من النساء ذخيرة
لما توليت الهلال رفعتُهُ
ولكم دعوت نساء مصر لصالحِ
فكأنهنَّ عقائلٌ من هاشمِ

لسماءٍ عزك في البريةٍ مُكبرِ
وفتا كما الفرع الكريم العنصرِ
لا زال بيتكمُ جمال الأعصرِ
شغلُ السميع ونور عين المبصرِ
وتفجرت يُمناك خمسةً أبحرِ
ما مات من أم الخليفة جعفرِ
في بُرديتك أعاد في البحري
لا يحسن الإحسان ما لم يُشكرِ
فعلمت أن الفضل كلَّ المظهرِ
غيرَ الثناء لنفسها لم تذخرِ
بين السها شرقًا وبين المشتري
فنهضن فيه يقُلن عائشة أومري
وكأثك الزهراء^(٧) فوق المنبرِ

(١) الباري: ناحيت السهام.

(٢) حيدر، وحيدرة والحيدر: (لغة) الأسد، وهو من ألقاب الإمام علي بن أبي طالب.

(٣) الرُدن: أصل الكُم.

(٤) الحطيم: جدار الكعبة.

(٥) الوفد: الحجَّاج، والزائرون.

(٦) العيلىم: البحر.

(٧) الزهراء: فاطمة الزهراء (رحمها الله).

وأما قصيدتي، فهي هذه:

سلا: هل لديهم من حديثٍ لِقَادِمٍ
وهل وردتهم عن كريمٍ مقامه
وهل نظروا من نحو بَرَقَةٍ مُوهَنًا
تَأَلَّقَ فِي لَيْلَى ظِلَامٌ وَقَسَطِلٌ^(١)
مَوَاطِنَ إِخْوَانٍ تَمَلَّوْا مِنَ الرَّدَى
دِفَاعًا عَنِ الْأَوْطَانِ إِنَّ دِفَاعَهَا
تَهَيَّبَهُمْ فِيهَا الْعَدُوَّ مَهَاجِمًا
وَلَيِّنَ فِي إِقْبَالِهِ مِنْ إِهَابِهِ
فثَارُوا وَمَا كَانَتْ أَرَانِبُ رُومَةٍ
وَنِعْمَ سُقَاةَ الْمَوْتِ هُمْ كَلَّمَا بَدَتْ
وَحَسْبُكَ مِنْهُمْ كُلِّ قَوْمٍ نَمْتَهُمُو
وَكَمْ وَقَفُوا يَسْتَنْصِفُونَ عَدُوَّهُمْ
فَلَمَّا رَأَوْا عَجْزَ الدَّلِيلِ تَطَلَّبُوا
فَلَمْ يَكُ مِثْلَ السِّيفِ كَالْيَوْمِ قَاضِيًا
وَمَا طَالَ نَوْمَ السِّيفِ إِلَّا تَنَبَّهَتْ
أَخِلَّائِي سَوْقَ لِلْمَنَايَا مُقَامَةً
فَهَلْ لَكُمْ فِي سَوْقِ بَرٍّ وَرَحْمَةٍ
غِيَاثًا لِمَظْلُومٍ وَنَصْرًا لِمُصَارِحٍ
كَفَى بِالْهَلَالِ الْأَحْمَرِ الْيَوْمَ هَادِيًا
وَأَكْرَمَ بِأُمَّ الْمُحْسِنِينَ الَّتِي طَمَى

(١) القسطل: غبار الحرب.

(٢) الطرف: العين.

(٣) الشائم: الناظر بعينه.

(٤) الأراقم: مفردا الأرقم، وهو نوعٌ خيِّثٌ من الحيات.

(٥) المواضي: السيوف.

(٦) الغماغم: الغيوم.

من الغرب يروي فيه غِلَّةَ هَائِمٍ
سَمَانَ الْمَعَالِي فِي لَطَافِ النَّسَائِمِ
فَلَا حَتَّ لَهُمْ مِنْهَا بُرُوقُ الصَّوَارِمِ
فَتَشِيءُ سُحْبَ الدَّمْعِ مِنْ طَرْفٍ^(٢) شَائِمٍ^(٣)
كُؤُوسًا تَسَاقُوهَا بِمَلَأِ الْحَلَاقِمِ
لَدَى كُلِّ قَوْمٍ كَانَ أَوْلَى الْمَكَارِمِ
فَجَاءَ دَبِيبُ اللَّصِّ فِي لَيْلٍ قَاتِمِ
وَهَلْ يَخْدَعُ الْإِنْسَانَ لَيْنُ الْأَرَاقِمِ؟^(٤)
مِنَ الْغَرْبِ أَكْفَاءَ اللَّيْثِ الضَّرَاغِمِ
بُرُوقِ الْمَوَاضِي^(٥) فِي رُعودِ الْغَمَاغِمِ^(٦)
أَرُومَةٌ قَحْطَانٍ وَنَبْعَةٌ هَاشِمِ
وَهَزَّوْا مِنَ الْأَمْلاكَ جَذَعَ الْمَرَاحِمِ
لَدَى الصَّارِمِ الْبِتَّارِ صِدْقَ التَّرَاجِمِ
وَلَا الْعَهْدَ مِثْلَ الْآنِ أَحْلَامِ حَالِمِ
عَيُونَِ الدَّوَاهِي مِنْهُ عَنِ جَفْنِ نَائِمِ
تَبَاعِ حَفَافِيهَا غَوَالِي الْجَمَاجِمِ
تَنَالُونَ فِيهَا بَاقِيَاتِ الْمَغَانِمِ
وَصَمْدًا لِمَجْرُوحٍ وَقُوتًا لِمَاصِمِ
لَمَنْ حَارَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشُّكِّ دَاهِمِ
جَدَاهَا كَلْجُ الْعَيْلِمِ الْمُتَلَاطِمِ

سليلة (إلهامي) فمن كل جانب
وأجدر يقوم أمطرتهم هياتها
وحاشا بلادًا أنتمو عن يمينها
لقد حوصروا برًا وبحرًا وأمطروا
وقد طالما أرهفتُ حدَّ يراعتي
أجل إننا من أمة عربية
ولو أنصف الأقوام في حقهم رأوا

لها نَسب نحو البحور الخضارم
بأن يأملوا قُرب انفراج المآزم^(١)
يُفتُّ بأعضادٍ لها ومعاصم
بحُمُر المنايا من سواد الغمام
فلما تعالی الخطب عُدتُ لصارمي^(٢)
نكافحُ عنها عاديات الأعاجم
مؤاساتهم فرضًا على كل آدمي

قال شوقي لأحد أصحابه بعد الإنصراف، إنه كان في أثناء إنشاد المنشد لقصيدته لا يفكر إلا بي. وقلت أنا لأحد أصحابي: إنني كنت متمثلًا شوقي من أول إنشادي، إلى آخره.

- سفر المؤلف إلى حرب طرابلس

وذهبت بعدها إلى برقة، وبقيت في الجهاد زهاء ثمانية أشهر، ورجعت في رمضان، فعيّدت في الإسكندرية وأنا ضيف على الجناب الخديوي في سراي رأس التين.

- مشاهدته لشوقي بعد رجوعه منها، وذلك في سراي رأس التين

وشاهدت شوقي نهار العيد، عندما اكتظت السراي بوفود المهنتين، وبعدها لم أشاهد شوقي إلا في الآستانة لأول نشوب الحرب الكبرى.

فسنة إعلان الحرب الكبرى، كان الخديوي السابق في الآستانة كما لا يخفى، فأطلق عليه الرصاص، شاب مصري من الوطنيين المتهوسين، فجرحه عدة جراحات، وذلك أمام الباب العالي والحرس الأتراك الذين كانوا بجانب مركبة الخديوي، انحوا على ذلك الشاب المصري بالسيوف فقرطبوه وقتلوه في الحال. وهي قصة ليس موضعها هنا، ولكننا أشرنا إليها لمناسبتها مع اجتماعي بشوقي في الآستانة، فإنه بعد هذه الحادثة، قدم إلى الآستانة عدد كبير من المصريين، ليعودوا الجناب الخديوي ويظهروا للدولة اهتمامهم به وكان من هؤلاء أحمد شوقي، شاعره وريبب نعمته.

(١) المآزم: الأزمات - جمع على غير القياس.

(٢) الصارم: السيف القاطع.

- التقاء الأخوين في استانبول، في أول الحرب العامة

فبينما أنا مرةً في باخرة تسير في البوسفور، إذ صادفت أخي شوقي، فسررت بهذه المصادفة، وقال لي: إنّه كان يريد أن يقابلني لأجل مسألة ذات بال. قلت له: وما المسألة؟ فقال لي: أنت تدري هذا الحادث الفظيع الذي وقع مع الخديوي، وتدري أيضًا أنه ساء تأثيره في مصر، وأنّ الذين لا يحبّون الخديوي هم أنفسهم امتعضوا من هذا الحادث. وسواء كانت الدولة لا تعلم أسرار هذه الواقعة أو كانت على علم بها، فإنّ الواجب عليها أن تتلافى هذا الأمر، جمعًا لكلمة الأمة وتفاديًا من الفرقة بين الآستانة ومصر. فقلت له: كلّ هذا عندي مسلّم، فماذا تريد أن أصنع لك؟

- اقتراح شوقي على المؤلف عيادة السلطان للخديوي

قال لي: إنّ الخديوي لا يزال في فراشه، يعاني آلام جراحه، وإنّه يليق بمولانا السلطان أن يجبر خاطره الكسير بعيادته له في قصر بالشوقلي، وليس في هذا ما يحطّ من قدر السلطان، بل فيه ما يستنطق كلّ الأفواه بالثناء عليه والدعاء له. وما الخديوي إلاّ أمير من أمرائه، بل هو أكبر أمرائه، فزيادة تشريف السلطان للخديوي، تعود على السلطان نفسه. وأبدى شوقي وأعاد في هذا الأمر، وقال لي: كلّ من حادثهم في هذا الموضوع، أجابوني أنه ليس لهذه المسألة غيرك، فإن لم تقدر عليها أنت فلن يقدر عليها أحد. فأجبت بكلّ إيجاز: بعد يومين، تعالَ إليّ فأخبرك بما عملت، وأنا معك في هذه الفكرة.

وفي اليوم التالي ذهبت إلى طلعت، وكان ناظرًا للداخلية، فأخبرته بالخبر وقلت له: إنّي مؤيد لهذه الفكرة التي عرضها شوقي، ولا أرى حلاً لهذه المسألة أحسن من هذا. فقال لي طلعت في أول جوابه: أنجرتُ هذا الشيخ الكبير (يعني السلطان) إلى محلّ بعيد مثل الشوقلي؟ (لأنه في آخر البوسفور).

وقبل أن أجيبه على هذه الجملة قطع عليّ الكلام، وقال لي: حسن أنت صديق للأمير سعيد حلیم الصدر الأعظم، فاذهب واعرض عليه هذا الاقتراح، فإنّي لا أقدر أن أبتّ في مسألة عائدة للعائلة الخديويّة بدون علمه، ولا يجيء هذا منّي وإنما أنت تقدر أن تقنعه، فإذا اقتنع فأنا موافق كلّ الموافقة. كُنْ من هذا على ثقة. فذهبت إلى الأمير سعيد حلیم في منزله في بنى كوى على الشاطئ البوسفور، فوجدت عنده ابراهيم بك صاحب زاده، ناظر العدلية،

واسماعيل مشتاق بك، رئيس كتاب مجلس الأعيان، وأشخاصاً آخرين وكلهم جلوس أمام قصره على رصيف البحر. وكانوا ينتظرون الخبر من الدردنيل عن وصول الدارعتين غوين وبرسلاو الألمانيّتين اللتين طاردهما الأسطول الإنجليزي والأسطول الأفرنسي ببوارج عديدة، فاضطرتا أن تقصدا مياه تركيا وعبرتا الدردنيل، فلم يقدر أسطول الحلفاء على العبور وراءهما. ولكن فرنسا وإنجلترا احتجتا على تركيا بايوائها البارجتين الألمانيّتين، ولذلك اتفق الأتراك مع الألمان، على أن يجيبوا دول الحلفاء بأن تركيا اشترت الدارعتين بدلاً من الدردلوت رشادية، التي كانت تركيا أوصت عليها في معامل إنجلترا، وأنفقت عليها ملايين من الجنيهات. وعندما حان أوان تسليمها للدولة، ضبطها الإنجليز قائلين إنهم على باب حرب فقد يحتاجون إليها. فدخلت غوين وبرسلاو إلى مياه البوسفور، ولبس بحريتهما الطرايش الحمر، علامة على أنهم دخلوا في خدمة الدولة العثمانية، وما كان ذلك إلا بالتواطؤ بين تركيا وألمانيا قطعاً لحجة الحلفاء.

فساعة ذهابي لمواجهة الصدر الأعظم، كانت الساعة التي كانوا ينتظرون فيها وصول غوين وبرسلاو إلى جناق قلعة. فجلست أنتظر انصراف القوم من حضرة الصدر، فطال جلوسهم، وتبرمت بطول مكثهم، لأنه كان عندي ذلك الكلام المهم الذي أريد أن أفضي به إلى الصدر، وهو قضية عيادة السلطان للخديوي. فلما غابت الشمس، قلت للأمير سعيد حلیم همساً في أذنه: إن لي كلاماً خاصاً معك. فقام من فوره وتنحى جانباً، وسألني عما عندي. فحكيت له الحكاية وأبدت له ضرورة إجابة هذا الرجاء، لأن فيه جبراً للخاطر المصريين وسداً لباب الشقاق، وإصماتاً للقال والقال وتطيباً لنفس الخديوي، الذي جرح أمام الباب العالي وكاد يموت لولا لطف الباري به وتأخر أجله، فقال لي: ولماذا تدخل المصريين في هذا الموضوع؟ قلت له: لأن الرجل هو خديويهم، ولاشك في أنهم لا يرضون بالاستخفاف بأمره، حتى الذين منهم يكرهونه، لا يهون عليهم ما حصل له لأسباب متعددة. فقال لي، رحمه الله: إنك أنت تعرف هذا الرجل معرفة جيّدة، فقولك هذا هو خلاف ضميرك. وبينما كنا نتكلم، كنا نمشي غير متباعدين عن الجماعة الذين كانوا جالسين. فلما رأوا حديثنا قد طال انسلوا نجياً، ونحن دخلنا حينئذ إلى القصر. فكلمة الأمير سعيد حلیم لي: كلامك هذا خلاف ضميرك، رددتُ عليها بشدة قائلاً له: هذه المسألة غير شخصية، وأنا الآن لا أقترح هذا الاقتراح لأجل شخص الخديوي، بل لأجل مقامه ولأجل أنه أمير مصر من قبل السلطان الأعظم. ومن العجب أنك تعاكس هذا الاقتراح، وأنت تعلم ما أعلم أنا

من ضرورته، حوصًا لهذا الشقّ الذي وقع. وبالتالي، فالخديوي هو ابن عمك، وكلّ شرف يناله، هو أنت قسيمه فيه، سواء كان لك عدوًّا أو صديقًا.

وكان كلامي بشدّة وحدة، وحضره علي باشا جلال، بعد أن دخلنا إلى القصر، واشمأز الصدر الأعظم من هذا الاقتراح ومن إصراري عليه، وبقي يجادل بقوله إنَّ المؤيّد، جريدة الخديوي تزعم أننا نحن أرسلنا نقتل الخديوي، فإن أرسلنا إليه السلطان يعود. فلا عجب أن يقولوا إنّه لَمَّا لم يمُت عادوا الآن يحاولون استرضاءه. فقلت له، وقد يئست منه: والله لا أعلم لماذا أغيظك وأغيظ نفسي في أمر كان الأخلق بك أنت أن تقترحه. ونهضت منصرفًا وتركته واجمًا، وظننت بعد أن فصلتُ من عنده أنني لن أتصافى بعدها معه.

ولكن ما مضى أيام، حتّى صادفته في بيت خليل بك، رئيس مجلس النواب، أو المبعوثين كما يقولون، فأراد خليل بك أن يقدمني للأمير سعيد الصدر الأعظم، بصفته رئيسًا للمجلس، وبصفتي أنا من أعضائه. فضحك الأمير، وقال له: أنا أعرفه قبلك بكثير، وهذا هو أرسلان اسم على مسمى. يشير إلى معنى هذا الاسم بالتركية والفارسية، وهو الأسد. فإنّ هذه اللفظة هي من جملة ألفاظ، دخلت بين العرب من القديم وسَمّوا بها أعلامًا. ولو لم يكن سعيد حلیم صاحب أخلاق، لَمَّا كان رضي عني بعد ذلك الجدل العنيف؛ ولكنّه كان عالي الهمة، صحيح المبدأ، حافظ الذمام. وكان يعلم نبالة مقصدي في ذلك الاقتراح، ولم يكن يسيء الظنّ بي، فتحمل منّي ذلك الكلام الذي كلّه تأنيب، ولم يتغيّر فكره من جهتي، وبقيت بيننا الصداقة مثل ذي قبل لم يشبها شائبة.

ثمّ نعود إلى اقتراح شوقي، فإنّه جاءني بعد يومين يستطلع نتيجة المسعى. فأخبرته بأنني قابلت طلعت واقتنع بكلامي، وأسعف في المسألة، ولكنّه أرسلني إلى الصدر الأعظم وربط المسألة به، وهذا حتّى الساعة يُبدي شيئًا من الصعوبة. ولم أزد على هذه الجملة؛ ولا أخبرت شوقي بما حصل بيني وبين الصدر من الجدل والحدة، حتّى لا أزيد الفتنة بينه وبين الخديوي، ونحن كُنا نسعى في رأب الصدع لا في توسيعه. وكنت في جوابي لشوقي آسفًا كاسفًا، إذ كنت أومل تحقيق أمله وأملي، فخاب أملنا نحن الاثنين. وكان الوقت رمضان، فدعوت ثاني يوم المرحوم عبد الحميد بك عمّار من أعيان المصريين، للإفطار معي في "بك أوغلي"، ورويت له القصة محتجًا^(١) منها ما وقع من معارضة الصدر الشديدة،

(١) احتجّن الشيء: حبّسه وضمّ به، (مجازًا): لم يُظهره.

ومكتفياً بالقول إنَّ هذه المسألة لا تزال قيد المذاكرة. فذهب عبد الحميد بك عمّار إلى الخديوي، وأخبره بالقصة ولم أعلم كيف كان وقعها عنده؟

ودخلنا بعد ذلك في الحرب العامّة، وانقطع كلّ اتّصال عادي بين الدولة وبين مصر، وأصبحت، لا أعلم عن أصحابي بمصر كثيراً ولا قليلاً، إلى أن مضى على هذا عام أو عامان، فعلمنا أنّ الإنكليز دفعوا إلى مالطة جمّاً غفيراً وأزعجوا^(١) آخرين إلى أروبة. وكان فيمن أزعج عن بلاده إلى أروبة أحمد شوقي، فانتجع إسبانية وناح على الأندلس، ولكنّه خفض هناك في عيشة راضية وبيئة هادية، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد أن انطفأت نار الحرب.

- لقاء في باريز بعد الحرب العامّة

ولم يسعدني القدر بعد ذلك بلقاء أخي شوقي إلى سنة ١٩٢٦، وذلك في باريز، حيث كان شوقي جاء يقيظ^(٢) في أروبة. وكنت أنا مع زميلي، إحسان بك الجابري، نتذاكر مع الحكومة الإفرنسية، بدعوة منها في القضية السورية. وكنا نازلين في أوتل "ماجستيك"، فما أنا ذات يوم إلا وشوقي قد طلع عليّ بدون ميعاد، ولا سابق علم لي بوجوده في باريز. فدخل على قلبي من السرور برؤيته، ما يدخل على الأخ الذي غاب عنه أخوه منذ بضع عشرة سنة، ومن لا تسمح له دواعي السياسة أن يراه كلّما أراد، لأنه من قبل ذلك الحين كانت صدرت الأوامر بمنعي من دخول مصر، فشبّ كلّ سعي في حلّ هذه العقدة. فكيف يمكنني بعد هذا أن أشاهد شوقي إلا بقدر لا يخطر في الفكر، وفي بلاد الغربية. وقد كان لا يؤذّن لي بدخول باريز- والآن لا يؤذّن لي فيه - إلا بدعوة خاصّة من حكومة فرنسة.

أهل العقيق وأمسينا على سرف

هيهات هيهات قد أمست مجاورة

هذا لعمرك شمل غير مؤتلف

حي^(٣) يمانون^(٤) والبطحاء منزلنا

فذهبت أردّ الزيارة لشوقي في الفندق الذي كان فيه من الحيّ اللاتيني، فلم أجده. وبينما أنا صادر، إذا بمقهى جالس فيه شوقي مع محمّد أفندي عبد الوهاب، وآخرين حسبما تقدّم الكلام على هذه النكته، لأنّ هذا المقهى هو المسمّى بقهوة داركور، وكنا نجلس فيها منذ ستّ وثلاثين سنة، ونحن شبّان، فعدنا نجلس فيها ونحن شيوخ.

(١) أزعجوا: بمعنى طردوا.

(٢) يقيظ: يصطاف.

(٣) حيّ (ههنا): بطن من بطون العرب.

(٤) يمانون: من أهل اليمن.

- في مقهى الجامع

وأخذنا مذ ذاك نجتمع في مقهى الجامع؛ حيث كان يوجد رجل أديب، باهر الذكاء، واسع الرواية، فصيح اللهجة، اسمه طاهر الصبّاغ، مكّي الأصل تونسي الدار. كان وجوده في ذلك المقهى باعث نشوة وسبب سلوة لكلّ مَنْ ينتاب المحلّ، وكان يروي كثيراً من شعر شوقي وغيره من الشعراء المُفْلِقِينَ، كما أنه كان يقرأ أكثر مقالاتي ويتّبعها. فكان إذا جئت أنا وشوقي ومحمّد عبد الوهّاب، ومَنْ معنا من الأصحاب، وجلسنا للمنادمة وسماع الألحان الشجيّة على نقرات العود، يأخذ السيّد طاهر الصبّاغ الطرب ولا يسعه المكان من الفرح. وكان يتحرّر كيف يصنع ليوفّر أسباب راحتنا وسرورنا، ولكنّه في آخر الأمر عتب على أخي شوقي لكونه وعده بنسخة من ديوانه، وذهب من باريز ولم يُنجز وعده هذا. فلما كاشفني بهذه الموجدة، أخبرته عن غرائب شوقي في الذهول، وقلت له: لو عرفت أمره في هذا الشأن لعذرته. وقد توفي الصبّاغ إلى رحمة ربّه، قبل وفاة شوقي بقليل رحمهما الله تعالى.

- شوقي النائر

ولم يكن شوقي شاعراً فذاً فحسب، بل كان نائراً بليغاً مترسلاً ضليعاً، متين العبارة سلسلها، يقلّ في الكتاب والمترسّلين مَنْ يصوغ صياغته. إلا أنّ شعره قتل نثره. فبينما هو في الشعر الفدّ الذي يجري ولا يُجرى معه، إذا هو في النثر أحد جماعة يجري معه الناس مثني وثلاث ورباع. ولا شك أنّ كفة نظمه رَجَحَتْ بكفة نثره رجحاناً بيننا، حمل الناس على الظنّ بضعف منته في صنعة الكتابة. وليس الأمر كذلك، بل كان له نثر رائق وترسّل مُؤنِق وفصول شائقة، كانت تخلد في عالم الأدب لو لم تفتك بها قصائده.

- كلمة المنفلوطي^(١) في شوقي والمؤلّف

وقد كان السيّد المنفلوطي رحمه الله، يوم ترجم شعراء العصر وكتابه المعدودين، حكم لشوقي بالسبق في ميدان الشعر، وجعل لكلّ واحد من هؤلاء تعريفاً، كان في آية في الإيجاز، ولما وصل إلى كاتب هذه السطور، قال: لو لم يكن أكتب كاتب لكان أشعر شاعر. ولكنهما كفتان كلّما رَجَحَتْ الواحدة، أشالت الأخرى. ويظهر أنه راجع نفسه فيما بعد، أو أنّ الناس

(١) مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤)م. من مشاهير الكتاب بمصر في عصره، تخرّج في الأزهر، وكان من تلاميذ الإمام الشيخ محمّد عبده، له "العبرات" و"النظرات" ومؤلّفات مترجمة.

اعترضوا عليه في قوله عن هذا العاجز: لو لم يكن كاتباً فريداً، لكان شاعراً مُجيداً. فهما كفتان كلِّما رَجَحَت الواحدة، أشالت الأخرى.

ولست أقصد بهذا النقل شيئاً من الاعتراض عليه، ولا أنا ممَّن يسوقه الغرور، إلى أن يظنَّ في نفسه أنه أشعرُ شاعرٍ أو أكتبُ كاتب، ولا أنه كاتب فريد وشاعر مُجيد، وما حفلت في حياتي بشيء من هذه الألقاب، ولا احلَّولى في صدري ما ينحلني الناس إياه منها، كأمر البيان وما أشبه ذلك، والجواد عينه فراره^(١)، والشاعر لقبه شعره والكاتب سمَّته بيانه، والإنسان حلَّيته عمله. ولكنني ذكرت عبارة المنفلوطي في عرض الكلام عن كفتي النظم والنثر، اللتين إن غلبت إحداهما على الأخرى، سحقتهما في أعين الناس، كما جرى لشوقي.

- مثال من نثر شوقي

ومن أحسن ما رأيت لشوقي في باب النثر، مقدّمته لشوقياته، الطبعة الأولى، ولا أعلم لماذا حذفوا تلك المقدّمة في الطبعة الثانية؟ وهو برع فيها على الكتاب، فضلاً عما برع في ديوانه على الشعراء. ولعلّ الذي علا فيه ذلك اليوم ذلك العلوّ، وهو كونه عالج موضوعاً كان أدري به من غيره، وهو موضوع الشعر الذي كانت مُهجته مَصوغة منه ومحبوكة به، فجاء كلامه في هذا المقام بدعاً لا ينظر وفرياً فرياً يُخلد ولا يُقلد. انظر إلى قوله: "وكان أبو العلاء يصوغ الحقائق في شعره، ويوعي تجارب الحياة في منظومة ويشرح حالات النفس، ويكاد ينال سريرتها ومَن تأمل قوله من قصيدة:

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا

وقابل بين هذا البيت وبين قول أبي فراس:

مُعَلّتي بالوصل والموت دونه إذا متُّ ظمآنًا فلا نزل القطرُ

"ثمَّ انظر إلى الأول، كيف شرَّع سنة الإيثار، وبالغ في إظهار رقة النفس للنفس وانعطاف الجنس نحو الجنس. وإلى الثاني، كيف وضع مبدأ الأثرة وغالى بالنفس، ورأى لها الاختصاص بالمنفعة في هذه الدنيا، تعيش فيها جافية ثمَّ تخرج منها غير آسية، علِم أن شعراء

(١) الجواد عينه فراره: أي يُغنيك شخصه ومنظره عن أن تختبره، وأن تُفَرَّ أسنانه.

وقررتُ الفرس: إذا نظرت إلى أسنانه، وأراد الكاتب: أن يريق عينيه يُغنيك وحده عما سواه.

العرب حكماء، لم تعزب^(١) عنهم الحقائق الكبرى، ولم يفهم تقرير المبادئ الاجتماعية العالية، وأنهم أقدر الأمم على تقربها من الأذهان وإظهارها في أجلى وأجمل صور البيان. "وكان أبو العتاهية ينشئ الشعر عبرة وموعظة، وحكمة بالغة موقظة، وكان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(٢)، رضي الله عنه، يرجع إليه، كذلك في الوعظ والإرشاد والتحذير من الرذائل والإغراء بالفضائل". إلى أن يقول: "اشتغل بالشعر فريق من فحول الشعر جنوا وظلموا قرائحهم النادرة، وحرموا الأقوام من بعدهم. فمنهم من خرج من فضاء الفكر والخيال، ودخل في مضيق اللفظ والصناعة. وبعضهم أثر ظلمات الكلفة والتعقيد على نور الإبانة والسهولة. ووقف آخرون بالقريض عند القول المأثور "القديم على قدمه"، فوصفوا النوق على غير ما عهدها العرب عليه، وأتوا المنازل من غير أبوابها، ودخلوا البيداء على سراب. وانغمس فريق من بحار التشابه، حتى تشابهت عليهم اللجج، فخرجوا منها بالبلبل، وزعمت عصابة أن أحسن الشعر، ما كان بوادٍ، والحقيقة بوادٍ، فكلمًا كان بعيدًا عن الواقع، منحرفًا عن المحسوس، مجانبًا للمحتمل، كان أدنى في اعتقادهم إلى الخيال وأجمع للجلال والجمال، حتى نشأ عن ذلك، الإغراق الثقيل على النفس، والغلوّ البغيض إلى العقول السليمة".

"على أن الكلّ قد مارسوا الشعر فتنا على حدة. واتخذوه حرفة وتعاطوه تجارة، إذا شاء الملوك ربحت، وإذا شاءوا خسرت. ثم لم يفهم ذلك، حتى هجوا الشعر وذمّوه بكلّ لسان، فزعموه مجلبة الشقاء، وقالوا إنه محسوب على الشعراء، يفيض من أرزاقهم وينحت من قلوبهم، ويعرّضهم لإراقة ماء الوجوه. ولقد والله، زعموا صدقًا وقالوا حقًا، وإنّ هذا الجزاء فئة يتوقعون أرزاقهم من ملوك كرام، يخلقهم الله لرواج حرفتهم، فإذا لم يخلقوا كسدت الحرفة، وأخطأت الأرزاق، على أنه يُستثنى من هؤلاء قليل لا يُذكر في جنب الفائدة الضائعة بضياح الشعر، مديحًا في الملوك والأمراء، وثناءً على الرؤساء والكبراء، وإلا فمن دواوينهم ما يخلق^(٣) أن يكون المثال المحتذى في شعر الأمم، كابن الأحنف، مرسل الشعر كتبًا في الهوى ورسائل، ومنتخذه رسلاً في الغرام ووسائل. وكأبن خُفاجة^(٤)، شاعر الطبيعة ومجنون ليلاها وواصف بدائعها وحلاها. وكالبهاء زهير، سيّد من ضحك في القول وبكى، وأفصح من

(١) عَزَبَ: غابَ وخفيَ.

(٢) أبو العتاهية (٧٤٨ - ٨٢٥)م. نشأ في الكوفة، واشتهر بشعر "الزهد" والتنكّر للدنيا.

(٣) يَخْلُقُ: يَجْدُرُ.

(٤) ابن خُفاجة (١٠٥٨ - ١١٣٨)م. شاعر أندلسي أبدع في وصف الطبيعة.

عتب على الأحمبة واشتكى. وحسبك أنه لو اجتمع ألف شاعر، يعزّزهم ألف ناثر، على أن يحلوا شعر البها أو يأتوا بنثر في سهولته لانصرفوا عنه، وهو كما هو“.

”ولا أرى، بدأ من استثناء المتنبي، مع علمي أنه المداح الهجاء، لأن معجزه لا يزال الشعر ويعليه، ويفري الناس به فيجدده ويحييه. وحسبك أن المشتغلين بالقريض عموماً، والمطبوعين منهم خصوصاً، لا يتطلعون إلا إلى غباره، ولا يجدون الهدى إلا على مناره. ويتمنى أحدهم لو أُتيح له ممدوح كمدوحه ليمدحه مثل مديحه، أو لو وقع له كافور مثل كافوره ليهجوه مثل هجائه. فمثل أبي الطيب في تشبه الشعراء به، وسعيهم لبلوغ شأوه في المدح أو الهجو، كمثل قائد مشهور الأيام، معروف بالحزم والإقدام، قد أُشربت قلبه الجند ومُلئت نفوسهم ثقة منه، فلو قذف بهم في مهاوي الهلاك وهم يعلمون، لما جبنوا ولا أحجموا. هذا مع اعترافهم بأن المتنبي صاحب اللواء. والسماء التي ما طاولتها في البيان سماء. ولو سلّم من الغرور، وسلّم الناس من لسانه لأجلته إجلال الأنبياء“.

”والحاصل إن إنزال الشعر منزلة حرفة، تقوم بالمدح ولا تقوم بغيره، تجزئة يجل عنها، وتبرأ الشعراء منها. إلا أن هناك ملكاً كبيراً ما خلّقوا إلا ليتغنّوا بمدحه ويتفنّوا بوصفه، ذاهبين فيه كل مذهب، آخذين منه بكل نصيب، وهذا الملك هو الكون، فالشاعر من وقف بين الثرى والثرى. يقلّب إحدى عينيه في الذرّ، ويجعل أخرى في الذرى. يأسز الطير ويطلقه ويكلّم الجماد ويُنطقه. ويقف على النبات وقفة الطلّ، ويمرّ بالعراء مرور الوبل. فهنالك ينفس له مجال التخيل، ويتسع له مكان القول، ويستفيد من جهته علماً لا تحويه الكتب ولا توعيه صدور العلماء. ومن أخرى يجد من الشعر مُسلياً في الهمّ، ومُنجياً من الغمّ، وشاغلاً إذا أمل الفراغ، ومؤنساً إذا تملكت الوحشة. ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليها، فإذا الخاطر أسرع والقول أسهل والقلم أجرى والمادة أغزر، بحيث لا تمضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته. وإذا مات أكبر الناس من بعده مخلفاته. أو لم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً، حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب، ثم يموت عن نحو مائتي صفحة من الشعر، تسعة أعشارها لمدوحيه، والشعر الباقي هو الحكمة والوصف للناس“؟

”هنا يسأل سائل: وما بالك تنهى عن خلق وتأتي مثله؟ فأجيب أني قرعت أبواب الشعر، وأنا لأعلم من حقيقته ما أعلمه اليوم، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى، لا مظهر

للشعر فيها وقصائد الأحياء، يحذون فيها حذو القدماء. والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ، ولا يرؤن غير شاعر الخديوي، صاحب المقام الأسمى في البلاد. فما زلت أتمنى هذه المنزلة وأسمو إليها على درج الإخلاص في حبّ صناعتني وإتقانها بقدر الإمكان، وصونها عن الابتذال، حتى وقفتُ بفضل الله إليها، ثم طلبت العلم في أوروبا، فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم، وعلمت أنني مستول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ولا يؤتيها سواه، وأني لا أودي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لا تُحدّ ولا تُنفد، وإذ كنت أعتقد أن الأوهام إذا تمكّنت من أمة كانت لباغي إبادتها كالأفعوان. لا يطاق لقاءه، ويؤخذ من خلف بأطراف البنان، جعلت أبعث بقصائد المديح من أوروبا، مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب بقدر الإمكان. إلى أن رفعت إلى الخديوي السابق، قصيدتي التي أقول في مطلعها:

خدعوها بقولهم حسناءً والغواني يغرهنّ الشناءً

والتي غزلها في أول هذا الديوان. وكانت المدائح الخديوية، تُنشر يومئذٍ في الجريدة الرسمية، وكان يحرّر هذه أستاذي الشيخ عبد الكريم سلمان، فدفعت القصيدة إليه وطلبت منه أن يسقط الغزل وينشر المدح، فودّ الشيخ لو أسقط المديح ونشر الغزل. ثمّ كانت النتيجة أن القصيدة برمتها لم تُنشر، فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأنّ احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة، إنّما كان في محله وأنّ الزلل معي إذا أنا استعجلت.

اجتزأنا بهذا القسم من مقدّمة (الشوقيّات)، لأنّ فيه ما يدلّ على غيره، وهو ولا شك، قد أجاد هنا ما لم يُجد في مكان آخر من نثره، لأنّه الموضوع الذي هو أملى به وأقوم عليه. وكلّما كان الإنسان علامة بأمر كان كلامه فيه أوضح وأبين، وعنه أسلس وأحسن. وقد حول شوقي أن ينثر وينشر من نثره، حتى لا يقال إنّ الشعر قعد به عن النثر قعوداً لا يرضاه لنفسه. فلم يبال الناس نثره ولا تلقّوه بالاحتفال اللائق بمثل شوقي، لا لأنّه كان ركيكاً بحدّ ذاته، بل لأنّه كان غثاً في جانب سمن شعره.

- شوقي واليازجي

ولما اطّلع الشيخ ابراهيم اليازجي^(١) على رسالة شوقي، المسماة بـ"عذراء الهند"، كتب

(١) الشيخ ابراهيم اليازجي (١٨٤٧ - ١٩٠٦) م. وُلد في بيروت، وهو من أئمة النهضة الأدبية واللغوية، صنّع بيده أمّهات الحروف العربية للمطابع، ونقح نصوص [العهد القديم]، أنشأ مجلتي "الضياء" و"البيان"، وله مؤلّفات مهمة.

عنها فصلاً في مجلته "البيان"، أتذكر منه أنه قال ما معناه: "كيف يرضى إنسان بعد أن يكون في الشعر هو الأول، أن يكون في النثر هو الأخير". ولقد بالغ اليازجي في الغضب من نثر شوقي، وحدانا ذلك وقتئذٍ برغم صداقتنا الشخصية مع اليازجي، ومدائح اليازجي الكثيرة الأثيرة للعائلة الأرسلانية من قديم الزمان، أن نهب للدفاع عن شوقي، إذ من أظلم الظلم، أن يقال إن شوقي كان المُجَلِّي في النظم والسكيت^(١) في النثر، بل كان شوقي من الكُتَّابِ البلغاء المبرزين، لولا أن شعره سَبَقَ نثره بكثير، لأنه ما أراد إلا أن يكون الشاعر المقدم كما تقدم.

وأنحى اليازجي في مجلته "البيان" على شوقي بنقد شديد في روايته "عذراء الهند"، تجاوز فيه الحدَّ وجرار عن القصد. وتعبَّه في ألفاظ وجمل، زعم أنها تما لا تجيزه قواعد العربية، وكأنه أراد أن يُسقط منزلة شوقي بين الأدباء. لأنَّ الأديب لا يصحَّ أن يسمَّى أديباً، إلا إذا استكمل أداته من اللغة والنحو والصرف والبيان، وإلا فإنه يبقى متأخراً في صفوف المتأدِّبين مهما سمت معانيه وزهت تصوُّراته، وأثر كلامه ونفذت طعناته، وذلك أن الناس أجمعوا على أنَّ الفصاحة واللحن لا يجتمعان، وأنَّ من نقص حظَّه من النحو، نقص حظَّه من الأدب. وليس هذا منحصراً في العرب، بل هو عند الإفرنج أيضاً، فليس عندهم لمنقوص النحو مكانة أدبية تُذكر. وقال "أناطول فرانس"^(٢)، وهو من أعظم أدباء أوربا: "لا يقول الكاتب قولاً سديداً إلا بنحو متين ولغة صحيحة". وقال "بوالو"^(٣): "أعلى الكتاب كعباً إذا حرم الرسوخ في اللغة، فليس بكاتب". فمهما نبغ شوقي في الشعر وفاق أقرانه في سعة التخيل ولطف التأثير، فإنه كان يكون منقوص البهاء لو آنس الناس فيه ضعفاً من جهة العربية.

هذا في الحقيقة لانزاع فيه لو كان شوقي ممَّن يَصْدُقُ عليه مثل هذا الوصف. ولكن شوقي كان شاعراً، كامل الأدوات؛ وكان رِيَّان من العربية الفصحى، وكانت لغته متساوية مع فكرته. فإذا سألت عليه شعاب الفكر، جاء بكلِّ لفظٍ فحلٍّ ومعنى بكر، وحاط كلامه من قرنه إلى قدمه بنحو راسخ ولغة تَبَعْدُ عنها الركاكة، فراسخ. فأما أن يجد اليازجي متعلِّقاً لانتقاد، ومتسلِّقاً لانتقاص؛ فإننا لو عرضنا كلام القوم بأسره على علماء النحو وحفظة اللغة، لما عزَّ عليهم أن يجدوا في كلِّ قول مقالاً، ولما بعد أن يجدوا في كلِّ جملة مأخذاً، لا سيَّما إذا كان النحويُّ أو اللغويُّ يتقصَّد إظهار طوله وإثبات إحاطته.

(١) بضم ففتح مشدَّد، وقد يخفَّف، وهو آخر الحلبة. ويقال أيضاً "الفسكل".

(٢) أناطول فرانس (١٨٤٤ - ١٩٢٤) م. رواي وناقد فرنسي شهير، قرَّنه مذهب الشك بحبِّ الألم، من مؤلفاته: "الزنبقة الحمراء" و"ثورة الملائكة".

(٣) نقولا باولو (١٦٣٦ - ١٧١١) م. أديب وناقد فرنسي، تمتاز أشعاره بنزعة أخلاقية هيجائية، من مؤلفاته: "الأهاجي" و"الرسائل".

- علم اليازجي وتعنته

وقد كان اليازجي في عصرنا من أبصر جهاذة اللغة وأفرس فرسان الإنشاء، ولم يكن يُؤتى من جهة كهذه. وكان من أمتهن مَنْ عرفنا تركيباً وأجودهم سبكاً. ولكنه كان مولعاً بالتعنت، متهافتاً على التنقص، ضيق العطن^(١)، لا يتردد عن تحجير الواسع مهما اتسع. وكان إذا لم يطلع على مسألة من المسائل، نفاها عن العربية، وإن لم يجد في المعاجم المعروفة بين أيدينا لفظاً من الألفاظ، أسجل بأنه ليس بعربي. ولم يتنبه إلى أن اللغة بحر لا ساحل له، وأن تحجير الواسع في العربية ضرب من العبث، وأنه ما انتقدت عبارة إلا ردد عليها بتخريج. وأنه ليطول بنا أن نصف غلوّه في هذا المذهب، ونحصي الكلمات التي كان يمنعها بحجة أنها لم ترد في المعاجم، ولكننا من قبيل التمثيل نذكر أنه كان يمنع لفظة "احتى" إلا بمعنى الحمية عن الطعام. فأما احتى مطاوع حمى، فكان يراها خطأ في اللغة. ولو أطلع على قول عون بن أيوب الأنصاري الخزرجي:

حمت كلّ وادٍ من تهامة واحتمت بصمّ القنا والمرهفات البواتر

لعلم أنه هو الذي أخطأ بتخطئه للوارد من كلام الغرب. وكان يمنع أن يقال "نوال" بمعنى "نيل"، ولا يرضى لها تخريجاً ولو قرأ، وأظنه من شعر الحماسة:

أرى الناس يرجون الربيع وإنما ربيعي الذي أرجو نوال وصالك

لعلم أنه لم يكن على صواب، فيما ذهب إليه.

وعابني مرّة في مجلته باستعمالي "النواقيس" بمعنى الأجراس، وذلك لأنه قرأ في كتب اللغة أن الناقوس إنما هو الخشبة التي يضرب عليها القسيس، يدعو بها النصراني للصلاة. فتمسك بهذه الخشبة تمسك الأعمى في قرنة كما يقال، ولم يشأ أن يجيز الناقوس للجرس الذي من نحاس، وخطأ كل مَنْ استعمل ذلك حتى من الكتاب الأولين. واضطررنا أن نردّ عليه وأن نفهمه، أنه إذا كان يتمسك بكلّ تحديد نقله علماء اللغة ولا يقبل فيه توسعاً. فإنه ينتهي الأمر بأن يقاتل نفسه بسلاحه، فإنه هو يستعمل البيت بمعنى هذا البناء المبني من الحجر أو من الطين. والحال أن العرب عرفت البيت أنه من الوبر، وأنه هو يستعمل الشباك للنافذة التي يكون فيها شبك من حديد، والحال أن كُتب اللغة تعرف الشباك بأنه ما سُبك من

(١) العطن: تقول فلان واسع العطن، أي واسع الذراع. مجازاً: كثير المال؛ وهو الأكثر استعمالاً في أمثال العرب. وضيق العطن: مقبوض الذراع، قليل المال، طماع، كثير الادعاء.

القصب. فإذا كان التمسك بتعريفات المعاجم اللغوية حتمًا لا مناص منه، فاستعمال الشبّاك إذا كان من حديد، واستعمال البيت إذا كان من حجر أو لبن يكون إذن غلطًا! والحقيقة أنّ هذه الألفاظ، ربّما كانت في الجاهلية موضوعة لتلك المعاني على الصورة التي كانت فيها أيام البداوة، فلمّا دخل العرب في طور الحضارة والترّف، استعملوا تلك الألفاظ لما ناسب درجة مدنيّتهم. فالبيت الذي كان من شعر صار من حجر، وربّما من حجر منحوت. وبقي يسمّى بيتًا لأنهم جعلوه بمعنى المأوى، ولأنّ أصله من المبيت فسواء بات الإنسان في مأوى من الشعر أو من الحجر، فيصحّ أن يقال لمأواه هذا "بيت". وكذلك الشبّاك الذي كان من قصب أيام لم يكن الحديد مبذولاً، بقي يقال له الشبّاك بعد أن سحرّ الله الحديد للناطقين بالضاد والآنوا منه القضببان. وكذلك الناقوس كان خشبة في أيام الجاهلية، فصار في أيام المدينة نحاسًا، وبقي يقال له "ناقوس"، ونطق به الفصحاء. وقلنا لليازجي: إنك تعيب كتاب هذا الزمان في فصل تنشره تباعًا تحت عنوان "لغة الجرائد". ومن قال لك إنّ الجريدة يعني بها هذه الورقة المكتوبة، التي تصدر في أوقات معلومة ويقرأها الناس، فالجريدة بهذا المعنى إنّما هي من مواضع المولدين. وإذا بحثت عن تحديد الجريدة في كتب اللغة، لم تجد سوى "سعة النخل اليابسة" و"الخيل لا رجالة فيها". فهل أنت تريد أن تقول "لغة سعفات النخل اليابسة"؟ أو "لغة الخيل لا رجالة فيها"؟ وتعقبناه ذلك اليوم في ألفاظ كثيرة، وقد ضاع هذا الفصل من بين أوراقنا.

نعم، لو كنّا نجاري الشيخ ابراهيم اليازجي، فيما كان يحجر فيه من واسع اللغة، لما كان في لغات العالم أضيق من العربية. ولكن تحجيره هذا، إنّما كان في انتقاداته لغيره، فإذا رجعنا إلى مجلّته "الطيب" التي كان ينشئها في بيروت مع الدكتورين بشارة زلزل و خليل سعادة، أو إلى مجلّته "البيان" التي كان يصدرها في مصر، وطالعنا ما فيها من فصول شائقة لا سيّما في المواضيع الطبيعية والفلكية والكيمائية وما أشبه ذلك. فإننا نجد أنّ اليازجي وسّع على نفسه ما حَجَرَ على غيره، واستعمل الألفاظ العربية للمعاني العصرية، بأقلّ ما بينها من ملابسة، وسيأتيك في اعتراضاته على شوقي ما يجزيك في معرفة مذهبه في الانتقاد على غيره.



رد المؤلف على اليازجي

في الدفاع عن شوقي

ليس تحت يدي الآن العدد الذي فيه انتقاد اليازجي لرواية "عذراء الهند"، ولو كان تحت يدي لأثبت هذا الانتقاد برمته وقابله بردي أنا عن شوقي. على أن القارئ قد يعلم من الرد أساس الاعتراض، فجوابي فيه الأخذ والردّ معه، ولهذا نشره نقلاً عن جريدة الأهرام (عددتها ٦٠٣٢)، المؤرّخ في يوم الثلاثاء ٢٥ يناير سنة ١٨٩٨، وفق ٣ رمضان سنة ١٣١٥، أي أن هذا الردّ مضى عليه أكثر من سبع وثلاثين سنة.

- لعلّ للعذراء عذراً -

أجلّ العلماء عن أن يقال ليس لهم صداقة وإنما يقال: إنّ ليس لهم صداقة على العلم، ولا مشايعة على الحكمة، ولا تسامح في الحقائق، وإنهم لا يرعون في الحقّ خليلاً ولا يرضون من أمانة العلم بدلاً، ولا سيّما في هذا العصر الذي إذا انتسب إلى خاصّة تغلب عليه كانت الانتقاد، أو اتّصف بمزّيّة تفضّل سائر المزايا فهي التحقيق.

ولذلك لا ينبغي أن يُحمل انتقاد (البيان) رواية (عذراء الهند) للشاعر المفلّق أحمد بك شوقي، إلاّ محمل البحث الأدبي الصرف، وأن لا يُحسب إلاّ من قبيل توفية النقد حقّه والقيام بواجب الخدمة العلمية، ونعم الغرض هذا وحبذا القصد. وبناء على قاعدة البيان وتشبّهها به والتشبه بمثله فلاح، أتطفّل بإبداء بعض خواطر، خطرت لي، بين هذه المآخذ التي أخذها البيان على عذراء الهند، بقدر ما طال الفكر ووسع اللحظ، مائلاً في بعضها إلى تصويب رأي البيان، وفي البعض الآخر إلى تأييد نصّ الرواية، وتاركاً الحكم في ترجيح الآراء إلى أهل الفضل وأرباب الدراية. فإن كنت أصبت المرمى في بعض ما رأيت، فقد تُصاب الرمايا ولو لم تستدّ^(١) السواعد، وإن كنت واقعا في الوهم وظهر الحقّ في جانب سواي، فليس بثقل الإقرار لمثل شوقي بك وليس بمغلوب من غلبه الشيخ!

(١) تستدّ: تستقيم (على الجزم).

أما اعتراض البيان على الإهداء، في مقام تقديم الرواية إلى الجنب الخديوي، فهو من التعمية بحيث لم أفهم وجهه جلياً، وإنما استدلت على أن المقصود عدم مناسبة إتحاف الجنب العالي برواية موضوعه، فيما هي موضوعه فيه. وقد يعتذر ناسخ الرواية، بأن ليس ثمة ما يمنع تقديم كتاب يتصل بتاريخ مصر القديم، إلى عزيز مصر الآن، فلكل من المعترض والمعترض عليه وجهة.

وأما أخذه على (الكاتب وما كتب غراس نعائمك وجنى ظلك ومائك)، بأنه لا يصح إلا من تلميذ لأستاذه، ولا يصح من مربوب لولي نعمته، وأنه لا يمكن أن يكون ما كتبه من غراس الأمير. وأي علاقة بين النعماء والإنشاء؟

فقد استغربته جداً من البيان، على سعة اطلاع المعترض وطول باعه، ورسوخه في آداب العرب، وكونه قد طالع ولا شك من هذا المعنى شيئاً كثيراً. وأن مثله لا يخفى عليه، أن الكتاب والشعراء طالما تكلموا في معنى أن إنعام الممدوح هو مصدر فصاحة المادح، وأن ذر القول مستنبط من بحر الجود. وقالوا أيضاً: إنَّ الله تفتح اللها^(١)، وأظن أنا نستغني في مقام كهذا، عن التعزيز بالشواهد المستفيضة في النظم والنثر، خصوصاً لمن كان يحفظ ديوان المتنبي، وقد شرحه وهو غير خال من هذه المعاني. فكيف لا يجوز، لعمري، لشاعر الخديوي أن يقول لمولاه وولي نعمته: إنني أنا وما أكتب غراس نعائمك، وأي غرابة فيه؟ بل أي غبار عليه؟ وأما قوله: (وجنى ظلك ومائك)، فلا أنكر أنها بالشعر أليق منها بالنثر، لكنها قد تمشي مع العبارة الأولى، ولا لزوم لخرطها، فيما لا يجوز، والذهاب لأجل توجيه الاعتراض إلى بعيد من قبيل أن الظل لا يكون سبباً للجنى، وأن الغراس في الظل لا يثمر، وأنت تعلم أنه لا غراس بلا ظل وأن الظل غير مانع من الجنى.

وليس من الضروري في سجة كهذه، استيفاء جميع العناصر التي تُخرج الثمر، وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين، فضلاً عن كون الظل هنا، مأخوذاً بالمعنى المجازي، والعبارة كلها مجازية، والمجاز هو أصل وضع البيان.

وأين نذهب مع ظل الله، وظل الأمن، وظل العدل، وظلال مجردة كثيرة ممتدة في الكلام العربي، ليس لما تضاف إليه أدنى حجم.

(١) قوله: «إنَّ الله تفتح اللها»، أي أن العطايا والمكافآت تفتح الأفواه بمدحها والثناء عليها.

وأما غموض قوله: (فإذا وُفِّقَ ليرفع إليك عملاً، فقد أسند أفعالك في الفضل إلى أسمائك)، فلا أجادل فيه. فإنَّ غموضه واضح، لكنني أقول: إنَّ شوقي بك، غالبٌ عليه الشعر، فيحسب نفسه وهو في النثر أنه في النظم، بل هو يحكي المتنبي أحياناً في عدم وضوح معانيه، لأول وهلة، فلا يفهم القارئ بعض جُملته إلا بعد التأمل بل التعمُّل.

وأما اعتراض (البيان) على (أحبَّ إخوته الكثيرين إلى الأمم)، بأنه من التراكيب التي منعها أهل العربية، حسبما نصَّ على ذلك الحريري^(١) في دُرَّة الغواص. وأنَّ ردَّ الحفاجي^(٢) عليه لا يسلم من الردِّ، فأقول فيه: إنَّ الردَّ على الحفاجي، لا يسلم من الردِّ أيضاً. وهو قد أُورد في مقام الدفاع عن جواز هذا التركيب، ما يستحقُّ النظر، وإنَّه وإن لم يكن هنا مقام استيفاء تعليقات كهذه، فلا بأس بإيراد بعضها كقولهم: إنَّ أفعال التفضيل قد يخلع عنه ما امتاز عن الصفات، ويتجرّد للمعنى الوصفي.

وكقولهم: إنَّه قد يكون للدلالة على زيادة مطلقة لا مقيدة نحو قولهم: يوسف أحسن أخوته. وكما قالوا: إنَّ أفضل أخوته، بمعنى أفضل الأخوة على حدِّ قوله تعالى: (يتلونه حقَّ تلاوته)، أي حقَّ التلاوة. وأنشدوا قول عبد الرحمن العتبي:

يا خير إخوانه وأعطفهم
عليهم راضياً وغضبانا

وناهيك أنَّ نحوياً كابن خالويه^(٣)، أجاز هذه العبارة، ولا نظنَّ أديباً مثل شوقي بك. قد رأينا ما رأينا له من الآثار الدالة على سعة اطلاعه في العربية، يُقدِّم على هذا الاستعمال إلا وهو يرى رأي الذين أجازوه، ويستحيل أن يكون مثله لم يمرَّ بهذه الاعتراضات وردّها.

وأخذ البيان على قوله: (وأمتهم إعلاقاً في القلوب)، وذلك بأنَّ الإعلاق جمع علق بالكسر، وهو الشيء النفيس، وإنَّ حقها أن تكون علائق. وقد استغربنا، وأيم الله، صدور ذلك عن لغوي ثقة مثل الشيخ. والأعلاق تأتي جمعاً لغير العلق بالكسر، فتأتي جمعاً للعلق بالتحريك. والعلق يأتي بمعنى البكرة وأداتها، وبمعنى الحبل المعلق بالبكرة، وبمعنى الرشاء مطلقاً. وأنشد له في لسان العرب: عيونها حُرْزٌ لصوت الأعلاق، وأظنَّ أنَّ في هذه الألفاظ كلها من معنى العلاقة والتعليق، ما يُسَوِّغُ لشوقي أن يقرنها بالمتانة في معنى ارتباط القلوب.

(١) الحريري، القاسم بن علي (١٠٥٤-١١٢٢م). أديب من أهل البصرة وكتب رشيق، له "المقامات" و"درة الغواص في أوام الخواص".

(٢) شهاب الدين الحفاجي (١٥٧١ - ١٦٥٩م). قاض مصري من علماء اللغة، من أشهر كتبه: "ريجانة الألباء" و"طراز المجالس".

(٣) الحسين ابن خالويه (المتوفى سنة ٩٨٠م). لغوي من همدان، أقام في قصر سيف الدولة، له "كتاب ليس" و"إعراب ثلاثين سورة من

وأما كون (أجذبهم بأزمة الرأي العام) من المواضع الإفرنجية درجت عليها الجرائد في هذه الأيام، وليس كل ما تأتي به يجوز أتباعه، فلنشرح هذه الجملة: أمّا (جذب الزمام) بنفسه، فلا يجادلنا البيان بأنه عربي مُبين.

فلم يبقَ إلا عبارة (الرأي العام)، وهي مترجمة عن لغات الإفرنج، لشيوع هذه العبارة عندهم، وعدم وجود ما يسدّ مسدّها عندنا بالتمام. ولننظر ماذا يوجد فيها من المخلّ بالفصاحة: أمّا الرأي، فهو الرأي لا ريب فيه.

وأما اتّصافه بالعام، فهو كاتّصاف البلاء، مثلاً، بالعام، فيقال: بلاء عام وبلاء شامل. ويقال: أمر عمّم ويفسّره أهل اللغة، بأنه تامّ عامّ.

يقول شاعر الجاهليّة^(١):

يا ليت شعري عنك والأمرُ عمّم ما فعلَ اليومَ أويّسُ بالغنمِ

فإن كان يقال: أمر عمم، فلماذا لا يقال: رأي عامّ وأيّ إثم فيها؟

وقولك بمعناها (أهواء النفوس) لا يؤدّي حقيقة المقصود من قولهم (الرأي العام). ومن العجب أن يعترض على مثلها البيان. وهو الذي يكتب في (اللغة والعصر)، ويدعو إلى وجوب الوضع، قضاءً لحاجة العصر ووفاءً بالمعاني الحديثة، التي لم تكن عند العرب. على مخالفة رأيه هذا لما عليه جمهور أهل اللغة، من أن اللغة سماعية لا قياسية، فكيف يعترض بعدها على (الرأي العام)؟ وليس فيها خروج عن المؤلف، ولا وضع جديد، ولا صوغ ولا نحت.

وأنت لو طالعت الكتب العربية، خصوصاً كتب العلم والحكمة، لم تجدها خالية من استعمالات كثيرة تساقطت - والله أعلم - إلى العرب من لغة اليونان والفرس، أيام ترجمة كتبهم لعهد العباسيين. فالعربي القديم لم يسلم من هذه المواضع، فما ظنك بالعربي الحديث، وقد أغارت عليه المعاني الأعجميّة من كلّ جهة، حتّى اختلط الحابل بالنابل.

حتّى إنّ (البيان) نفسه على نقاء لغته لا يسلم منها، حين يقول في العدد الأخير الذي صدر فيه الانتقاد (رزى العالم الأدبي)، فهي عبارة عصرية محضّة، مترجمة بالحرف عن الإفرنجية. وليست من أساليب امرئ القيس، ولا الأعشى، ولا من تراكيب الإمام علي، ولا المخضرمين؛ بل ليست من المولّد وإنما هي من أوضاع الجرائد السيّارة.

(١) هو الشاعر عمرو ذو الكلب الهذليّ.

ومثلها استعمال (البيان) مثلاً (تَنَازُعُ البقاء) عصرية محضة. وتعابير كثيرة، ليس هنا محلّ سردها.

أما قول شوقي بك: (مدين لنصحها الثمين)، فليس بمعذور فيه عذره في (الرأي العام)، التي جرت مجرى الأعلام. غير أنني عجبت جداً من أخي شوقي، كيف لامني على مثلها أيام اجتماعنا بباريز^(١). ثم عاد هو إلى استعمالها، حال كوني أنا تركتها بالمرّة إكراماً للعربية ولخاطره. فماذا طرأ عليه حتى صار يأتي الآن ما كان ينهى عنه؟

وأما (باحوا بسرّ المأمورية)، فلا يمكن لي أن أعدّ المأمورية، ممّا لا يصحّ استعماله، والنسبة إلى الأسماء من صفة وموصوف، إذا لحقتها التاء تفيد المصدرية، فيقال: عجبت من حجرية هذا، أي من صلابته.

وقالوا كثيراً: الفاعلية والمفعولية والشاعرية، وهلمّ جرّاً.

وأما استعمال شوقي بك البرهة بمعنى هنيهة، فهو استرسال إلى اصطلاح العامة أو عدم تحقيق. ومثله الصدفة بمعنى المصادفة، فقد غلب استعمال الناس لها، وهم لا يعلمون أنها عامية.

وأما استعمال (العائلة) بمعنى الأسرة فهو وارد، وتخطئة البيان له مع قوله: كأنها تصحيح قول العامة (عيلة)، وكلتاهما لا تأتي بهذا المعنى، إنّما يقال عيال الرجل، وعيله بالتشديد فهذا فيه نظر، وهو من الحريري في دُرّة الغواص، وقد تعقبوه بما أظهر خطأه، وروى من الحديث (أتخافين العيلة وأنا وليّهم)، وفسروه بالعيال، والأرجح أن يكون أُطلق على أسرة الرجل العيلة، التي هي الفقر لكونهم سبب الفقر كما قيل: قلّة العيال أحد اليسارين.

هذا، ويجوز أن تكون عائلة بمعنى مَعولة، وليست هذه بأول مرّة ورد فيها فاعل بمعنى مفعول، فقد قالوا: ساحل بمعنى مسحول، سحله ماء البحر، وهلمّ جرّاً.

وأما (الهوداس) فالحقّ فيها مع البيان، إلا أن تكون غلطة طبع.

نصل إلى قول شوقي بك في التاريخ المصري، (أنّ الحقيقة معه لا يستقرّ بها خبر، فهي عين تارة وأثر، تموت بحجر وتَحيا بحجر). أقول: هذه عبارة شبيهة بالشعر، لكنّها من أبلغ ما قرأت في الكلام العربي. وأتأسّف أن يكون البيان تعمّد مثلها في الانتقاد.

(١) كان ورد في مقالة لي جملة "أنا مديون بهذا العمل له" أو نحوها وكنا في باريس يوم اجتماعنا سنة ١٨٩٢، فقال لي شوقي: هذا أسلوب إنجليزي ينبغي تركه.

ومعناها ظاهر، إذ لا يُخفى أن التاريخ المصري القديم، مبني على الآثار الحجرية والكتابات الهيروغليفية، وأن معظم مُعَوَّل المؤرِّخين لأعصر الفراعنة، هو على هذه الحجارة. لفقدهم القرطاس فيه، فبينما يتقرَّر عند المؤرِّخين شيء يظنونه الحقيقة الأخيرة بما يطلعون على كتابة في حجر، أو نقش على عمود، إذ انكشف لديهم حجر آخر كان مدفوناً، جاء فيه ما لا ينطبق على الأول، أو ما فيه زيادة عليه، فتغيَّرت تلك الحقيقة وانقلب ذلك التاريخ.

ولهذا كان ينكشف منه كلَّ يوم شيء جديد، وصحَّ أن يقال: إنَّ حجراً من هذه الحجارة يُحيي لقديم مصر تاريخاً وإنَّ حجراً يُميتُه. ولا أرى هذه الجملة في شيء من الطلاسم والرقميّ، كما قال البيان، وأعتقد أنها لا تُشكِّل على أحد. فأما إن كان أغاظ البيان، حدَّفه إحدى التارتين من قوله: (فهي عين تارة وأثر)، فالخطُّب يسير ولا بأس به، لأجل الإيجاز ورشاقة الجملة مع قيام الدليل على التارة المحذوفة.

وأما اعتراض (ما عساي ناولتك مما فات التفاتي قدره)، فأوافق البيان فيه من جهة التعمية على أن يقول: عساي ناولتك يتضمَّن معنى لعلِّي ناولتك، فقد حكى الأزهري عن الليث إن عسى تجري مجرى لعلّ. وأما قوله: (مرّتين لا متتاليتين ولا متعاقبتين)، فهو غامض أيضاً. وأما (تتلاشى متوارية وتتوارى متلاشياً)، فهو جائز.

وأما عبارة (حوار الماء والتيار)، فلم أعلم ماذا سبقها وما هو المراد منها. ولكنّها على كلّ حال مبهمة. وأما جملة (كان الفصل نيلاً خفيفاً ثقيلاً جفيفاً بليلاً) إلى آخر ما ذكر، فهي بالشعر أليق منها بالنثر.

وأما (فرغت الزجاجات ولم يفرغ من الشراب)، فالمعنى فيه ظاهر. وهو أنه لا يفرغ من طلب الشرب. أمّا قوله (تركه شيئاً ليس بالحَيِّ)، فلا أعلم ماذا تقدّمه وماذا تأخّر عنه. لأنني لم أظفر بالرواية مجموعة، وما هو منشور منها في الجريدة لم يُحفظ عندي، وإنما أقول: إنه إن كان ما بعد ليس بالحَيِّ، قوله: ولا الميت، فهو مقبول وإلا فلا.

وأما (أجهد أذنيه)، فإن كانت بغير معنى أتعب سمعيه، فلا تأتي. غير أن قوله (أخذ النوم يطمئن بمقاعد من الأجفان)، فضلاً عن كونه ليس محلاً للاعتراض، فهو كلام شعري بديع. وأما (ارتجال النظر) فهو غريب، ومثله ارتجال النور، ولا مُسوِّغ لذلك. فإن كان بعض

فحول البلاغة من كتاب الإفرنج وشعرائهم، مثل (بوسويه)^(١) و(هوجو)^(٢) مثلاً، قيل عنهم إنهم كانوا يرتجلون الألفاظ لمعانيهم، ويسخّرون اللغة لمقصودهم. وكان الناس لا يكبرون عليهم هذا الأمر، بما بهرهم من فصاحتهم وبلاغتهم، فلم يكونوا يأتون ما أتى من هذا القبيل عند وجود المناسبة بين اللفظ والمعنى. وأي مناسبة هنا؟

أمّا (الفكّاك) الذي أخذ على استعماله البيان في قوله (مانع للفكّاك)، فيقصد به الحركة والانطلاق، من قولهم كلّ شيء أطلّقتَه، فقد فكّكتَه. ويؤيّد ذلك تأكيده بقوله: (مفقد للحراك). وأمّا (الشّراك) فلا يأتي بمعنى حبال الصائد، وإنما هي الشرك حسبما قرّر البيان. وأمّا (غير قادر المشيب)، فلم أفهمه جيّداً.

وأمّا قوله: (ثمّ تواكل الثلاثة بالباب فلم يزالوا به حتى كسروه)، فأظنّ أنّ المقصود توكل بدون ألف، وأنّ الألف زائدة من غلط الطبع. وإنّ أدبيّاً راسخاً مثل شوقي بك، لا يُخفى عليه مثل هذا. وغلط الطبع يقع كثيراً حتّى في نفس البيان، مع كثرة مراجعات الشيخ في تصحيح المُسوّدات، ألا ترى أنه ورد فيه هذه المرّة (بحيث كان كلّ منها ضارباً ومضروباً) بدل كلّ منهما.

ثمّ انتقد البيان بعض أبيات الرواية من جهة الوزن، وأستغرب وقوع الناظم في مثله مع ما هو معروف به من طول الباع في صناعة الشعر. ولا بدّ من تصويب قول البيان في انتقاده هذا من الوجه العروضي، إلاّ أنه لا ينكر أنّ مثل ذلك وقع أيضاً للشعراء حتّى الفحول منهم، وأنه ممّا لا يقدر في شاعرية شوقي بك، لأنّ الشعر غير الوزن، وكلّ ممّا يحفظ (وقلّ أنا وزان وما أنا شاعر)، على أنّ الظاهر من شوقي بك، أنه قليل الاحتفال بهذه الصور الظاهرة، بل نراه قد يتحدّى الإفرنج في شعره، فلا يبالي مثلاً بأمر القوافي التي يكررها كثيراً بالمعنى الواحد، كما لاحظته في همزيتة الشهيرة، ولا يعاب بتجوّزات أخرى أعرفها له؛ وأخشى أن يتمادى به احتقار القيود الشعرية، إلى أن ينظم أخيراً بدون قافية نظير شعراء الإنكليز.

وإنّي لأعذره عند النظم، حينما يكون خالياً به شيطان الشعر، مستغرقاً في التأمل، غائصاً في أبحر التخيل، في عدم إسفافه إلى تفعيل المنسرح والسريع وتقطيع كلّ بيت، بل كلّ شطر ممّا ينظم.

(١) جاك بوسويه (١٦٢٧ - ١٧٠٤)م. واعظ فرنسي، شهير بمواعظه وتآنيه الفصيحة، ومؤلفاته في التاريخ والفلسفة والآهوت.
(٢) فيكتور هوغو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)م. شاعر وكاتب فرنسي، من أعلام الحركة الرومنطيقية. امتازت كتاباته بقوة الخيّل وغنى الوصف، له في الشعر: "أوراق الخريف" و"ملحمة الأجيال"، وفي النثر: "سيّدة باريس" و"البؤساء" وسواها.

ولكنني أنصحه باجتناّب هذه الأبحر، التي في ركوبها خطر الوقوع، وإزباد^(١) علماء في العروض مثل الشيخ، والله يعلم أنني ما نظمت عليها شيئاً أرويه، ولي ندحة^(٢) في الطويل والكامل وأشباههما، عن هذه الأوزان العرجاء؛ وغنيّ بركوب تلك الأبحر الواسعة، عن هذه الخُلج^(٣) العوجاء.

هذا ما عنّ لي إيراده من محاكمة هذين الفاضلين، لأقصد به تهصّم جانب أحد منهما، ولا الاستطالة على أحد. فإنني أول من أقرّ بعجزه، ولي من مودة كلّ منهما ما يكفل لي تصحيح دعواي هذه.

وبالجملة، فلا أبرئ البيان، من التشديد في مؤاخذه شوقي بك والتحجير في الواسع. كما لا أبرئ شاعرنا الشهير، من النزوع إلى أبعده مذاهب الشعر أحياناً في كتاباته، ومن تسلط التأمل على مخيلته، إلى حدّ الذهول الذي يجعله أن يقع في فرطات منشؤها السهو، وأن يقول مثلاً في بائية الحرب:

تنام حُطوب المُلْك إن ظلّ ساهراً
وإن هو نام^(٤) استيقظت تتألّب

إذ كيف يظلّ ساهراً، والسهر إنّما يكون في الليل ولا حاجة هنا للمجاز. إذ يمكننا أن نقول: بات ساهراً، فلا جرّم أن مثل هذا سهو صريح أدى إليه ذلك الذهول^(٥).

ومع هذا، فلا يُحزّننّ أخي شوقي انتقاد البيان، ولا غيره، فليس في انتقاد ما يكفّر باهر حسناته، ويخفّض من مقامه المنفرد في الشعر.

وليقل القائل ما شاء، فلن يزال أحمد شوقي بلبل مصر وصنّاجة العصر. (شكيب).

- أثر المقال في نفس اليازجي

فلما أطلع الشيخ ابراهيم اليازجي على هذا الردّ، قامت قيامته، لأنه كان بلغ به الأمر من الاعتقاد في نفسه، في معرفة اللغة، إلى حدّ أنه كان لا يطبق لأحد من أبناء عصره عليه

(١) إزباد: بمعنى غصّب.

(٢) ندحة: سعة.

(٣) الخُلج: مفرداً خليج، تقول في جمع (خليج): خُلجان وخُلج.

(٤) عاد شوقي، فصحّح هذه الكلمة ووضع محلّها "بات" كما أشار الكاتب.

(٥) كان شوقي بعد أن تفارقنا في باريس يكتيني ويردّ علر كلّ كتبي إلى أن انقطع أخيراً عن الإجابة من دون سبب، فأنقطعت أنا أيضًا عن مكاتبته وما زلت منقطعاً إلى أن جاءتني منه ألوكة يقول لي فيها: ما قصّرت في جوابك لسبب وأنا هو الذهول الذي لا تسلّم منه نفسي، فأنا أعرض له هنا بالذهول الذي اعتذر به.

اعتراضاً أيًا كان. وكان لا يتردد في تجهيل أيّ عالمٍ في اللغة، حتّى من المتقدّمين الذين هم أئمة هذا الأمر، وكثيراً ما كان يهزأ بهؤلاء الأئمة. وذكر له الشيخ سعيد الشرتوني^(١)، كتاباً لأحد الأدباء المتقدّمين، ولم يكن هذا المؤلّف مشهوراً، فقال له الشيخ ابراهيم: إن الكبار ما جاءت عنهم أخبار، فكيف هذا؟ وكان يلتفتّ حول الشيخ ناشئة ومتأدّبون يوافقونه على جميع آرائه ولا يجروون على مجادلته في كثير ولا قليل، بل يتلقون كلّ ما يذهب إليه بالتسليم المطلق، فانتهى الأمر إلى أنه اعتقد في نفسه العصمة تقريباً. وعلى كلّ حال، ظنّ أنه أعلم باللغة من أصحابها، وأسبق فيها من فرسانها. واعترض مرّة على لفظة (ضوضاء) التي وردت في معلّقة الحارث بن حلزة اليشكري، فقال إنّها جاءت فيها مؤنّثة، وإنّ حقّها أن تكون مذكرة. أي أنّ أحد أصحاب المعلّقات السبع أصبح يُخطئ في اللغة، وأنّ الشيخ ابراهيم اليازجي من أبناء عصرنا يصحّح له خطأه! وينسى أنّ النحو والصرف واللغة، كلّ هذا مبني على كلام العرب، وليس كلام العرب مبنيًا عليه.

ولا يُنكر أنّ اليازجي كان من علماء اللغة المعدودين، وكان من كبار الكتاب، وأمتهم تركيبياً وأحسنهم نسق عبارة، كما قلنا. ولكن كان بين ظنّه في نفسه، والحقيقة ما بين المشرق والمغرب، فإنّه كان يُخطئ في اللغة كما يُخطئ غيره، وإن كان خطؤه أقلّ من خطأ غيره. فلما رأى شاباً مثلي في السابعة والعشرين من العمر، وقتئذٍ يجرو على مراجعته في قوله، وعلى إظهار خطئه تارة وتعتّته أخرى، داخله من الامتعاض، ما حاد به عن رشده. فنشّر في مجلّته (البيان) ردّاً شديد اللهجة، فيه من بوادر الحدة وألفاظ الوقعة، ما لم يكن يليق بشيخ من أهل العلم مثله، فضلاً عن عدم مناسبة تلك المطاعن التي خاض فيها، للبحث اللغوي المحض، الذي كنا بسبيله. فقد خرج عن الموضوع وتعرّض لأمر هي أشبه بالمهاترة منها بالمناظرة. وتكلّم عتاً بجمل نفث فيها كلّ ما كان يحكّ في صدره، من مثل أننا «لم ندس عتبه التحقيق في علم من العلوم»، وأنّ قصارى أمرنا أن نعمد إلى مقالة إفرنجية ونترجم عنها، فتأتي مقالتنا «عربية الحروف كردية الألفاظ». وأنه هو يعلم أنّ علماء اللغة لا يقيمون لاعتراضاتنا هذه وزناً، وأنه هو ليس في شيء من الغالب والمغلوب، إلى غير ذلك من آثار العظمة والعنجهية. فلم يظنّ أحد أنّ الشيخ يُستطار إلى هذا الحدّ من نقد كُتب، بأنزّه ما يكون من الألفاظ، وأحوط ما يكون من الأساليب، لحفظ مقامه. وقد قسّم رده إلى قسمين، أحدهما كان

(١) سعيد الشرتوني (١٨٤٩ - ١٩١٢). أديب لبناني من أئمة اللغة في عصره، له معجم «أقرب الموارد».

بتوقيعه. ومن جملة ما زعم فيه، أننا سعينا لدى الحكومة العثمانية في بيروت، بمنع مجلته عن دخول سورية، خيفة انتشار ما فيها من الرد علينا، وقد يجوز أن يكون جاء اليازجي من بعض المفسدين خبر كهذا، ولكنه كان بهتاً لا أصل له. ومن الرد ما جعله بأسم أحد مرديه، واسمه بدران فيما أتذكر، وقد حاول أن يستتر وراء توقيع مریده هذا، خجلاً من أن يوقع هو على مطاعن شخصية، ليس بينها وبين الموضوع الذي كنا فيه أدنى صلة.

وقد عاب الناس عمله هذا، حتى أقربهم إليه وأغبرهم عليه، وحسبك أن بشارة باشا تقلا، صاحب الأهرام، وهو واليازجي من بلدة واحدة (كفر شيمة من لبنان)، ومن طائفة واحدة، هي الروم الكاثوليك. قد كتب إليّ أو أئذ أن الناس أنكروا إنكاراً شديداً على الشيخ ابراهيم، خروجه عن الموضوع، ونزوله إلى ميدان المهاترة، ونشره مقالة من قلمه بامضاء غيره. وصادفت بعد ذلك، أمين أفندي أفرام البستاني اللبناني، وهو من فحول الكتاب، فعرض البحث عن هذه المناقشة بيننا وبين الشيخ ابراهيم، فقال لي: قد توقفت في الشيخ. فتعنت اليازجي في انتقاد شوقي، لم يجن له أدنى فائدة، بل جنى عليه. وعجب الناس من أن تغرب عنه مسائل لا يجادل فيها أحد، وعجبوا أكثر من ذلك لبلوغ الحدة منه مبلغاً، خرج به عن الحدود.

- رد للمؤلف على اليازجي

والآن أعود، فأنقل جوابي لليازجي على رده هذا:

- كل ينفق مما عنده

قد تردنا في جواب (البيان) على ما أتى به في جزئه الأخير، مما لا خلاف في كونه ليس بجواب على خطابنا، وكنا نحب الإمساك عن كل كلمة في الرد عليه، تاركين الحكم في هذه القضية لأرباب العلم وأهل الذوق السليم، ليفتحوا بيننا وبينه بالحق، معتقدين أن الحق ليس بضائع عندهم. ولكننا رأينا السكوت مطلقاً عن جميع ما أورده، قد يؤهم بعض من لا تحقيق عنده، أن قوله كان الفصل، وأن الرجل قد ألزم وأفحم، وأنه إنما يغرف من يم.

فاخترنا نشر هذه السطور، تعزيزاً لبعض ما حاول دفعه، ودفعاً لما اعترض به علينا جديداً. فأما سائر ما أتى به، مما هو خارج عن موضوع المناظرة، فلو شئنا لكان للأقلام مجال

طويل في رده إليه وعكسه عليه؛ ولكن ذلك ليس من شأننا، فنقول: أمّا (الكاتب وما كتب غراس نعمائك)، فقد أصبحنا في غنى عن تأييدها بما نتركه لمحفوظ القراء، من هذا المعنى الذي لما لم يسع صاحب الردّ هذه المرّة إلاّ التسليم بؤروده، عاد يقول: (لعلنا رأينا مرّة) وما رأيناه إلاّ مراراً، بل لقد سمعنا فيه المثل. وناهيك بما أصبح مضرّباً للأمثال، يكون مطروّقا.

فأمّا قوله: "كان يجب عليك أن تميّز بين المادح وقصص المؤرّح ويا ليت شعري، هل كانت تلك الرواية خطبة أو قصيدة، عدّد فيها المؤلّف المناقب الخديوية، حتّى يقال إنّ نعمة المدوح كانت على الكاتب عبارة المدح والشكر؟"، فجوابه: أنّ قول صاحب الرواية (الكاتب وما كتّب) هكذا على إطلاقه لا يفيد (بما كتب) هذه الرواية وحدها.

وقد (كتب) غيرها كثيراً، وأسأل، من المداد، جمّاً مستمداً من كتابته، بنعمة مولاه الخديوي، التي هو غديّ درّها، وغارق في أبحُر آلاء، هو ناظِمُ درّها.

وهو الذي ملأ الآفاق بالمدائح الخديوية، وسيّر أوابد الشعر في هذا البيت الكريم، وحسبك أنّ صفته الملازمة له، أنه شاعر الخديوي، وقد امتلأ حوض العزيز من نظمه.

ولا نعلم بعد هذا من أين جاء الشيخ هذا الشرط الذي قاله، وهو أنه يجب أن يكون كلّ ما يكتبه الكاتب خطبة أو قصيدة، يعدّد فيها مناقب سيّد له منعم عليه، حتّى يجوز له التحدّث بنعمة ذلك السيّد؟ فإذا خرج من ذلك المعرض، مرّق من فضل مولاه عليه، وانقطعت مادّة إمداده له، فصار محظوراً عليه التحدّث بنعمته بين الناس، وانقطع ما (بين النعماء والإنشاء) كما هو مقتضى كلامه.

وأما (جنى ظلّك ومائك)، فبعد أن قلنا له إنّ الظلّ هنا مجازي، لم يبق محلّ لإظهار معارفنا في علم النبات والتشاغل بالظلّ والجنى، وما يتعلّق بهما.

فأمّا قوله: أننا أضفنا الظلّ إلى الغراس، لا للمهدى إليه، فمن يرجع إلى عبارتنا الأولى، علم مقصودنا، وقاس درجة هذه الدعوى من الصحّة. كما أنّ قوله: أننا جعلنا الحرارة عنصراً، فحسبنا لتفنيده إعادة عبارتنا بالحرف، وهي هذه: (ليس من الضروري في سجة كهذه، استيفاء جميع العناصر التي تُخرج الثمر، وذكر الحرارة والرطوبة والكربون والهيدروجين)، نعرضها على جميع علماء العربية. هل يُستفاد منها أنّ الحرارة مجعولة فيها عنصراً من العناصر؟ وهل يقول ذلك أحد؟ إلاّ إذا شاء تحريف الكلّم عن مواضعه.

وأما تركيب (زيد أفضل أخوته)، فالله يعلم أننا لم نكن ممن يستعمل هذا التركيب، إنما قصدنا بالدفاع عنه، أن مسألة خلافة كهذه قد حصل فيها من الأخذ والرد، ما لا يمكن أن يكون غاب عن أديب راسخ مثل صاحب (عذراء الهند)، وأن شوقي بك لم يعدل إلى مثل هذا التركيب إلا وهو يرى رأي الذين أجازوه، ولم يحجروا فيه، وذلك مثل ابن خالويه، وهو يحفظ منه قول العُتبي. وقول صاحب البيان: إن ليس هذا مقصود ابن خالويه لا يُسلم به بلا دليل. والخفاجي قد نقل ذلك عنه، وهو ممن يعلم ما ينقل ويفهم ماذا يقول. ولما كان اعتراض البيان على هذه العبارة، مأخوذاً كغيره عن دُرّة الغواص، وهي بين الأيدي. وكان الخفاجي قد تعقبه هناك، فمن شاء مقابلة الأخذ بالرد فعليه بمراجعة ذلك في محله، ولا حاجة بنا إلى إضاعة الوقت في نقله، ومنه يعلم أدلة الفريقين.

وأما (الأعلاق) فلا ينسى البيان، أنه منعها في البداية قولاً واحداً بمعنى العلاقات، فقال ما نصّه: (يريد بالأعلاق العلائق، وهي لا تأتي بهذا المعنى، وإنما الأعلاق جمع علق بالكسر، وهو الشيء النفيس. فمقتضى كلامه الذي لا يحتمل أدنى مغالطة، أن الأعلاق هي النفائس، منحصرة في هذا المعنى، بدليل قوله: (إنما)، فقلنا له: بل الأعلاق تأتي بمعنى النفائس، فتأتي جمعاً للعلق محرّكة، وهذا يأتي بمعنى البكرة والحبل المعلق بالبكرة، وبمعنى الرشاء مطلقاً، وأنشدناه هذا الشطر من اللسان: "عيونها خزرٌ لصوت الأعلاق"، دليلاً على عدم انحصار الأعلاق في معنى النفائس، كما ذهب إليه، فظاهر أن صوت الأعلاق في هذا الشطر، لم يقصد به صوت الأشياء النفيسة.

ثم قلنا هذه الأدوات، وهي البكرة والحبل، من معنى التعليق والعلاقة ما يسدّد ارتباطها بالقلوب، وذلك لأنّ المجاز يقع لأول ملابسة، وهنا الملابسة شديدة. فكان من الشيخ أن طوى كسحاً على كلامنا هذا، ومال إلى التهكم بتأويل الأعلاق بالحبال والبكرات، وأخذ يترحم على عشاق العرب الذين لم يسبقونا إلى هذا المعنى بزعمه، ولا ذكروه في أغزالهم الرقيقة، وقال: "وإذا كان لهم ما يصطادون به المحبوب قسراً، إذا سمع صرير تلك البكرة فخزرت عيناه دهشاً" إلى آخر ما ذكر.

ومقتضاه، أنه لم يلزم تفسير اللفظ بمعناه الحقيقي، ونفي المجاز من اللغة العربية، حال كون المجاز هو فصاحتها وبيانها. وعليه فصار يلزم من الآن فصاعداً، إذا أردنا تفسير (أذاقها

الله لباس الجوع) أن نتخيّل للجوع ثيابًا، ونتصوّر تلك الثياب في الأفواه، وقد أنحت عليها الألسنة تلوّكها.

وإذا قيل: حميّ الوطيس، امتنع أن نفهم منه سوى مجرد حميّ التّور. وإذا قيل: جناح الذلّ^(١)، تبادر إلى الذهن جناح ذو قوادِمٍ وخَوَافٍ^(٢) فيه من الريش طائل وشكير^(٣). وإذا قيل عن رجل: إنه بحر علم، وجب أن تلتطم بين جوانحه الأمواج وتمرّ فوق رأسه السفن، وإذا قال البيان في نفس عبارته التي تهكّمنا بها (يصطادون المحبوب) بمعنى يجتذبونه تعيّن أن يكون المحبوب غزلاً، قد صيّدَ بِسُرْكَ نُصِبَ له أو سهم شكّ فؤاده، فأخذ وسلخ وشوي على النار كما يفعل بالصيد! وإلا فالمحبوب لا يُصَاد في الحقيقة. وهكذا نمضي في تفسير العربي كلّه على هذا النمط. وناهيك ما يتسع لدينا حينئذٍ من مجال الهزوء لا بأعلاق القلوب فقط، بل بأكثر معاني هذه اللغة الشريفة، مع أنّ الكلام كما لا يخفى، على واسع علم المعترض، منه حقيقة ومنه مجاز. والحقيقة هي اللفظ الدال على ما وُضع له في الأصل. والمجاز هو ما أُريدَ به غير المعنى الموضوع في الأصل، وهو من جاز أي انتقل، كأنما يريدون به الانتقال من مقصد إلى آخر.

فإذا قيل: زيد أسد، حال كون زيد إنساناً، والأسد حيوان؛ كأنّه قد فصل المجاز من الإنسانية لوصلة بينهما هي الشجاعة.

أو قيل: زيد بحر، فالوصلة هي الكرم، وهذا هو أهمّ أبواب البيان، بل قال بعضهم: إنّه علم البيان بأجمعه.

ومن العجب أنّ المسمّى بالبيان اليوم يوجب تفسير كلّ لفظ بمعناه الأصلي، متخيّرًا صرير البكر ودُعر المحبوب من ذلك الصرير المنكر، ممّا لا محلّ له، إذ الملابس والقلوب في معنى الارتباط تدرك بأدنى تأمل.

وأما ترحمه على عشاق العرب الذين لم يسبقونا إلى هذا المعنى، فرحم الله من لم يتركوا معنى إلا وقد سبقونا إليه.

(١) جاء في قوله تعالى: "واخفض لهما جناح الذلّ من الرحمة"، سورة الإسراء إثباتاً أنّ التنزيل العزيز نفسه، استخدم المجاز.

(٢) الخوافي والقوادِم: ريشٌ في جناح الطير؛ الخوافي تكون في باطن الجناح، والقوادِم تكون هي الكبيرة منها في مقدّم الجناح.

(٣) الشكير: صغار الريش.

فهل لنا من عاشق أرقّ غزلاً، وأفصح لهجة من مجنون ليلى، فهو الذي يقول:

فَسَبَّ بنو ليلى وسبَّ بنو ابنها وأعلاقُ ليلى في فؤادي كما هيا

ومجنون ليلى هذا حجة، وقد استشهدوا بكلامه في كتب النحو. وقال الشريف الرضي: وهو الذي يجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه.

ومن حذرٍ لا أسأل الركبَ عنكمُ وأعلاقُ وجدي باقيات كما هيا

وأظنّ أننا أتينا من هذه النصوص بما فيه مقنع، ولم يبقَ جدال في كون (أمتهم إعلاقاً في القلوب) جائزة سائغة، وإنّ الأعلاق تأتي بمعنى العلائق أيضاً، إلا إذا كان المعترض أعلم بلغة مصر من مجنون ليلى والشريف الموسوي، وحينئذٍ لا كلام لنا!

نصل إلى (الرأي العام)، وقد أوردنا رأينا فيها، ولا نزال نقول: إن قول الشيخ (أهواء النفوس) لا يؤدّي حقيقة معناها، وإنه حيث كان لا يوجد فيها شيء يخالف القواعد، فلا بأس بالتسامح فيها، وتهوينا للأمر قسناها على الأمر العام، وقلنا: قالوا أمر عمم، وفسروه بأنه عام.

فأجابنا بأننا خلطنا بين العمم والعام، فإن نكن خلطنا فقد خلط لسان العرب. والأصح أن ابن منظور كان يعلم ماذا يقول، وهو الذي فسّر أمر عمم بقوله: أي عام تام، فلم نعلم ما وجه الخلط بينهما؟

ثمّ إنّه هذه المرّة لم يتعرّض (للعائلة) وخصّص نفيه بالعيلة، ورد قول الحفاجي بجوازها بحجة أن كلّ مستند الحفاجي هو الحديث (أتخافين العيلة وأنا وليهم).

فقال: إن الذي فسره بالعيال هو ابن الأثير وحده، وإن قول ابن الأثير لا يُسلم به، حتى نعلم قرائن هذا الحديث. فقد كان صاحب البيان في غنى عن تخطئة مثل ابن الأثير في علم الحديث، والرجل من أكابر المحدثين، وكتابه (النهاية في غريب الحديث) أشهر من أن يُذكر. وهب أن صاحب البيان قد طالع في حواشي الكتب بعض الأحاديث، فهو علم لا بُدّ فيه من الأسانيد، ولا يصحّ تلقّيه بلا رواية. فتعرّض المعترض لجرح قول ابن الأثير في هذا المعنى واقع بغير محلّه، كما لا يخفى.

على أن الحفاجي لم يقتصر في تأييد تلك اللفظة، على إيراد هذا الحديث وحده، بل قال: لعلمهم أخذوها من قوله: عاله عيلة إذا قام برزقه. أو لعلها أطلقت على أسرة لكونهم سبب العيلة، أي الفقر من باب تسمية الشيء بما يؤول إليه. وفي توجيهه هذا ما لا يخفى من الوجاهة. ولا يؤاخذني قارئ بأنني استعملت (العيلة) في كلامي بمعنى الأسرة، لأنها من الألفاظ التي وقع فيها المرء، والتي أغناني الله عنها بأفصح منها.

فإن قيل: فلماذا تحرّيت الدفاع عن استعمالها مع أنها ممّا لا ترضاه لنفسك؟

أجبت: على المنتقد الذي يُصّب نفسه (لإرشاد الخاصّة) إذا شاء الانتقاد أن يرينا، وري زنده ولا يعمد إلى ما قد نسج عليها العناكب من المآخذ التي صارت إلى صغار الطلبة، فضلاً عن خاصّة الكتاب، فإظهار الطول فيما لا مزية فيه، يحدو المرء إلى المقابلة بالمثل، وخصوصاً في علم العربية، الذي لا عبث فيه أكثر من التحجير في الواسع، والقطع بعدم جواز هذا وعدم ورود ذلك، ظناً بأنّ اللغة قد انتهت عند الذي طالعه.

وأما قول شوقي بك في التاريخ المصري: (إنّ الحقيقة معه لا يستقرّ بها خبر، فهي عين تارة وأثر، تموت بحجر وتحيا بحجر). فقد كان قول البيان فيه هكذا بالحرف: (انظر ماذا أراد بقوله: تموت بحجر، وماذا يُفهم بالحجر هنا؟ وهل هذا إلا ضرب من الرقيّ وشكل من أشكال الحروف؟).

فلما أوضحنا لك أنّ العبارة ليست ضرباً من الرقيّ ولا شكلاً، ممّا ذكر، ضربَ عن الجملة. وجاء يجادلنا في توجيه المعنى من جهة التاريخ المصري، محاولاً أن يوقعنا في التناقض، حال كون كلامنا هناك نيراً.

وملخصه أنّ حقائق التاريخ المصري غير ثابتة لاختلاف ما ينكشف كلّ يوم من الآثار الحجرية، التي قد يناقض منها تال سابقاً، ثمّ يأتي ما يؤيد الذي كان قد نقض، فهي لذلك بين موت وحياة، ممّا لا يحتاج فهمه إلى إمعان.

هذا وقد بقيت هناك اعتراضات منها ما سكت البيان عنه، علامة التسليم به، مثل ما أوردناه على (المأمورية) وقوله: (أخذ النوم يطمئن بمقاعد من الأجنان). ومنها ما لم يجاوبنا عليه بغير التهكم والإزدراء، وهو سبيل لمن أراد سلوكه، لكنّه ليس سبيل المناظرة ولا يُغني صاحبه من الحجّة شيئاً.

إلا أنه أخذ علينا قولنا: (يمكن لي) في محلّ (يمكنني)، بحجة أن هذا الفعل لا يتعدّى باللام.

وفي الجواب لا نقول له: إن اللام تأتي لمجرد التوكيد ولتقوية المعنى دون العامل، كما قالوا (ملكًا - أجاز لمسلم ومعه)، وربما نستغني عن أن نقول له إن اللام تأتي للاختصاص كما في قولهم (شكرت له) في مكان (شكرته)، وكما قرأت في أحد التواريخ الكبيرة (بايعوا له) والأصل (بايعوه).

ولو شئنا لقلنا له إنه لما كانت الأفعال التي تعلّقها بمفعولها ما بين الوضوح والخفاء، قد تتعدّى باللام، كما نصّر على ذلك الفخر الرازي^(١)، وكان يمكن اعتبار فعل (أمكن) من هذا القبيل، فلا حرج في مجيئه متعدّيًا باللام.

ولكننا نقول: إنّ (يمكن لي) بمعنى (يتيسّر لي)، وذلك من باب تضمين الفعل معنى فعل مرادف له؛ فإنّ الأفعال قد يتضمّن بعضها معنى بعض. ألا ترى أنه لما قال الكوفيون بتضمين الحروف بعضها معنى بعض، أنكر عليهم البصريون ذلك، وقالوا إنّ التضمين للأفعال لا للحروف، وأولوا شربت بماء البحر بمعنى رويت، "فأمكن لي" متضمنة معنى تيسّر لي، أو تهيأ لي، كما أنّ لفظة (ممكنة) في قول عنترة: "والشاة ممكنة لمن هو مرتمي" هي بمعنى متيسّرة. وبعد هذا كلّه، فهب أن الأولى أن يقال (يمكنني)، فما على الشيخ إلا أن يقيسها ببعض تجوّزاته كقوله مثلاً: (زحف عليه) بدل (زحف إليه). وكقوله: (ينيف عن كذا)، وكقوله: (كما أشار) والواجب (كما أشار إليه)، وهلمّ جرّاً.

ولكن نحبّ أن نخبرنا الشيخ ما معنى (الصحافة)، في قوله في تلك الجملة التي اعترض بها على ما يمكن لي (غلّمان الصحافة)؟ فقد لاح لنا أنه يقصد بها الكتابة في الصحف أو صناعة تحرير الجرائد، كما مشى على ذلك بعض المعاصرين.

ومن كان يرد في كلامه مثل (الصحافة) بهذا المعنى، ومثل: (العالم الأدبي)، فأيّ حقّ له في تخطئة (الرأي العام) وادّعاء تخليص الكلام من المواضيع الجديدة.

ثمّ همز بنا لأجل همزة (أشكل) الواردة في الأهرام بالضمّ من غلط مرتّب الحروف،

(١) الفخر الرازي، المتوفّي سنة ١٢١٠م. متكلّم وفيلسوف واسع المعرفة، أشهر مؤلفاته: "التفسير الكبير" و"نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" و"بُباب الإشارات".

ونسى أننا لسنا نظيره في المطبعة، وأنَّ بيننا وبينه أبحرًا، فلا يتيسَّر لنا تصحيح المسودات كما يتهيأ له ردُّ المرتب ما شاء من المرات. والظاهر أنَّ الشيخ لا يُسلم بغلط الطبع، إلا إذا وقع في كلامه.

وأما تهديده إيانا بالإسراع في إيراد أغلاط (آخر بني سراج)، فلا مانع من أن نكون وقعنا في الغلط في ابن سراج، وفي غير ابن سراج، لأنه ليس أحد بمعصوم من الخطأ، ولكن سبحان الذي أوقعنا ولم يستثن غيرنا. وإن شاء أسرعنا إليه من قوله، بمثل ما أوعده به من قولنا.

على أننا لا نفرِّ من وجه الحقِّ، ونحن نُقرُّ بكلِّ ما يرد علينا منه، وكان الأولى بمن يضع نفسه في منازل أهل التحقيق أن يعترف بالخطأ. وقد أورد له النصَّ والشاهد، وأن يحتذي مثال السعد التفتازاني حينما ناظر السيِّد وأقرَّ له، وهو أحدث منه سنًا، فإنَّه ما على الجواد أن لا يكبو، ولا هفوة العالم مُسقطه له من رتبة فضله، خصوصاً إذا عرف خطاه، وتذكَّر قول القائل:

أذهبُ يومٌ واحدٌ إنَّ أسأتهُ
بصالحِ أيامي وحُسنِ بلائيا

بقي علينا شيء ليس من باب المناظرة في اللغة، ولكنَّه من باب الحقيقة، وهو أنَّ صاحب البيان اتَّهمنا بالسعي في منع الجزء الأخير منه، توهم أنَّ فيه ردًّا علينا. ففضلاً عن كوننا علمنا من مصر، في نفس البريد الذي ورد فيه ذلك الجزء، أنَّ ليس فيه علينا، وأصبحنا في أمن من ذلك الخطر يعلم الله وأولياء الأمور أننا براءٌ من هذه التهمة.

هذا، وأما الشخصيات فلا شغل لنا بها، والله المسئول أن يبصِّرنا ذنوبنا، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا. اه

- المؤلف يرثي اليازجي -

وكانت هذه المناقشة، سبباً لانقطاع ما بيننا من وُدِّ قديم موروث. ومات اليازجي عفا الله عنه، وليست بيني وبينه صلة. وإنما رثيته عند وفاته، رعيًا لذمام أبيه الشيخ نصيف اليازجي، شاعر سورية في وقته، الذي لو اجتمع ما قاله في الأرسلايين من الشعر لكان ديواناً مستقلاً، وتذكُّراً لما كان بيني وبينه من وُدِّ سابق، وانحناءٍ أمام حادث الموت الذي تذهب عنده الأحقاد، وقد قلت في رثائه:

قَصَارُ^(١) كلّ فتى مستكمل الخطر^(٢)
وأن يقابل صرفَ الدهر كيف جرى
وأن يرى غيره مع عينه سرعاً^(٣)
فما أرى ناعياً حياً بمفرده
إلى أن أقول:

كفى بريب المنايا واعظاً وجزى
تخالف الناس في الأهواء حين حيوا
وقد يلجُ ببعض كيد شأنه
وقد يحاول في أعدائه ظفراً
كم وتّرت قوس^(٤) ضغن كَفُ ذِي ثَرَةٍ^(٥)
والدمع يغسل ما بالقلب من وصير
لو أنصف اليازجي دمع لكان له
أو لو درت ناراً ابراهيم مصرعه
أودى الردى حينما أودى بمهجته
بذي (الضياء) تكاد العمى تبصره
من بعد ما خمدت ريح البيان غدت
عبارة لا ترى في رصفها قلقاً
لا تلتقي موضعاً فيها له بدل*

أن ينحني لقضاء الله والقدر
بالخلق في عبرات العين والعبر
فليس بينهما فرق سوى الصور
إلا نعى، لو عقلنا، سائر البشر

رشداً لمن كان من دنيا على غرر
وجمع الموت منهم كلّ منتثر
ولو درى لصفا صفواً بلا كدر
وأنه بين ناب الموت والظفر
فأذهب الموت عزم الوتر^(٦) والوتر^(٧)
كما يزول غبار الأرض بالمطر
كعلمه بحر دمع غير منحصر
لأصبحت من جوى لفاحة الشرر
بأكتب الوقت^(٨) من بدو ومن حضر
وذي (البيان) الذي يُسفي من الحصر^(٩)
له به دولة وضاحة الغرر
كالعدل لم يشك من طول ولا قصر
كأنما جاءت المعنى على قدر

(١) قَصَارُ وقصارى: الجهد والغاية.

(٢) الخطر (هنا): العظمة وارتفاع لبقدر.

(٣) سرعاً: سواءً.

(٤) وتّرت القوس: أعدّه لإطلاق السهم.

(٥) الثرة: الباطل.

(٦) الوتر والوتر: الثار.

(٧) الوتر: مجرى السم من القوس، مفردها وتّرة.

(٨) أكتب الوقت: أشهر كتاب المعصر.

(٩) الحصر: نوع من العي في النطق.

بكت له اللغة الفصحى وحق له
يا راحلاً سكتِ الأقلام غربته
نهجت في بلغاء الأرض واردة
إليك حقك لا ظلم ولا سرفاً
وإن يؤخذك نقاد ببادرة
وقد يعاب الذي في البدر من كلف
إليك مني تحيات برقتها
فاذهب عليك سلام الله من رجل

بكاء كل كلام جاء من مُصْر^(١)
وليس بعدك منها غير مُنكسرٍ
بالحق لولاك لم تُسفر ولم تُنرِ
لا ينكر الشمس إلا فاقد البصرِ
فليس يُرجم إلا مُثمرُ الشجرِ
وليس يُسلب معنى الحسن في القمرِ
كسحر لفظك أو كالتفح في السحرِ
ماضي الحُشاشة لكن خالد الأثرِ

... فهذا ما كان بيني وبين الشيخ اليازجي من الوحشة بعد الولاء، ومن القطيعة بعد
الاتصال، بسبب شوقي.

- عوداً إلى شوقي -

وبعد أن قفل شوقي إلى مصر، ورد عنه كلام في جريدة الشورى للكاتب الوطني المجاهد
السيد محمد علي الطاهر، وذلك بمناسبة اجتماعاتنا في المقهى العربي في باريس.
فجاء شوقي وزار الأستاذ حافظ بك عوض، صاحب جريدة "كوكب الشرق"، وألقى
إليه كلاماً جاء بعده في "كوكب الشرق"، عدده المؤرخ ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥، وفق
١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٦ المقال الذي يلي.

أحمد شوقي بك

بين الأمير والأستاذ

زارنا بالأمس سعادة أمير الشعراء شوقي بك، فانتهزنا هذه الفرصة لنرى رأيه، فيما ورد
عنه في (كوكب) أمس، منقولاً عن جريدة "الشورى" الغراء؛ وما كدنا نتم السؤال حتى
تبسم ضاحكاً، ثم قال: أنا شاكر لهم أن يضعوني بين بحاثين، سعادة الأمير شكيب وسعادة
الأستاذ زكي باشا، على أنني لا يفوتني أن أتقبل مداعبات الأمير على العين والرأس، فأقلّ

(١) مُصْر: قبيلة عربية عدنانية، أخت ربيعة، عُرفت بصفاء اللُغة وفصاحة اللسان.

حقّ الصداقة علينا أن نفتح صدورنا لدعابة الصديق القديم، وأنا سعيد للفرصة التي مهّدتوها لي لأشكر الأمير، فهو أول من دعاني لزيارة المطعم التونسي وقهوته مع حضرات أعضاء الوفد السوري المحترمين بباريس.

كان يومنا هناك أبهج من أن يُنسى، بفضل ما بذله أصحاب المطعم من همّة جديرة بالثناء، خصوصاً الأديب الفاضل طاهر أفندي الصبّاغ، وهو راوية من رُواتي، كان ينشد شعري الحاضرين.

وإذا كان الشيء بالشيء يُذكر، فقد علمت وأنا هناك من أعيان التونسيين، أنه على أثر إشاعة، كانت قد شاعت عن عزمي على زيادة تونس في الصيف الماضي، استعدّ أخواننا التونسيون للقائي استعداداً أعدّه فوق قدري. حتّى بلغ من أحد سُراتهم الأدباء، أن هياً لي منزلاً فخماً أثّره كلّه بأثاث جديد.

وأنا لا يسعني إلا أن أحّي هذه الروح الشرقية الكريمة، وأتمنى توثيق عُراها بين أمم الشرق على الدوام.

وأخصّ بشكري الأمة التونسية مثال النهضة والرقى في شمال أفريقيا.

فبعد ذلك نشرت في "كوكب الشرق" في العدد المؤرّخ في جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥، وفق ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٦ مقالة هي هذه.

مداعبة بين شوقي والمؤلف

من دعابة إلى أخرى

حيث أن أمير الشعراء قد فتح صدره لدعابة صديقه القديم هذا، فلترك الآن الأستاذ العلامة أحمد زكي باشا، ولنعد إلى أميرنا أحمد شوقي بك نجاذبه بقية الحبل.

يقول شوقي بك، أني أنا الذي بدأ بدعوته إلى المطعم التونسي وقهوته، مع أعضاء الوفد السوري المحترمين، ويشكر هذا الداعي.

وأنا أتباهى بهذه الدعوة، وأشكر لمجيئها حسن التلبية، فقد كنت أول من دعا، وكان هو أول من لبّى. وكان يوماً مشرقاً سروراً وأنساً، وكما قال أبهج من أن يُنسى. لا بل كان

كيوم دارة جُلْجُل^(١). ويعلم الله ملاقة أخي شوقي بغية تقصد ومنهل يورد، وإني لأحج إليها من بلد إلى بلد، فكيف وهي على طرف الثمام^(٢)، وإني لأحنّ إلى لقاء هذا الأخ الحميم ولو في رمضان بعد العصر، فكيف على كُنْكُس وشكشوكة وما شاكلها من الطعام.

ولست بأقلّ شكرًا منه للأديب الفاضل، السيّد طاهر الصبّاغ، الذي رأينا من حفاوته ونحافة ذوقه، وسرعة لحظه، وشدة حفظه؛ ما يعدّ نادرًا في بابهِ. ويقول الأخ الأكبر - وشوقي بحسب تاريخ ولادته أكبر منّي بسنة - إنّ طاهر أفندي المومأ إليه راوية من رواة شعره، وإنّه كان ينشد شعره الحاضرين؛ وأقول كلنا رواة لشعر شوقي ننشده الحاضرين ونزهو به على الغابرين، ونقول: كم ترك الأولون للآخرين؟ ولعمري إنّ الدهر من رواة شعر شوقي، أفيكون الصبّاغ أصعب من الدهر؟

قال أبو الطيّب:

وما الدهر إلّا من رواة قصائدي إذا قلت شعرًا أصبح الدهر منشدا

ومن يا ترى يصحّ أن يخلف المتنبّي اليوم؟ أولها أحمد وآخرها أحمد!

أفلم يسألني سائل منذ عشرين سنة، (تراني لا أزال متمسكًا بالتواريخ) عن رأيي في أشعر شعراء العصر؟ فأجبتُه: وجوابي منشور في مجلة سر كيس - وقد تكرّر نشره في المؤيد - بأنّ المُفْلِقِينَ منهم كثيرون، وذكرت الكاظمي والرصافي والمطران وغيرهم. ولكنّي قلت إنّ البارودي وشوقي وحافظ ابراهيم، هم الثلاثة السابقون في الحلبة، وما زلت أقول إنّهم ثلوث الشعر الأقدس، وذلك كما كان أبو تمام والمتنبّي وأبو عبادة البحرّي في الماضي لات الشعر وعزاه ومناته^(٣)، وهكذا لقبهم صاحب المثل السائر، وشبّهت البارودي بحبيب^(٤) لما بينهما من التناسب في علوّ النفس وجزالة اللفظ، وتدفع القول، حتّى كأنه العارض المُنْصَبّ. وشبّهت أحمد شوقي بأحمد بن الحسين الكندي^(٥)، لما بينهما من التناسب في دقّة المعاني وكثرة الحِكم والجري مجرى الأمثال، ورأيت في حافظ كثيرًا ممّا في البحرّي من حُسن الصنعة، وعذوبة الألفاظ، وطلاوة النسج، ومملكة الانسجام.

(١) دارة جُلْجُل: هي عند عمّر ذي كِنْدَة، وقال الأصمعي: هي في الحمى.

(٢) طرف الثمام: ما لا يصعب تناوله، وذلك أنّ الثمام لا يطول ولا يسهل تناوله. والثمام (لغة): نبتٌ ضعيف.

(٣) لان الشعر وعزاه ومناته: أراد بأصنام الجاهليّة أن يقول إنّ هؤلاء الشعراء كانوا بمثابة آلهة الشعراء.

(٤) حبيب: هو حبيب بن آوس الطائي المعروف بأبي تمام.

(٥) أحمد بن الحسين الكندي: هو المتنبّي.

فلا عجب إن روى الدهر لشوقي كما روى للمتنبّي، وكم من أبيات لشوقي يستشهد بها الكتاب، بل العوام وهم لا يعلمون أصلها. ومن وجوه شبه أحمد شوقي بالمتنبّي، أن أبا الطيّب استشهد الناس بشعره في عصره، ودارت أمثاله وأبياته اليتائم على عذبات الألسن ورؤوس الأقلام شرقاً وغرباً وهو يُعدّ في الحياة، وأن شوقي له شعر كثير لا يأخذه الإحصاء يستشهد به الخاصّ والعامّ، ويدور على الألسن والأقلام، وهو يُعدّ في الحياة، لا بل في الشباب إن جاز لنا أن نقول هذا.

إلا أنني سمعت السيّد طاهر الصبّاغ يروي لحافظ مثلما يروي لشوقي وربما أكثر، فلا ينبغي أن أغفل ذلك، لأنّ التحري واجب في الرواية حتّى عن الرواية.

ولكن قد بالغ شوقي في الاعتماد على ذاكرة صاحبنا طاهر الصبّاغ، وفي الاعتقاد بإحاطته بشعره، إلى أن ذهلَ عن إهدائه إيّاه ديوانه (الشوقيّات)، بعد أن وعده به، وقال له: إنّي كتبت اسمك على النسخة. وهو عقد، عجل شوقي فسّخه لذهابه إن بين صدغي الصبّاغ من ديوانه نسخة.

وذهب شوقي إلى (فيشي)، وقد ظنّ الصبّاغ أنه (فايش) في وعده بالكتاب، وبقيت أنا وحدي عُرضة للعتاب، كأنني أنا وشوقي متكافلان متضامنان، ليسمح لنا "الوحيد" بالتكافل والتضامن، فقد صارتا من الاستعمالات الضرورية، ولو لم يرد في كتب اللغة تضامن فلان وفلان، ولا ورد من الكفالة إلا قولهم فلان مكافل لفلان (بمعنى معاهد)، ولا غرّو فبين الأدباء رَحِمَ وذمام، ولا سيّما إذا كانوا إخواناً من قديم الزمان. فصرت أسمع غمزة بعد غمزة، وكثرت الحروف التي فيها همزة، وخشيت أن يتذكّر صاحبنا الآية الكريمة في الشعراء وهي التي فيها (يتبعهم الغاوون) إلى آخر ما وصفهم تعالى به، ممّا ينتهي بالألف والنون. وإنّ شوقي سيّدهم وحامل لوائهم يوم القيامة، فكنت أوكد للأديب الصبّاغ وهو عربيّ قحّ، مولده الحجاز، إنّ لا بدّ لذلك الوعد من الإنجاز، وإنّ عليه أن ينتظر وصول شوقي بك إلى مصر، فالأمور بخواتيمها، والقصائد بقوافيها، والنسخة الموعود بها آتية لا ريب فيها.

كنا في العود الذي وعدنا به ولم نسمعه، فصرنا في النسخة التي انتظرها الصبّاغ ولم يرها، ولا شكّ عندي أنّ العود تعطل كما قال الأخ، وأنّ النسخة أُهديت إلى أناس كانوا

مستعجلين، إلا أنني لست بتارك حقي في هذا العود إن شاء الله في كرمة ابن هانئ^(١) نفسها، فقد كان أمير الشعراء وعد بليلة طرب من أجلي، بأثناء ذهابي إلى حرب طرابلس الغرب (١٥ عامًا)، والبدوي أخذ ثأره بعد أربعين سنة وقال إنه بكر. أما السيد طاهر الصبّاغ، فإنه يروي أكثر مني، فإن لم يعجل إليه بالنسخة فلا تُغني بعد ذلك المكتبة بأسرها.

أما ما رواه بعضهم من وجود الشرب والرقص في ذلك الملهى العربي بباريس، فلا نصيب له من الصحة، بل مشرب الزائرین قهوة البن، وهي التي قال فيها عبد الغني النابلسي^(٢)،
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

قهوة البن حلالٌ ما نهى الناهون عنها
كيف تُدعى بحرامٍ وأنا أشربُ منها

والشاي بأنواعه لا سيّما الأخضر، وهو ما أدخله المغرب، السادة السنوسية رضي الله عنهم، وكفى بهم قُدوة. وليس سُكْر ولا رقص ولا في الملهى مكان للرقص، وإنما قد تُنشد أحياناً بعض الأبيات المرقّقة للقلوب، وبعض الأزجال المقبولة، وليس في ذلك نكير، ولعمري إن مقهى بدون قهوة و لا شاي أشبه بقلب بلا وجد أو (بغراموفون) في نجد.

شكيب أرسلان

لوزان، في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٦

(١) كرمة ابن هانئ: اسم المكان الذي أطلقه شوقي على مسكنه في القاهرة.

(٢) عبد الغني النابلسي، المتوفى سنة ١٧٣١م. فقيه ومتصوّف دمشقي وعالم بالدين والأدب، له مؤلفات كثيرة، منها: "الرحلة الحجازية" و"ديوان الحقائق".

الوداع الأخير

ومذ ذلك الوقت، لم يتيسر لي الاجتماع بأخي شوقي، لأنني كما لا يخفى، لا أقدر أن أدخل مصر، ولأن شوقي لم يأت في هذه السنين الأخيرة إلى سويسرة، وبقيت أرعاه ويرعاني عن بُعد، وأصبحه فؤادي كيفما جال، وابتهج بنفثاته مهما قال، إلى أن أتاح الدهر لي أن أنظره النظرة الأخيرة، التي لم أنظره بعدها واحسرتها، وهي أنني في منصرفي من الحج سنة ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م مررت على السويس، حيث بعد لأي^(١) سمحت لي الحكومة المصرية بالإقامة بضعة أيام، أشاهد فيها سيدي الوالدة التي كان أولاد عمي: الأمير أمين مصطفى أرسلان وشقيقته، أتوا بها إلى السويس لمشاهدتي، فأقمت في تلك البلدة أربعة أيام، أقبل فيها عليّ الأخوان من مصر: الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا، والمرحوم أحمد زكي باشا، وحافظ بك عوض، وعبد الله بك البشري، ونسيم أفندي صبيعة، وأسعد أفندي داغر، والحاج أديب أفندي خير، والسيد محمد علي طاهر الشورى، وأحمد حلمي باشا مدير البنك العربي في فلسطين، وغيرهم من أخواني وخلاتي. وأقبل أيضًا أحمد بك شوقي، وسررت بلقاء الجميع سرور من بقي عشرات من السنين في بلاد الغرب، محرومًا لقاء أخوانه الذين كان يذوب شوقًا إلى لقائهم، لا سيما أخي شوقي، الذي بيني وبينه من الإخاء والذمام ما لا يكاد يوجد بين اثنين. ومما أتذكره أنني قلت له يومئذ: لا أقدر أن أدعوك إلى سورية، لأنني لا أقدر أن أطأها بقدمي، ولا إلى فلسطين ولا إلى مصر التي لا أدخلها إلا بعد اللتيا والتي، فأنا أدعوك إلى سويسرة حيث يمكنك أن تقضي الصيف، ونشاهدك مليًا.

فقضى عندي سحابة يومه، ثم ركب سيارته عائداً إلى مصر وودّعه في السويس الوداع الذي كنت أرجو بعده اللقاء، فكان هو الوداع الأخير، وذلك أن لقاءنا هذا كان في سنة ١٣٤٧، وأن شوقي رحمه الله لقي ربه، في ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٥١هـ/١٩٣٢م. فيكون بين وداعي الأخير له ووفاته، نحو من أربع سنوات، قد كنت أمّني النفس في أثنائها باللقيان، لأنه ما دام الإنسان حيًا ولو على بعد، لم ينقطع الأمل من مشاهدته، فأما إذا فات، فهي الحسرة الكبرى.

وما صبا بة مشتاق على أملٍ إلى اللقاء كمشتاق بلا أملٍ

(١) لأي: شدة وإبطاء، بمعنى احتباس.

قصيدة المؤلف في مهرجان شوقي

وكانت مصر قد قرّرت الاحتفال بعيد الخمسين سنة من حياة شوقي الأدبية، وهو ما اصطلح عليه الناس من تسميته يوبيلاً "jubilee"، تقليداً للإفرنج الذين يحتفلون بمرور الخمسين عاماً على حياة سياسية، أو أدبية، أو عسكرية، أو أكاديمية، للوزير، أو الكاتب، أو القائد، أو الأسقف، منهم. فالشوقيون أصبحوا يقلّدونهم في هذا الأمر، كما قلّدوهم في كل شيء. ولا شك في أنه إن كانت هذه بدعة، فإنها بدعة حسنة. وقد صادف ورود الخبر بتأليف لجنة يوبيل شوقي، كوني على أوفاز^(١) إلى أميركا لحضور المؤتمر العربي، الذي قرّرت الجالية السورية عقده في (دتروت ميشيغن)، وأرسل حزب سورية الجديدة، فدعاني إليه. فسرت من سويسرة إلى إنجلترا، وركبت الباخرة من (سوث همتن) وذلك في آخر سنة ١٩٢٦، وفكرت في أنه لا مناص لي، من إرسال قصيدة تُتلى في عرس شوقي الأدبي. فنظمت وأنا في الباخرة بين أوروبا وأميركا القصيدة التالية. وعند وصولي إلى نيويورك، أسرعت بإرسالها إلى مصر حتى تدرك مهرجان شوقي. فكان الأمر كذلك، وتلاها في الحفل الأستاذ خليل بك المطران، المعروف بشاعر القطرين، وهي هذه:

إلى الأخ القديم أحمد شوقي بك

نادِ القريحة ما استطعت نداءها	إن الحقوق لتقتضيك أداها
مهما ينل منها الجمود فإن من	إعجاز أحمد ما يُفجّر ماءها
مهما تراكمت الغيوم بأفقها	فاليوم عندك ما يُعيد جلاءها
لا تعتذر عنها بكرّ نوائب	سدّت عليها نهجها وسواءها
فأهم ما همّت السحاب إذا مرّت	هُوج العواصف درّها وسخاءها
والحكّ يستوري الزناد ^(٢) وإنما	تربي الصّورم بالصّقال ^(٣) مضاءها
والرمح يكسب بالثقاف ^(٤) متانة	والخيل يُظهر عدّوها خيلاءها

(١) على أوفاز: على أهبة السفر.

(٢) يُوري الزناد ويستوريه: يقدح النار فيه.

(٣) صقال الصّورم: شحذها وسنّها.

(٤) تثقيف الرماح: تقويمها لتبقى مستقيمة.

حاشا القرائح أن تَضنَّ بوذِقِها^(١)
الشاعر الفذّ الذي كلماته
أنست فصاحته أوائلَ وأئِـلِ
في كلِّ كائنة يزفّ قصيدة
غدت المعاني كلّها مُلكًا له
وكسا اللسان اليَـعـرـبـيَّ مطارِفًا
ستُخلدُ الأوطان من تكريمه
لو أنصفت لغة الأعاربِ قدره
من كلِّ موضوع أصاب شواكِلًا
بيكي "شكسبير" على أمثالها
ولو أن آلهة الفصاحة عندهم
صنّاجة الشرق الذي نبراته
في كلِّ حرف من حروف يراعه
ما حلّ بالإسلام بأسُ مُلِـمّةِ
يُيدي فظاعتها ويوسعُ هولها
كانت قصائده لبعث بلاده
وأرى الليالي لا تعزّز أمةً
كم أثبت التاريخ في صفحاته
ضلّت لعمري في الحياة قبيلةُ
والعرب لا تبدأ بجمع جموعها
أكرم بأحمد شاعرًا وافى لنا

ما دام شوقي كافلاً أنواءها
ضَمِنَ النبوغُ على الزمان بقاءها
وغدت هوزانُ مع ثَقيف^(٢) فِدَاءها
تؤتي جميع الكائنات بهاءها
فأصاب منها كلُّ بكرٍ شاءها
هيهات ينتظرُ الزمانُ فناءها
ذكرى تُطبِّقُ أرضها وسماها
صلّت عليه صباحها ومساءها
بلغت بمقتلها الصُّدور شفاءها
وبييت (غوته)^(٣) حاسدًا عليها
أدرُكنَّ شوقي خَفّفت غلواءها
تجلو المشارقُ عندها غمّاءها
وترُّ يُشير سرورها وبكاءها
إلا ورجع شعره أصداءها
وصفًا ويذكر داءها ودواءها
صُورًا أراد من البلى إحياءها
إن لم يكن سواسها شعراءها
أمّا غدا إنشادها إنشاءها
لم تصطحب أفعالها أسماءها
إلا سمعت نَشيدَها وحِـدَاءها
في روح أحمد حاملاً سيماءها

(١) الوذق: المطر.

(٢) وائل، هوزان وثَقيف: قبائل عربية.

(٣) غوته (١٧٤٩-١٨٣٢). أديب وسياسي وعالم من أكبر أديباء ألمانيا، تأثر بالثورة الفرنسية، وارتقى بأدبه إلى فنّ كلاسيكي رفيع، له "آلام فرتر" و"نظريّة الألوان"، وكانت "مأساة فاوست" رائعة أعماله.

أتلو قصائده فتملأ مهجتي
وأطلُّ مفتخرًا بها فكأنَّ لي
نَخَلْتُ له نفسي مَوَدَّةَ وَا مِقِ
تعزو إلى لَحْمٍ مَتَانَةٍ أَصْلَهَا
لا ترتجي منها النَّمائمُ ثُلْمَةً
ناشدت شعري أن يفي بمودتي
قد صار عهدي بالقريض كأنه
أدعو فلا يأتي الذي أَرْضَى بِهِ
والشعرُ ما رَسَمُ الضمائرِ نَائِلًا
والشعر ما ترك المعاني مُثَلًّا
وهناك نفسٌ مُرَّةٌ ما تَأْتِي
إن لم تَجِدْنِي فِي العَجَاجَةِ^(٥) أَوْلَا
وَفَرَّتْ يا شوقي السِّبَاقَ عَلَى الوَرَى
تتقطَّع الأَعناقُ عن غاياتها
تالله أُعْطِيتَ الرِّياسَةَ حَقَّهَا
وبدَّدتَ أهلَ العَبْقَرِيَّةِ كُلَّهُمْ
لَمَّا رَأَيْتَكَ قَدْ نَزَحْتَ^(٧) قَلْبِهَا
فأسعدَ بعرش أمارة الشعر التي
وتَهَنَّ وَا بَقِيَ لِأُمَّةٍ عَرَبِيَّةٍ

فَرَحًا يُزِيلُ هَمومَهَا وَعَناءَهَا
دُونَ الأَنامِ ثَناءَهَا وَسَناءَهَا
وَفِي عَهَادٍ^(١) عُهُودَهَا إِنماءَهَا
وَتَمَرُّ مِنْ ماءِ السَّماءِ صَفاءَهَا^(٢)
كَلًّا وَلَا تُوهِي الهَناتُ بِناءَهَا
وَأَراهُ يَعجزُ أَنْ يَجِيءَ كَفاءَهَا
دِمْنٌ تَقاضَتْها الرِّياحُ عَفاءَهَا^(٣)
والشعرُ أَنْ تَجِدَ النُّفوسُ رِضاءَهَا
مِنها الكَنائِنَ نَافِجًا^(٤) أَحناءَهَا
فَتَكَادُ تلمسُ بِالأكْفِ هَباءَهَا
تُملي عَلَيَّ مِنَ العُلَى أَهواءَهَا
نَكِرَتْ عَلَيَّ ثُلانِها وَثُناها
بِرِياسَةِ باتِ السِّبَاقِ وِراءَها
حَتَّى الأَماني لا تَحومُ حِذاءَها
وَعَقَدتَ حَبوتَها^(٦) وَنِلتَ حَباءَها
وَبَزَزتَ جَنَّةَ عَبْقَرِ أَشياءَها
أَلقيتَ عَنِّي دَلوها وَرِشاءَها^(٨)
أَلقتَ إِلَيكَ لِواءَها وَوِلاءَها
لا زَلتَ قُرَّةَ عَينِها وَضِباءَها

(١) العهد: أول المطر الموسمي (الربيع).

(٢) إشارة إلى نسبة قائل هذا الشعر إلى المناذرة بني ماء السماء اللخمين ملوك الحيرة.

(٣) يقول: إن شعره صار كالآثار التي تمحوها الرياح.

(٤) نَفَج: رَفَعَ وَعَظَّمَ.

(٥) العَجَاجَةُ: هنا، كناية عن الحرب أو المعركة.

(٦) الحَبْوَةُ: تقول العرب: عَقَدتَ - حَبوتَها: أي جَلَسْتَ عَلَيْها وَقَعَدتَ.

(٧) نَزَحَ القَلْبِ: أَفْرَغَ البِثْرَ مِنْ ماِنِها.

(٨) الرِشاءُ: حَبْلُ الدَّلُو الَّذِي يَرفَعونَهُ مِنَ البِثْرِ. والمعنى: أَنَّ شوقي لَم يَتَرَكَ فِي الشعرِ بَقِيَّةً يَأْتِيها سِواهُ مِنَ الشِّعراءِ.

أبيات للمؤلف أيضاً

ولمّا توفي الأستاذ، فقيد الإسلام الشيخ عبد العزيز جاويش، رثاه شوقي (رحم الله الرائي والمرثي) بقصيدة من قصائده، التي كانت تُسَرِّق وتُغَرَّب، ويعجب بها كلّ عربي ومستعرب. فإذا بأحد الأدباء ينتقد تلك المرثية انتقاداً مُتَعَنِّتاً، وإذا بأديب آخر ينافح عن شوقي. فأملى عليّ هذا الجدل في تلك القصيدة، القطعة الآتية المنشورة، في عدد ٢٨ ذي الحجة، سنة ١٩٢٩/هـ٤٨م من جريدة الشورى، وهي:

- بُيُوتَات كَانَتْ ضَالَّةً فُوجِدَتْ -

كنت في أثناء سفري إلى الحجاز، أقرأ على ظهر الباخرة مجلّات وجرائد. فبينما أنا أقرأ إذ مرّ بي انتقاد لأحد الأدباء، يُخطيء به "شوقي" في أبيات من رثائه لفقيد الإسلام المرحوم الشيخ جاويش. ثمّ أطلعت على ردّ لأحد الفضلاء الناخعين^(١)، يدافع به عن شوقي ويبيّن صحّة قوله. فأما القصيدة، فهي كسائر شعر شوقي، الذي لا يدري أيّه أحسن، بل كلّما قرأ الإنسان منه شيئاً ظنّه هو سيّد شعره. فإذا انتقل إلى غيره ظنّ هذا هو السيّد، وهكذا إلى أن ينتهي من شعره، وهو لا يعلم أوله خير أم آخره. ولا جدال في أنّ مرثية أمير الشعراء للأستاذ جاويش، نور الله ضريحه، كانت من عيون قصائده. ولمّا انتهيت منها، كتبت على حاشية مكتوب ما يأتي بقلم رصاص، على البديهية:

تفوّق شوقي بأشعاره	جميعاً فكلّ يتيم فريد
وما دمت تجتاز أرجاءها	تعود بكلّ طريفٍ جديد
توالي الهتافَ لدى كلّ بيتٍ	ألا إنّ ذلك بيت القصيد
إذا هو أبكى، فزاد المعاد	وإن هو غنى فأنس الوجود
ولكن قصائد شوقي اللواتي	لهنّ سجلّ بلّوح الخلود
فداء "لمرثية" قالتها	"بعبد العزيز" العزيز الشهيد

(١) الناخع: المخلص في النصيحة والمقرّ بالحق والمدافع عنه.

فأصبح هذا لهذا نديذ

بشأو محال عليه المزيد

تكون المنايا أمانى الفقيذ

أعار الرثاء جلال الفقيذ

وقد كان من قبل هذا ميينا

تكاد لإحراز أقوال شوقي

وأندكر أني حررت كلمات أيضاً، أُبين فيها محاسن تلك المرثية. ثم بعد أن وصلت إلى الحجاز، غاصت هذه الأبيات، وهاتيك الكلمات في لجج أوراقى الزاخرة، فلم تقدر يدي أن تصل إليها، وظننتها ذهبت أصلاً. وبينما أنا أفرز أوراقى في هذه الأيام، إذ عثرت على الأبيات المرقومة بقلم الرصاص، وترددت ساعة في نشرها، قائلاً لنفسى إنَّ النظم والنثر بعد مضي مناسبته، أشبه باللحم البائت أو الخبز الغاب^(١) الذي تذهب طراوته. ولكن فكرة النشر بعد تساؤل النفسين، قد غلبت بحجة أن كلاماً يتعلق بشوقى، لا يزال غصاً طرياً، وأن مناسبة شوقى لا تخلق^(٢) ديباجتها أبداً.

أما الكلمات التي حررتها في محاسن تلك المرثية، التي كل من المرثى، نصّر الله وجهه، والرائى أطل الله عمره، كانا من أعز الناس عليّ وأحبهم إليّ من بين جميع البشر، فبقيت ضالة لما تظفر يدي بها.

وأذكر أني أشرت إلى نكات بيت فيها، لا سيّما ذلك البيت، الذي وصف الموت والنقل والدفن، منذ وجد الخلق، وشطره الثانى: "قيام بتلك الصحارى قعود"

وأما البيت الذي فيه وصف أجساد الموتى، وشطره الثانى: "وكم من قروح وكم من صديد"، فلم أحبه على ما فيه من صحّة، وقد ذكرت عنه، أنه يليق بأن يتلى على مائدة رهبان في دير. فإن من عادة هؤلاء إذا جلسوا إلى طعام، أن يجعلوا أحدهم يقرأ عليهم من الزهديات والمحزونات وذكرى الموت، وأمامه جمجمة.

مما لا يجوز أن أغفله من تاريخ علاقتى مع شوقى، أنه في سنة ١٣٢٨هـ/١٩٠٩م سألتى سليم أفندى سركىس، عن رأى فى شعراء العصر، لينشر هذا الرأى فى مجلته، فلم أجده بدأ من إجابته بمقال نشره فى مجلة "سركىس"، ثم أعاد نشره بعد ذلك بسنوات فى جريدة "المؤيد". وقد كان سبب إعادة هذا الفصل فى المؤيد، أنه بينما كنت فى مصر، قاصداً الجهاد

(١) الغاب: البائت.

(٢) تخلق: تبلى.

في طرابلس الغرب، ألقى عليّ أحد الأدباء في المؤيد سؤالاً، يستنظني فيه عما أراه من طبقات الشعراء المعاصرين. فاستعفيت تلك النوبة من الجواب، حتى لا أقع في مشكل المفاضلة بينهم، وأنا على سفر إلى برقة، وعندني من الهموم بمسألة طرابلس، ما يشغلني عن الشعراء والحكم أيهم أشعر. نعم، أجبت السائل بكليّمات في المؤيد، قلت له فيها: لماذا هذا السؤال؟ أفزامر الحّي لا يطرب؟

وكان مرادي بذلك من طرف خفي، أنه ما دام شوقي في مصر، فلماذا يسألون عن أشعر الشعراء؟

إلا أن سر كيس قام ونشر في "المؤيد" جملة أشار فيها إلى مقالتي الأولى، التي كان قد أثبتها في مجلته وأعاد نشرها في "المؤيد"، وهي هذه.



رأي المؤلف في أشعر الشعراء

- كلام عن المتنبي، ووجه الشبه بينه وبين شوقي

حضرة صاحب مجلة سر كيس

سألتموني رأيي في الشعراء، فأشعر الشعراء عندي هو محمود سامي، ثم شوقي، ثم حافظ^(١)، وهؤلاء الثلاثة في هذا العصر، هم السابقون في حلبة الشعر، الفائقون في إجادته، بل هم أشبه بالثلاثة الماضين: أبي تمام الشعر ومتنبيه وأبي عبادته^(٢)، بل هم اليوم لات الشعر وعزاه ومناته، والذين رُجّحت لهم على غيرهم بيتاته. وأحبُّ أن أشبه البارودي بأبي تمام في علو نفسه وقوة ملكته ومثانة أسلوبه، وأن أشبه شوقيًا بالمتنبي في دقة معانيه وسمو حكيمه وكثرة جوامع كلمه. كما أن حافظًا يشبه البحري، في سلاسة لفظه وحسن سبكه وتأثيره في النفس، وهو وإن لم يعلو شوقي في بعض أبياته، فإنَّ عامّة شعره أطلّى من عامّة شعر شوقي، وغاية ما يقال فيهما أنَّ جيد شوقي أحسن من جيده، وأنَّ ذلك أعلى وذاك أطلّى.

وأما كون أسلوب شوقي ركيكًا، فهو غير صحيح. وهذا القول في حقّ شوقي هو أشبه بالقول الآخر في حقّ حافظ، بأنه صانع ماهر وأنَّ حيلته أكثر من شعره، وعندني ألف شاهد، لولا خوف الإطالة، لأوردتها على مثانة أسلوب شوقي وتسنّمه غارب^(٣) العربية، كما أن لي بقدرها على قدرة حافظ الحقيقية، وأنه شاعر مطبوع الفصاحة فيه سجيّة لا تلهوق، وأنَّ مثل حافظ في الشعراء قليل. نعم، إنَّ شعر شوقي ليس طبقة واحدة، حتّى لا يخاله القارئ نسجًا واحدًا، وهو يذهب مذاهب غريبة أحيانًا، وربّما أتى في كلامه بالتعقيد، وهذا من وجوه الشبه بينه وبين المتنبي الذي كان كأنه يعمد إلى الإغراب في بعض المواضع، فيأتي بالغث كما يأتي بالسمين.

(١) محمود سامي البارودي (١٨٤٠ - ١٩٠٤)، وأحمد شوقي (١٨٦٨ - ١٩٣٢)، وحافظ ابراهيم (١٨٧٢ - ١٩٣٢) من أشهر شعراء مصر

والعالم العربي في عصرهم.

(٢) أبو عبادة: هو البحري، (٨٢٠ - ٨٩٧) م.

(٣) تسنّم غارب الشيء: (كناية) ترَبّع على قمته.

وإنما استحقّ أبو الطيّب هذه الشهرة مع هذه الهنات، لأنه كان متى أراد، بَدْءَ الأولين والآخرين، وأنه متى علا لم يُزاحمه أحدٌ بِمَنَكِبٍ، وأنّ الذي يحفظ من كلامه لا يحفظ من كلام شاعر سواه، حتّى صار شاعر العامّة فضلاً عن الخاصّة. وهذا ما أراه في شوقي اليوم، فإنّ عيون شعره لا يقدر على مثلها حافظ ولا غيره، وقد يحلّق في سماء الخيال أحياناً، حتّى يفوق البارودي نفسه، وهو عندي حامل اللواء وأبو الجميع.

ولا يمكننا أن نسلّم بركاكة أسلوب شوقي، إلّا على مذهب من يرى المذاهب الجديدة في الشعر، ولا يريد الشعر إلّا كاظميةً، ومذهب من يرى في موافقة ذوق العصر مفارقة المناهج العربية. وهذا الرأي ليس بجديد، بل هو قبل صاحب المنار^(١). وقد كان بعضهم، يعيب على المتنبّي نفسه الحيد عن جادة العرب في شعرهم، وفي مقدّمة ابن خلدون، أنّ المتنبّي والمعري لم ينسجا على أساليب العرب، ولكن لا يمكننا أن نقول إنّ هذا هو الرأي كلّهُ، وإنّه جفّ القلم بعد هذا القول، بل لكلّ رأي ولكلّ وجهة.

وأحسن ما قيل في شوقي، إنّهُ في الشعر كأبي مُسلم^(٢) في القواد، أقام دولة وأقعد دولة، فإنّه نسج على منوال جديد وانتهج خطة حديثة، ثلاثم روح الوقت الحاضر، لكن مع الوفاء بحقّ اللغة والأمانة مع العربية. ولولا متانة لغة شوقي لَمَا عُدَّ شاعراً أصلاً، لأنّ نقاوة اللغة هي الشرط الأول للشاعر والكاتب، والمعاني وحدها لا تكفي، ولا ينهض بركاكة اللفظ علوّ المعنى. وهذا أمر اتّفق عليه العرب والعجم.

ومما أعجبنى جدّاً في نعت شوقي، أنّ شعره لَوْح الصبي في مكتبه، وسُبحة الناسك في صومعته، وكأس الشارب، ودمعة الباكي،... إلخ. فكلّ هذا القول في شعره حقّ، لأنك تجد شعره بستاناً فيه من كلّ الرياحين، أو على رأي أهل العصر، معرضاً فيه من كلّ البضائع.

ومما يطيب سماعه عن شوقي، وهو يتعلّق بالأخلاق، لكنّه من رَسْحِ إناء الفضل، قول القائل: إنّهُ صفت نفسه، فلم يستشعر في نفسه عيباً يحتاج إلى ستره بتنقُّص غيره، وعَلَّتْ همّته، فوقف بين حسّاده وقفّة رابط الجأش، يناضلهم بسكوته وإغضائه. ولعمري إنّها عبارة شعرية، لو نُظِمَتْ لكانت من أحسن الشعر. وأحسن ما فيها مطابقتها الواقع. فلا ينكر أحد هذه الحال على شوقي، وأنه لا يقابل حسّاده والطاعنين عليه إلّا بالسكوت، وهو أحياناً أقتل من الكلام.

(١) صاحب "المنار": الشيخ رشيد رضا.

(٢) أبو مُسلم: هو أبو مسلم الخراساني، المتوفّي سنة ٧٥٥م، من أعظم دعاة العباسيين وقادتهم.

على أنه في الواقع غير ساكت، فإذا لم يجاوب منتقده، رأساً جاوبه من جهة ثانية بقصائده إلى الجمهور. فترى بإزاء كل "همزة من تلك الهمزات، وحرف من هاتيك الحروف"، كل قصيدة يُقام لها ويُقعد وكل بيت أذن الله أن يرفع ويشيد.

أما القول بأن محمود سامي هو مقلد، شأنه معارضة الأولين، وهيهات أن يلحق واحداً منهم، فهو شبيه بالقولين الأولين في الظلم. وإنما اختار المعارضة في بعض المظان، ليعلم الناس شأوه مع مَنْ تقدّمه. وليست المعارضة بشأن جديد، بل كانت عند الماضين، وقد استحسناها ولم يحسبوها تقليداً، ولا عدوها نسخة مُحَرَّرَة ولا صورة مُطَبَّقة. وإنما كان ينظم الواحد قصيدة ترنّ في الآفاق، فيعارضه شاعر آخر برنّانة أخرى، من البحر والقافية، كما يجاري الفارس فارساً في مضمار. وهذه قصيدة أبي نّواس الرائية في الخصب^(١)، عارضها ذلك الأندلسي قبل محمود سامي، وكلّ منهما أجاد، ولم يقل أحد إن الأندلسي مقلد لا مزنة له، وإنه إنما صور صورة كانت أمامه. فمحمود سامي، قد عارض وفاق مَنْ تقدّمه، وقال في غير معارضة، فأتى بالشعر الفحل الذي يعنى على الأوائل فضلاً عن الأواخر. وكلّ ذي مُسبِكة^(٢) يقدر أن يميّز بين التقليد والتوليد. ولا يجب أن يؤخذ من كلامي هذا، في تفضيل الثالوث الشعري، الاستخفاف بقدر الباقيين، فإن الذين فضّلوا حبيباً والمنتبّي والبحتري، لم يحصروا الشعر فيهم ولا ازدروا. سائر الشعراء، ولكن لسان حالهم يقول:

محاسنُ أصنافِ المُغَنِّينِ جَمَّةٌ وما قَصَباتِ السَّبَقِ إِلَّا لِمَعْبَدِ^(٣)

ولا بدّ في الميادين من مُجَلٍّ ومُصَلٍّ وتالٍ ومرتاحٍ إلى السُّكَيْتِ^(٤). وإني أرى الكاظمي وصبري وناصر المطران وسائر مَنْ ورد ذكرهم من الشعراء، أشبه بالناشئ والنامي والزاهي والمعري وأمثالهم. فليست شاعرية أبي تمام والمنتبّي والبحتري بناحية براعة هؤلاء، بل لهؤلاء مواطن لا يلحقهم فيها أولئك.

بقي شيء استحسنته من كلام فاتح الباب، وهو أن الشهرة لا تصحّ أن تكون بحال من الأحوال ميزاناً للفضل، ولن يجري الفضل والذكر في ميدانٍ واحدٍ، لأنّ في الناس مَنْ

(١) الخصب: هو الخصب بن عبد الحميد، صاحب العراج في مصر، راجع ترجمته في "الذخيرة".

(٢) المسبكة: الرأي والعقل الوافر.

(٣) معبد، المتوفى سنة ٧٤٣م. من أعظم المغنين في العصر الأموي.

(٤) مُجَلٍّ ومُصَلٍّ وتالٍ ومرتاح: هو ترتيب عدو الخيل في الميدان نسبة إلى الأول والثاني والثالث والرابع؛ أما السكيت، فهو آخر الخيل في السباق.

يغتصب الشهرة ويلصقها بنفسه. بينما الآخر قد قنع من الأدب بلذّة نفسه، فلا يترنّم بقصائده في النوادي، ولا يبتاع من الصحف الألقاب، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه، ولا يتمّم نقصه بالغضّ من مقام غيره. وهذه كلّها جمل منحوتة من معدن الحقيقة، وفلذات منقطعة من كبد الصواب، فإنّ الشهرة مزلقة ولا يصحّ اتخاذها معياراً. وقد يقبع في كسور الخمول، من لو اطّلت على حقيقته لأجللته وأحللته أعلى مقام^(١). ولا أريد من ذلك الطعن في حبّ الشهرة وتضعيف هذا المشرب، وهو مبعث الهمم، ومثار كوامن الفضائل، ومظهر دُرر القرائح من أصداف الأدمغة. ولكن أريد أن تكون درجة الشهرة هي درجة الفضل، فكم في الزوايا من خبايا؟ كذلك لم أعزّز رأبي في الشعراء بالشواهد من أقوالهم، ولعلّي أرجع إلى البحث وأختار من دواوينهم على مهل، فقد وجدت الشواهد التي أوردها غيري غير وافية، وقد أهمل ما هو أحسن منها. وإنما استحسنت ما أطيل من شواهد شعر الكاظمي، لأنه كان غنّي صوتاً واحداً في وادي النيل، فلم نتحقّق فضله على طوله، فإذا به بعد هذه الأصوات كلّها مُغنٍ على أصول. والله تعالى ذو الفضل العظيم (يزيد في الخلق^(٢) ما يشاء).

قد كان هذا كلامي في شوقي منذ خمس وعشرين سنة، وفي هذه المدة كان قد انطوى البارودي، فأصبح شوقي نسيجَ وَحْدِهِ، لا يجد الناس عنه عوضاً ولا يتغنون به بدلاً، وأصبح أثر في النفوس من كلّ شاعر سواه. ولم ينحصر المجد في نفسه، بل تناول وطنه مصر، فصارت تزهو به على غيرها، ولما كان لها المكان الأول في الشرق وكان خليقاً بها أن تكون ذات المركز الأول في كلّ فنّ، جاء شوقي فحقّق لها مكانها الأول في الشعر، برغم أنّ كلاً من الشام والعراق واليمن والسودان وتونس الخضراء والمغرب، فيها الشعراء المُفْلِقِينَ الذين لا يُسْقُ لهم غُبار. وقد صدق شيخ الأدباء في هذا العصر، مصطفى الرافعي^(٣) في قوله: إنّ اسم «شوقي» «كان في الأدب كالشمس من المشرق متى طلعت في موضع، فقد طلعت في كلّ موضع. ومتى ذُكر في بلد من بلاد العالم العربي، اتّسع معنى اسمه، فدلّ على مصر كلّها، كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة».

(١) مقام: ومن هؤلاء أخي نسيب، رحمه الله، الذي كان من فحول الشعراء ولا يكاد يعرفه إلا الذين أتيج لهم أن يعرفوه اتفاقاً وذلك لغراره من الشهرة. وقريباً سيصدر ديوانه، فيعلم الناس علوّ منزلته في الشعر وندور أمثال ملكته في العربية، ولعلّه لو عاش إلى اليوم ما طبع ديوانه.

(٢) الخلق: وقرئ «في الخلق» بالحاء المهملة.

(٣) مصطفى صادق الرافعي، (١٨٨٠ - ١٩٣٧)م. أديب مصري معروف له «وحي القلم»، وقد استشهد به الكاتب الأمير شكيب أرسلان في قوله على أحمد شوقي. وللرافعي أيضاً كتاب «إعجاز القرآن» و«تاريخ آداب العرب»، وسواها.

وقال الرافعي في مكان آخر: "انفلت شوقي من تاريخ الأدب لمصر وحدها، كانفلات المطرة من سحابها السائر في الجوّ، فأصبحت مصر به سيّدة العالم العربي في الشعر، وهي لم تُذكر قديمًا في الأدب إلا بالنكتة والرقّة وصناعات بديعية مُلقّقة، ولم يستفِض لها ذكر بنابغة ولا عبقرية، وكانت المُستجدية من تاريخ الحواضر في العالم".

ولست متّفقًا كلّ الاتّفاق في هذا القطع مع أبي السامي، فالبلد الذي نبغ فيه مثل ابن الفارض، والبهاء زهير، وظافر الحدّاد، والأبوصيري (صاحب البردة الشريفة في القديم)، ومحمود سامي البارودي، ومحمود صفوت، وأحمد شوقي، وحافظ ابراهيم، وأحمد محرم، واسماعيل صبري^(١) وغيرهم، في الحديث، لا يقال أنه منقوص الحظّ من الشعر. وإن كان لم ينبغ في مصر أمثال: بشّار، وأبي العتاهية، وأبي النّوّاس، وأبي تمام، والبحثري، والمتنبّي، والمعري ممّن أنجبتهم الشام والعراق. على أنّ الرافعي مصطفى صادق، صادق في قوله: إنّ جميع شعراء مصر في القديم والحديث "لم يستطيعوا أن يضعوا تاج الشعر على مفرق مصر ووضعه شوقي وحده"، وما أحسن قوله كذلك: "ولم يترك شاعر في مصر قديمًا وحديثًا ما ترك شوقي، وقد اجتمع له ما لم يجتمع لسواه، وذلك من الأدلّة على أنه هو المختار لبلاده، فساوى الممتازين من شعراء دهره، وارتفع عليهم بأمور كثيرة هي رزق تاريخه من القوّة المدبّرة، التي لا حيلة لأحد أن يأخذ منها ما لا تعطيه، أو يزيد ما تُنقص أو يُنقص ما تزيد. وقد حاولوا إسقاط شوقي مرارًا، فأراهم غباره"^(٢)، ومضى متقدّمًا ورجع من رجع منهم ليغسل عينيه، ويرى بهما أنّ شوقي من النفس المصرية بمنزلة المجد المكتوب لها في التاريخ بحرب ونصر، وما هو بمنزلة شاعر وشعره"، إلى أن قال: "ثمّ تولّاه الخديوي عباس باشا وجعله شاعره وتركه يقول:

شاعرُ العزيزِ وما بالقليلِ ذا اللّقبِ

وإذا أنت فسّرت لقب شاعر الأمير نفسه في ذلك العهد، خرج لك من التفسير شاعر مرهف، مُعانٌ بأسباب كثيرة ليكون أداة سياسة في الشعب المصري، تعمل لإحياء التاريخ في النفس المصرية وتبصيرها بعظمتها وإقحامها في معارك زمنها وتهيئتها للمدافعة". وأحسن

(١) البارودي، صفوت، شوقي، حافظ، اسماعيل صبري وأحمد محرم هم شعراء مصر الأوائل في عصرهم.

(٢) قال المتنبّي:

أراه غباري ثمّ قال له الحقّ

إذا رام أن يلهو بلحية أحمق

من قوله هذا قوله الآخر: "إن السياسة التي ارتاض بها شوقي ولابسها من أول عهده واتجه شعره في مذاهبها، من الوطنية المصرية إلى النزعة الفرعونية إلى الجامعة الإسلامية، كانت سبب نبوغه ومادة مجده الشعري، وكانت هي بعينها مادة نقائصه، فقد أبلته بحب نفسه وحب الثناء عليها وتسخير الناس في ذلك، بما وسعته قوته إلى غيرة أشد من غيرة الحسنة، تقشعر كل شعرة منها إذا جاءها الحسنة بثانية. وهي غيرة وإن كانت مذمومة، في صلته بالأدباء الذين لدعوه بالجمهر، ونحن منهم، غير أنها ممدوحة في موضعها من طبيعته هو، إذ جعلته كالجواد العتيق الكريم ينافس حتى ظلّه، فعارض المتقدمين بشعره كأنهم معه، ونافس المعاصرين ليجعلهم كأنهم ليسوا معه، ونافس ذاته أيضًا ليجعل شوقي أشعر من شوقي".

شكيب أرسلان

- قبيل وفاة شوقي

هذا، ولما اجتمعت بشوقي في السويس آتياً من القاهرة إليها لزيارتي، وكانت، وأسفاه، الملاقاة الأخيرة بيننا، لحظت عليه آثار الضعف بادية، وكأنما كان أكبر من سنّه بعشر سنوات على الأقل. وعجبت من أن تنال الشيخوخة منه هذا النيل، وبين الأخوان الذين كانوا قد اجتمعوا هناك، من هم أعلى سنًا بكثير، ولم يتقوس لهم ظهر ولم يتغصن لهم جبين، ولم يأخذ منهم الدهر ما أخذ من شوقي. فشعرت في نفسي بالخوف على صحته، ورأيت قد سبق سنّه بمسافة طويلة. فبعد أن تفرقنا، كنت لا أزال أترقب أخبار صحته وأتمنى لو يأتي إلى سويسرة فأشاهده، وما زلت أتمسّر على تلك الفرقة، وأنشد قول العباس بن الأحنف^(١):

عما رمتني به الأيام والنزمنُ

آثارهم بعدهم لم يدر ما الحزنُ

سبحان ربّ العلاما كان أغفلني

من لم يذق فرقة الأحباب ثم يرى

- خبر وفاته

وبينما أنا في أحد أيام أكتوبر سنة ١٩٣٢ ميلادية، أقرأ جريدة "الطان" إذ وقعت عيني على خبر وفاة كبير الشعراء في مصر، ووقع في اسم "شوقي" خطأ، فهلّغت لهذا الخبر واضطربت أعصابي، وقلت لا يكون هذا الفقيه غير شوقي. وثاني يوم تحققتنا الخبر، وكان

(١) العباس بن الأحنف، المتوفى سنة ٨٠٨م. شاعر غزل بغدادي، كنيته "أبو الفضل"، له أخبار كثيرة مع الرشيد.

يوماً له هوله. ولما جاءت جريدة "الجهاد"، علمت منها أن أمير الشعراء فصلَ من هذه الدنيا إلى رحمة ربّه، في منتصف الساعة الرابعة من صباح الجمعة ١٤ جمادى الآخرة، سنة ١٣٥١ وفق ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٢. وقد أبته الأستاذ البليغ توفيق دياب، بعبارات متناسبة مع علو مقامه في الأدب، لكنّي استنشقت منها رائحة مؤاخذه بعضهم للفقيد في السياسة، فإنّه يقول: "إنّ الذي سيهمّ الوارثين لآثار شوقي من عشاق الأدب في الأمم العربية، هو نفاسة ما ترك من كنوز عبقريته وذخائر أدبه، فهذه هي الباقية. أمّا ما عداها ممّا كان لشوقي أو عليه، في أيام العمر الفانية، فقد انقضى أمره بانقضاء الأجل، فليقل من يشاء، في دنيويات شوقي، ما يشاء، ولكن للأدب دولة عالية العروش سينادي منادي الخلود من فوق منارتها العليا: لقد مات أمير الشعراء غير مُنازع. لقد مات شوقي. فليبيكهِ المصريون وليبيكهِ العرب في كلّ بلد عربي أو يقطنه عربي، وبيكهِ المسلمون في أنحاء المعمور، فقد كان شوقي شاعر العربية وشاعر الإسلام، وكان أئمن دُرّة في تاج الأدب".

وكان حافظ، رحمه الله، قد قضى نحبّه قبل ذلك بأشهر، ورثاه شوقي رثاء موجه القلب، وكأنّما كان ينعي نفسه. ولم يكن حافظ في حياته شديد الخلطة بشوقي، بل ربّما غلبت المنافسة على العلاقات بينهما، إلا أنّ حافظاً بايع شوقي في يوم عيدهِ. وإذا كان حافظ ابراهيم، وهو طريد شوقي في الشعر، والمزاحم له بالمَنكب، ومن الناس من يفضّله على شوقي قد بايع لخصمه، فلا مشاحة أنّها قد تقطعت عن منافسة شوقي أنفاسُ النظراء، وأنّه قد انتهت إليه رآسة الشعراء.

- قصيدة المؤلف في رثاء شوقي -

ولما تحققتُ خبر شوقي، رثيته بالقصيدة التالية:

قد أعجزَ الشعراءَ طولَ حياتهِ	واليوم يُعجزُهم بندبِ مماتهِ
هَيْهَاتَ يُوجَدُ فِي البريّةِ مِنْهُمُ	كُفُوٌ ليرثيه بمثلِ لُغَاتِهِ
كان الأمير لجيشهم مُستنّةً ^(١)	فُرسانهم في الظلِّ من رايَاتِهِ
ما عابَ أهلُ العبقريةِ أتهم	قد قَصَرُوا فِي الخَبِّ ^(٢) عن غايَاتِهِ

(١) مستنّة: منتظمة في صفوف على طريقة واحدة.

(٢) الخَبُّ: نوع من العُدو.

هذا أمير الشعر غيرُ مُدافعٍ
لو كان وحي بعد وحي «محمد»
السحر في نفضاته والزهر في
رقت لنغمته القلوب فكيفما
تغدو المعاني وهي شمس مقادة
وإذا أراد الصخرة الصماء من
ما رام شاردَ حكمة في نظمه
جلّى الإله له الأمور كأنما
فكسا الطبيعة من نسج بيانه
فترى الطبيعة قبل نظرتِه لها
والحسَنُ يشرق في العيون بذاته
من كل بيتٍ في رفيع عماده
كالدرّ في لمعانه والبدر في
ولقد رويت الشعر عن آحاده
وقضيت فيه صبوتي وصبابتي
وأثرتُ في البيداء بزل^(٣) فحوله
فرايتُ شوقي لم يدع في عصره
الفرد في أمداحه ونواحه
وإذا تعرّض للغرام فهل درت
ما في الهيام كوجده وحنينه
وإذا تحدّث بالربيع وروضه

في الشرق أجمع منذ فتق لَهاته^(١)
لا نشقّ ذاك الوحي عن آياته
نفحاته والدهر بعضُ رواتِه
غنى بها رقصت على نبراتِه
فيقودها قود الغلام لِساتِه
أغراضه رقت نظيرَ سِحاته^(٢)
إلا أصاب صميمها بحصاته
يلقي عليها الشمس من نظراتِه
حللاً خلت من غير طرز دواتِه
غير الطبيعة وهي في مرآتِه
وهنا يضيء بذاته وصفاته
تتقاصر الأقدام عن عتباتِه
قسّماته والصُبح في نسّماتِه
وألفت للسباق في حلّباتِه
وقطفتُ منه خير نُواراتِه
وأطرتُ في الآفاق شهبَ بُزاتِه
قِرناً^(٤) يهزّ قناته لقناتِه
والفدّ في أمثاله وعِظاته
لغة الغرام نظيرَ شوقيّاتِه؟
أو في النسيب كظبيه ومهاتِه
أنساك بالتحبير وشي نباتِه

(١) منذ فتق لَهاته: أي منذ أن عرّف التّطوق.

(٢) السحاة: ما أخذ من القرطاس أي الورق، والأصل فيها الهمزة «سِحاة».

(٣) بزل: مفرداها بازل، أراد بها «الكناية» عن التجربة والاكتمال والقوة والشدة.

(٤) القِرْن: الشبيه والمثيل.

أوبات يعبث بالشراب أضاف من
أو خاض في ذكرى العذيب^(١) تشابهت
أو سلّ في وصف الوقائع صارماً
قد بدّ آلهة القريض بأسرهم
نَحَتَ القوافي السائرات أوابداً
ولكم مررت بحاسدين لفضله
لا نِدَّ يعدله وكم من مجلس
يتمثل العصر الحديثُ بشعره
ولرب بيت يستقلّ بجمله
لم يفتتن من عصره بمساوي
قد لازم الإنصاف في أحكامه
وإذا سألت عن الجهاد فإنه
كالسيف في أوضاعه^(٢) ومضائه
ما حلّ بالإسلام حيفٌ مُصيبة
يحمي حقائقه ويوضح سبله
يلقي على غمرات كلِّ ملمة
ويظلّ يرسلها قصائد شرداً
كانت قصائده هي الصوت الذي
بعثت به روح الحياة كأنها

كاساته حبباً إلى كاساته
أعطافٌ مُستمعٍ مع باناته
خلت العدى سالت على شفراته
ومحا عبادة لاته ومَناته
ماذا يفيد النَّحت من أثلاته^(٣)
رغم القلى يروون من أبياته
أشعار شوقي الندُّ في سمراته
حقّ التمثيل من جميع جهاته
تُغني عن التاريخ في صفحاته
كلاً ولم يغمطه من حسناته^(٤)
لا فرق بين صحابه وعُداته
منذ الحدائث كان في سرّواته
والليث في وثباته ووثباته^(٥)
إلا وكان بها لسان شكاته
ويُقيل طول الوقت من عثراته
قولاً يُزيل أجاجها^(٦) بقراته^(٧)
غُرراً تشقّ الفجر عن ليلاته
سرّى عن الإسلام ثقل سباته
هي صُور (إسرافيل)^(٨) في زَعقاته

(١) العذيب: ماءٌ لبني نميم، قال فيه كثير من الشعراء، وذكره الحديث الشريف.

(٢) الأثلاث: مفرداً أثلة، أي: أصل؛ وهي كناية عن أصالة شوقي في شاعريته وعضوته.

(٣) غمط الحسنة: جحدها.

(٤) في أوضاعه: في حُسن صقاله.

(٥) الأوضاع والمضاء، الثبات والوثوب: (بلاغياً) جناس.

(٦) الأجاج: الماء المرّ، تشويه ملوحة.

(٧) الفُرات: الماء العذب الصافي.

(٨) إسرافيل: الملاك الذي ينفخ في الصُور يوم القيامة.

قد كان أدرى الناس بالداء الذي
 داءٌ هو الأخلاق في اضمحلالها
 ووفى عن الشرق القديم نضاله
 قد زاد عنه بقلبه وبلبئه
 ماضٍ يحذره استلاب تراثه
 أعلى منار الشرق في أوصافه
 أوحى إلى الشرقي بالطرق التي
 أملى مكافحة الذئاب عواديًا
 الجائسين ببره وبيحره
 والغاصبين لزرعه ولضرعه
 أشعاره تحيي وتحيا أمة
 يا راحلاً ملاً الزمان بدائعاً
 أتركت بعدك شاعراً ترضى بأن
 يبكي بك الإسلام خير جنوده
 وكأن وادي النيل من أحزانه
 ونوادي العربية الفصحى لها
 أنظر إلى الأخوان كيف تركتهم
 أنظر لحال أخ فداك بروحه
 قد كنت طول العمر قرّة عينه
 مضت السنين الأربعون ونحن في
 أزعاك عن بُعد وترعاني على
 قد كنت أطمع أن ترى لي رائيًا

قد حطّ هذا الشرق عن صهواته
 فلذا ترى الأخلاق رأس وصاته
 من يوم نشأته ليوم وفاته
 شأن الأبى يذوذ عن تركاته
 منه ويحفزه لأخذ تراثه
 وأجاد وصف الغرب في آفاته
 يمشي النجاء بها لأجل نجاته
 في الواد قد حلوا مكان رعاته
 والجائشين بنجده ووطاته
 والاكليين لثمره بنواته
 تجد الحياة الحق في كلماته
 من قبل أن نزل القضا بسكاته
 ترعى جياذ الفكر في تلعاته؟
 أبداً ويرثي الشرق ربّ حماته
 يلقي على الشطين من زفراته
 نذب عليك يذيب في رناته
 من كل مضطجع على جمراته
 لو كان يُحبي الميت عزم فداته
 والآن يُجري السخن من عبراته^(١)
 هذا الإخاء نمز من قهواته
 عهد نهز الرطب من عذباته
 يا من غدوت اليوم بين رناته

(١) سخن العبرات: الدموع الحارة.

كُنَّا نَخَافُ رَدَاكَ قَبْلَ وَقُوعِهِ
تَبًّا لَعَيْشٍ قَدْ يَكُونُ مَسَاوِهِ
وَالْمَرْءُ إِنْ يَنْظُرُ لِمَا يُبْلَى بِهِ
فَالْمَيْتُ وَهُوَ يَذُوبُ فِي حَشْرَاتِهِ
نَرْجُو لَكَ الدَّارَ الَّتِي عُمَّارُهَا
يُضْفِي عَلَيْكَ اللَّهُ مِنْ آلَائِهِ
قَدْ كُنْتَ فِي الدُّنْيَا هَزَارًا صَادِحًا
فَالْيَوْمَ كُنْ بِجَلَالِ رَبِّكَ سَاجِدًا

فَلْنَا الْأَمَانَ الْيَوْمَ مِنْ دَهْشَاتِهِ
تَرْحًا وَكَانَ سُرُورُهُ بَغْدَاتِهِ
لَا فَرْقَ بَيْنَ بَقَائِهِ وَقَوَاتِهِ
كَالْحَيِّ وَهُوَ يَذُوبُ فِي حَسْرَاتِهِ
هُمْ كُلُّ مَنْ صَنَعَ الْجَمِيلَ لِذَاتِهِ
وَاللَّهُ لَا تُحْصَى صُرُوبُ هِبَاتِهِ
يُسْجِي وَيُسْلِي النَّاسَ فِي نِعْمَاتِهِ
وَالطَّائِرَ الْمَحْكِيَّ فِي جَنَاتِهِ



مَن الذي راضَ شوقي وحافظًا في الشعر

«الوسيلة الأدبية»* وماخذها من القلوب

بما تضمنته من شعر محمود سامي

- مراسلات المؤلف مع محمود سامي

يقول الأستاذ الرافعي: «إنَّ الكتاب الأول الذي راض خيال شوقي وصقل طبعه وصحَّح نشأته الأدبية، هو بعينه الذي كانت منه بصيرة حافظ وذكرناه في مقالنا عنه، أي كتاب الوسيلة الأدبية للمرصفي^(١). وليس السرّ في هذا الكتاب ما فيه من فنون البلاغة ومختارات الشعر والكتابة، فهذا كلّه كان في مصر قديمًا ولم يغن شيئًا ولم يخرج لها شاعرًا كشوقي، ولكن السرّ ما في الكتاب من شعر البارودي لأنه معاصر، والمعاصرة اقتداء ومتابعة على صواب إن كان الصواب، وعلى خطأ إن كان الخطأ. وقد تَصرّمت القرون الكثيرة، والشعراء يتناقلون ديوان المتنبي وغيره، ثمّ لا يجيئون إلّا بشعر الصناعة والتكلّف، ولا يخلد الجيل منهم إلّا لما رأى في عصره، ولا يَسْتَفْتَح غير الباب الذي فُتِح له. إلى أن كان البارودي، وكان جاهلاً بفنون العربية وعلوم البلاغة، لا يُحسن منها شيئًا، وجَهْلُهُ هذا هو كلّ العلم الذي حول الشعر من بعد، فيا لها عجيبة من الحكمة، وهي دليل على أنّ أعمال الناس ليست إلّا خضوعًا لقوانين نافذة على الناس. واكب البارودي على ما أطاقه، وهو الحفظ من شعر الفحول، إذ لا يحتاج الحفظ إلى غير القراءة، ثمّ المعاناة والمزاولة، وكانت فيه سليقة فخرجت مخرج مثلها في شعراء الجاهلية، والصدر الأول، من الحفظ والرواية، وجاءت بذلك السُّعْرَ الجزل الذي نقله المرصفي بإلهام من الله تعالى، ليخرج به للعربية حافظ وشوقي وغيرهما. فكلّ ما في الكتاب، أنه ينقل روح المعاصرة إلى روح الأديب الناشئ، فتبعته هذه الروح على التمييز وصحة الاقتداء، فإذا هو على ميّزة وبصيرة وإذا هو على الطريق التي تنتهي به إلى ما في قوّة نفسه، ما دام فيه ذكاء وطبع. وبهذا ابتداء شوقي وحافظ، من موضع واحد، وانتهى كلاهما إلى طريقة غير طريقة الآخر، والطريقتان معًا غير طريقة البارودي». اهـ

* «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية»: للباحث الشهير «حسين أحمد المرصفي»، كان نقطة تحوّل في مجال النقد والدراسة الأدبية منذ القرن التاسع عشر، وقد ظهر الجزء الأول منه مطبوعًا سنة ١٨٧٥، وكان لهذا الكتاب أثر عميق في الحياة الأدبية والفكرية لدى رواد النهضة في مصر. (١) حسين أحمد المرصفي: وُلد نحو سنة ١٨٢٥م، وتوفّي سنة ١٨٩٠م.

قلت: والظاهر أن الوسيلة الأدبية للمرصفي بما فيها من شعر البارودي، قد أنشأت أكثر من شوقي وحافظ، وبعثت الشعر العالي من مرقده، وأحيت للأدب العربي دولة جديدة، بعد أن كان الناس يظنون أن الشعر هو عبارة عن النكتة. وكان جهادى^(١) الشاعر، من المتأخرين، أن يُضمّن كل بيت نكتة من أدب، أو تاريخ، أو مثل سائر، أو تورية، أو استخدام بديعي، أو طباق، أو مقابلة، أو لفّ ونشر، أو جناس لفظي أو معنوي، أو غير ذلك ممّا استقصاه علماء البديع.

فأمّا أسلوب الجاهلية والمُخَضَّرَمين والطبقة التي جاءت بعدهم ممّن عاشوا في أوائل الدور العباسي، ولم يكن يطرأ الوهن على ملكاتهم، فقد كان محفوظًا في الكتب حفظ النفائس في الخزائن، وكان يرى الناس بدعًا أن ينسجوا على منواله، ولا يزالون يرون أن البيت إذا خلا من النكتة، فلا يُعدّ شعرًا ولو كان منحوتًا من أحسن مقاطع البلاغة.

وبقي الأمر كذلك، حتّى نبغ البارودي بانطباعه على شعر الأولين، وإرساله تلك القصائد التي عارض فيها آياتهم الكُبر، فلم يُقَصِّر عنهم، وصار الناظر في شعرهم وشعره، لا يفرّق بين النسجين. وسواء عرف البارودي شيئًا من قواعد النحو والصرف، أو لم يعرف، فقد كان المثل الأعلى في نقاء اللغة وبداعة الأسلوب ومتانة التركيب، وكنت إذا قرأت شعره ملكك عليك مشاعرك وهزك هزة لا تجدها إلا في شعر الفحول المُفْلِقين مثل: زهير، وعنترة، والأعشى، والنابغة الذبياني^(٢)، وبشار، وأبي تمام^(٣)، ومَن في ضربهم. كأنما قميصه زرٌّ على واحدٍ من هؤلاء.

فالذين اهتموا من ناشئة العصر إلى الوسيلة الأدبية للمرصفي، وجدوا فيها ضالّتهم التي طالما نكسدها، فلم يجدوها إلا في شعر محمود سامي. رأوا نسبة معاصريه له نسبة البغاث إلى الباز. ولا أعلم، هل كانت الوسيلة الأدبية، هي التي بعثت الشعر في شوقي وحافظ؟ أم كانت لهما وسائل غيرها؟ لأنني لم أشاهد حافظًا في حياتي، وعندما كنت أذاكر شوقي، وأنشده من شهر محمود سامي، لم يقل لي شيئًا يتعلّق بكونه، إنّما نسج على طرازه، أو أنّ شعر محمود سامي هو الذي أرهفَ قريحته. وقصارى ما لحظته من شوقي هو إجلال البارودي كشاعر، وما عرفت أنّ محمود سامي كان صيقلَ حافظ وشوقي في الشعر، إلا من

(١) جهادى: قصارى.

(٢) زهير أبي سلمى (٥٣٠-٦٢٧م)، وعنترة بن شدّاد (٥٢٥-٦١٥م)، والأعشى (المتوفى سنة ٦٢٩م)، والنابغة الذبياني (المتوفى سنة ٦٠٤م): هم من كبار شعراء الجاهلية، أصحاب الملقّات؛ بأستثناء الأعشى الذي لم يكن من أصحاب الملقّات، وهو الملقّب بـ"صنّاجة العرب".

(٣) بشار بن برد وأبو تمام: شاعران عباسيان معروفان.

رواية الرافعي هذه، وهذا القول جدير بأن يكون صحيحًا، لأنني أعرف ذلك من نفسي. فقد كان أطلاعنا على شعر محمود سامي بواسطة الأستاذ الإمام حجة الإسلام الشيخ محمد عبده، يوم كان منفيًا في بيروت، وكنا نلازمه استفادة من واسع علمه، واستفاضة من عارض فضله، فهو الذي عرفنا بالوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي، وكنا أنا وأخي نسيب، رحمه الله، نصبو من صباننا إلى طريقة الأولين في الشعر، ونؤثر شعر الجاهلية والمخضرمين والبطن الأول من المولدين، على شعر أهل الأعصر الأخيرة، مهما حلت نكاتهم وكثرت الأنواع البديعية في أشعارهم، ولم نكن نجعل علم البديع، ولا كان يفوتنا شيء مما في خزانة ابن حجة^(١)، ولكن ذلك كله، كان عندنا لعبًا ولهواً بالقياس إلى المعلقات السبع، وشعر النابغة والأعشى، ثم شعر أبي العتاهية، وأبي نؤاس، وبشار، ومسلم بن الوليد^(٢)، ومروان بن أبي حفصة^(٣)، وأبي تمام، والبحثري، وطبقتهم. وكان المتنبي كله لا يروقنا إلا من جهة الأمثال والحكم، وكنا نرى شعره في الأحايين، نازلًا عما يجب أن يكون. فلما قرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ورقصنا على قصبه، وبعث لنا نشأة روحية، لم نعهد لها في أنفسنا من قبل أن عرفناه، وعلمنا أن في المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين، وأن يُسامي بنفسه أنفاسهم.

وكنا من قبل محمود سامي، نظن الأولين غاية لا تُدرَك، وأنهم إذا قرن بهم المتأخرون أو المعاصرين، كان أولئك هم السماء، وهؤلاء هم الأرض. وبقي فينا هذا الاعتقاد إلى أن ظفرنا بشعر محمود سامي، وحفظنا جميع قصائده التي في الوسيلة الأدبية، فلم نكن لشدة إعجابنا بها نخرم منها بيتًا واحدًا. وكان حُفظنا لها من أعمال عوامل الشعر فينا، بل كنا نشعر إذ ذاك بحاسة طرب، تهتز لها جوارحنا، كلما روينا شعر البارودي في أنفسنا أو أمام الناس. وكما قال كارليل^(٤) عن شكسبير: «إننا نحن معاشر الإنجليز، نرى شكسبير أثنى لنا من الهند». فقد كنت أقول في نفسي إن محمود سامي هو بذاته مملكة عربية. وكان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بمكانه من رئاسة الدولة الفكرية، إلى ما يقوي فينا هذه العقيدة، ولذلك كنت أنا أراني خريبجًا في الشعر لمحمود سامي البارودي، وإلى هذا أشرت في أول قصيدة أجبته بها، يوم بدأ بمراسلتي من منفاه في سيلان، فقال لي:

(١) ابن حجة الحموي، (١٣٦٦ - ١٤٣٤) م. شاعر سوري ضليع، له: «خزانة الأدب» و«ثمرات الأوراق».

(٢) مسلم بن الوليد، المتوفى سنة ٨٢٣ م. شاعر عباسي، يعتبر من أكثر الشعراء استعمالاً للبديع. هو، وبشار بن برد، وأبو نؤاس، وأبو تمام: من مدرسة «التجديد اللفظي» في العصر العباسي.

(٣) مروان بن أبي حفصة، المتوفى سنة ٧٩٧ م. شاعر عباسي من الفحول، حسن الديباجة، شديد الاعتناء بإحكام النظم.

(٤) توماس كارليل، (١٧٩٥ - ١٨٨١) م. كاتب وفيلسوف إنكليزي، أشهر مؤلفاته: Heroes & Hero Worship - الأبطال وعبادة البطولة.

أشدتَ بذكري بادئًا ومُعقبًا
وما ذاكَ صنًّا بالودادِ على امرئِ
فأما وقد حقَّ الجزاءُ فلم أكن
فكيف أذودُ الشكرَ عن مُستقرِّه
وأنتَ الذي نوهتَ بأسمي ورشتني
لك السبقُ دوني في الفضيلة فاشتملُ
ودونكها يا ابنَ الكرامِ حبيرةً
فأجبتُه بقصيدة أقول له فيها:

لك الله منَ عانٍ بشكرٍ مُنمَّمٍ
وشهمِ أبي النفسِ أضحى يرى يدًا
رأى كرمًا مِنِّي تذكَّرَ قوله
ولو كان يدري فاضلٌ قدرَ نفسه
أعجبُ من تنويهِ مثلي بمثله
ومهما يكن من أعجمٍ فبفضله
إذا أمطرَ الغيثُ الرياضَ بوابِلٍ
إذا ما تصبَّتْ بالعميدِ صباحةً
وهل يُنكرُ الإحسانُ إلا لامةً
وهل في شهودِ الشمسِ أدنى مزيةٍ
رويدك لا تُكثِرُ الدهركَ تُهمةً
فما زال من يدري الجميلَ ولم يكن
وأنتَ الذي لو أنصفَ الدهرُ لم يكن
جمعتَ العلى من تليدها وطريفها

وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّمِ
حَباني به لكن تهيتَ مقدّمي
لأنطقَ إلا بالثناء المُنمَّمِ
وأنكرُ ضوءَ الشمسِ بعدَ توّسمِ
بقولِ سري عني قناعَ التوهّمِ
بحلّيتها فالفضلُ للمتقدّمِ
من النظمِ سداها بمدحِ العلاءِ فمي

لتقديرِ حقٍّ من عُلاكِ محتمِّ
تذكَّرَ فضلٍ أو جميلٍ لمنعمِ
فدلَّ على أعلى خِلالٍ وأكرمِ
رأى ذكره فرضًا على كلِّ مُسلمِ
لعمرى الذي قد سقَّ في شعره فمي
يُرى تُقفيًا في الورى كلُّ أعجمِ
فأي يدٍ للطائرِ المُترنّمِ
بوجهٍ فما فضلُ العميدِ^(١) المُتيمِ
ويُنكرُ حُسنا غيرُ من طرفه عمي
وقد جاء ضوءُ الشمسِ لم يتكتّمِ
ولا تياسنُ من أهله بالتوهّمِ
لتأخذه في الحقِّ لومة لومِ
لغيرك في العلياء صدرُ التقدّمِ
فجاءت كعقدٍ في ثناكِ مُنظّمِ

(١) العميد: العاشق (مطلقًا).

غدت خطتي إِمَّا يَرَاعُ وَمِخْذَمٌ
 ولم أَرِ كَفًّا مِثْلَ كَفِّكَ أَحْسَنَتْ
 جَمَعْتَهُمَا جَمَعَ الْقَدِيرُ بِكَفِّهِ
 ولو كان يَرَقِي المَرءُ ما يَسْتَحِقُّهُ
 وَأَنْتَ الَّذِي يَا ابْنَ الكِرَامِ أَعَدْتَهَا
 وَأَنْشَرْتَ مِيتَ الشَّعْرِ بَعْدَ مَصِيرِهِ
 وَأَشْهَدُ ما فِي النّاسِ مِنْ مَتَأَخَّرِ
 ولو شِعْرَاءُ الدَّهْرِ تُعَرِّضُ جُمْلَةً
 لأَبْصَرْتَ شَخْصَ البَحْتَرِيِّ مَعَكَ بُحْتَرًا
 لَكَ الأَبْدا تُ الأَنْسا تُ التي نَأَتْ
 لَكُمْ أَسْهَرَتْ جَفْنَ الرِّواةِ وَخَالَفَتْ
 شُغِفَتْ بِها طِفْلاً فَأَروِي بَدِيعِها
 ولا عَجَبٌ أَنِّي أَحْنُ صِبا بَةً
 أَفِي كُلِّ يَوْمٍ فِيكَ وَجَدُّ كَأَنَّهُ
 أَحْمَلُ رِيحَ الهِنْدِ كُلَّ تَحِيَّةِ
 وَقَدْ طالما حَدَّثْتُ نَفْسي وَعاقَنِي
 حَلَفْتُ بِما بَيْنَ الحَظِيمِ^(٧) وَزَمَزَمِ^(٨)

وَإِنَّكَ قُطِبٌ فِي يَراعٍ وَمِخْذَمِ^(١)
 إلى المجد إِرْعافِ المِدادِ مَعَ الدَّمِ^(٢)
 إلى مَحْتَدِ^(٣) سَامِ إلى المجد يَنْتَمِي
 إِذْ نَ لَبَلَفْتَ النِّيرَاتِ^(٤) بِسُلْمِ
 لأَفْصَحَ مِنْ عَهْدِ النُّواسي^(٥) وَمُسْلِمِ^(٦)
 لأَعْظَمَ نَشْرًا مِنْ رُفاتٍ وَأَعْظَمِ
 يُدانِيكَ فِيهِ لا وَلا مُتَقَدِّمِ
 بِمَنْجُدِهِمْ مِنْ كُلِّ حَيٍّ وَمُتَّهَمِ
 وَخُلِقَ أَبي تَمَّامٌ غَيْرَ مُتَمِّمِ
 وَأَنْسَتْ عُكاظَ الشَّعْرِ بِلِ كُلِّ مَوْسِمِ
 حُظوظَكَ مِنْها سُرِّدٌ غَيْرُ نُومِ
 وَلَمْ أروِ مِنْ وَجَدِي بِها نارَ مُضْرَمِ
 فِيسري الهوى بالقول للمُتَكَلِّمِ
 طوى جانحًا مَنِّي على نارِ مِيسَمِ؟
 فكم مِنْ صَبًا مِنْها عَلَيْكَ مُسْلِمِ
 تَرَدُّدُها ما بَيْنَ أَقْدِمِ وَأَحْجِمِ
 وبالروضة الزهرا أَلْيَّةَ^(٩) مُقْسِمِ

(١) المِخْذَم: السيف القاطع.

(٢) إِرْعافِ المِدادِ مَعَ الدَّمِ: إِسالة الحبر والدَّم مَعًا.

(٣) المَحْتَدِ: الأَصْل.

(٤) النِّيرَاتِ: النجوم.

(٥) النُّواسي: أَبُو نُوَاسٍ.

(٦) مُسْلِمِ بن الوليد: الشاعِر.

(٧) الحَظِيمِ: جدارُ حَجَرِ الكَعْبَةِ.

(٨) زَمَزَمِ: بئرٌ عِنْدَ الكَعْبَةِ.

(٩) أَلْيَّةُ أَلْيَّةٌ: قَطَعْتُ عَهْدًا وَأَقْسَمْتُ.

لألفيتَ عندي دوسَ مُشْتَجِرِ القَنَا
أقلُّ بقلبي في المواقِفِ هِيئةُ
وهبْ أني بازٍ قد انقضَّ أشهبُ
ولكنَّ لي من عفو مولاي سَاتِرًا
أحمودَ سامي إن يكُ الدهرُ خائِنًا
فما زالت الأيامُ بؤسًا وأنعمًا
ولولا الصدى^(١) ما طاب وِرْدٌ ولا حلا
عسى تَعْتَبُ الأقدارُ والهَمُّ ينجلي
وأهديكَ في ذاك المقام تَهَانِيًا

وَحَوْضِي فِي حَوْضٍ مِنَ الدَّمِ مُقَعَمٍ
وَأَهْوَنُ مِنْ ذَاكَ الْمَقَامِ الْمُعْظَمِ
فهل يطمع البازي بُلْقِيَانِ صَيِّغَمٍ^(٢)؟
فها أنذا منه به بتُّ أحتمي
وطال عليك الزجرُ طائرَ أشأمِ
وحظَّ الشقا بالمكثِ حظَّ التَنَعُمِ
لك الشَّهْدُ إِلَّا مِنْ مَرَارَةٍ عَلَقَمٍ^(٣)
وَيَنْصَاحُ صَبْحُ السَّعْدِ فِي جَنَحِ مُظْلَمِ
حَبِيرَةٌ مُسَدِّ فِي ثَنَاكَ وَمُلْحَمِ^(٤)

فأنت ترى من كلِّ حرف من حروف قصيدتي هذه، حالتي النفسية التي تتلخَّص في هذه الجملة: إن البارودي هو إمامي في الشعر. ولا أنكر أنني قبل أن قرأت شعر البارودي بدلالة الشيخ محمَّد عبده، كان سبق لي نظم غير قليل، وكان أطلع عليه الشيخ محمَّد عبده نفسه، فقال لي في اجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت، وقد عرفوه بي: أنت ستكون من أحسن الشعراء. وكذلك قال العلامة الشيخ ابراهيم الأحذب^(٥)، الذي كان الصدر المقدم في الأدب، وقد قرأ لي أبياتًا في إحدى الجرائد وأنا بعد في المدرسة، إنَّ هذا الولد سيكون شاعرًا. إذن لم يكن نظمي للشعر موقوفًا على حفظي لشعر البارودي، ولكن هزني من شعر هذا الرجل ما لم يهزني شعرُ شاعر، من أول وآخر، وكنت أرى منتهى السعادة في أن تكون لي معه مراسلة وأن أمت إليه بصيلة، كما كنت أحنُّ إلى مثل هذه العلاقة، مع السيّد جمال الدين الأفغاني، والشيخ محمَّد عبده، بما أسمع عنهما وأقرأ لهما، إلى أن ظفرت بذلك. وجميع الشبان المتأدبين كما لا يخفى، لهم ولوعٌ شديد، بل هوس، بتقليد كبار علماء عصرهم، ووجدٌ مبرح للاتصال بهم، والأخذ عنهم. وهو ما قد عبّرت عنه من جهة محمود سامي في قولِي:

(١) الضيغَم: من أسماء الأسد.

(٢) الصدى: العطش الشديد.

(٣) العَلَقَم: الحنظل، وكل ما كان مرًا.

(٤) اللحمية والسدى: في نسيج الثوب، غير أنهما يختلفان ولا يكون الثوب كاملاً من غيرهما. وقوله كناية عن قيامه بالثناء قيامًا كاملاً تامًا.

(٥) الشيخ ابراهيم الأحذب، (١٨٢٦ - ١٨٩١)م. من أدباء عصر النهضة المتضلعين من اللغة، عمل في المحكمة الشرعية في بيروت، وتوقى في مسقط رأسه طرابلس، جارى في "مقاماته" مقامات الحريري.

طوى جانحاً مني على نارٍ ميسمٍ؟
فكم من صبا منها عليك مُسلمٍ

أفي كل يوم فيك وجدُّ كانه
أحملُ ريحَ الهندِ كلَّ تحيةٍ

وكنت كثيراً ما أحدث نفسي بنشدان وسيلة أتحمكك بها بهذا الشاعر الكبير، فأحصل منها على جواب منه، فأكون سعيداً، ولكنني كنت أتهيّب الإقدام وأخشى أن تتزلزل مني الأقدام، فأعود فانكص عن إجراء فكرتي هذه، وإلى هذا أشرت بقولي، بعد أن بدأ هو بالمراسلة:

تردُّدها ما بين أقدمٍ وأخجمٍ
وبالروضة الزهرا أليّةً مُقسِمٍ
وخوضي في حوضٍ من الدمِ مُفعمٍ
وأهونُ من ذلك المقامِ المُعظَمِ

وقد طالما حدّثت نفسي وعاقني
حلفتُ بما بين الحطيمِ وزمزمِ
لألفيتَ عندي دوسَ مُستَجِرٍ^(١) القنا
أقلُّ بقلبي في المواقفِ هيبّةً

ولكن كما كان الإقدام على ذلك المقام، أشقّ من خوض المعارك، واقتحام المهالك، كان الشوق أيضاً إلى صاحب تلك القصائد التي كنت أتلوها كل يوم، من بعد تلاوة كتاب الله، وأترنم بها في نجواي وأجعلها نقل أسماري وغبوق ليلي وصبوح نهاري، من نوع البرحاء التي لا تدافع، ومن نمط النزعات التي لا تُنازع، فعدت إلى طريقة ثانية أبلغ بها مرامي، وأروي أوامي، وهي أن أستشهد بشعر البارودي في مقالاتي التي كنت أنشرها إذ ذاك في جريدة الأهرام، فاستشهدت له إحدى المرار بيتين، بدون تصريح بأسمه، وهما قوله:

فكلّ فراقٍ أو تلاقٍ له حدُّ
ويلتئم الضيدانِ أقصاهما الحقدُ

فيا قلب صبراً إن أضربك الهوى
فقد يُشعبُ الإلفانِ أدناهما الهوى

واستشهدت مرّةً أخرى ببيت له عن أهل كريت، وذلك مع التصريح باسمه، ومع نعتة بلقب "أمير الشعراء"، وقد كانوا ثاروا على الدولة:

فتسلّلوا من طاعة السلطانِ

قوم أبي الشيطانِ إلا خسرهم

ولما كان من التجاذب بين الأرواح مهما تباعدت الأماكن وتراخت المساكن، ما لا يقلّ عن انتقال الأصوات بتموجات الهواء ونفوذ الكهرباء، كان حنيني هذا إلى معرفة محمود

(١) مُسْتَجِرُ القنا: تشابك الرماح (مُشْتَبِك الرماح).

سامي قد لاقى مثله إليّ، وقد كان يقرأ مقالاتي في الأهرام فيشعر لكتابها بعاطفة لا يعرف لها سببًا خاصًا، وما زال كذلك حتى رأني أستشهد بشعره أولاً وثانيًا، فعلم أنّ ما به من جهتي، هو بي من جهتي، وأنّ بين الروحين رسائل من غير كتب، ووسائل بلا أسلاك، فعندها جاءني منه الأبيات التي يتدّى فيها بقوله:

أشدتَ بذكري بادئًا ومُعقبًا
وما ذاك ضنًا بالوداد على امرئٍ
وأمسكتُ لم أهمس ولم أتكلّم
حَباني به لکن تهيّبت مَقدمي

ثمّ بعد أن أحبته على أبياته هذه بالقصيدة التي تقدّمت، جاءني منه هذا الكتاب الذي أنا أنقله الآن بحروفه، عن كندي، في ٢٨ ذي العقدة سنة ١٣١٥:

تَقبَّلْ يا شَكيبُ ثناءَ حُرٍّ
سَرَتْ نَزواتِ ودِّكَ في عروقي
أَمينَ الغَيبِ محمودِ السُّلوكِ
مسيرَ الكهرباءةِ في السُّلوكِ

سيدي الأمير:

لولا حنين النفس وهو علاقة الحبّ، لصبرت على المكاتبه هنيئًا مخافة الإملال، ولكنني راجعت النفس، فأبت عليّ زاعمة أنّ الإغياب يكون في الزيارة لا في الكتابة. وبعد، فقد تلقّيت اليوم ما تفضّلتهم به عليّ بيدّ ترعد فرحًا وفؤاد يهتزّ مرّحًا، وما عساي أن أقول في نظم لو وصفته لقلت سحرًا، ونثر لو وردت شرعته لكان بحرًا أنها، وإيم الله، منّة لا يقوم بها الشكر، ولا يتدرّج إلى معروفها النكر. كيف لا، وقد أضاءت على غيابة الوحشة وسرّت عني صبابة الحسرة، فالحمد لله الذي صدق ظني وحقّق أمني، فإنّي منذ طالعت آثار قلمكم في جريدة الأهرام، شعرت بميل في النفس إليكم ونزاع منها إلى التعارف بكم، ثمّ لم ألبث أن رأيت بها تعريضًا خفيًا سمعت منه هاتفاً روحانيًا يدعوني إليكم، فحدّثت نفسي بعد أسلاك المراسلة لتبادل كهرباءة المودّة معكم، ولكنني راعيت الحال، فأمسكتُ على مضض، حتى سمعت هاتفاً آخر يدعوني بأسمي صراحًا، فلم أتمالك أن لبيت دعوته، فتمّ الأمل بتعارف الأرواح قبل تقارب الأشباح، هذا ما كنت أجده في نفسي، أذكره لكم على سبيل الغرابة، وسأكتب بعد هذا إن شاء الله، فاقبلوا تحية فؤادي وخالص ودادي، ودمتم.

الداعي محمود سامي

إنَّ هذه الحالة التي وقعت بيني وبين محمود سامي، هي تصادق الحديث "الأرواح جنود مُجنّدة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف".

وبالجملة، فبينما أنا كنت أروي قصائده ولا أروي ظمأ فؤادي إلا بالتعارف معه، كان هو يشعر بميل خاصّ إلى كاتب تلك المقالات في الأهرام قبل أن يعرفه، بل بمجرد التجاذب الروحي والتعارف الغيبي، وبسائق تلاؤم الأشكال، الذي قرّر الحكماء أنه منشأ الحبّ بين الخلق، ثمّ إنّه رآني أستشهد بشعره؛ ولكن بغير تصريح بأسمه، فكاد يجاذبني حبل المراسلة، إلا أنه توقّف قليلاً، ثمّ رآني أصرّح بأسمه وأقول إنّه أمير الشعراء، فلم يملك نفسه بعد ذلك عن البديهة بالخطاب، والإسراف في الشناء، فأرسل إليّ بتلك الأبيات الميمية، وإلى هذا المعنى الأخير أشار بقوله:

فأما وقد حقّ الجزاء فلم أكن
لأنطق إلا بالشناء المنمّم

ويوم وصفت محمود سامي بقولي: إنّه "أمير الشعراء" لم يكن شوقي، قد طارت شهرته إلى أن صار يزاحمه على هذا الاسم، ولا كنت أنا أجمّع عن شوقي. إنّي أعدّ محمود سامي أبا الشعراء في وقته، ولا كان قد جاء الدور الذي أصبح شوقي يرى نفسه فيه، الجواد المبرّ على الجميع، والفذّ الذي تأخذه النخوة على نظائره، ولا يرى فيه أحداً من أكفائه، بل كنت ما دام البارودي حياً أول من بايعه بالإمامة، ولم يضع أحداً أمامه، إلى أن مضى لسبيله، فكان من جملة ما رثيته به قولي:

كان الأوائل في الأنظار مُعجزة
لو كان في الزمن الماضي وعاصره
لو كان أدرك عصرًا قد تقدّمه
فأنعوانا الشعر والآداب قاطبة
حتى أتى فسأى من جدّ من قدّما
حكيم كِنْدَةَ^(١) لم يزعم بما زعما
عَيّ حبيب^(٢) عن الإنشاد مُعتصما
معه وقولوا لشوقي إنّه يتما

ولكن من يدري، فقد يكون شوقي غصّ برئاسة البارودي من ذلك العهد، وقد تكون الفترة التي ظهرت لي منه عندما جئت إلى مصر قاصداً طرابلس الغرب، وما رأيت من تدلّله

(١) حكيم كِنْدَةَ: أبو الطيّب المنتبي.

(٢) حبيب: هو "حبيب بن أوس الطائي"، الشهير بأبي تمام.

ولحظتُ من تَسَحَّبِه أثرًا من آثار المقالة التي أُجبتُ فيها سليم سر كيس، عمَّن أراهم أُسْعِر الشعراء في هذا العصر، وأسجلتُ فيها أنَّ الأول فيهم هو محمود سامي، والثاني هو شوقي، والثالث هو حافظ ابراهيم؛ فجاءت مقالتي هذه قرعًا على كبده، رحمه الله. ولعلَّ الأخ شاعر القطرين، خليل مطران، يدري من هذا الأمر ما لا أدريه أنا، لأنه قد كان بينه وبين شوقي من الخلطة والمودة والتبذُّل في الحديث، ما لم يَكُن بين اثنين. وكيف كان الأمر، فقد صدق مصطفى صادق الرافعي في قوله: إنَّ شوقي أصبح بعد أن صار شاعر الأمير، كالجواد العتيق ينافس حتى ظلَّه. وقد صدق الرافعي أيضًا في قوله: إنَّ طريقة شوقي في الشعر لم تكن طريقة البارودي، لأنَّ شوقي كان يضعف عن طريقة البارودي، ولم تكن تتهيا في أسبابه، وخاصة في أول عهده. وهذا شيء لا يختلف فيه اثنان، فلكلَّ من هذين طريقة خاصة به، والغالب على البارودي هو علو النفس والجزالة، والغالب على شوقي هو الرقة والحكمة والتأثير في النفس.



أمثال من شعر شوقي

وقد حان الآن أن نذكر أمثال مما يعجبنا من شعر شوقي، وقد سبق للأدباء حتى في حياته أن تكلموا في هذا الموضوع، وأشاروا إلى المختار من شعره والأثير من قوله، واتفق الجميع على أن القصيدة التي أولها: "خدعوها بقولهم حسناء"، هي من عيون قصائده التي رُزق فيها من التوفيق ما لم يقع فيه جدال، مع أنها مما نظمه في أول شبابه. وقد نشر الأديب الضليح أنطون بك الجميل^(١) رسالة بعد وفاة أمير الشعراء، ضمّنها ما رآه الأحسن في نظره، وهو لا يخرج عما كان يؤثره له الناس في حياته ويأثرونه دائماً عنه. وسأنقل أيضاً من جملة الناس ما يعجبني من شعر شوقي، غير ذاهب مذهب الإطالة في التحليل، ولا مقتصر على مجرد السرد بدون تذييل، فأقول: ينقسم شعر شوقي إلى ثلاثة أقسام: أحدها الشعر الشخصي، وهو ما اصطلح الإفرنج على تسميته بالشعر المطرب Lyrique. والشعر التاريخي أو شعر الوقائع، وهو ما يقولون له épique. والشعر الروائي، وهو القصص المنظوم شعراً؛ ولشوقي عدّة روايات منظومة لم أكن أطلعت عليها إلا بعد وفاته. فالشعر الشخصي هو الجانب الأوفر من شعر شوقي، وإذا أراد الناقد أن يعتام جيده^(٢)، لا ينتهي منه إلا بديوان كبير، لأنّ شعر شوقي نسج واحد لا يكاد ينزل، ولو وضع كلامه في اتفه المواضيع، فالغثاة وشوقي على طرفي نقيض.

من أحسن ما يعجبني من شعره الشخصي، ما افتتح به ديوانه المطبوع أول مرّة، وذلك تحت عنوان "مولانا أمير المؤمنين عبد الحميد الثاني أيده الله":

سلامُ الله لا أرضى سلامي	فكلّ تحيةٍ دونَ المقامِ
وعين من رسول الله ترعى	وتحرسُ حاملُ الأمرِ الجُسامِ
وتنجد مُقلّة في الله يقظى	وتخلفها ^(٣) على أممِ نيامِ

(١) أنطون بك الجميل، (١٨٨٧ - ١٩٤٨) م. أديب وصحافي لبناني، حرّر جريدة "البشير" في بيروت، وكان رئيس تحرير "الأهرام" في مصر منذ سنة ١٩٣٣، أسّس مجلة "الزهور" مع الشيخ أمين تقي الدين سنة ١٩١٠.

(٢) يعتام جيده: يقرأه متأثراً.

(٣) تخلفها: الضمير عائد إلى عين الرسول. يريد أن عين الرسول تجعل عين الخليفة مكانها للسهر على مصالح المسلمين والأمم النيام.

تُقَلَّبُ^(١) في ليالٍ من خُطوبٍ
ومن عَجَبٍ قيامك في الليالي
أحبُّ الخليفة الرحمن جهدي
وأجعل عصره عنوان شعري
فإن تَفَّتِ الموانعُ منه حَظي
وقد يُرعى الغمام الأرضُ أذنا

تَرُكْنَ المسلمین بلا سلامٍ
وأنت الشمس في نظر الأنامٍ
وحبُّ الله في حبِّ الإمامٍ
وحُسن العقد يظهر في النظامٍ
فليس بفائت حظَّ الكلامٍ
وأين الأرض من سَمعِ الغمامِ

وبعد أن قدّم هذه التحيّة إلى الخليفة، عاد فشفعها بتقدمة إلى الخديوي، فقال:

إلى ابن محمّد^(٢) أهدي كتابي
وما أهدي له إلا فؤادي
وغرّسُ طفولتي وجنى شبابي
وما حاولتُ من عصرٍ عظيمٍ
وكان محمّد أوفى وأرعى
فكُنْه يا ابن توفيق فإني
وإن الشعر ریحان الموالی
وما شرب الملوك ولا استعادوا

وقد يهدى القليلُ إلى الكريمِ
وما بين الفؤاد من الصميمِ
وما أوعيت من وحيٍ قديمِ
من الآداب للوطن العظيمِ
لهذا الدرّ^(٣) من راعي اليتيمِ
فخيم الظنّ في الجاه الفخيمِ
وراحة كلّ ذي ذوقٍ سليمِ
كهذي الكأس من هذا النديمِ

والبيت الأخير هو بيت القصيد، وفي قوله: وكان محمّد أرعى لهذا الدرّ من راعي اليتيم، تورية لطيفة، ولكنّه استعمل لفظة "فخيم"، ولا يوجد في العربي "فخيم"، وإنما هو "الفخم"، وقد انسابت هذه اللفظة إلى كلام شوقي من كلام الدواوين، ومن المعلوم أنّ لغة الدواوين في القرون الأخيرة كانت عليها مسحة تركية.

ومن شعره الذي شرّق وغرّب وذهب كلّ مذهب، ولم يبقَ أحدٌ إلا رواه، قوله:
خدعوها بقولهم حسناءً
والغواني يغرهنّ الثناءً

(١) تقلّب: يريد عين الخليفة (مبني للمجهول).

(٢) ابن محمّد: هو الخديوي عباس، وليّ نعمة شوقي.

(٣) الدرّ: الشعر.

وهي أبيات معدودات أحسنَ فيها غاية الإحسان، ولا سيّما عند قوله:

نظرة فابتسامة فسلامٌ
فكلام فموعد فلقاءُ
ففراق يكون فيه دواء
أو فراق يكون منه الداءُ

فلو قال أحد إنّه ما قيل في هذا العصر شعر أشعر من هذا في الغزل، ما أبعد. وله أبيات لو لم أقرأها في ديوانه، لظننت أنها من شعر أبي العتاهية، الذي استولى على الأمد في نظم الزهد بالسهل الممتنع الذي يقرأ منه الإنسان ويُعيد ولا يملّ، ولا تخلق طلاوته، ولا تذهب حلاوته. قيل لأبي نواس، وقد عظم أبا العتاهية كثيرًا: لأنت أشعر منه. فأجاب: ما رأيته قطّ، إلا ظننت أنه سماء وأنا أرض. وأبو العتاهية هذا نسيج وحده في الممتنع السهل، والمهلل الجزل، لو نُسبت إليه هذه الأبيات الخفيفة اللطيفة التالية، لكانت به جديرة، وهي:

كم لنا من عجيبة
أممٌ قد تغيّرتُ
وبحار تحوّلتُ
ثمّ نابت جزيرةُ
أيّها الأرض خبّري
دولٌ قد تصرّمتُ
وقرونٌ تلاحقتُ
ذهبَ الدهرُ كلُّه
طيّ هذي البسيطةِ
وبلادٌ تولّتِ
من مكانٍ لبُقعةِ
عندها عن جزيرةِ
عن شبابِ البسيطةِ
دولةٌ إثرَ دولةِ
وعصورٌ تقصّتِ
بين يومٍ وليلةِ

نعم، على هذا الشعر مسحةٌ عصريةٌ جيولوجيّةٌ، لا توجد في شعر أبي العتاهية.

ومن شعر شوقي، في إنكار رفع الصوت أمام الجنائز:

أرى زمرًا مُشيعّةِ
ولو عقلوا لما فعلوا
وأسمع أيّما صوتِ
جلالُ الموتِ في الموتِ

ومن قوله في الرضى بما قسم الله:

أعاذلتي في اختيار الرضى
تجيء النفوسُ الرضى مرّةً
ولا ثمّتي في اعتقاد القدرِ
إذا هي لم تنتفع بالضجرِ

ومن حِكْمِ شوقي السائرة وأبياته النادرة، ما قاله في مداراة العدو، وما ذهب إليه من أن أشدَّ الناس على العدو، آخذهم له بالحيلة، فهو يقول:

قد أتعب الأعداء من داراهمو
إنَّ الأراقِمِ لا يُطاق لقاوها
ومن حِكْمِه:

مَنْ حازَه حازَ المحامِدَ أجمعا
لكن أبى عدمُ الوفا أن ينفعا
ومن لطائفه:

رمينا بإبليس من حالقٍ
وكَمْ في الحوانيت شيخ أحقَّ
ومن أقواله المأثورة:

جَهول الناس للنُصحاءِ قال
عليك النصح إن صادفت أهلاً
وقد كرّر هذا المعنى في مكان آخر، فقال:

لك نصحي وما عليك جدالي
وكرّره ثالث مرّة، فقال:

آفةُ النُصح أن يكون جدالاً
وأذى النُصح أن يكون جهارا

وقد ذهب السيّد مصطفى صادق الرافعي، إلى أن شوقي أخذ هذا من قول ابن الرومي:

وفي النُصح خير من نصيحِ مُوَدعٍ
ولا خيرَ فيه من نصيحِ مُوائبِ

ولا حاجة إلى الإبعاد كلّ هذا، فأقرب إليك من قول ابن الرومي المثل المشهور: "لا تبالغ في النصيحة، فتهجم بك على الفضيحة".

ومن حِكْمِ شوقي:

كَمْ ساهرٍ خائفٍ والدهر في سنّةٍ
فلا تبيتنَ مُحْتالاً ولا ضَجيراً
وراقدٍ آمنٍ والدهر في سَهَرٍ
إنَّ التدابير لا تُغني عن القَدَرِ

ومن مُرَقِصَاتِ شعرِ شوقي، القصيدة المشهورة في وصف ليلة راقصة بسراي عابدين،

مطلعها:

فهي فِضَّةٌ ذهبٌ

حَفَّ كَأَسْهَا الحَبِّ^(١)

وممَّا يعجبني فيها:

فهي منظرٌ عجبٌ

أشْرَقَتْ نوافذه

والسجوفُ والحُجُبُ

واستنارَ رَفْرَفُهُ^(٢)

كيف تسكنُ الشُّهُبُ^(٣)

تعجبُ العيونُ له

ما لهنَّ منتَقَبُ^(٤)

أقبلتُ شمسُ ضحى

وهي جيشهُ اللَّجِبُ^(٥)

الظلامُ رايتها

بالجِيادِ تنسحبُ

في هِوَادِجِ عَجَلًا

فقد كان هذا قبل اختراع السيارات الكهربائية، ثمَّ قال:

واستحثَّها سببٌ

قام دونها سببٌ

وهي تارةً خَبَبُ^(٦)

فهي تارةً مهَلٌ

لا يجوزه رَغَبُ^(٧)

يرتمي بهنَّ حمى

جنَّةٌ هي الأربُ

بابه لداخله

والمعيَّةُ النُجُبُ^(٨)

قامتِ السُّرأةُ^(٩) به

عُجْمُهِنَّ والعربُ

وانبرى النساءُ له

والجمال والحسبُ

العفافُ زينتها

عابدينُ والرحبُ

أنجمٌ مطالعها

(١) الحَبِّ: الفقايع التي تعلقو الخمر.

(٢) الرفرف: الرقيق من ثياب الحرير.

(٣) يشبه مصابيح القصر بشهب ثابتة.

(٤) المنتقب: الثَّقب.

(٥) الجيش اللَّجِب: ذو الكثرة والضجيج.

(٦) الخَبَب: سرعة عدو الخيل.

(٧) الرَغَب: هنا بمعنى الإبتهال، والمعنى أنها تذهب بهنَّ إلى ملجأ، هو وحده غاية الراجي وكمبة الدارع.

(٨) السُّرأة: مفردها سَري، وهو السيد الشريف في مروءة وسخاء.

(٩) النُّجُب: مفردها نجيب، وهو الكريم الحسيب.

إلى أن يقول:

الليوثُ مائلَةٌ
الحريرُ ملبسُها
والقصورُ مسرحها
يستفزها نغمٌ
يُستعادُ مرقصُهُ
فالقدود بانٌ^(١) رُبى
يلعب العناق بها
فهي آنةٌ صُعدٌ^(٢)
وهي ها هنا وهنا.
مثلما التقت أسلٌ^(٣)
الرووسُ مائلَةٌ
والنهود هامةٌ
والخصور واهيةٌ

والظباءُ تنسربُ
واللُجَيْنُ^(٤) والذهبُ
لا الرمالُ والعُشبُ
لا صدىً ولا لَجَبُ
تارةً ويُقتضبُ
بَيدَ أنها تَشِبُ
وهو مُشفقٌ حَدِبُ
وهي آنةٌ صَبَبُ^(٥)
تلتقي وتَصطحِبُ
أو تعانقت قُضْبُ^(٦)
في الصدور تحتجبُ
والخدود تلتهبُ
بالبنان تَنجذبُ

إلى أن يقول:

هكذا الكرام كرا
ليلةٌ علَّتْ وغَلَّتْ
يكفلُ الأميرُ لنا

مٌ وإن همو طربوا
ليت فجرها كذبُ
أن تُعيدَها الحِقْبُ

(١) اللُجَيْن: الفضة.

(٢) البان: شجر، القوام يشبه به القَدَّ لطوله.

(٣) الصُعد: مفرداها صِعد، وهو المرتفع.

(٤) الصَّبَب: المنحدر.

(٥) الأسل: الرماح.

(٦) القُضب: السيوف.

وله في وصف متنزه الخديوي:

آمنتُ باللهِ وجنّاتهِ
يا طالبَ العيشِ ولذّاتهِ
يودّها كِسرى مَشيداتهِ
فَبِشْنِ أطواقِا لِلبّاتهِ
تُنسِي سليمانَ وجنّاتهِ

مُتنزّه العباس للمجتلى
العيش فيه ليس في غيره
قصورٌ عزٌّ باذخاتُ الدُّرى
دارت على البحرِ سلاليمهُ
من عملِ الإنسِ سوى أنها

إلى أن يقول:

تَهيجُ للعاشقِ لوعاتهِ
من عدلِ حلمي^(١) ومساواتهِ

ومن ظبَاءٍ في كِناساتِها^(٢)
يرتعن والآساد في ألفة

وله في وصف الشروق والغروب، وهو في سفينة:

بكلِّ بحارٍ وفي كلِّ بيدٍ
وإزواؤها كلِّ عالٍ مشيدٍ
تدور بياقوتةٍ لن تبيدُ
آلهيةٌ زُيّنَت للعبيدُ
مماتُ القديمِ حياةُ الجديدِ
وتُبقي جبالَ الصفا^(٣) والحديدِ
على الزرعِ قائمهٍ والحصيدِ
بخيرِ الوعودِ وشرِّ الوعيدِ
بُنعمي الشقيِّ وبؤسِ السعيدِ
وليست بمأمونةٍ أن تعودُ
وكان الشروقُ لنا أيَّ عيدِ
وساعةً يدعو الحمامُ العنيدِ
سوى الحقِّ ممّا قضاه المريدُ

ويا للمُصوّرِ آثارها
وإزواؤها كلِّ جمِّ السنا
من النارِ لكنّ أطرافها
من النارِ لكنّ لألاءها
هي الشمسُ كانت كما شاءها
تردُّ المياهَ إلى حدّها
وتطلعُ بالعيشِ أو بالردى
وتسعى لدا الناسِ مهما سعتُ
وقد تتجلّى إذا أقبلتُ
وقد تتولّى إذا أدبرتُ
فما للغروبِ يهيجُ الأسي
كذا المرءُ ساعةً ميلاده
وليس بجارٍ ولا واقعٍ

(١) كِناس الظبي: بيته.

(٢) حلمي: هو الخديوي عباس حلمي (١٨٧٤ - ١٩٤٤).

(٣) الصفا: الصخر.

على هذه الأبيات الأخيرة مسحة من شعر المعري، الذي يختلط الشعر فيه بالفلسفة. وله وصف طلوع البدر، وهو في السفينة أيضًا:

وزَهتْ لِنَاظِرِهَا السَّمَاءَ لِلَّهِ وَقَرَّ مَا
وَأَهْلَ لِلَّهِ السُّرَاةُ وَأَزْلَفُوا
وَتَأْمَلُوكَ فَكُلُّ جَارِحَةٍ لَهُمْ
وَالْبَدْرُ مِنْكَ عَلَى الْعَوَالِمِ يَجْتَلِي
فِي الْبَحْرِ مِنْ عُبْبٍ^(١) وَمِنْ تَيَّارٍ
لَكَ فِي الْكَمَالِ تَحِيَّةَ الْإِكْبَارِ
عَيْنٌ تَسَامِرُ نُورَهَا وَتُسَارِي
بُشْرَ الْوَجُوهِ وَزَحْمَةَ الْأَبْصَارِ

انظر إلى قوله "زحمة الأبصار" هنا كم فيه من البلاغة، إذا تأملت تطلع الناس إلى البدر في الليلة البلجاء^(٢).

ثم يقول:

مُتَقَدِّمٌ فِي النُّورِ مَحْجُوبٌ بِهِ
يَا دُرَّةَ الْغَوَاصِ أَخْرَجَ ظَافِرًا
مَتَهَلِّلًا فِي الْمَاءِ أَبَدِي نَصْفَهُ
وَافِي بَكَ الْأَفْقُ السَّمَاءَ فَاسْفَرْتُ
وَنَهَضْتَ يَزْهُو الْكُونُ مِنْكَ بِمَنْظَرِ
الْمَاءِ وَالْآفَاقِ حَوْلَكَ فَضَّةٌ
وَالْفُلُكُ مُشْرِقَةُ الْجَوَانِبِ فِي الدَّجَى
وَكَأَنَّهَا وَالْمَوْجُ مُنْتَظِمٌ وَقَدْ
مُوفٍ عَلَى الْآفَاقِ بِالْأَسْفَارِ
يُمنَاهُ يَجْلُوهَا عَلَى النَّظَارِ
يَسْمُو بِهَا وَالنَّصْفُ كَاسٍ عَارِ
عَنْ قُفْلٍ مَاسٍ فِي سِوَارِ نُضَارِ
ضَاحٍ وَيَحْمَلُ مِنْكَ تَاجَ فَخَارِ
وَالشُّهْبُ دِينَارٌ لَدَى دِينَارِ
يَبْدُو لَهَا ذَيْلٌ مِنَ الْأَنْوَارِ
أَوْفَيْتَ ثُمَّ دَنُوتَ كَالْمُحْتَارِ

وقد استعمل شوقي لفظه "المختار"، ولا يوجد فعل مطاوعة من "حار"، ولكن استعمل ذلك بعض الأعلام متابعة للعامّة. وقال الشيخ عبد الغني النابلسي:

حِكْمٌ حَارَتْ الْبَرِيَّةُ فِيهَا
وَجَدِيرٌ بِأَنَّهَا تَحْتَارُ

وسمى فقيه عصره السيد محمد بن عابدين^(٣)، حاشيته على الدرّ المختار: "ردّ المختار"، ولم يسلم من الاعتراض.

(١) العيب: الماء المتدفق.

(٢) الليلة البلجاء: المشرقة بضوء القمر. تقول: تَبَلَّجَ الفجر: إذ أشرق.

(٣) ابن عابدين، (١٧٨٤ - ١٨٣٦). فقيه حنفي دمشقي، له حاشية مهمة سماها "ردّ المختار على الدرّ المختار".

وله في البحر المتوسط الأبيض:

أيُّ الممالِكِ أيُّها
يا أبيضَ الأثارِ والصد
إنَّ البيانَ وإنَّ حُسْدَ
في الدهرِ ما رفعتُ شِراعَكَ
فحاتِ ضُيُوعِ مَنْ أضاعَكَ
نَ العقلِ ما زالَ مَتاعَكَ

يشير بذلك، إلى أن الأمم التي عاشت على ضفاف هذا البحر، هي التي فرطت إلى حوض المدينة مثل مصر واليونان وروما، وأنها هي التي اشتهرت بذلاقة اللسان وسُداد المنطق، ثم يقول:

أبداً تُذكِّرنا الذب
وبنوا مناركَ عاليًا
وتحكّموا بك في الوجو
من جَلَّوا على الدنيا شُعاكَ
متلاليًا وبنوا قِلاعَكَ
د تحكُّمًا كان ابتداءَكَ

أي أن البحر المتوسط هو الذي سهّل الفتوحات للذين ملكوا على شواطئه. وله في وصف سويسرا:

ناجيت مَنْ أهوى وناجاني بها
حيث الجبال صغارها وكبارها
تَخِذَ الغمام بها بيوتًا فانجلتُ
والصخر عالٍ قام يحكي^(١) قاعدًا
بين الكواكب والسحاب ترى له
والسفع من أيّ الجهات أتيتُهُ
نثرَ الفضاء عليه عقد نجومه
بين الرياض وبين ماء (سويسرا)
من كلّ أبيضٍ في الفضاء وأخضرا
مشبوبة الأجرام شائبة الذرى
وأناف مكشوفَ الجوانب مُندرا
أذنا من الحجر الأصمّ ومِسْفرا^(٢)
ألفيته دَرَجًا يموج مدورًا
فبدا زَبْرُجَدُه^(٣) بهنّ مجوهرًا

(١) يحكي: يشابه.

(٢) المِسْفَر: الشفة من الإنسان.

(٣) زَبْرُجَد: حجر من الأحجار الكريمة (دخيل).

إلى أن يقول:

والماء من فوق الديار وتحتها
مُتَصَوِّبًا مُتَّصِعِدًا مُتَمَهَّلًا
والأرضُ جسر حيث دُرْتُ ومَعْبَرٌ
والفُلكُ في ظلِّ البيوت مواخِرًا
وخلالها يجري ومن حَوْلِ القُرَى
مُتَسَرِّعًا مُتَسَلِّسِلًا مُتَعَثِّرًا
يَصِلان جسرًا في المياه ومَعْبِرا
تَطوي البحائر^(١) نحوها والأنهرا

إنَّ هذا الأسلوب في وصف الطبيعة، هو الذي جرى عليه الشعراء من قديم الزمان يأتون بالتشابه المرقصة والكنيات المطربة في نظم، كأنه يمشي الخبب، وشعر كأنه يتحدّر من صَبَب، فتعرف القافية قبل أن تصل إليها، وتستدلّ على اللفظة بما حو اليها، وتظنّ نفسك على ضفّة نهر مطّرد يتدفّق، أو أمام غمام منسجم يتبجّس^(٢)، وقد تكثرت المترادفات في مثل هذا الوصف فلا تزعج، وتتوالى المتجانسات فتعجب وتبهج، وكأنّ الموصوف يخلع على الوصف حلاه، وكأنّ الشاعر يأخذ من الطبيعة لفظه كما يأخذ معناه.

وقلّما قرأت شعراً من الزهريّات أو الطرديّات أو غير ذلك، ممّا وصفوا به الطبيعة إلّا رأيته مسحوباً هذا السّحب، مسكوباً هذا السكب، كأنّ لكلّ مقام لغة تناسبه، ولكلّ موضوع أسلوباً خاصاً لا يجيد فيه من يُجانبه. وأمّا لفظه "البحائر" التي أتى بها شوقي هنا، بمعنى الأبحرة أو البحيرات، فليست من اللغة، إنّما البحيرة هي الناقة التي شقّت أذنها، من فعل بحر بمعنى شقّ. قال الله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة﴾^(٣). وقال أبو اسحق النحوي: أثبت ما روينا عن أهل اللغة في البحيرة أنها الناقة، كانت إذا نتجت خمسة أبطن فكان آخرها ذكراً، بحروا أذنها أي شقّوها وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبيح، ولا تُحَلَّأ^(٤) عن ماء ترده ولا تُمنع عن مرعى، وإذا لقيها المعبي المنقطع به، لم يركبها. قالوا: وجمع البحيرة على بُحر، وهو جمع غريب في المؤنث، إلّا أن يكون قد حُمِل على المذكّر، نحو نذير ونذُر. وليس لهذه اللفظة وجه هنا، إلّا أن يقال إنّ البحار جمع بحيرة، وهذه فعيلة من فعل بحر أي شقّ. وقد قيل إنّ البحر إنّما سمّي بحراً، لأنه شقّ في الأرض. فهل يصل تسامح علماء

(١) في قصيدة شوقي المخطوطة "البحائر"، فعندما تحرى الجَمع شطبها وأقام مكانها "الجداول".

(٢) يتبجّس: يتفجّر ماءً.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٠٣.

(٤) حلأً الماشية والإبل عن الماء: طردها أو حبسها على الورود، ومنعها من أن تشرب.

اللغة إلى إجازة هذا القياس؟ إنهم إن أجازوا مثله فقد فتحوا باباً يتعذر سده. ثم يقول شوقي من هذه القصيدة:

وخرجتُ من بين الجسور لعلني
آوي إلى الشجرات وهي تهزني
ويشوق منّي الماء في لمعانه
وهنالك ازدهت السماء وكان أن
فسريتُ في لألائه وإذا به
حلم أعارتني العناية سمعها
فرايتُ صفوي جهرة وأخذتُ أنسى
يقظةً ومُنأيَ لبتِ حُضراً

ثم يذكر شروق الشمس، فيقول:

تبدو هنالك للوجود وليدة
وتُضيءُ أثناءَ الفضاءِ بغرّةٍ
فسمتُ فكانتِ نصفَ طارٍ ما بدا
تَهنأ بها الدنيا ويغتبط الشرى
لاحت برأس الطود تاجاً أزهرها
حتى أنافَ فلاحَ طاراً أكبرها

لا أعلم ماذا يريد بقوله "طار"، إلا أن يكون يريد الإطار بالألف، فأطار الألف لضرورة الوزن، وليس هذا بجائز لأنه لم يرد (طار) بمعنى (أطار) في فصيح اللغة.

ثم يقول:

وسالت به الآفاق لكن عَسجدا
واهتزّ فالدنيا به مهتزة
حتى إذا بلغ السموّ كماله
فدنت لناظرها ودانَ عنانها
واصفرّ أبيضُ كلّ شيءٍ حولها
وسما إليها الطود ياخذها وقد
وتفشّت الأشباح لكن جوهرها
وأنا فأنكشف الوجود منوراً
أذنت لداعي النقص تهوي القهقري^(١)
وتبدّل المستعظمُ المستصغراً
واحمرّ برقعها وكان الأصفرها
جعلتُ أعاليه شريطاً أحمرها

(١) القهقري: الرجوع إلى الوراء.

وبَدَتْ ذُرَاهُ الشُّمِّ تَحْمَلُ مِجْمَرًا
سُرَّكَآ لِتَصْطَادَ النَّهَارِ الْمُدْبِرَا
وَأَتَى طُلُولَهُمَا الظَّلَامُ فَعَسْكَرَا
وَعُرُوبُهَا الْأَجْلُ الْبَغِيضُ لَمِنَ دَرَى
مَا كَانَ بَيْنَهُمَا الصَّفَاءُ لِيَعْمُرَا
وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَنْ يَتَغَيَّرَا

مَسَّتْهُ فَاشْتَعَلَتْ بِهَا جَنَابَاتِهِ
فَكَأَنَّمَا مَدَّتْ بِهِ نِيرَانَهَا
حَرَقَتْهُ وَاحْتَرَقَتْ بِهِ فَتَوَلَّىا
فَشُرُوقُهَا الْأَمَلُ الْحَبِيبُ لَمِنَ رَأَى
حَظْبَانَ قَامَا بِالْفَنَاءِ عَلَى الصَّفَا
تَتَغَيَّرُ الْأَشْيَاءُ مَهْمَا عَاوَدَا

ثمَّ إِنَّهُ يَصِفُ جَبَلَ (السَالِيفِ) الَّذِي فَوْقَ (جَنِيفِ)، فَيَقُولُ:

وَلَدَى جَوَانِبِهِ وَمَا بَيْنَ الذُّرَى
عَجَلٌ هُنَالِكَ كَهَرَبَائِي السُّرَا

أَنْهَارَتَا تَحْتَ (السَالِيفِ) وَفَوْقَهُ
مَشِيًّا وَرُكْبَانًا وَزَحْلَقَةً عَلَى

هنا محلّ نظر، فإنه إذا أراد مشيًا وركابًا وزحلقةً على أنها مصادر، وبلا تشديد لفظة ركاب لم يستقم الوزن، وإذا كان يشدّد ركّاب بمعنى جمع راكب، أو كانت غلطة مطبعيةً وأصلها ركبان، فهي في قلق زائد في هذا المحلّ لأنها تكون جمع اسم الفاعل بين مصدرين المشي والزحلقة. وربما قاسها شوقي على كذب كذابًا بالتشديد، ولكن ليس القياس في اللغة بالمذهب الراجح. والركّاب بالتشديد هو الكابوس، وليس هذا هو المراد هنا. وقد حاولت أن أجعلها مشيًا^(١) وتركابًا وزحلقةً... إلخ. ولكنني لم أجد مساعًا لتكثير المصدر من كلّ فعل، إلا إذا أخذنا القياس. فأما متون اللغة، فإنك تجد فيها أفعالاً تأتي مصادرها على تفعّال؛ فيقولون مثلاً سكب الماء، والدمع سكبًا وتسكابًا، وهتن الغيث هتّنا وهتّونا وتهتّانًا. وعليه، قلت من قصيدة في هذه الأيام الأخيرة:

أَنْ تُطْفِئَهَا بِتَسْكَابٍ وَتَهْتَانِ

نَارَ تَأَجَّجٌ فِي قَلْبِي فَهَلْ لَكُمْ

ولكن هذا غير مطرد، وإن كان المتنبي قال:

ظَهَرَ جَرِيٌّ فَلِي فِيهِنَّ تَصْهَالُ

وإن تكن مُحْكَمَاتِ الشَّكْلِ تَمْنَعُنِي

فإنك لا تجد تصهال في كتب اللغة، وإنما قاسها المتنبي على غيرها، والقياس في اللغة مذهب ضعيف. وقد نظرت في كتاب سيبويه، فرأيتَه يقول: «هذا باب ما تكثر فيه المصدر^(٢)»

(١) هذا يدلّ على تصرّف الأمير في شعر شوقي بعض المفردات، فشوقي يقول «رَجَلًا» وليس «مشيًا»؛ وذلك حرصًا منه على شوقي والفصحى معًا.

(٢) أراد أن يقول: أن وزن «تفعّال» يُدْهَبُ بِهِ إِلَى التَّكْثِيرِ، وَهَذَا مَذْهَبُ «السِّرَافِيِّ» وَمَذْهَبُ «سَيْبَوِيهِ».

من فعلت، فتلحق الزوائد وتبنيه بناء آخر، كما أنك قلت في فعلت فعلت (بالتشديد)، حين كثرت الفعل؛ وذلك قولك في الهدر التَّهدار، وفي اللعب التَّلعب، وفي الصفق التَّصفاق، وفي الرَّد التَّرداد، وفي الجولان التَّجوال، والتَّقتال والتَّسيار. وليس من هذا مصدر فعلت (بالتشديد)، ولكن لما أردت التكاثر بنيت المصدر على هذا، كما بنيت فعلت على فعلت (الثانية بالتشديد) انتهى. وقلت: ولا يستفاد من هذا أنه يجوز أطراد مصدر تفعال، من كل الأفعال، لأنه لو كان ذلك لما كان جامعو اللغة قالوا هتن هتونًا وتهتانًا، ولم يقولوا ركب ركوبًا وتركابًا. ولترك ركابًا هذه على حالها. ونكمل وصف شوقي لجبل السليف، فيقول:

في مركب مُستأنسٍ سألتُ به
فُضِبُ الحديدِ تَعْرُجًا وَتَحَدَّرًا
ينساب ما بين الصخور تمهلاً
ويخف بين الهوتين تخطراً

ولو جاء شوقي جنيف، كما دعوته يوم تلاقينا في السويس، لرأى الآن شيئاً أعجب وأغرب، وهو أنهم وضعوا من حذاء السليف إلى رأس الجبل، مركبة سلكية كهربائية يقال لها «تلفريك»، يظنها الرائي طائرة طائرة في الجو، ويقطع فيها الراكب هذه المسافة من ذيل الجبل إلى رأسه في ثماني دقائق بسرعة برقية، وهذه المركبة من بعيد تلوح كالزنبيل معلقاً في الهواء. ثم قال:

لما نزلنا عنه في أمّ الذرى
أرضٌ تموجُ بها المناظرُ جمّة
قد صغَرَ البُعْدُ الوجودَ لنا فيا
قمنا على فرع السليف لنظرا
وعوالم نِعَمَ الكتابُ لَمِن قَرا
لله ما أحلى الوجودَ مُصغَرا

ولشوقي قصيدة، عن رومة فيها أبيات جديرة بأن تُحفظ:

وجرت ههنا أمورٌ كبارٌ
راح دينٌ وجاء دينٌ وولّى
والذي حصّل المُجدونَ إهرا
ليت شعري إلامَ يقتتلَ النا
بلد كان للنصارى قتاداً^(٢)
واصلَ الدهرُ بعدها جريانه
ملكٌ قومٍ وحلّ ملكٌ مكانه
قُ دماءٍ خليقةٍ بالصيانه
سُ على ذي الدنيّةِ الفتانه؟^(١)
صار ملكُ القسوسِ عرشَ الديانه

(١) الدنيّة الفتانة: الدنيا.

(٢) القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر. وهنا، يريد أن الوصول إليه كان صعباً شاقاً.

وشعوب يمحون آية عيسى
ويُهينون صاحب الروح ميتًا
عالمٌ قَلْبٌ^(١) وأحلام خُلِقِ
رومةُ الزهْوِ في الشرائع والحك
والتناهي فما تعدَّى عزيزًا
يُصبحُ الناسُ فيكِ مولىً وعبداً
وله على قبر نابليون أبيات منها:

مَرْمَرٌ أَضْجَعُ فِي مَسْنُونِهِ^(٢)
هل درى المرممر ماذا تحته
يَنمحي الميِّتُ ويبلَى رَمْسُهُ
حَصَّنُوا مَا شِئْتُمْ مَوْتَاكُمْ
ليس في قبرٍ وإن نال السُّهَى
فأنزل التاريخ قبرًا أو فنمَّ

وله في توت عنخ آمون قصيدة، يقول فيها:

ملوكُ الدهر بالوادي أقاموا
فَرُبَّ مُصَفِّدٍ مِنْهُمْ وَكَانَتْ
تَقْيِيدَ فِي التَّرَابِ بغير قِيدِ
تعالى الله كانَ السحر فيهم

ثمَّ يُعلون في البريةِ شائنةً
ويُعزّونَ بعده أكفانته
تتبارى غباوةً وقطانته
مة في الحُكْمِ والهوى والمجانة^(٣)
فيكِ عزٌّ ولا مهينًا مهانةً
تحسد الشمس في الصُّحى سلطانه؟

حَجْرُ الأَرْضِ^(٤) وضرغامُ العرينِ
من قوى نفسٍ ومن خُلِقِ متين؟
ويغولُ الرَّبْعَ ما غالَ القَطِينِ^(٥)
هل وراء الموتِ من حُصْنِ حصين؟
ما يزيدُ الميِّتَ وزناً ويزينُ
في الثرى غُفْلًا^(٦) كبعض الهامدين

على وادي الملوك مُحجَّبينا
تُساقُ له الملوكُ مُصَفِّدينا
وحلَّ على جوانبه رَهِينا
أليسوا للحجارة مُنطِقينا؟

(١) القَلْبُ: المحتال. ومنها قيل للذئب: قَلْبٌ.

(٢) المجانة: الهزل.

(٣) المسنون: المصقول.

(٤) حجر الأرض: كناية عن محورها، والمراد به "نابوليون".

(٥) القطين: السكّان.

(٦) غُفْلًا: مجهولاً.

ويخاطب اللورد كارنارفون الذي اهتدى سنة ١٩٢٢ إلى ما اهتدى إليه من الكنوز تحت مدفن رعمسيس السادس، فقال:

أبوُّنا وأعظْمُهُم تُّراثٌ
ونأبى أن يحلَّ عليه صَيِّمٌ
سكَّتْ فحامَ حولك كلُّ ظنٍّ
يقول الناس في سرٍّ وجَهْرٍ
أمنٌ سرق الخليفة وهو حيٌّ
نُحاذِرُ أن يؤوَلَ لآخِرِينا
ويذهبَ نهبَةً للناهِبِينا
ولو صرَّحت لم تُشرِ الظنوننا
ومالك حيلةٌ في المرْجفِينا
يعفُّ عن الملوك مُكفِّفِينا^(١)؟

يريد أن يقول إنَّ الناس اتَّهموا اللورد الذي كشف الكنوز، بأنه استأثر لنفسه بها، والحال أنها حقٌّ مصر، وقد حامت الظنون حول هذه القصَّة، وقال الناس: أفلذين سرقوا الخليفة وهو حيٌّ، لا يسرقون كنوز الملوك وهم أموات؟ إشارة إلى أن الإنجليز نقلوا الخليفة وحيد الدين من قصره في الأستانة إلى مالطة، بعد أن انتهت حرب اليونان وتركيا، وأتسق الأمر لحكومة أنقرة، والسبب في فرار الخليفة حينئذٍ ما بلغه عن نيَّة حكومة أنقرة، محاكمته والحكم عليه بالقتل، بحجَّة أنه خان الوطن.

وكان السلطان وحيد الدين في بدء احتلال الإنجليز للأستانة بعد الحرب العامَّة، قد اعتقد أن الإنجليز يقدرّون على كلِّ شيء، فأطاعهم خوفاً لا خيانة، ولم يشأ أن يذهب إلى الأناضول وينضمَّ إلى رجال الحركة الوطنية، اعتقاداً بأنه إن خرج من الأستانة لن يعود ملك آل عثمان إليها أبداً، وأنَّ الإنجليز وغيرهم من الأجانب يريدون فرصة لإعادة القسطنطينية إلى الروم. وقد كانت في أوروبا - ولا سيَّما في إنجلترا - حركة شديدة لهذا الغرض، فتضافرت الأسباب كلّها لبقاء السلطان في الأستانة، حتّى لا تخرج هذه العاصمة المنقطعة النظير من يد الإسلام، ولما كان الإنجليز، هم المحتلّين وهم أصحاب الكلمة العليا بعد الحرب الكبرى، لم يجد وحيد الدين بداً من مطاوعتهم، فانتهز أعداؤه الفرصة لاتِّهامه بالخيانة وبالخروج عن رأي أمّته، ولما كان بين الأتراك حركة قديمة ترمي إلى ثلّ العرش العثماني وتأسيس حكومة جمهورية، وهذه الحركة لا يقدر أصحابها على التظاهر بها خوفاً من الشعب التركي، المتمسك بك

(١) كانت بريطانيا لجأت الخليفة وحيد الدين إلى مدرعة بريطانية ونقلته إلى مالطة سنة ١٩٢١، فإذا كانت هذه الدولة تفعل ذلك بالملك الأحياء فلا يبعد على رجالها أن يفعلوه بالملك الأموات.

عثمان، فقد استغلّ هذه المرّة رجال تلك الحركة طاعة وحيد الدين لإنجلترا، الناشئة عن الخوف، وجعلوها من باب الخيانة ونشروها بين الشعب التركي وفي الآفاق، وبنوا عليها فيما بعد إسقاط سلطنة آل عثمان وإسقاط الخليفة والخلافة، مع أنّ مجلس أنقرة الكبير كان قد قرّر أنّ الحركة التركية الاستقلالية إنّما كان المقصد منها إنقاذ الخليفة، الذي هو أسير بين أيدي الإنجليز، وقد اضطرّ السلطان الخليفة وحيد الدين أن يفرّ من الآستانة، حتّى لا يُصلّب على جسر الخليج، فقصّد مالطة على باخرة إنكليزية، ثمّ جاء منها إلى الحجاز، وبعد أن أقام أيامًا في مكة وأيامًا في الطائف. ذهب إلى أوروبا وأقام في سان ريمو من إيطاليا، ولم يعيش بعد سقوطه مدّة طويلة، وعندما مات، كان يعاني من جهة أمر معيشته مع حاشيته أزمة شديدة، وكانت عليه ديون لأصحاب الدكاكين الذين كانوا يبيعونه بالنسيئة^(١) ويصبرون عليه. فلمّا مات قاموا يطالبون بحساباتهم وطلبوا تأخير نقل الجثة من سان ريمو، حتّى يكونوا استأدوا أموالهم، فبقيت الجثة في سان ريمو أسبوعين أو ثلاثة رهنا، حتّى يأتي من آل عثمان من يؤدّي الحسابات التي كانت على السلطان المتوفى!! وفي ذلك الوقت، قال لي سموّ الخديوي السابق: إنّ هذا عار على الإسلام، وكان من الواجب أن يتبرّع ذوو الحمية من المسلمين بالمبلغ الباقي على السلطان المرحوم، حتّى يتيسّر نقل جثمانه إلى الشام لدفنه فيها، كما أوصى بذلك. فقلت له: ومن أولى منك بهذا الأمر؟ فذكر لي محذورًا سياسيًا يمنعه من التظاهر بهذه القضية، وأشار بأن أكتب إلى سموّ الأمير عمر طوسون الذي هو المفزع للإسلام عند كلّ حادثة. فكتبتُ إلى الأمير المشار إليه، ولا شكّ أنّه لم يكن ليتأخّر عن الواجب، ولكن في أثناء ذلك جاء الخليفة عبد المجيد، ابن عمّ السلطان وحيد الدين من بلدة نيس التي يُقيم بها، وأدّى المبلغ الباقي لأصحاب الحسابات، وهكذا تمكّن من شحن جثة السلطان إلى دمشق، حيث دُفنت في التكية السليمانية.

ومن هنا يعلم القارئ أنّ السلطان وحيد الدين كان خالي الوفاض، وأنه لو كان خائنًا لأُمَّته، كما يتشدّق بعض الناس، الذين يَهْرِفون^(٢) بما لا يعرفون، وكان خادمًا لأغراض إنجلترا كما يزعمون، لكانت إنجلترا تقوم بنفقاته وتكفي أهله تلك الإهانة التي وقعت بإبقاء جثته رهينة، مدّة ثلاثة أسابيع على حسابات دكاكين سان ريمو.

(١) النسيئة: التأجيل والتأخير، وهي هنا كناية عن البيع بالدين.

(٢) هَرَفَ بفلان: مدّحه بلا خبرة، ومنه لا تهرِفون بما لا تعرفون.

ومما تحققت، والحال تؤيد، أنه لما برح السلطان وحيد الدين الأستانة، وكان الذي في يده من المال نزرًا^(١) لا يكفيه أن يعيش سلطانًا، بل لا يكفيه أن يعيش كسائر الناس مدة طويلة مكفياً قوت يومه، أشار عليه بعض أعوانه بقوله: إنك تقدر أن تأخذ بعض قطع من جواهر التاج المحفوظة في خزانة سراي طوبقو، والتي فيها من النفائس ما يقوم بعدة ملايين من الجنيهات؛ وأنت معذور في ذلك، حتى تتمكن من معيشتك في الغربة بالمقدار الضروري. فقال له السلطان وحيد الدين: «بن بويله خرسزلق يایم» أي لست أنا من يرتكب هذه السرقة، وهذه الرواية مؤيدة بواقع الحال، إذ لو شاء السلطان وقتئذ أن يأخذ شيئًا من تلك النفائس، ما كان أحد يقدر أن يمنعه، ولكته أبي لنفسه أن يلوثها بفعلة كهذه «والحر حر ولو مسه الضر». وكلُّ يذكر أن إحدى نسائه جاءت إلى مصر، وبلغ منها الفقر مبلغًا أن قذفت بنفسها في النيل لتخلص من هذه الحياة، وأن أناسًا أدركوها فانتشلوها، ووضعت في المستشفى. ومن قصائد شوقي البديعة، ما خاطب به أم الخديوي السابق التي كان يقال لها أم المحسنين، بعد نهضتها تلك في حرب طرابلس الغرب:

أرْفَعِي السِّتْرَ وَحَيِّي بِالْجَبِينِ	وَأرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ المُبِينِ
وَقِضِي الهُودَجَ فِينَا سَاعَةً	نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ المُحْسِنِينَ
وَاتْرُكِي فَضْلَ زِمَامِيهِ لَنَا	نَتَنَاقِبُ نَحْنُ وَالرُوحِ الأَمِينِ
قَدْ سُقِينَا بِمُحْيَاكِ الحَيَا	وَلَقِينَا حَوْلَ يُمْنَاكِ الِیْمِينِ

ثمَّ یقول:

یا مِثَالًا لِلْعَقِيلَاتِ العُلَى	وَكَمَا لَأَ لِنِسَاءِ العَالَمِينِ
جَارَةُ الإِسْلَامِ فِي مَحْنَتِهِ	عَلَّمِي الجَارَاتِ مِمَّا تَعْلَمِينِ
ذَكَّرِيهِنَّ فَرُوقًا ^(٢) وَصِفِي	طَلْعَةَ الخَيْلِ عَلَيْهَا وَالسَّفِينِ
وولِيًّا لِلطَّوَاغِيَتِ بِهَا	كَانَ يُدْعَى بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ

(١) النزر: القليل.

(٢) فروق: مصر.

يقول لها، وهي راجعة من الأستانة إلى مصر، لتحدث عن حال الأستانة، وهنا تكلم في السلطان وحيد الدين، بما كان وقتئذٍ شائعاً ورائجاً، من أنه خان أمته ومالاً الإنجليز عليها، وما أشبه ذلك، من الأقاويل التي كان يذيعها الكماليون، وكانت تُنشر في الخلق وتجد هوى في نفوسهم، لشدة ما عانى أهل مصر وأهل الشرق أجمع من ظلم الإنجليز، وما وقر في قلوب الناس من بغضهم.

وحقيقة الحال، هي ما ذكرناه من كون السلطان محمد السادس إنما غلب عليه الخوف، واعتقاد أنه إن خالف الإنجليز، لم ينفعه نصير في العالم، وقد يخرجونه من الأستانة ويعيدونها إلى الأروام. ومن كان في ذلك الوقت يعتقد أن الإنجليز سيرحون الأستانة، أو أن الحركة الوطنية في الأناضول ستؤول إلى نجاح؟ بل رجال تلك الحركة أنفسهم كانوا يقولون إنهم لا يريدون أن يسلموا تركيا بثمن بخس، أي أنهم لا يأملون الفوز، لكنهم يريدون ألا تذهب بلادهم رخيصة. وهناك أمور نحب أن تبقى مطوية على غيرها وأسماء أشخاص، هم على رأس تركيا اليوم، كانوا قطعوا الأمل من استقلالها، إلى حد أنهم أجمعوا على وجوب جعلها تحت انتداب إحدى الدول العظام، لكنهم اختلفوا في الدولة التي يجب أن تكون منتدبة عليها، فبعضهم أشار بإنجلترا والآخرين أشاروا بأميركا، وتوجد وثائق خطية تثبت كون هؤلاء الذين يديرون تركيا اليوم لا غيرهم، قد وصل بهم اليأس إلى أن أشاروا بجعل تركيا تحت انتداب إحدى الدول العظام، وهي تلك المملكة، التي كانت بالأمس إحدى الدول السبع العظام اللواتي إليها الحل والعقد في العالم. فلا نعلم بعد هذا وجه التشدق والتنطق في حق السلطان وحيد الدين، وتخصيصه باليأس دون سواه، وقد كانوا بأجمعهم يائسين.

يرى القارئ أننا في التعليق على قصائد شوقي التاريخية، لم نستكف أن نعرض على التاريخ، ولو بصورة مجملة أو بإشارات خفيفة، وذلك لأن الشعر التاريخي يحتاج أحياناً إلى تفسير يقويه ويجلي بداعة نكته. ومع هذا، فلو شئنا أن نتوسع في هذه المواضع التي طرقها شوقي في شعره، لاستهدف لنا غرض لا ينتهي، وعرضت تفاصيل لا تنقضي. ونحن كل ما أردناه، إنما هو الاتيان بالمختار والسائر على ألسن الناس من شعر شوقي، وما نراه نحن من شعره مُنيفاً على غيره، فإن للناس أذواقاً مختلفة، وقد يرى الواحد ما لا يرى الآخر. وفي عرض هذه الشواهد، قد تعن لنا ملاحظة فنبيها على غير أطراد، وبدون أن نتخذ ذلك قاعدة، وبدون أن نخوض في نحو ولغة وبيان وبديع وعروض، إلا ما عرض اتفاقاً، فليس

ما علّقناه على هذه الشواهد من شعر أمير الشعراء، شرحاً ولا تفسيراً، إذ لو توخّينا ذلك لطلال بنا الأمر وخرجنا عن الخطّة التي ترسّمناها في عملنا هذا الذي هو عبارة عن عهد بين صديقين وذمّة بين أخوين.

وإني لأخجل من نفسي إذا رأيتني قصّرت فيما يجب عليّ نحو شوقي بعد وفاته، وإني لأتخيّل شوقي - وهو الذي يقول، كما جاء في جريدة "كوكب الشرق": "إني أحد أصحابه الثلاثة الذين لا يعزّ أحداً عليهم - قد نظر إلى من برزخه"^(١)، وأطلّ عليّ من نافذة الغيب، وحدّق بي بعيونه تلك، التي كان يقول فيها صديقنا الشيخ علي اللبّثي (محاجرٌ مسكٌ رُكبت فوق زئبق)، وقال لي: أهكذا ضممتني يا أخي بعد وفاتي؟ وأنه في تلك الساعة قد ينشدني قول أبي العتاهية:

سِعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَيْلِ خَلِيلُ
إِذَا مَا انْقَضَتْ عَنِّي مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةٌ فَإِنَّ بَكَاءَ الْبَاكِيَاتِ قَلِيلُ

فأبدأً أجيبه، قائلاً: لو نسي عهدك الأولون والآخرون، كما خفرت لك عهداً، ولا مذقت^(٢) لك وداً، وأنك في الغيب عندي لكما في المشهد، وأنت تعلم أنها صداقة أربعين سنة، تساقينا كؤوسها صفواً بدون قذى، وتبادلنا رياحينها عفواً بدون أذى.

فإن أظماً عهدك النسيان، فلي مدامع ترويه، وإن شطت بشعرك النوى فإنّ الدهر كلّه يرويه، وأنه وإن بكاك الناس حبّاً بالأدب، ورحمةً للسان العرب، فإنّي لأبكيك بصفتين: صفة الأديب البرّ بلغته الغيور على صناعته، وصفة الأخ الضنين بأخوته، الحريص على مروءته، فأنا في مقدّمة من لك من الإخوان والأتراب، الذين يكون فضلك ويذكرون عهدك إلى أن يواروا في التراب.

نقلنا هذه الشواهد من الطبعة الأولى من الشوقيّات، وهي التي فيها المقدّمة التي بقلم شوقي؛ ومن الطبعة الثانية التي مقدّمها، وأظنّ تفسيرها بقلم الدكتور محمّد حسين هيكل. وكما أهداني شوقي الطبعة الأولى بخطّ يده، فقد أهداني الطبعة الثانية أيضاً بخطّ يده، وكتب عليها هذه العبارة: (إلى مولاي وصديقي الكريم، الأمير شكيب أرسلان).

المخلص شوقي

٣٠ أبريل سنة ١٩٢٦

(١) البرزخ: الحاجز بين الشيئين، أو هو ما بين الدنيا والآخرة.

(٢) مذقّ الودّ: شابه بكدر، ولم يخلصه.

فسلامًا يا أخي ومولاي ونور عيوني وتحيّة طيّبة، والله أسأل أن يجعلنا أخوين في عالم الغيب، كما كنّا في عالم الشهادة ولا يجعلها بيننا آخر معهد.

ومن رقيق شعر شوقي:

لا السرّ يطويه ولا الإغضاء
داجي عُباب اليمّ فوضى فلكهُ
أغزاة^(١) الإشراق أنت من الدُّجى
رفقًا بجفنٍ كلّمَا أبكىتهِ
ما مدّ أهدابًا ليصطاد الكرى
كان القرير وكنت زهو عروشه
وخسرتهنّ لياليًا نهل الصبا

وله من قصيدة إلى الجناب الخديوي:

وشمسٌ تعالت أن تُنارَ وإن تُرى
وما جلّت الأضواء عنها وإنّما
أغرّن بها الدنيا هوى فتغيّرت
رمى بي القوافي من رمى السحر قبلها
فأسمعتُ عباسَ الندى كلّ آيةٍ
فتى الملك ما هذا السموّ بيتهِ
لك العرشُ والتاجان والمطرفُ الذي
وملكٌ عريقٌ في الوجودِ ودولةٌ
ولمّا أتيت القيصرين ويوسفًا
تخذت إليهم عالي الذّكر مركبًا
وقيل ابن ربّ النيل فافترت القرى

(١) الغزاة: الشمس.

(٢) علّت: من علّ الشخص، أي شرب شرّبة ثانية بعد النّهل.

وطالتُ عُروشُ المالِكينَ تَشْرِفًا
ولكن عَرشًا تحتَه النيلُ جارِيًا
ومن شعره في الخديوي:

صحوتُ واستدرَكْتَنِي شِيمَتِي الأَدبُ
وما رَشادِي إلا لَمَعُ بارِقَةٍ
دعتُ فأسْمَعُ داعِيها ولو سَكَنْتُ
وهكذا أنا في هَمِّي وفي هِمَمِي
ولي همامَةٌ نفسٍ حيثُ أجعلُها

فلو خَيْرْتُ لاخترنَ أذِيالك القُشبا
أحقُّ بها والمهدُ أُولى بَمَن رَبِّي

وبتَ تُنكِرُنِي اللذاتُ والطَّرِبُ
يُرامُ فيه ويُقضى للعُلا أَرَبُ
دعوتُ أسمعُها والحُرُّ يُنتدبُ
إنَّ الرجالَ إذا ما حاولوا دأبوا
لا حيثُ تجعلُها الأحداثُ والنُوبُ

وكلٌّ مَنْ يقرأ هذه الأبيات، يلحظ أن شوقي أراد بها معارضة محمود سامي في قصيدته

البائية التي يقول فيها:

سِوايَ بَتَحنانِ الأغاريدِ يَطربُ
وما كنتُ ممَّن تأسرُ الخمرُ لَبَّهُ
ولكن أخوهمُ إذا ما تَرَجَّحتُ
نفي النومَ عن عينيهِ نفسُ أَيْتَةٍ
بعيدُ مناطِ الهَمِّ فالغربُ مُشرقُ
له غُدواتٍ يَتبعُ الوحشُ ظلَّها
هَمامَةٌ نفسٍ صَغرتُ كلَّ ما رَبِ
ومَن تَكُن العلياءُ هِمَّةً نفسِهِ
إذا أنا لم أُعْطِ المكارمَ حَقَّها
ولا حَمَلتُ دِرْعِي كُمَيْتٌ^(١) طِمْرَةٌ^(٢)

وغيري بالذات يَلهو ويُعجَبُ
ويَمَلِكُ سَمعِيهِ اليراعُ المُثَقَّبُ
به سُورَةٌ نحو العُلا راحَ يَدأبُ
لها بينَ أطرافِ الأسنَّةِ مَطَلَبُ
إذا ما رمى عينيهِ والشرقُ مَغربُ
وتَغدُو على آثارها الطيرُ تَنعَبُ
فكَلَّفتِ الأيامُ ما ليس يُوهَبُ
فكلُّ الذي يلقاهُ فيها مُحَبَّبُ
فلا عَزَّني خالٌ ولا صَمَّني أبُ
ولا دارَ في كَفِّي سِنانٌ^(٣) مُذَرَّبٌ^(٤)

(١) الكميت من الخيل: ما كان بين الأسود والأحمر.

(٢) الطمرة: الفرس العالية، الطويلة القوائم، الخفيفة.

(٣) السنان: نصل الرمح.

(٤) مذبذب: حادٌّ ماضٍ - اسم مفعول - من ذرَّبه.

لكلِّ امرئٍ فيما يُحاولُ مذهبٌ
ولستُ على شيءٍ مضى أتعَبُ
لديّ يداً أغضِي لها حينَ يغضبُ
وأمتُ به الأحلامُ حيرى تشعبُ
من الرأي لا يخفى عليه المغيبُ
ولا عاصمٌ إلا الصفيحُ المُسطَّبُ
حواسرَ في ألوانها تتقلبُ

أسيرُ على نهجِ يرى الناسُ غيرَه
فلستُ لأمرٍ لم يحنْ متوقِّعاً
خلقتُ عيوقاً لا أرى لابنِ حرّةٍ
وإني إذا ما الشكُّ أظلمَ ليلُه
صدعتُ حفاقي طرّيته بكوكبٍ
ونقع من الهيجاءِ خضتُ عبابهُ
تظلّ به حُمر المنايا وسودها

وقد عارض محمود سامي بقصيدته هذه، قصيدة الشريف الرضي^(١) التي أولها:
لغير العلى مني القلى والتجنبُ
ولولا العلى ما كنتُ في الحبِّ أرغبُ

ومع جلاله قدر الشريف الرضي وعلو كعبه في الشعر وفحولة لغته، التي ينزع بها عرق الهاشمية الكريم، ومجدها الصميم، لا يقدر أحد أن يقول إن البارودي قصر عن الرضي في شيء، بل ربّما أناف عليه، ولمثل قصيدة البارودي هذه وأشباهها صرّحت بأنه سيّد الشعراء في وقته، وقلت في رثائه:

كان الأوائلُ في الأنظار معجزةً
حتى أتى فشأى من جدّ من قدّما

ولا شك أن شوقي لا يرقى في الجزالة وعلو النفس إلى هذه السماء، ولكن له أسلوب آخر كما تقدّم الكلام عليه، طابعه السلاسة ومزيته الرقة، وانظر الآن إلى قوله:

أوشكتُ أتلّفُ أقلامي وتُلفني
هُموا رأوا أن تظلّ القُضبُ مُغمّدة
رضيتُ لو أنّ نفسي بالرّضى انتفعتُ
نالتُ منابرُ وادي النيل حصّتها
وملعب كمعاني الحلم لو صدقتُ
تدقق الدهر باللذات فيه فلا
وما أنلتُ بني مصر الذي طلبوا
فلن تُذيبَ سوى أعمادها القُضبُ
وكم غَضبتُ فما أدناني الغُضبُ
مني ومن قبل نال اللهُو والطربُ
وكالأمانيّ لولا أنها كذبُ
عنها انصراف ولا من دونها حُجبُ

(١) الشريف الرضي: محمّد بن الحسين (٩٧٠-١٠١٦). من كبار الشعراء، ولد وتوفّي في بغداد، هو نقيب الأشراف الطالبيين، له "الحجاريات"، تغلب على شعره القوّة والعذوبة معاً.

وجاملتُ عُصبة يحيا الوفاء بهم
باتوا الفراقِدَ^(١) للألاء وما سفروا
وأسعدتُ مُشرفاتٍ من مكانها
مُستأنساتٍ قريراتٍ بأخبيةٍ
ما بين حامٍ يهاب الجار ساحته
وغادةٍ من بنات الأيك ساهيةٍ
قريرة العَيْن بالدنيا مُروعةٍ
وتبرحُ الفرع نحو الفرع جاذبةً

فهم جمال الليالي أو همُ الشُّهُبُ
عليه والبانَ أعطافًا وما شربوا
حمر المناقير في لَباتها ذَهَبُ
من سُندسٍ^(٢) الروض لم يمدد بها طنبُ^(٣)
وناشئٍ يزدهيه الطوق والزَّغَبُ^(٤)
ما تستفيق وأخرى همها اللَّعبُ
بالأسر تضحك أحيانًا وتتنحبُ
بالغُصن فالفرع نحو الفرع مُنجذبُ

وهنا أراد شوقي أيضًا أن يعارخ محمود سامي، فيما بقي من قصيدته البائية التي أوردنا ما أوردنا منها وفي قصيدة رائية يتكلم بها عن الحمام.

وإليك ما قال محمود سامي في قصيدته البائية هذه، مما تعلم منه أن شوقي أراد أن يجري مجراه، ولكته جرى ضمن أسلوبه وعلى شاکلة لغته. قال محمود سامي:

كذلك دأبي في المراس^(٥) وإنني
وفتيانٍ لهوٍ قد دعوتُ وللكرى
لأمرحُ في غيٍّ^(٦) التَّصابي وألعبُ
خباءً بأهداب الجفون مُطنَّبُ

ما مررت في حياتي بجملته أعلى في درجة البلاغة وأبدع في التصوير من قوله (وللكرى خباء بأهداب الجفون مطنّب)، وكيف لا يكون شاعر الأولين والآخرين من يفري هذا الفرى؟ ثم يقول:

إلى مَرَبِعٍ يجري النسيم خلاله
فلم يَمِضْ أن جاءوا مُلبينَ دعوتي
بَنَشْرِ الخُزامى والنَّدى يَتَصَبَّبُ
سِرَاعًا كما وافى على الماء رَبْرَبُ^(٧)

(١) الفراقِد: مفردا فَرَقَد، أي نجم.

(٢) السُّندس: لفظ دخيل على العربية من الفارسية، هو نوع من الحرير.

(٣) الطنب: حَبْلٌ يُشَدُّ به سُرداق البيت (استعارة)، حَبْلُ الخِيمة.

(٤) الزغَب: أول ما يبدو من ريش الطير.

(٥) المراس: الشدة.

(٦) الغي: الضلال.

(٧) الربرب: القطيع من بقر الوحش.

بخيلِ كآرام^(١) الصَّريم^(٢) وراءه
من اللاءِ لا يأكلنَ زادًا سوى الذي
نرى كلَّ مُحَمَّرِ الحماليق^(٣) فاغِر^(٤)
يكادُ يفوتُ البرقَ شدًّا إذا انبرتُ
فَمِلْنَا إلى وادٍ كأنَّ تِلاعهُ
تُراحُ به الآمالُ بعدَ كلالِها
فبينما نرودُ الأرضَ بالعينِ إذ رأى
فقمنا إلى خيلٍ كأنَّ متونها^(٥)
فلما انتهينا حيثُ أخبرُ أُطَلِقَتْ
فما كان إلا لفتهُ الجيدُ أن غلَّتْ
وقلنا لساقينا أدريها فإنما
فقام إلى راقودِ خمرٍ كأنه

صواري^(٦) سلوق^(٧) عاطل^(٨) وملبب^(٩)
يُضْرَسُنُه^(١٠) والصَّيدُ أشهى وأعذبُ
إلى الوحشِ لا يألُو ولا يتنصَّب^(١١)
له بنتُ ماءٍ أو تعرَّضَ ثعلبُ
من العصبِ مَوْشِيَّ الحَبائِكِ مُذهَبُ
ويصبو إليه ذو الحِجَا وهو أشيبُ
رَبِيئَتُنَا سِرْبًا فقالَ ألا أركبوا
من الضُّمُرِ^(١٢) خُوْطُ^(١٣) الضُّيْمَرانِ^(١٤) المُشْدَبُ
بُزاةٌ وجالتُ في المَقاوِدِ أَكْلُبُ
قُدورٌ وفارَ اللَّحْمُ وانفضَّ مَأْرَبُ
قُصارى بني الأيامِ أن يتشعبوا^(١٥)
إذا استقبلتهُ العينُ أسودُ مُغْضَبُ

(١) الآرام: مفردا رثم، وهو الظبي الخالص البياض.

(٢) الصريم: الرملة المنقطعة من الرمال.

(٣) ضوار: مفردا ضار، وهو الكلب المولع بالصيد الملازم له.

(٤) سلوق: قرية في اليمن، أو بلد في حدود أرمينيا، تُنسب إليها كلاب الصيد.

(٥) عاطل: غير مطوق.

(٦) ملبب: مطوق.

(٧) ضرسه: عَضَه عَضًا شديدًا، والمعنى أن هذه الكلاب لأطعم إلا من لحم الصيد.

(٨) الحماليق: مفردا حِمْلَاق، (ويجوز ضمّ الحاء) حُمْلُوق، وهو ما غطته الأجنان من بياض مُقلّة العين؛ واحمرار هذه كناية عن قوتها.

(٩) فاغر: فاتح فاه.

(١٠) تنصَّب الشيء: أتضع، يريد أنه لا يضعف ولا يتوقف.

(١١) متونها: ظهورها.

(١٢) الضُّمُر: الهُزال.

(١٣) الخُوْط: الفصن الناعم.

(١٤) الضُّيْمَران: الريحان الفارسي أو ريحان البرّ.

(١٥) التشعب: التفرّق.

إذا ما استقلتَه الأناملُ كوكبُ
وحتى رأينا الأفقَ ينأى ويقرُبُ
وقد كادت الشمس المنيرة تغربُ
به لأخي اللذات واللَّهُو ملعبُ
ومخدعُ أكوابٍ به الخمر تُسكبُ
أساريرُهُ زهواً وجاء يُرحَّبُ
فعندي لكم ما تشتهون وأطيبُ
من الخمر تطفو في الإناء وترُسبُ
ويا طيبَ هذا الليلِ لو دامَ طيبُ

يَمُجُّ سُلَافًا فِي إِنَاءِ كَأَنَّهُ
فَلَمْ نَأَلْ أَنْ دَارَتْ بِنَا الْأَرْضَ دَوْرَةَ
إِلَى أَنْ تَوَلَّى الْيَوْمُ إِلَّا أَقْلَهُ
فَرُحْنَا نَجْرَ الذَّيْلِ تَيْهًا لِمَنْزَلِ
مَسَارِحٍ^(١) سِكِّيرٍ وَمَرْبِضٍ^(٢) فَاتِكَ
فَلَمَّا رَأَانَا صَاحِبَ الدَّارِ أَشْرَقَتْ
وَقَالَ: انزِلُوا يَا بَارِكَ اللَّهُ فِيكُمْ
فَمَا زَالَ حَتَّى اسْتَلَّ مِنْهُ سَبِيكَةٌ
فِيَا حُسْنَ ذَاكَ الْيَوْمِ لَوْ كَانَ بَاقِيًا

لا جرمَ أن هذه هي الفصاحة، التي تأخذ بمجامع اللبِّ وتفكِّ أغلال القلب، والتي من أجلها قال مصطفى صادق الرافعي: إنَّ شعر محمود سامي، هو الذي بعث الشعر في الناس وأنجب لمصر مثل حافظ وشوقي.

فأما ما عارض به شوقي محمود سامي من وصف الحمام، فهو يشير إلى رائيّة محمود سامي التي عارض بها أبو نؤاس، عندما مدح الخصيب، أمير مصر، قال أبو نؤاس:

وميسورُ ما يُرجى لديك عَسِيرُ

أجارة بيتينا أبوك غيور

فقال محمود سامي:

وكلّ مشوقٍ بالحنين جديرُ

أبى الشوقُ إلا أن يحنَّ ضميرُ

ينمُّ عليها مدمعٌ وزفيرُ؟

وهل يستطيع المرء كتمانَ لوعةٍ

أبيتُ فلم يحكم عليَّ أميرُ

خضعتُ لأحكام الهوى ولطالما

وأرهبُ لحظَ الرِّيمِ وهو غريرُ^(٥)

أقلُّ سبابةً^(٣) الليثِ وهو مُناجِرُ^(٤)

(١) المسارح: هنا، مُطلق المكان.

(٢) المرْبِض: المأوى.

(٣) سبابة كلّ شيء: حدّه؛ فلّ شبابه: قهره وغلبه.

(٤) مُناجِر: اسم فاعل من المُناجزة، أي المقاتلة.

(٥) غرير: هنا، الهادئ الوديع.

وَيَجْزَعُ^(١) قَلْبِي لِلصُّدُودِ وَإِنِّي
وَمَا كُلُّ مَنْ خَافَ الْعَيْونَ يِرَاعَةً^(٢)
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

لَدَى الْبَأْسِ إِنْ طَاشَ^٥ الْكَمِي^٣ صَبُورٌ
وَلَا كُلُّ مَنْ خَاضَ الْحُتُوفَ جَسُورٌ
تَكَادُ لَهَا شُمُّ الْجِبَالِ تَمُورٌ^(٤)

وَيَا رَبَّ حَيٌّ قَدْ صَبَحْتُ بَغَارَةَ

وقد كان أبو نؤاس خرج من بغداد، قاصداً مصر ليمدح أبا نصر الخصب ابن عبد الحميد، صاحب ديوان الخراج بها، فأنشده القصيدة، وذكر المنازل التي مرّ عليها في طريقه، وهي من أركى ما أثمر الشعر العربي، ومن مشهور أبياتها:

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْتِهَا خَفَّ مَحْمَلِي
أَمَا دُونَ مِصْرَ لِلغِنَى مُتَطَلَّبٌ
فَقُلْتُ لَهَا وَاسْتَعْجَلَتْهَا بَوَادِرُ
ذَرِينِي أَكْثَرُ حَاسِدِيكَ بِرَحْلَةٍ
إِذَا لَمْ تَزُرْ أَرْضَ الْخَصِيبِ رِكَابُنَا
فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلٌّ دُونَهُ
فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الثَّنَاءِ بِمَالِهِ
وَمَنْهَا:

عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغِنَى لَكَثِيرُ
جَرَتْ فَجَرَى مِنْ جَرِيهِنَّ غَدِيرُ
إِلَى بَلَدَةٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ
فَأَيُّ فَتَى بَعْدَ الْخَصِيبِ تَزُورُ
وَلَكِنْ يَصِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَصِيرُ
وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّائِرَاتِ تَدُورُ

فَمَنْ كَانَ أَمْسَى جَاهِلًا بِمَقَالَتِي
وَمَا زِلْتَ تُؤَلِيهِ النَّصِيحَةَ يَافِعًا
إِذَا غَالَهُ أَمْرٌ فَايَّمَا كَفَيْتَهُ

فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَبِيرُ
إِلَى أَنْ بَدَا فِي الْعَارِضِينَ قَتِيرُ^(٦)
وَإِمَّا عَلَيْهِ بِالْكَفَى تُشِيرُ

(١) الجزع: نقيض الصبر.

(٢) طاش: ضَعَفَ وَجِبْنَ وَفَرًّا؛ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا فِي الْأَصْلِ.

(٣) الكمي: الشجاع المتكمي في سلاحه، أَي الْمُنْفِطِي بِهِ.

(٤) اليراعة: الجبان.

(٥) تمور: تضطرب وترتجف.

(٦) القتير: الشيب.

ثمَّ يقول:

وفي السَّلم يزهو منبرٌ وسريرٌ
ومن دون عوراتِ النساءِ غيورٌ
وأنتَ لَمَّا أملتُ منكَ جديرٌ
وإلا فإتني عاذِرٌ وشكورٌ

زها بالخصيبِ السيفُ والرمحُ في الوغى
جواد إذا الأيدي قُبِضْنَ عن الندى
فإتني جديرٌ إن بلغتكَ للغنى
فإن تولني منكَ الجميلَ فأهلُهُ

ويقال أن أبا نواسٍ لَمَّا عاد إلى بغداد، مدَّح الخليفة، فقال له: وأي شيء تقول فينا، وقد قلت في بعض نوابنا:

فأي فتى بعد الخصيب تزورُ

إذا لم تزُرْ أرضَ الخصيبِ ركابنا

أطرقَ قليلاً، ثمَّ رفع رأسه وأنشد:

فأنتَ كما تُثني وفوقَ الذي تُثني

إذا نحنُ أثنينا عليكَ بصالحٍ

لغيرك إنساناً فأنتَ الذي نعني

وإن جرتِ الألفاظُ متاً بمدحةٍ

هكذا روى ابن خلكان، في وفيات الأعيان. وقد روى ابن خلكان أيضاً، معارضة قصيدة النواسية، لأبي عمرو بن محمد بن دراج القساطلي الأندلسي^(١)، كاتب المنصور عامر وشاعره، وهذه المعارضة هي من غرر الشعر ومن أبدع أمثلة الأدب، قال ابن دراج:

وأنَّ بيوتَ العاجزينَ قُبورُ

ألمْ تعلمي أنَّ الثواءَ هو التَّوى

لتقبيلِ كَفِّ العامريِّ سفيرُ

تُخوِّفني طولَ السِّفارِ وأنه

إلى حيثُ ماءُ المكرُماتِ نَميرُ

دعيني أَرِدْ ماءَ المفاوِزِ^(٢) آجِنًا^(٣)

لراكبها إنَّ الجزاءَ خطيرُ

فإنَّ خطيراتِ المهالكِ صُمنُّ

منها في وصف وداعه لزوجته وولده الصغير:

بصبري منها أنةٌ وزفيرُ

ولمَّا تدانَتُ للوداعِ وقد هفا

وفي المهد مَبغومُ النداءِ صغيرُ

تُناشِدُنِي عهدَ المودَّةِ والهوى

(١) أبو عمرو بن محمد بن دراج القساطلي، (٩٥٨ - ١٠٣٠).

(٢) ماء المفاوز: مفردها المفازة، أي الفلاة لا ماء فيها (فإن وجد فهو آسن وخيم).

(٣) الآجن: الماء تغيَّر لونه وطعمه.

عَيْيُّ بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ وَلِحِظُهُ
 تَبَوُّاً مَمْنُوعِ الْقُلُوبِ وَمُهَّدَتُ
 فَكَلُّ مَفْدَاةِ التَّرَائِبِ مُرْضِعُ
 عَصِيَّتُ شَفِيعِ النَّفْسِ فِيهِ وَقَادِنِي
 وَطَارَ جَنَاحُ الْبَيْنِ وَهَفَّتْ بِهَا
 لَيْنٌ وَدَعَتْ مَنِّي غَيُورًا فَإِنِّي
 وَلَوْ شَاهَدْتَنِي وَالْهَوَاجِرُ تَلْتَطِي
 أَسْلَطُ حَرَ الْهَاجِرَاتِ إِذَا سَطَا
 وَاسْتَنَشَقُ النُّكْبَاءُ وَهِيَ لَوَاقِحُ
 وَلِلْمَوْتِ فِي عَيْنِ الْجَبَانِ تَلُونُ
 لَبَانَ لَهَا أَنِي مِنَ الْبَيْنِ جَازِعُ
 أَمِيرُ عَلَى غُولِ التَّنَائِفِ^(١) مَالُهُ
 وَلَوْ بَصُرْتَ بِي وَالسُّرَى جُلُّ عَزْمَتِي
 وَأَعْتَسِفُ الْمَوْمَاةِ^(٢) فِي غَسَقِ الدُّجَى
 وَقَدْ حَوَمَّتْ زُهْرُ النُّجُومِ كَأَنَّهَا
 وَقَدْ حَيَّلَتْ طُرُقَ الْمَجْرَةِ أَنَّهَا
 وَثَاقِبُ عَزْمِي وَالظَّلَامُ مُرَوِّعُ
 إِذَا أَيْقَنْتَ أَنَّ الْمَنَى طَوْعَ هِمَّتِي

وأحسن ما في القصيدة قوله في علو الهمة:

دعيني أرد ماء المفاوز آجنا
 فإنَّ خطيرات المهالك ضمنَّ

بموقع أهواء النفوس خبيرُ
 له أذرعٌ محفوفةٌ ونحورُ
 وكلُّ مُحَيَّاةِ المحاسنِ ظيرُ^(١)
 رَوَاحٌ لَتَدَابِ السُّرَى وَبُكُورُ
 جَوَانِحُ مِنْ دُغْرِ الْفِرَاقِ تَطِيرُ
 عَلَى عَزْمَتِي مِنْ سَجْوِهَا لَغَيُورُ
 عَلِيٌّ وَرُقْرَاقُ السَّرَابِ يَمُورُ
 عَلَى حُرِّ وَجْهِي وَالْأَصِيلُ هَجِيرُ
 وَاسْتَوَطِي الرَّمْضَاءَ وَهِيَ تَفُورُ
 وَلِلدُّغْرِ فِي سَمْعِ الْجَرِيءِ صَفِيرُ
 وَأَنِي عَلَى مَضِّ الْخُطُوبِ صَبُورُ
 إِذَا رِيَعَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّ وَزَيْرُ
 وَجَرَسِي لَجِنَانَ الْفَلَاةِ سَمِيرُ
 وَلِلْأَسْدِ فِي غَيْلِ الْغِيَاضِ زَيْرُ
 كَوَاكِبُ فِي خُضْرِ الْحَدَائِقِ حُورُ
 عَلَى مَفْرَقِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ قَتِيرُ
 وَقَدْ غَضَّ أَجْفَانَ النُّجُومِ فُتُورُ
 وَأَنِي بَعَطْفِ الْعَامِرِيَّ جَدِيرُ

إلى حيث ماء المكرّمات نَمِيرُ
 لراكبها أنَّ الجزاءَ خطيرُ

(١) ظيرٌ أو ظيرٌ: أي مُرْضِع، استبدل الهمزة من الياء، وهو جائز.

(٢) التنايف: مفردتها التَّنَف، وهي الأرض الموحشة لا ماء فيها ولا أنيس.

(٣) الموماة: المفاوز من الأرض.

وقوله في وصف الطفل، وقد فارقه أبوه وهو في سريرهِ، وكلنا عرف لوعة هذا الفراق:

عَيْيٌّ بِمَرْجُوعِ الْخَطَابِ وَلَحْظُهُ
-بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبِيرٌ

ومما استولى فيه على الأمد، وصفهُ مشاقَّ السفر، وقطع الفيافي في حرِّ الهواجِر، وذلك

عند قوله:

ولو شاهدتني والهواجِرُ تَلْتَظِي
عليَّ ورُقراقُ السَّرابِ يَمُورُ

فقصيدة ابن درّاج القساطلي تصحّ أن تكون ضُرّة لقصيدة أبي نّواس، وإن كان في شعر ابن درّاج شيء من الصنعة، وكان شعر أبي نّواس أقرب إلى الطبيعة، وكلّ منهما في نظري ليست أبرع ولا آنق ولا ألب بالآلباب، من قصيدة البارودي، التي فيها من النسيب واللّهو والشراب ووصف الحمام إلى الفخر إلى الحماسة، ما ليس وراءه لمتطلّع.

ولمحمود سامي، جولة أخرى في وصف الحمام في القصيدة، التي بعث بها إليّ من سيلان،

إذ فيها يقول:

وترنّمت فوق الأراكِ حمامةٌ
تدعو الهديلَ وما رأته وتلك من
ريّا المسالكِ حيث أمت صادقتُ
فإذا علّت سكنت مظلة أيكّة
أملت عليّ قصيدة فجعلتها
تصيفُ الهوى بلسان صبّ مؤلّع
شيمِ الحمامِ بدعة لم تُسمع
ما تشتهي من مجثمٍ أو مرتعٍ
وإذا هوت وردت قرارة منبّع
لشكيب تحفة صادقٍ لم يدّع

فأنت ترى، إذا أنعمت النظر في أبيات محمود سامي التي يصف بها الحمام، ثم كررت

بنظرك على أبيات شوقي من عند قوله:

وأسعدت مشرفات من مكانها
حمر المناقير في لباتها ذهبُ

أن شوقي، أراد أن يعارض شيخ الشعراء في وقته، وأن كلاهما قد بلغ شأواً الإجابة ضمن

دائرة ديباجته.

وهذه القصيدة البائية لشوقي، هي من عيون قصائده، وهي التي فيها يقول:

والصدقُ أرفعُ ما اهتزّ الملوكُ له
وإنما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتُ
وخيرُ ما عودَ ابناً في الحياة أبُ
فإن همّو ذهبُ أخلاقهم ذهبوا

أليس هذا هو البيت الذي سار مسير القمر، وصار حديث السمر، وأصبح مثلاً مضروباً يُستشهد به كل يوم، ويدور على ألسن العوام، فضلاً عن الخواص. فلو لم يكن لشوقي غيره لأخلده. ومن أرق أغزال شوقي:

وأهدى لأقمار المنازل مقلتي
فما أوقعني فيه حتى استسرت
ومن لي في سكنى السماء بحلتي
أروح لإتلافي وأغدو لفنتي
طروق ابن آوى من حذار ورقبة
تخاف أباهاً فأتها بعد هجمة
ويسمع عنها نسوة في المدينة
تعالى ضميري أن يهم بريبة
ودين يرى الفحشاء سر ذريعة
محباً ولا صلى على غير عزة

لي الله ما أغرى الغرام بمهجتي
بدور أناني من مطالعها الهوى
فبت يريني الوهم في الجو سلماً
خليلي ما لي بالديار موكلاً
طرقت فتاة الغرب والليل مقبل
فقلت عجوز يا أخا الشوق إنها
سيسأل عنها الساهرون على الحمى
فقلت هبها مريمًا أنا يوسف
أبت لي الدنيا عزة عربية
فلا رحم الرحمن بعد كثير

وأيضاً:

ويفتك فيها مسرفاً وهي جنده
وتنهل منه النفس لوراق ورده
بماض خفيف ينزع اللب حده
فكل فؤاد في البرية غمده
بأشقى من الأكباد فيهن قده
ولا تقتلوه إنني أنا عبده
قبول متابي قبل ذنب أعدده
فإن شفيع الواجد الصب وجدده
فما بال قلبي عنده لا يرده

يود من الأرواح ما لا توده
نمير تواليه المحاسن وردا
مروع بالمام النسيم مروع
إذا استله في أنسه أو نضاره
وإن هز أعطافاً فما مركز القنا
خذوه بنفسي إنه هو قاتلي
ولا تسألوه ما ذنوبي واسألوا
ولا تذكروني عنده بشفاعه
فإن يك فيما يزعم الناس قد سلا

ولم تَدْرِ تَقْلِيْبَ الْمُضَاجِعِ كِبْدُهُ
وَأَيْنَ أَخُو الْوُدِّ الَّذِي دَامَ وُدُّهُ؟

لِحَانِي^(١) الَّذِي لَمْ يَعْرِفِ الشُّهْدَ جَفْنُهُ
وَقَاطَعَنِي مَنْ كُنْتُ أَرْجُو وَفَاءُهُ

- دَفْعُ اعْتِرَاضٍ -

ربّما يعترض بعض القراء على سردي هذه الأمثال من شعر شوقي، من دون أن أعلّق عليها ما يعنّ لي فيها، وما أجد من محلّ اعتراض أو من مكان إعجاب. والجواب، إنّي لو شئت أن أردف كلّ بيت بما يبدو لي فيه، لاستغرق ذلك أجلاً. والحال، أننا من البدء ما قصّنا شرح شعر شوقي، ولا التعليق عليه بما يبدو لنا في كلّ بيت منه، وإنّما هي رسالة توخّينا فيها تجديد ذكرى شاعر كبير وتسجيل علاقاتنا مع أخٍ قديم، إنجازاً لوعده قطعناه على نفسنا يوم فجعنا به، والأخاء أخاء في الحياة وبعد الممات، وعلى اللاحق أن يحفظ عن السابق. وأراني قد أشفقت على عهد شوقي أن يُنسى، تخيلت روحه من وراء الغيب تنشدني:

وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلخَيْلِ خَلِيلٌ

سُيَعْرَضُ عَن ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي

فَإِنَّ بَكَاءَ الْبَاكِيَاتِ قَلِيلٌ

إِذَا مَا انْقَضَتْ عَنِّي مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةٌ

ولمّا كانت ذكرى شاعر كبير، لا بدّ من أن تُسدى وتُلحَم بالشعر، فقد أوردنا ما أوردناه من الشواهد، لا على سبيل شرح ولا على نيّة تفسير، ولكن إن خطرت في بالنا جملة أرسلناها عفواً، أو عدّت ملاحظة يروق الأدباء قيدها لم نُجمجم بها. وستتبع هذه الطريقة إلى الآخر.

- رَأْيِي لِلْمَوْئَلَفِ -

فأمّا أسلوب التحليل، الذي درج عليه بعض أدباء هذه الحقبة الأخيرة من هذا العصر، يذهبون فيه مذاهب الإفرنج، لا في المعنى فقط، بل باللفظ تقريباً، ويورد الواحد منهم البيت، فيأخذ بتشريحه من وجهه ومن قفاه ومن أسفله ومن أعلاه، ويشير إلى ما هنا من عاطفة جريئة وما هناك من ابتسامة بريئة، ويستعمل في الوصف تلك الألفاظ الأوروبية التي ليس فيها من العربي إلاّ الحروف، بحيث أنّ كثيراً من العرب لا يفهمون منهما قليلاً ولا كثيراً؛

(١) لحاني: هنا بمعنى لامّتي.

فلسنا من هذا الأمر في قبيل^(١) ولا دبير^(٢). وإنما لا نحب أن نخلط العربي بالأعجمي، ولا أن نخاطب العرب إلا بما يعقلون ويشعرون، وما تسيغه أذواقهم؛ فإن لكل أمة أدباً، ولكل قوم مشرباً، وإن الخلط بين شعبان ورمضان إظهاراً لسعة العلم وتزيّداً بما ليس من مقتضى الواقع، ليس بطريقتنا، وإنما نُؤثر على ذلك أن نكتب مثل هذه الفصول التحليلية بلغة أوروبية رأساً، كما يفعل المستشرقون الأوروبيون إذا أخذوا كتاباً عربياً، فشرعوا في تحليله. نعم، نُؤثر الكتابة بلغة أوروبية في هذا الموضوع، على أن نباشر هذا التحليل بجمل أوروبية في حروف عربية، يمشی فيها القارئ مرحلة، وكأنه واقف مكانه لعدم ألفته بهذه الألفاظ المترجمة وبهذه الأعلام التي هي غريبة عن قومه.

فالذي يحمل نفسه على قراءة هذه التحليلات التي نحاول أن نجري فيها مجرى كتاب الأوروبيين، تراه أبداً يشرب ولا يرتوي. ومن الناس من يظنّ عدم عقله لها، ناشئاً عن مجرد جهله؛ والحقيقة ليست كذلك، بل إنها من باب وضع الشيء في غير محله. لا بأس في الأحيان في أن يورد الكاتب في تحليله لبيت لشاعر عربي، معنى قد توارد عليه مع شاعر أجنبي، أو ملاحظة ظهر فيها شيء من الموافقات أو المفارقات بين أدبنا وأدبهم. فأما اتخاذ هذا الأسلوب دأباً وديدناً^(٣)، كلما أردنا أن نصف بيتاً لطرفة بن العبد، أو قصيدة للأعشى، لزمنا أن نفحم فيها فيكتور هوغو وألفرد ديموسيه^(٤) ولا مارتين^(٥) وغوته وشكسبير، وأن نكثر على قراء العرب من سرد أعلام لا يعلمون عنها شيئاً تقريباً، فهذا تنطع بالفارغ وتحذلق غير سائغ. والأولى بنا أن نراعي قبل كل شيء الذوق العربي، وأن نستشهد بأدباء العرب، ونعلم أنه كما كان العربي يعاف طعام الأمم الأجنبية وشرابهم، فإنه لا يتسوّغ بالسهولة أشعارهم وآدابهم، وليس الشعر والأدب ميكانيكيّات ومواد، يستوي فيها العربي والعجمي. وقد فات الناس أن الشعر هو شيء، والعلم شيء آخر، فلو فكروا ملياً في هذا الأمر لأراحوا أنفسهم ممّا يعانونه هم، ويعانيه قراؤهم معهم.

(١) القبيل: الطاعة.

(٢) الدبير: المغصية.

(٣) الديدّن: لفظ دخيل على العربية من الفارسية. ويريد بها هنا: النهج والطريقة.

(٤) ألفرد دو موسيه، (١٨١٠ - ١٨٥٧). أديب وشاعر رومنطقي فرنسي، تغنّى بالألم، له "الليالي".

(٥) ألفونس دو لامارتين، (١٧٩٠ - ١٨٦٩). من مشاهير الشعراء الفرنسيين، وزعيم الحركة الرومنطيقية، له "التأملات" و"رحلة إلى الشرق".

- عودٌ إلى غرر شوقي -

ومن غزل شوقي، عفا الله عنه:

عرضوا الأمان على الخواطرِ
فوقفتُ أحذرهم ويا
يا قلب شأنك والهوى
إنَّ التي صادتك تر
يا ثغرها أنا فيك كال
يا لحظها من أمُّها
يا خصرها لي منك في
يا ردفها بالله كُنْ
يا شعرها لا تسع في
يا قدَّها حَتَّام تغدو
مولاي عبدك ما غوى^(٣)
عفوا فليست بأولِ

واستعرضوا السُّمْرَ^(١) الخواطرِ^(٢)
بى القلب إلا أن يُخاطرُ
هذي الغصونُ وأنت طائرُ
عى بالقلوب لها النَّواظرُ
غواصٍ أحلمُ بالجواهرُ
أم من أبوها في الجاذرُ
ليلِ الهوى وهم مسامرُ
بعريضِ جاهك لي مُؤازرُ
هتكي فشانُ الليلِ سائرُ
عادلاً وتروحُ جائرُ
لكنها خطراتُ شاعرُ
في ذا المقامِ ولا بأخِرُ

ومن مرقص أشعار شوقي، قصيدة في الخديوي، منها:

نفدي المسافر والسفرُ
وركابها لَمَّا مشى
ومسيرهم بين السلا
وقدومهم اسكندريّ
وظلوعهم والصبح في
قُلْ للعباد هو الهلا
والأقربين من النَّفَرُ
وقطارهم لَمَّا صَفَرُ
مة والكرامة والظَّفَرُ
ة والإياب المُنْتَظَرُ
ها بالحُجُولِ وبالغُرُرُ
ل وللبلاد هو المطرُ

(١) السُّمْر: الرماح.

(٢) الخواطر: المَهْتَزَات. يقال: خطر الرمح إذا اهتز، وهي هنا كناية عن القدود.

(٣) قوله: «مولاي عبدك ما غوى» إشارة إلى قوله تعالى: «والشعراء يتبعهم الغاؤون»، وهي الآية ٢٢٤ من سورة الشعراء.

في ذمّة الآيات رح
ملكُ أبوه محمّد
من في السّراة سواك تج
وتحلّه في ثغرها
ولقد أقول إذا بلغ
يا روض هل لك في الشّذا

ومن قصائده فيه:

بصوتك حاججنا الممالك والعصرا

ومنها:

سندعو بني الدنيا إلى النّيل دعوة
وملكاً كما تهوى الأحاديث عاليًا
فتمرح في أيامه النفسُ حرّة

لته وفي حفظ السّور
لا غرو أن يقفو الأثر
لوه المنازل كالقمر
يومًا. ويومًا في البصر
تُ بلّثم راحتك الوطر
يا بحر هل لك في الدّرر

وقلنا فباتت مصر في مجدها مصرا

تلون منها الجاة والنائل الغمرا
كأنّ الخديوي فيه قيصر أو كسرى
تناولها قشبا وتلبسها خضرا

- استطراد ورأي في المديح -

ولقائل أن يقول: ما هذه إلا أمداح فارغة، ومنازع قديمة، أشبه بمنازع الشعراء الذين كانوا ينتجعون الملوك طمعًا في الجائزة. وقد كان الأليق أن يضع براعته حيث يضع الناس عقيدتهم، لا حيث يرجو هو منزلة سامية ونعمة هامية، فإنّ هذه محاولات شخصية لا تفيد وطنًا ولا تؤيد قومًا إلى غير ذلك، ثمّ طالما أخذوه على شوقي وعلى غيره من شعراء الملوك، ولقد قدّمنا في هذا الباب ما فيه مقنع، وهو أنّ شعراءنا لم يفارقوا الطريقة القديمة، التي معناها أنّ الشاعر يجود على الملك بنفائس أدبه، ليجود عليه الملك بنفائس نسبه أو ليحلّه محلّ القرب والتقديم، ويبلغ به آمالاً ويرفه حالاً. وسواء كانت هذه الطريقة قديمة أو حديثة، فالشاعر في هذا الموطن لا يفترق عن غيره من البشر، الذين كلّّ منهم يرتاد لمعيشته وينتجع لسدّ مفقره؛ وما زالت أعمال الناس أجمع، شبّاكًا تُلقى في بحر الوجود، ليصطاد بها الإنسان ما يسقم له حظّه، وإنّ القول هو من جملة الشّبّاك التي تُنال بها الحظوظ. وقد قال أبو بكر الخوارزمي: «لا صيد أعظم من إنسان، ولا شبكة أصيد من لسان، وشتان بين من اقتنص وحشيًا بحبالته وبين من اقتنص إنسيًا بمقالته».

ولعمري لا غضاضة على من حول مثل هذا الاقتناص، إذا لم يشب ذلك بالسعاية^(١) والوشاية والإضرار بالناس، وجعل الباطل حقاً والحق باطلاً، فما نهى الله الإنسان عن الكدح لأجل معيشته، ولكنه نهى عن إتيانه هذا الباب عن طريق الباطل، وبالوسائل غير المشروعة. وأيضاً فإن الشاعر لا يزال موضعاً يشحذ فيه غرار قريحته، ومجالاً يُركض فيه جواد ملكته، فلا يجد لذلك خيراً من خطاب الملوك، الذين إن لم يستحق الواحد منهم كل هذه المدائح بمحاسن خلاله وجلائل أعماله، فقد استحقها بالمقام الذي يشغله على رأس الأمة، فتعظيم الملك هو تعظيم الأمة التي هو ملك عليها، وتعزير المقام إنما يكون بتعزير المقيم. ولقد ذكرنا فيما تقدم أن استيلاء الأجنبي على أكثر بلاد الإسلام، واستئثارهم بالأمر والنهي، والقطع والوصل؛ وتركهم ملوك المسلمين عبارة عن أشباح ماثلة، حمل كثيراً من مفكري الإسلام، إشفاقاً على ملكهم وضناً بدولهم، أن يتقربوا من ملوكهم وأمرائهم، الذين يرون فيهم رمز السلطان القديم وبقية الاستقلال السابق، وأن يشيدوا بذكرهم ويهتفوا بمبايعتهم في وجه الأجنبي، وأنهم لما فاتهم الفعل، فزعوا إلى القول، يذكرون به أقوامهم، وكأنهم يقولون لهم إن هذا هو سلطانكم الشرعي الذي يجب أن تجتمعوا حوله وتستردوا به الحقوق المغصوبة، وإن الحق حق، لا يذهب باعتداء الأجنبي بما لا يطرأ من الغير، فهم يحاولون إحياء فكرة الاستقلال في صدور الأمة وتلقينها، أن ما هي عليه من الخنوع للأجنبي، إنما هي حالة مؤقتة، وأن الأمر لا بد أن يعود إلى نصابه. وبالجملة، فهذا ضرب من ضروب الدفاع عن الوطن، ولون من ألوان الاحتجاج على احتلال الغريب للبلاد.

(١) السعاية: النسيمة.

من معارضات شوقي

ولشوقي قصيدة في الخديوي يعارض فيها قصيدة البحرى الرائية في المتوكل علي الله العباسي. قال شوقي:

أشكو هواك لمن يلوم فيعذرُ
وأبيتُ أجنب الرقيب وأتقي
وأصون ذكر هواك عن هذا الورى
وأردد الزفرات فيك وأشتكي
الله في صبّ قضى إنسانه^(١)
وجوانح بليت وما بلي الأسى
وأجادل العذال فيك وأكثرُ
وأخافُ ألسنة الوشاة وأحذرُ
وأجلُّ سرّك أن يُذاع وأكبرُ
وأعلل القلب الشقي وأصبرُ
سهرًا عليك ومن بحبك يسهرُ
وحشى تموج به الضلوع وتظهرُ

فشوقي عندما كان يقول هذه القصيدة الرائية، كان كأنه ينظر إلى قول أبي عبادة^(٢):

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهرُ
وأراك خنت على النوى من لم يخن
وطلبت منك مودة لم أعطها
هل دين علوة يُستطاع فيقتضى
وألام في كمد عليك وأعذرُ
عهد الهوى وهجرت من لا يهجرُ
إن المعنى طالب لا يظفرُ
أو ظلم علوة^(٣) يستفيق فيقصرُ

ثمّ تخلّص شوقي من النسب إلى المديح اقتضاباً على طريقة البحرى، فإنه بينما كان ينسب ويقول: وحشى تموج به الضلوع ويظهر. إذا به خاطب الممدوح، فقال:

هجر الكرام إليك يا ابن محمّد
تهتز من كرم وترتجل الندى
وتعيد عهد الجود بالنعم التي
ورحابك الدنيا التي لا تهجرُ
وتنيل من فوق الظنون وتغمرُ
يحيا الزمان ببعضها والأعصرُ

(١) إنسانه: يريد إنسان العين، وهو ما يرى في سوادها، أو هو سوادها.

(٢) أبو عبادة: البحرى.

(٣) علوة: فتاة حليبة كان البحرى يتغزل بها.

ثمَّ يقول:

وكذا الأصيل إذا سما لخليقة
لولا دماء في العروق كريمة

شرعت مناسبة وسن العنصر
ما عف كسرى أو تواضع قيصر

ثمَّ يقول:

وأعدت للنيل العلوم وعهدا
ما جلَّ عيب أو تناهت سواة
وإذا الفتى لم يحله عرفانه
أيدت أعلام الإمارة بعد ما

والعلم تاج للبلاد ومظهر
إلا وعيب أخي الجهالة أكبر
فالحسن أول شائن والمنظر
طوت الخطوب وأقسمت لا تنشر

وكذلك البحري بينما يقول:

إنني وإن جانفتُ بعضَ بطائتي
ليُسوقني سحر العيون المُجتلي

وتوهم الواشون أنني مُقصر
ويروقني ورد الخدود الأحمر

إذا به انتقل إلى المديح اقتضاباً، فقال:

الله مكن للخليفة جعفر
نعمى من الله اصطفاه بفضلها
فأسلم أمير المؤمنين ولا تزل
عمت فواضلك البرية فالتقى

ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
والله يرزق من يشاء ويقدر
تُعطي الزيادة في البقاء وتُشكر
فيها المُقل على الغنى والمُكثر

وكان شوقي يهنئ الخديوي بعيد مولده، فقال:

شرقاً جمادى نلت بالعباس ما
أو كلما جدت للدنيا سنا
في المهد يرعاه الرجاء ويرتجى
وتطول أعناق السراة بربها
يوم هو الأعياد إلا أنه

لا ترتجيه من البدور الأشهر
ذكرت ولاد السعد فيما تذكر
وتعد آمال البلاد وتذخر
طوراً ويدركها الخشوع فتقصر
حسب الزمان به يتيه ويفخر

والبحتري كان يهتئ المتوكل بعيد الفطر، فهو يقول:

بالبرِّ صُمْتَ وأنتَ أفضلُ صائمٍ
وبسُنَّةِ الله الرَضِيَّةِ تُفْطِرُ
فأنعمَ بيومِ الفِطْرِ عَيْنًا إِنَّه
يومٌ أغرُّ من الزمانِ مُشَهَّرُ

ووصف البحتري موكب الخليفة، وكان هذا من الأوصاف التي لا تزال تُعدّ من غرر الشعر، وتُخصى في مُتخَبات الشعراء، قال:

أظهرتَ عِزَّ المِلكِ فيه بجَحْفَلٍ
خِلنا الجِبالَ تَسيرُ فيه وقد غَدَت
فالخيلُ تَسهلُ والفوارسُ تَدَّعي
والأرضُ خاشعةٌ تَميدُ بِثِقَلِها
والشمسُ ماعةٌ^(٢) توقدُ بالصُّحى
حَتَّى طَلَعَتَ بضوءِ وجهك فأنجَلتَ
وافتنَّ فيك الناظرونُ فإصْبَعُ
يَجِدونَ رؤيتك التي فازوا بها
ذَكَروا بطلعتكِ النبيَّ فهلَّلوا
حَتَّى انتهيتَ إلى المُصلَّى لابسًا
ومَشيتَ مِشيَّةَ خاشعٍ متواضعٍ
فلو أنَّ مشتاقًا تكَلَّفَ غيرَ ما
أُيِّدتَ من فصلِ الخِطابِ بحكمةٍ
ووقفتَ في بُردِ النبيِّ مُذْكَرًا

لَجِبَ يُحاطُ الدينُ فيه ويُنصرُ
عدداً يسيرُ بها العديدُ الأكثرُ
والبيضُ تلمعُ والأسِنَّةُ تزهرُ^(١)
والجوُّ مُعتكِرُ الجوانبِ أغبرُ
طورًا ويُطفئها العجاجُ الأكدُرُ
تلك الدُّجى وإنجاب^(٣) ذاك العثيرُ^(٤)
يُومى إليكَ بها وعينٌ تنظرُ
من أنعمَ اللهُ التي لا تُكفَرُ
لَمَّا طلعتَ من الصفوفِ وكَبَروا
نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ
للهِ لا يُزهى ولا يتكَبَّرُ
في وَسعِهِ لَسَعى إليكَ المنبرُ
تُنبى عن الحقِّ الميِّينِ وتُخبرُ
باللهِ تُنذِرُ تارةً وتُبشِّرُ

(١) تزهر: تتلألأ.

(٢) ماعة: مرتفعة.

(٣) إنجاب: إنكشف.

(٤) العثير: الغبار.

ومواعظُ سَفَتِ الصُّدُورَ من الذي
صَلُّوا وِراءَكَ آخِذِينَ بِعِصْمَةٍ
فاسلم بمغفرة الإله فلم يزل
يعتادها وشفاؤها مُتَعَدِّرُ
من ربهم وبذمة لا تُخْفَرُ
يَهَبُ الذنوبَ لِمَن يِشاءُ وَيَغْفِرُ

فعارض شوقي أبا عبادة البحرى في وصف الموكب، فقال:

باكرت دار الملك فيه بموكبِ
راعتُ روائعُه النهارَ جلاله
كُسيَ الخميسُ^(١) به جمالك رونقا
فالأرضُ مائجةُ المذاهبِ بالقنا
والخيلُ تعجبُ بالكُماةِ وتثنى
ومن السلامة في ركابك هاتفُ
قامَ السُّراةُ به وحفَّ العسكرُ
فالشمسُ تجفلُ والصُّحى تستأخرُ
وأعيرُ غُرَّتكَ اللِّواءُ الأحمرُ
والأفقُ حالُ بالسيفِ مجوهرُ
وتُشيرُ تيهًا بالوجوهِ وتُحْطِرُ
ومن الدُّعاءِ مُهَلَّلُ ومُكَبَّرُ

مَنْ قرأ القصيدتين البحرية والشوقية، لم يتردد في أن يقول إنَّ القديم طَبَع والجديد تَطَبَّع، وإنَّ الأول توليد وإنَّ الآخر تقليد. ولكن لو تأمل المتأمل وكان بصيرا بشعر الجاهلية والمخضرمين والمولدين، لعلم أن البحرى والمنتبى وأبا تمام، وأولئك الفحول لم ينطبعوا إلا على غُررٍ من تقدّمهم. فإنَّ القراءة تستقرّ في الذهن، وإنَّ القوالب ترسخ في الطبع، فتتهف بمثلها سليقة الشاعر، وقد يكون لا يتذكّرها، ولا يتعمّد محاكاتها، ولا يحسب أنها من محفوظه، فيظنّ من لا بصيرة له، أن هذا الشاعر قد سرق من ذلك الشاعر الذي تقدّمه. وهو في هذا الحكم ظالم متعسّف، أو جاهل لا يعرف، لأنه ليس كلّ من جاء في كلامه شيء متوارد مع كلام آخر، يجب أن نعدّه سارقا. وقد كنتُ أروي مرّة قصيدة محمود سامي، التي سبق إيرادنا منها، وهي التي يعارض فيهما رائية أبي نّواس في الخصيب، وذلك أمام رجل من الأدباء، رُواة الشعر الجيّد؛ فلما وصلتُ إلى قول محمود سامي:

ولي شيمة تَأبى الدّنايا وعزّمة
مُعوّدة أن لا تكفّ عِنانها
تَفَلَّ سِباةَ الخطبِ وهو عَسيرُ
عن الجِدِّ إلا أن تَتِمَّ أمورُ

(١) الخميس: الجيش (مطلقا).

قال لي ذلك الأديب: إنَّ هذا لمن قوله:

مُعوَدة أن لا تسَلِ نِصالها فُتْغَمَدَ حَتَّى يُسْتَباحَ قَتيلُ

فقلت له: إذا كنت تلتزم هذا المذهب، فلا يبقى شاعر إلا وهو سارق، ولا يلبث فوق
الغربال لا متنبّي ولا بحتري ولا غيرهما، فإنَّ هذه المشابهات قد وجدناها بين كلامهم،
وكلام الجاهليين والمتقدّمين في مواضع كثيرة. وماذا تقول في قول امرئ القيس؟

وقوفاً بها صحى عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجمّل

ثمَّ قول طرفة بن العبد:

وقوفاً بها صحى عليّ مطيهم يقولون لا تهلك أسي وتجلّد

فالبيتان بيت واحد لا يختلفان إلا في لفظتيّ (تجمّل) و(تجلّد)، وكلتاهما بمعنى واحد.
والحال، أنَّ الشاعرين كلّ منهما فحلٌّ، لا يحتاج أن يستعير من الآخر، وكلاهما بحرٌّ لا
تُنزِحهُ الدّلاء.

ولشوقي من جيّد الغزل أبيات تخلّص منها إلى مديح الخديوي، وهي هذه:

دَعْ عنك ما صاغ الوُشاة وزخرفوا واسمع لحسنك إنّه بي أعرفُ
أَيكون عندك في يدك وجوده ويكون للعُدّال فيه تصرّفُ
ماذا أقول وكيف وصفي مهجّةً فعلتُ بها عيناك ما لا يُوصفُ؟
يا مَنْ حوى رُوحِي وصنّ بنظرةٍ لا أنت ذو بُخلٍ ولا أنا مُسرفُ
ما بتُ فيك معادياً طيّبَ الكرى إلا وأنت على عدوّي أعطفُ
رَفعتُ لناظرك المحاسنُ دولةً القول فيها ما يقولُ المرهفُ^(١)
وحبّتك من بين الملاح بوجنةٍ كالنار لا تلوي على ما تُلفُ
أما عدولي في هواك فطاعني لم يلقَ ما ألقى فكيف يُعنفُ؟
أنا لا أميلُ إلى الملامة فهي من بدع الهوى ولكلّ شرع زخرفُ
حاشا المروءة منذ سنّ خلالها عباسُ حلّمي في الكرام ليقتفوا

(١) المرهف: السيف المرقق الحدّ.

ومن الغزل الذي تخلص به إلى المديح، قوله:

حُلِّوْا الوُعودِ متى وَفَاكُ
من كلِّ لفظٍ لو قَبِلْتَا
يَروي الحلاوةَ عن ثَنَا
رَخِصتْ به الدنيا فكيـ
ظُلْمًا أقول جَنَى الهوى
غَدَتَا مَنِيَّةً من رأيدِ
والنفس تَهْلِكُ مرَّةً
مَنْ عَلَّمَ الأَجفانِ في
وتَصَيَّدَ الآسَادِ بالـ
يا قاسيَ القلبِ اتُّذِ
ماذا انتفاعي فيك بالرُّ
نفسٌ قُضتْ في الحبِّ مَنْ
عباسٍ عِشْ لَلآلِ عِشْ
قابلتَ بالتاجِ الهِلا
ونَهَضتْ تبعثُ من ثَنَا

أُتْرَاكُ مُنْجِزَهَا تُتْرَاكُ
لأجله قَبِلْتَا فَاكُ
ياكُ كالعذابِ وعن لَمَّاكُ
فَا إذا أَنالْتَهُ يَدَاكُ
لم يَجُنْ إِلا مُقْلَتَاكُ
تَ ورحتْ مُنِيَّةً مَنْ رَاكُ
والنفس يشفيها الهلاكُ
أهدابها مَدَّ الشُّبَاكُ
أَجَامِ تَسْلِبُهَا الحَرَاكُ
وأَقِلَّ صَدَاكُ في جَفَاكُ
حَمَاءِ مِنْ بَاكُ وشَاكُ
أولى برحمتها سِوَاكُ
للملك عِشْ لِبنِي وَلاكُ
لَ وَجِزْتَ بِالعرشِ السُّمَّاكُ^(١)
ثُكُ لِلنجومِ ومن سَنَاكُ

ومن القصائد المرقصة، ما قاله في المرحوم الخديوي، مهنتًا له بعيد الأضحى:
لكَ مصر يجري تحت عرشك نيلها
ولك البلادُ عريضها وطويلها
ومنها:

يسموبك الآباء أو تسمو بهم
فمحمدٌ في الترك كان عليَّها
ولئن غدا للعرب بيتك كعبةً
في دولة علياء أنت سليلها
يعتزّ معشرها به وقبيلها
يُسعى لها فأبوك اسماعيلها

(١) السَّمَاكُ: تقول سَمَكَ اللهُ السُّمَّاكُ، أي «رفعها»؛ والسماكان: كوكبان.

نار الوغى فأبو أيبك خليلها
بين الممالك زاهراً بك جيلها
يزن الزمان كنوزها ويكيلها
ما زال مأموناً عليك سبيلها
نحو السهى بك وازدهى إكيلها
وابيض من صفو الموارد نيلها
يتلو ضحاها في الشروق أصيلها
تحليه من نعمى يديك سيولها
للبيت شوقاً والرجاء دليلها
فغدا يصفق زرعها ونخيلها
لسعت إليك حزونها وسهولها
لك من ظلال المكرمات ظليلها
تكبيرها متواصلاً تهليلها
ملك القلوب جمالها وجميلها
لي فيك ليس لشاعرٍ تبديلها
وأ في القوافي لم ينله فحولها
وضل ولا باع الشيوخ يطولها
لو كان يوجد في القريض مثلها
جرت على هام السماك ذيولها

وإذا تسابقت الفوارس تصطلي
مولاي مصرك لا تزال عزيزة
ألقت مفاتها إليك فأصبحت
دانت لأمرك في الأمور عظام
وتهيات لعلاك مملكة سما
واخضر من غرس المحامد ريقها
فالأرض مشرقة بنور عزيزها
والنيل منفجر العيون خلالها
سعت الوفود إلى رحابك سعيها
وكانما علمت بمقصدك القرى
حسدت أهاليها عليك فلو مشت
حتى إذا بلغت حماك أظللها
فرايتها مثلاً ببابك عاليًا
وتجلت الذات الموقفة التي
يا مكرم الشعراء كم من آية
ألبستني حلل القلوب فنلت شأ
واليكها عذراء لا يرجى لها
تهتز أعطاف الملوك لمثلها
أما وقد رفعت إليك فإنها

من تأمل في شعر شوقي في اقتباله، لا يجده نازلاً عن شعره بعد اكتهاله، بل تجد الشاعرية فيه أقوى وأظهر في مبدأ أمره وريعان شبابه، وتأمل في هذه القصيدة فهي من المرقص المطرب المؤنق المعجب، وما أنس لا أنس أني عندما قرأتها، ترنح لها عظمي طرباً، وقلت: قد نال شوقي شأ القوافي وبد الفحول. وقد مضى على هذه القصيدة أربع وأربعون سنة، وما برحت أتذكر

وقعها في نفسي، كأنَّ ذلك من حوادث أمس. ولا جرم^(١) أنَّ الذكرى التي لا تمضي عليها هذه المدة الطويلة ولا تزال غصّة طريئة، لا تكون إلا على أثر وقع عظيم في النفس.

وله مهنتًا الخديوي بالوسام العثماني المرصع:

لَمَنْ الباب عاليًا ومؤملاً يَمثلُ الدهر في ثراه المُقبِلُ

ومنها:

ولَمَنْ رايةٌ هنالك وافى ظلّها النصر ثمّ لم يتحوّل
يمنعُ الدّين أن يميلَ وتحمي رُكنهُ الشامخ الدُّرى أن يُزلزل

ومنها:

يا مليكي عباس صدرك صدرٌ في المعالي وذا المرصعُ أولُ
هو مثلُ السماء صفوا ورحبًا وهي ذي أنجم العلى تنزلُ
عرّف المالكون قدرك لكنّ ما رآه فيك الخليفةُ أفضلُ
فتهنأ علياءَ وافتك منه يذكرُ النجم من حباها فيحجلُ
ووسامًا مرصعًا ما رأينا قبله جوهرًا إلى البحر يُحملُ

وبمناسبة قوله: «جوهراً إلى البحر يُحمل»، تذكّرت بيتاً انتقدته على الشاعر الأديب الشيخ خليل اليازجي، فقد كان ينظم رواية اسمها «المروءة والوفاء»، وجعلها مقدمة لأخيه الأستاذ الكبير اللغوي الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي، ولكنّه استهلّ المقدمة بهذا البيت:

لَمّا رأيتك مثل بحرٍ زاخِرٍ ألقيتُ بين يديك بعضَ جواهرِي

وكنت أنا لذلك العهد في المدرسة، لم أتجاوز الرابعة عشرة من العمر، ولكنني كنت بدأت بالنظم، وكانت جرائد بيروت تنشر من شعري، وهذا مصدّق وهذا مكذّب، ومن الناس من يقول: لا يمكن أن ناشئاً في هذه السنّ الحديثة يفري هذا الفري، وما زالت الشبهة تعترض، حتى كثر النظم وتواترت الأدلّة، فزالت الريبة وانقلعت الشبهة، ولم يمضِ مدّة ثلاث سنوات، حتى كان لي ديوان اسمه «الباكورة»، جعلتهُ مقدمة للأستاذ الإمام الشيخ محمّد عبده، وكان إذ ذاك في بيروت، وجعلت قصيدة المقدمة من ذلك البحر وتلك القافية.

(١) لا جرم ولا جرم: أي لا بُدَّ ولا محالة.

وهذا نصّها، وكانت بعنوان:

إهداء الباكورة

لحضرة العالمِ العامِلِ، الفيلسوفِ الكاملِ، واسطةِ عقَدِ الحكماءِ، وُدْرَةَ تاجِ البلغاءِ،
الأستاذِ الأكبرِ الشيخِ محمَّدَ عبدهِ المصريِّ، أيّده اللهُ تعالى.

لو هاجَ مثلُ الفضلِ خاطرَ شاعرٍ
أو لو وجدتُ بمثلِ فضلكَ عاذلاً
لكن سَطوتَ على القريضِ بأسرهِ
فزهوتَ بين مُدارِكِ ومُشاهدِ
أو كيفَ لا تَسمو ومثلكَ مَنْ حوى
عِلْمٌ على عملٍ على قلمِ غدا
وفضائلٌ تستنطقُ الأفواهَ من
علامةِ العلماءِ والبحرِ الذي
يا أيُّها العَلَمُ الذي أوصافه
شهِدَ الزمانُ لنا بأنك فَرده
يا أوحدَ العصرِ الذي عُقِدَتْ على
لا غرَوا أن أهدي إليك رقائقِي
ليس القريضِ سوى تأثرِ خاطرٍ
تُمسي المحاسنِ وهي فيه بواعثُ
غُررٌ على الأيامِ لولاها لَمَا
لم تبرحِ الشعراءُ صرعى نشوةِ
فإذا انجلت في مثلِ ذاتك مرةً

أَلقيتُ بين يدي سِواكَ بواكري
كان الكمالِ إذا سَلَوْتُكَ عاذري
وغدوتُ أعذبَ مَنهلٍ للخاطرِ
وسموتُ بين بصائرٍ وبواصرِ
بأعزَّ نفسِ كلِّ خُلُقٍ باهرِ
في الخُطْبِ يهزأُ بالحُسامِ الباتِرِ
كلَّ البريّةِ بالثناءِ العاطرِ
لا ينتهي مثلُ البحارِ لآخرِ
أضحتُ رياضَ قرائحِ وضمائرِ
من كلِّ بادٍ في الأنامِ وحاضرِ
تقديمه في الفضلِ خيرُ خناصرِ
وأنا رقيقُ فضائلِ ومآثرِ
مما به للمرءِ قُرّةُ ناظرِ
للشعرِ بين مُسبِّبٍ ومباشرِ
لاحت وجوهَ الدهرِ غيرَ بواسرِ^(١)
برحيقها من سالفِ ومُعاصرِ
كنت الأحقُّ بكلِّ مقولِ شاكرِ

(١) بواسر: تقول "بَسَر فلان" أي قَطَب وجهه.

يا مَنْ غدا بعوارفٍ ومعارفٍ
أهديك بعضًا من عقيق قريحتي
أبيات إحسانٍ وليس جميعها
قد جادها صوب الصُّبا وبنشرها
درجتُ معي أطوارُ عمرٍ واصلٍ
قد باكرتني قبلَ صادق فجره
أوحتُ إلى قلبي الهوى فشعرتُ إذ
فمضيتُ بين كمائلٍ ومفاخرٍ
ما قلتُ ذا فخراً ولا عجباً وما
لكن لترفقَ غيرَ مأمورٍ بها
إن تأتني عفواً فكم هذبتها
مكنتها بعد النزاع وكم حكنتُ
حتى أتت من بعد تربيتي لها
عوضتُ ما خسرتُه من حُسنٍ بما
فكن الوصيَّ على يتامى ناظمٍ
أهديتها لا كي تليق وطالما
هي دون ما يُهدى إليك وإنما

يُزري على لُججِ العُبابِ الزاخِرِ
يا بحر لكن لا أقولُ جواهرِي
من كلِّ بيتٍ بالمحاسنِ عامرِ
نمَّ الصُّبا عن كلِّ عَرَفٍ^(١) ذافرِ
ما جاشَ من يومٍ بليلٍ ساهرِ
مُد كنتُ من أعوامه في العاشرِ
غُصن الصُّبابة لا يميلُ لهاصِرِ^(٢)
ومشيتُ بين خمائلٍ وأزاهرِ
من مُعجبٍ في نظمها أو فاخرِ
فلكم خُطت طورا لنيلِ الحاضرِ
من سُخفٍ لفظٍ أو رويٍ نافرِ
قلقَ القداحِ بدتُ بكفِّي ياسرِ
حسبي وإن لم تغدُ ملءَ محاجرِي
رُفعتُ إليك فلم أكنُ بالخاسرِ
وبناتِ فكرٍ في ثناك قواصرِ
قبلَ الكبيرُ هديَّةً من صاغرِ
مثلي على ما فاق ليس بقادرِ

- عود إلى شوقي

وقد كنتُ يوم نظمت هذه القصيدة، في السادسة عشرة من العمر.

ونعود إلى شوقي، فنرى في هذه القصيدة ما يدلُّ على أنه لم يمدح الخديوي مجاناً، وأنه ما أصاب تلك النعماء الوارفة إلا بما سِيرَ من المدائح في الجنب الخديوي، وأنه حام

(١) العَرَفُ: الرائحة (مطلقاً). وغلبت على الرائحة الطيبة، فأختصت بالشذا.

(٢) مَصْرُ الغصن: عطفه وكسره؛ والهاصر اسم فاعل من هَصَرَ.

فَوَرَدَ وَغَنَى فَاطْرِب، وَرَقَّح^(١) مَعِيشَتَهُ بِفَيْضِ قَرِيحَتِهِ. وَكَانَ إِذَا أَغْضَى الْخَدْيُوي عَلَى حَلَّتِهِ (بَفَتْحِ الْخَاءِ)، وَلَمْ يَجِدْهَا قَدَى عَيْنِيهِ، لَمْ يُهْمَلْ أَنْ اسْتَرْعَاهُ النَّظْرَ إِلَيْهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْمُتَنَبِّي. فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ يَقُولُ شَوْقِي:

يا عزيزَ الزمانِ سمعاً لِناءِ
أَتَجِدُّ الأَيامُ فِي هَدْمِ بَيْتِي
أَيُّ عَذْرِ لِلدَّهْرِ عِنْدِي وَرُكْنِي
نَظْرَةَ نَظْرَةٍ وَعُذْرًا لِعَبْدِ
قد دَعَاكُمْ عَلَى النَّوَى وَتَوَكَّلْ
وَتَدَاكُمْ بِكُلِّ بَيْتٍ مُوَكَّلْ
أَنْتَ مَهْمَا تُكَلِّفِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ
عَهْدُهُ فِيكَ مَنَعَمًا لَيْسَ يَسْأَلْ

وَمِنْ قِصَائِدِ شَوْقِي الْخَدْيُويَةِ، قِصِيدَةٌ يَقُولُ فِيهَا:

أَيُّهَا الْمُنْكَرُ الْغَرَامَ عَلَيْنَا
آيَةُ الْحُسْنِ لِلْقُلُوبِ تَجَلَّتْ
لَكَ نُصْحِي وَمَا عَلَيْكَ جِدَالِي
هَبْ مِنْ الْعَقْلِ أَنِّي أَنَا أَسْلُو
أَنْ نَجِدَ مِنْ مِثَالِ لُقْمَانَ جَيْشًا
حَسْبُكَ اللَّهُ قَدْ جَحَدْتَ الْجَمَالَ
كَيْفَ لَا تَعَشِقُ الْعَيْونُ امْتِثَالًا؟
آفَةُ النَّصْحِ أَنْ يَكُونَ جِدَالًا
مَا مِنَ الْعَقْلِ أَنْ تَرُومَ مُحَالًا
مَا غَلَبَتْ الْأَهْوَاءَ وَالْأَمْيَالَ

سَيَعِيبُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ قَوْلَهُ «الْأَمْيَالَ»، فَالْأَمْيَالَ هِيَ جَمْعُ مَيْلٍ بِكَسْرِ الْمِيمِ، لَا جَمْعُ مَيْلٍ بِفَتْحِهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَصَادِرَ عَلَى (فَعَلٍ) بِالْفَتْحِ، لَا تُجْمَعُ عَلَى أَفْعَالٍ، وَلِذَلِكَ تَجِدُ الْكُتَابَ عَدَلُوا إِلَى لَفْظَةِ «مَيْوَلٍ» تَخْلُصًا مِنْ هَذَا الْمُحْظُورِ. وَمَا وَجَدْتَ فِي الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لَفْظَةَ «مَيْوَلٍ»، وَلَكِنْ الْقِيَاسُ يُوجِبُهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الْقِصِيدَةِ قَوْلُهُ:

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ يَيْتَلِي مِصْرَ بِالْأَجْ
هَيْكَلٌ تُعْقَلُ الْمَمَالِكُ فِيهِ
قُوِّضَتْ كُلُّ بُنْيَةٍ وَهُوَ بَاقٍ
يَا ابْنَ تَوْفِيقِ أَيِّ أَصْلَيْكَ نَسْلُو
أَمْ عَلِيًّا وَمِصْرُ لَوْلَا عَلِيٌّ
يَالَ أُمَّ يَيْتَلِي بِهَا الْأَجْيَالَ؟
وَتَضْحَى مَعَالِمًا وَرَجَالًا
تُبْصِرُ الدَّهْرَ دُونَهُ أَطْلَالَ
جَدَّكَ الْجُودَ أَمْ أَبَاكَ النَّوَالَ
لَمْ تَذُقْ نِعْمَةً وَلَا اسْتِقْلَالَ

(١) رَقَّحَ الْمَالُ: أَصْلَحَهُ وَقَامَ عَلَيْهِ. تَقُولُ: فُلَانٌ تَرَقَّقَ لِعِبَالِهِ، أَيِ تَكَسَّبَ لَهُمْ.

ويظهر أنه لما نظم هذه القصيدة، كان المدوح في المُقيم المُقعدِ مع بعض الأحزاب في مصر، فإنه يقول:

أنتَ روحٌ ومصرُ جسمٌ وهل تر
والذي بالبلاد غيرك داء
وإذا عاكس الزمانُ بلادًا
نام قومي عن المعالي ورامو
حسبوا العيش غيبةً واضطغانًا
وإذا كانت النفوسُ صغارًا
جو لجسمٍ من غير روحٍ مالا
صيرتهُ بنو البلاد عُضالًا
جعل الأهل حربها والتكالا
ها فكان النصيبُ منها خيالًا
وسكونًا إلى المني واحتمالا
علقت بالصغائرِ الآمالا

وله في الخديوي قصيدة ميمية، من بحر السريع أراه يعارض بها محمود سامي، في قصيدة من البحر والقافية، ومطلع قصيدة شوقي:

هل تيمم البان فؤاد الحمام
ومنها:
فناح فاستبكي جفون الغمام

يا خيرَ مَنْ سَنَّ خِلال الوفا
يهزك الإسلامُ مهما دعا
أنت لهذا الدين ما يشتهي
مولايَ ذا شهرُ الصيام انقضى
وخيرَ مَنْ زَكَّى وَصَلَّى وصام
مؤيدًا منك بعَضْبِ حُسام
ظلُّ له ضافٍ ورُكنُ جنسام
أحياكمُ الله إلى كلِّ عام

فأما قصيدة محمود سامي فليست في ديوانه المطبوع، لأن الجزء الثاني انتهى بحرف اللام، ولم أعلم أنهم طبعوا جزءًا ثالثًا. وإنما يجد الإنسان هذه القصيدة في «الوسيلة الأدبية» للمرصفي، وهي ليست تحت يدي في هذه الساعة، ولا أزال أتذكر من قصيدة البارودي هذه بيتين في منتهى البداعة:

يا ليتني في السلك حرفٌ سرى
حتى أوافي مصرَ في ليلةٍ
أوريشةً بين خوافي الحمام
أقضي بها في الله حقَّ الذمام

ولشوقي في الجنب الخديوي:

فما دانت الأوطان إلا لذي هم
بلا بدلٍ أملت صيدا ولم ترم

أمغتنم الفرصات بشارك بالغنم
وقل لدخيل في المعالي يريد

ومنها ما رمى به شوقي أبعد شأو المرتمي في الفخر والبأو^(١)، وقد جاز هنا الحد الذي اقتنع به في قصيدته الدالية، التي سبق الاستشهاد ببعض أبياتها:

ولا مبدئي لؤم ولا قلمي وغد

فلا حكمتي دعوى ولا منطقي هوى

فإنه في هذه القصيدة الميمية يقول:

ولم التمسهُ في بياني وفي علمي
ولا لقيت بي العصر في البذخ الجم

إذا أنا لم تكفل لي الخلد حكمتي
فلا استرجعت بي الصاد بُياناً مجدها

(البذخ محرّكة، هو المجد)، ثم يقول:

لسدّة عباس الفتى العلم النجم

ولا جاز شعري النيرات ولا اعتلى

جعل شعره فوق النيرات، ومع هذا فهي من دون سدة المدوح، ثم يقول:

فما أُعطيَ الناسُ النبوة بالحلم
فربّ يقين للعقول من الوهم
وتصحب أحوال الزمان على علم
إذا التمسّت أعداؤك العزّ في الإثم
ويتعب قراء العواقب بالحزم

ومهلاً رويداً في الكمالات والحجى
وخفّ لعباد الله أن يتوهموا
تحاول من دُنياك ما أنت عارف
وتظهر في عزّ من الصدق باهر
يُداري أناسٌ بالجرأة طيشهم
ثم يقول:

ولا حدثما عن حكمة الله في الحكم
لا وهيهات يبقى الفرقان بلا خصم

وعرشيكما ما خنتما الحق مرة
ولكن تهيج الحاسدين علاكما

ولا شك أنه يشير إلى ما كان يقع بين المدوح، وبين الأحزاب في مصر من التضاد والتشاد، وأي بلاد لا تصاب بمثل هذه الفتن؟ وشوقي على كل حال شاعر الأمير، لا يفتأ

(١) البأو: الفخر والتكبر.

ينضح عنه بشعره، وربّما كان لسانه أردّ عن ممدوحه من جيش، وأمضى من سيف. فإن يكن الخديوي قد أغرق شوقي بالإنعام والإحسان، فقد أثنى شوقي عليه ثناءً حساناً على غسان، ففاز كلّ منهما بطيبته. فلم يكن شوقي أدنّ على مذهب محمود سامي الذي يقول:

الشعر زينُ المرء ما لم يكن
قد طالما عزّ به معشرُ
وسيلة للمدح والذامِ
وربّما أزرى بأقوامِ
أو عِظّةٍ أو حَسَبِ نامِ
فالسَّهمُ منسوبٌ إلى الرامي
وأهتفُ به من قبل تسريحه

نعم، لم يكن محمود سامي لينظّم، إلّا في الغزل والنسيب والفخر والحماسة ووصف الوقائع والحكم والمواعظ والرثاء والأخوانيات والزهديات والطرديات، وغير ذلك من مقامات الشعر المختلفة، حاشا المديح فقد كان يتجنّبها ما أمكن، وإذا مدح فإنّما يمتدح من كان من أقرانه أو إخوانه. ولم أجد له مديحاً لكبير إلا الخديوي اسماعيل، يوم جلس على أريكة مصر، وكان ذلك سنة ١٢٧٩، أي أيام كان محمود سامي في ريعان شبابه، ورأيت له في ديوانه أبياتاً امتدح بها الخديوي السابق بعد رجوعه من (سرّنديب). وكذلك قصيدة في تهنئة الخديوي توفيق بالجلوس على الأريكة الخديوية، سنة ١٢٧٩، ف شعر البارودي في المديح لا يكاد يُذكر، وهو في جانب ديوانه ثمّد في جانب بحر. وقد وصف البارودي الشعر في إحدى قصائده، فقال:

للشعر في الدهر حُكْمٌ لا يُغيّره
يسمو بقومٍ ويهوي آخرون به
له أوابدُ لا تنفكُ سائرة
من كلِّ عائرةٍ^(٣) تستنُّ^(٤) في طلقٍ
تجري مع الشمس في تيار كَهْرَبَةٍ
ما بالحوادث من نقضٍ وتغييرٍ
كالدهر يجري بميسورٍ ومَعسورٍ
في الأرض ما بين إدلاجٍ^(١) وتهجيرٍ^(٢)
يغتالُ بالبُهرِ أنفاسَ المحاضيرِ^(٥)
على إطار من الأضواء مَسعورٍ

(١) الإدلاج: سير الليل، أو هو السير في أول الليل.

(٢) التهجير: السير في الهاجرة، وهي شدة الحرّ.

(٣) عائرة: قصيدة سائرة، تشبيهاً لها بالفرس العائرة التي تنطلق مسرعة.

(٤) تستنّ: تجري في قوة ونشاط.

(٥) المحاضير: مفرد ما محضير، أي الفرس الذي يرتفع في عدوه (احضاره).

تُطارِدُ البرقَ إن مَرَّتْ وتترَكُهُ
صَحَائِفٌ لَمْ تَزَلْ تُتْلَى بِالسِّنَةِ
يُزْهِى بِهَا كُلُّ سَامٍ فِي أرومته
فكَمْ بِهَا رَسَخَتْ أركانُ مملكةِ
والشعرُ ديوانَ أخلاقٍ يَلُوحُ به
كَمْ شَادَ مَجْدًا وكم أودَى بِمَنْقَبَةٍ
أَبْقَى زُهَيْرٌ^(٣) به ما شَادَهُ هَرَمٌ
وَقَلَّ جَرَوَلٌ^(٤) غَرَبَ^(٥) الزبيرِ قَانِ به
أَخزَى جَرِيرٌ^(٦) به حَيَّ التُّمَيْرِ^(٧) فما
لولا أبو الطَّيِّبِ المائِثُورُ مَنطِقُهُ

فِي جَوْشَنٍ^(١) مِنْ حَيْكِ المَزْنِ^(٢) مَزْرورِ
للدَّهْرِ فِي كلِّ نَادٍ مِنْهُ مَعْمورِ
وَيَتَّقِي اليأسَ مِنْهَا كلُّ مَعْمورِ
وكم بِهَا خَمَدَتْ أُنْفَاسُ مَغْرورِ
ما خَطَّه الفِكرُ مِنْ بَحْثٍ وَتَنْقِيرِ
رَفَعًا وَخَفْضًا بِمَرْجُوٍّ وَمَحْذورِ
مِنَ الفَخَارِ حَدِيثًا جِدًّا مَأثورِ
فَبَاءَ مِنْهُ بِصَدْعٍ غَيْرِ مَجْبورِ
عَادُوا بِغَيْرِ حَدِيثٍ مِنْهُ مَشهورِ
ما سارَ فِي الدَّهْرِ يَوْمًا ذِكْرُ كَافورِ

فَأنت تَرى البارودي وَإِن لَمْ يَكُنْ مَدَاحًا بِنَفْسِهِ، وَلَمْ يَقَعِ مِنْهُ مَدِيحٌ إِلَّا فِي النَّدْرَةِ، وَغَيْرِ
مُكْتَسَبٌ مَالًا وَلَا جَاهًا، كَانَ فِي غِنَى عِنْمَا، فَإِنَّهُ يَعْتَرِفُ بِكُونَ الشَّعْرِ يَرْفَعُ وَيَضَعُ وَيَسِمُ
وَيَصِمُ، وَيَخْلُدُ المائِثُ وَيَقْبِدُ المائِثُ. وَيَقولُ: كَمْ وَطَدَ الشَّعْرُ أركانَ مَلِكٍ، وَذَلَّلَ أَعْرَافَ مَجْدٍ،
وَلَيِّنَ أَعْطَافَ سَعْدٍ، وَقَرَّبَ غَايَاتِ جَدٍّ، وَأَخْرَجَتْ كَلِمَةً مِنْهُ قَوْمًا وَهَزَّتْ عَرِشًا. وَحَسْبُكَ أَنَّهُ
وَقَعَ زَلْزَالٌ عَظِيمٌ بِمِصْرَ فِي أَيامِ كَافورِ الإخشيدي، فَدَخَلَ أَحَدَ الشَّعْرَاءِ عَلى كَافورِ والناسِ
تَفَرَّ مِنْ كلِّ حَدَبٍ إِلَى الصَّحْرَاءِ، فَأَنشَدَهُ قَصيدَةً قالَ لَه فِيها:

ما زلزلت مصر من خوفٍ يُرادُ بِها
لكنَّها رَقَصَتْ مِنْ عَدْلِهِ طَرِبًا

فكان لذلك من حسن حظِّ الوقع على كافور، ما أجازَه لأجله بِصِلَةٍ وَلَا كَالصَّلَاتِ،
وقيل إنَّ المَتَّبِيَّ لَمْ يَنْتَجِعْ كَافورًا إِلَّا بَعْدَ سَماعِهِ بِهذا الخَبَرِ. فالبارودي وَإِن لَمْ يَذْهَبْ هُوَ

(١) الجَوْشَنُ: (هنا) الدرع.

(٢) حَيْكُ المَزْنِ: السحابُ المَجْمَعُ المَترامِكُ، يَقولُ إنَّ العائِثَةَ لَسرَعَتِها تَطارِدُ البرقَ، فَتَرَكَه مَحْبوسًا فِي شِبْهِ دَرَعِ مَزْرورَةٍ (مِنَ زَرِّ القَمِيصِ)
مِنَ حَيْكِ المَزْنِ.

(٣) زُهَيْرٌ: هُوَ زُهَيْرُ بَنِ أَبِي سُلَيمِ الشَّاعِرِ الجاهلي المَعروفِ، وَكانَ مَدَحَ "هَرَمِ بَنِ سِنانٍ"، وَكانَ هَذا مِنْ ساداتِ العَرَبِ يُضْرَبُ بِجودِهِ المَثَلُ.

(٤) جَرَوَلٌ: اسمُ الحَطيئةِ العَبسِيِّ الشَّاعِرِ المَعروفِ، وَكانَ هِجَا "الزبيرِ قانِ بَنِ بَدْرِ" صاحِبِ رَسولِ اللهُ ﷺ.

(٥) قَلَّ غَرِبَهُ: تَلَمَّ حَدَّهُ.

(٦) جَرِيرٌ: الشَّاعِرُ الأُمويُّ المَعروفُ.

(٧) حَيَّ التُّمَيْرِ: قَبيلةٌ مِنْ بَنِي عامِرٍ، أَحَدِ شُعوبِ مِصْرَ، وَكانَ جَرِيرٌ مَجاهِمًا بَعْدَما أَهانَوه.

هذا المذهب، ولا كان له فيه مآرب، لم يقدر أن يُنكر مكان الشعر من الاجتماع، ولا تأثيره في الاتضاع والارتفاع، ولا تخليده للذكر، ولا تسجيله للفتكة البكر.

ونعود إلى شوقي فنقول: من جملة قصائده في الخديوي قصيدة، يقول في مطلعها:

صَرِيحُ جَفْنِيكَ يَنْفِي عَنْهُمَا التُّهُمَا
الله في روح صَبِّ يَغْشِيَانِ بِهَا
فَمَا رَمِيَتْ وَلَكِنَّ الْقَضَاءَ رَمَى
مَوَارِدَ الْحَتْفِ لَمْ يَنْقُلْ لَهَا قَدَمَا
ومنها خطاباً للممدوح:

وابغِ الأحاديثَ واستعصِمِ برايتها
إِنَّ الزَّمَانَ لِعَالٍ فِي مَقَالَتِهِ
سَيَّانَ قُدَّتْ خَمِيْسًا أُمٌّ مَلَكَتْ فَمَا
فَلَنْ يُعْظَمَ حَيًّا أَوْ يَرَى عِظْمًا
أَعْطَيْتَ مِصْرًا مِنَ الْعِرْفَانِ حِصَّتَهَا
شَادَ الزَّمَانُ وَأَبْنَاءُ الزَّمَانِ لَهَا
فَلَمْ يَزِيدُوا إِلَى أَهْرَامِهَا هَرَمًا
فِي الْعَالَمِينَ وَتُحْيِي الْحِكْمَةَ الْأُمَمَا
يُخَلِّدُ الْعِلْمَ لِلْبِلْدَانِ مَنْزِلَةً

إنَّ من وجوه الشبه بين شوقي والمنتبي، أنك لا تكاد تقرأ قصيدة لكلّ منهما، مهما ضربت في وادٍ من أودية قولهما، إلا وجدت بها حكماً جارية مجرى الأمثال. ومَن انطوى على شيء فاضَّ على لسانه في كلِّ موقف.

ولشوقي في الخديوي تهنئة شهر الصيام، وإهداء السلطان عبد الحميد له قصر بيبك في الآستانة، وهي قصيدة استهلها بقوله:

الله في الخلق من صَبِّ ومن عان
صُونِي جَمَالِكِ عَنَا إِنَّا بَشَرٌ
تَفْنَى الْقُلُوبَ وَيَبْقَى قَلْبِكَ الْجَانِي
مِنَ التَّرَابِ وَهَذَا الْحُسْنُ رُوحَانِي
ومنها:

أَمَّنٌ^(١) هَجَرْتُ إِلَى الْأُوطَانِ رُؤَيْتَهَا
أَتَعْهَدِينَ حَنِينِي فِي الزَّمَانِ لَهَا
فَرُحْتُ أَشُوقَ مَشْتَاقٍ لِأُوطَانِ
وَسَكْبِي الدَّمْعَ مِنْ تَذَكَارِهَا قَانِي

(١) أَمَّنٌ: بمعنى يا مَنْ.

و غَبَطِي الطير آتِيهِ أَصِيحُ بِهِ
مُرِي عَصِيَّ الكَرِي يَغْشَى مُجَامِلَةً
لِئَن صَنَنْتُ فَمَا لِي مَا أَضُنُّ بِهِ
وَمَنْطِقِ يَرِثُ التَّارِيخُ جَوْهَرَهُ
ومنها:

ليت الكريم الذي أعطاك أعطاني
وسامحي في عناق الطيف أجباني
على الفناء سوى آثار وجداني
عن الزمان وعن عباسه الثاني

وإن حلمي لتستكفي البلاد به
لما بدا الشهر واستقبلت غرته
وقمت تسطع بالأنوار من أفق
كأنك البدر في غايات رفعته
فأهنا مكانك وأهنا ما يلوح به
أهدى الخليفة ما أهدى يبشرنا
قصرًا على اللجّ لولا أن مهديه

كالعين تمت معانيها بإنسان
لاح الهلال ولاح البدر في آن
بالمسلمين وبالإسلام مُزدان
لو كان للبدر كُرسِي وتاجان
لربّ (يلدز)^(١) من آثار إحسان
إنّ الوداد بأساس وأركان
(عبد الحميد) لقلنا القصر نُعماني

يشير إلى الخورنق والسدير من قصور النعمان بن المنذر، ثمّ يقول:

يبيت من عزة (البوسفور)^(٢) صاحبه
إذا الأكارم سنّوا للندی سُبلاً
يظلّ يسجع في الإسلام شاعرُكم
ويشتهي الدولة العليا معززة

على مكان من الدنيا وإمكان
سنّت أجملها يا فرع عثمان
كان أيامه أيام حسان^(٣)
من الوثام بأنصار وأعوان

لا يجهل شوقي مكان شعره من الخليفة والخدوي، واحتياج العروش إلى الشعراء،
يحمون حوزة الملك بأقلامهم، احتياجهم إلى القواد يحمونها بسيوفهم، أفلا تراه يقول في
أبيات سبقت:

سيان قُدتَ خميساً أم ملكتَ فما

وابغ الأحاديث واستعصم برايتها

(١) يلدز: قصر بني عثمان في استانبول - تركيا.

(٢) البوسفور: مضيق بين البحر الأسود وبحر مرمرة، يفصل بين قسَمَي تركيا الآسيوي والأوروبي.

(٣) حسان: هو حسان بن ثابت (المتوفى سنة ٦٧٤م)، شاعر أسلم ولقب بشاعر النبي. عاش في أواخر الجاهلية وأدرك الإسلام وهجا قريش.

كأنه يقول للخديوي: إنك وقد ملكت فمي، فقد قدت جَحْفلاً جرّاراً، ثمّ يقول إنّه قائم في جانب الخلافة مقام (حسان بن ثابت) في جانب الرسالة. فشوقي يشعر بغناء الشعر في جانب الملك، وكأنه يخشى أن يغفل ممدوحه عن هذه الحقيقة، فهو يذكّره بها. وله من قصيدة في الخديوي تتضمّن أبياتاً رشيقة في وصف استقباله، وقد عاد من الإسكندرية إلى مصر:

وَزَيْنُ المِيدَانِ والسَّلْمَانُ	حَتَّى نَرَى الدُّرَّ وَقَدْ زَيْنَتْ
وَسُدَّةُ الرُّكْنِ وَمَا جَ المَكَانُ	وَأَزْدَحَمَ البَابُ وَسَاحَاتُهُ
لِلْمُجْتَلِيِ مِنْ بَعْدِ طَوْلِ اِكْتِنَانُ	وَقَامَتِ الرَّايَةُ خَفَاقَةً
تُومِي إِلَى القَصْرِ بِشِبهِ البَنَانُ	حَمْرَاءَ فَوْقَ الحُصْنِ مَمْدُودَةً
عَادِلٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُشِيرَ الأَذَانُ	قَدْ بَشَّرَ النَّاوِسُ بِالمَسْلَمِ الـ



شعر شوقي في الرثاء

ولنختم بهذا الذي أوردناه، باب المديح من الشوقيات، ولنأت ببعض الأمثلة من المراثي، وأولها مرثية شوقي للمرحوم الخديوي توفيق، التي تتضمن أيضًا تهنئة الخديوي السابق على تولّيه منصب أبيه، قال:

بين ماضي الأسي وآتي الهناء
نبأ معذر نفي بعضه بع
سراً من حيث ساء كلّ مُصافٍ
ما نظرنا محمّداً في فتاهُ
هابنا الدهرُ فيه حياً وميتاً
وعزاءُ البلاد أن يخلد المد
قام عُذر النُّعاة والبُسراءِ
ضاً فكان السّفيه في الأبناءِ
ساء من حيث سرّ كلّ مُراثي
أن غفّرنا الصّراءَ للسرّاءِ
فأتانا من دائنا بالدواءِ
لكُ ويحيا الآباءُ في الأبناءِ .

ومنها خطاباً للمرحوم:

يا أميري أبا أميري المُفدَى
أسهرتني المنونُ فيك ونامتُ
وأطارتُ عن المضاجعِ قلبي

ومنها:

جاءَ والعصرُ فخره ببنيه
فبنى في البلاد للعِلمِ دُوراً
وأبى أن يُقال عن مصرَ والأه
وأبى الدهرُ سرعةً فيه إلّا
يا مليكي عباس هُنَّتْها عد
هو ذا الدهرُ عند بابك ألقى
وفخار المصريّ بالقُدماءِ
تتباهى بالفتيةِ النُّجباءِ
رامُ فيها تَضِنُّ بالبناءِ
أن يُتمَّ ابنُهُ نظامَ البناءِ
ياءِ جاءت تمشي على استِبحاءِ
عُذره فاعف لا يُعدّ للرياءِ

وتجلّد لأجلِ مصرَ فلولا
كَلَمَا هَمَّ قَلْبُهَا بِالْعِزَاءِ
واحْمِلِ السَّيْفَ والبسِ التَّاجَ وارِقِ العَرْشَ وانهضْ بالدولةِ العَلِيَاءِ
وزِدِ المَلِكِ من شَبَابِكَ حُسْنًا
وَأَنْرِ عَصْرَهُ بِذَاكَ الذِّكَاةِ

ثمَّ يقول:

وتَعَزَّزْ بِرَبِّ يَلْدِزْ حَامِي
حَوَزةُ الدِّينِ قُدوةُ الخُلَفَاءِ
إِنَّ عَبْدَ الحَمِيدِ سَيْفٌ نَضَّتْهُ
أَلْ عَثْمَانَ هَاشِمِيَّ المَضَاءِ
صَدَقَ الوَعْدُ فَيْكَ وَمَا زَا
لِ حَفِيًّا بِأَلِكِ الكُرْمَاءِ

وهنا الدليل من أدلة لا تُحصى، على استمساك شوقي من الأول إلى الآخر، بالجامعة الإسلامية، تجد هذه الروح فائضة من شعره، مُنبثّة في جميع جوارحه، بحيث قد قيل بحق أنه شاعر الإسلام والمسلمين، وقد مضى إلى ربه. وهذه الخدمة التي لم يتخلف عنها دقيقة واحدة من عمره، نور يسعى بين يديه.

ومن مرثي شوقي الشهيرة قصيدته في اسماعيل باشا الخديوي الأسبق، وهي التي يقول فيها:

حُلْمٌ مَدَّهُ الكَرَى لَكَ مَدًّا
وَسُدَى تَرْتَجِي لِحَلْمِكَ رَدًّا
وَحَيَاةٌ مَا غَادَرَتْ لَكَ فِي الأَحَدِ
يَاءٌ قَبْلًا وَلَمْ تَذُرْ لَكَ بُعْدًا

ومنها:

يَا أَجَلَ الكِرَامِ جَاهًا وَوَجْهًا
وَكَبِيرَ الحَيَاةِ فِي العَصْرِ وَالْعَا
أَيْنَ كِسْرِي وَأَيْنَ قِصْرُ مَمَّا
وَأَبْرَ الوَرَى حَفِيدًا وَجَدًّا
لِي فِيهِ فَمَا أَرَى لَكَ نَدًّا
نَلْتُ بِالمَجْدِ أَوْ بَلِغْتَ مَجْدًا

ومنها:

وَعُزَاةٌ فِي البِيضِ وَالسُّودِ تَبْغِي
وَبِرِيدٌ لَهَا تَسِيلُ بِهِ القَضِ
وَخَطُوطٌ بِهَا التَّنَائِي تَدَانِ
مِصْرَ فِيهَا مَجْدًا مُسْتَرْدًا
بُ وِثَانٌ بِالبَرَقِ أَجْرِي وَأَهْدِي
وَبُخَارٌ بِهِ الأَقَالِيمُ تَنْدِي

ثم يقول:

فتركت السرير مضطرب الأح
لم تكن من جنى عليه ولكن
منعت مصر أن تتوج مصر
وإلى النيل أن يجرر وردا

وفيها يصف وفد الملوك، يوم فتح ترعة السويس:

نهضت مصر بالزمان نزيلاً
خطروا بين زاخرين ولاقوا
بين فلك يجري وآخر راس
وملوك "صيد" يراح بهم في
صور لم تكن حقاً وحلم
وبأهليه يوم ذلك وفدا
ثالثاً من نذاك أحلى وأندى
ولواء يحدو وآخر يحدى
واسع الريف والصعيد ويغدى
فجع الصبح فيه لما تبدى

يظهر أن شوقي هو ممن يُجيز استعماله "تبدى" بمعنى بدأ أي ظهر، إذ لا يخفى وقوع الاختلاف فيه، ومن الناس من يذهب إلى أن تبدى، لا تفيد إلا معنى الدخول في البداوة. ثم يقول:

وقناطير يجفل الحصر عنها
وملكت السودان في الطول والعز
نلت بالمال والدماء منه أرضاً
ثم نظمته ممالك كانت
كل يوم تعدها مصر عدا
ض وفي شأنه المعظم عبدا
بجبال الياقوت والدرر تُفدى
نار تنظيمها سلاماً وبردا

ثم يشير إلى الواقعة التي وقعت بين مصر والحبشة، وإلى تمحيص الجيش المصري فيها، فيقول:

ليت لم تغش بعده في حماها
سلبوا مصر أي جيش كريم
أنت أنشأته فلم تر مصر
وتوليته بعطفك والـ
حبش المكر والخديعة أسدا
كان للمجد والفخار أعدا
جحفلاً بعده ولم تر جندا
بير وللمكرمات لم تأل جهدا

رايةً كان حقها أن تسدًا
مِ كَأَنْ لَمْ تَجِدْ مِنَ الصَّبْرِ بُدَا
فَاطْرَاحِ الْأَمَالِ بِالنَّفْسِ أَبْدَى
سِلُّ دَمْعًا وَلَا يُبَلِّلُ خَدَا
وَوَلَاءٌ مُؤَكَّدٌ كَانَ يُبْدَى
تُ حَدَاهَا إِلَيْكَ وَفَدَا فَوْفَدَا
أَنْ يُجَارُوا الزَّمَانَ وَضَلَا وَصَدَا
وَوَجَدْتَ الْوَلِيَّ فِي الْبُؤْسِ ضِدَا
شِ أَبْوَا أَنْ يَقْدَمُوا لَكَ حَمْدَا

فَهَوَى جَيْشُكَ الْعَظِيمُ وَمَالَتْ
وَنَفَضَتْ الْيَدَيْنِ يَأْسًا عَلَى الرَّغَى
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ اللَّهِ عَوْنٌ
يَا لِعَصْرِ رَأَى فِي الْعِزِّ لَا يُرَى
أَيْنَ وَدَّ عَهْدَتَ مِنْهُ وَعَطْفٌ
وَمَلُوكٌ لَهُ أَتَتْكَ وَسَادَا
أَبَتْ النَّاسِ فِيكَ لِلنَّاسِ إِلَّا
فَرَأَيْتَ الْحَمِيمَ أَوْلَ جَافٍ
وَرَجَالًا لَوْلَاكَ لَمْ يَعْرِفُوا الْعِيَّ

نعم، هذا حال الناس مع الزمان يدورون حيث دار، ثم يقول:

وَوَكَانَ الرَّجَاءُ حَيًّا فَأُودَى
طَالَمَا قَدَّ هَامَةً الْخَطْبُ قَدَا

بَانَ مَجْدُ الْبِلَادِ إِذْ بَنَتْ وَالصَّفَى
فَبَكَى الْبَائِسُونَ مِنْكَ حُسَامًا

إنَّ تَأْكِيدَ الْمَفْعُولِ الْمَطْلُوقِ يَصِحُّ فِي الْحَقِيقَةِ لَا فِي الْمَجَازِ، كَمَا هِيَ الْقَاعِدَةُ، أَيِ يُقَالُ (سَالِ السَّحَابِ سَيْلًا) لِأَنَّهُ حَقِيقِيٌّ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ (سَالِ كَرَمٍ حَاتِمٍ سَيْلًا) لِأَنَّهُ مَجَازِيٌّ. غَيْرَ أَنِّي لَا أَرَى هَذِهِ الْقَاعِدَةَ مَرْعِيَّةً عِنْدَ الشُّعْرَاءِ مِنَ الْقَدِيمِ.

ثمَّ يَقُولُ:

فِي ثَرَاهَا وَاسْكُنْ مِنَ الْمَهْدِ لِحَدَا
مِصْرُ خَيْرُ هَوَى وَأَكْرَمُ عَهْدَا
وَبِالْمَهْدِ أَنْ يُبَاشِرَ حِقْدَا
وَبِنْيِهِ وَلِلْحَفِيدِ الْمُفْدَى

عُدْ إِلَى مِصْرِكَ الْوَفِيَّةِ وَانزَلْ
لَا تَقُلْ أَعْرَضْتَ بِلَادِي وَصَدَّتْ
وَقَبِيحٌ بِالْدارِ أَنْ تَعْرِفَ الْبَغْضَ
غَفَرْتُ مِصْرُ مَا مَضَى لِعَلِيٍّ

فَشَوْقِي كَانَ لَا يَنْسَى (الْحَفِيدَ الْمُفْدَى) كَيْفَمَا انْقَلَبَ، إِذْ هُوَ شَاعِرُهُ وَالَّذِي يَرِيدُ شَوْقِي أَنْ يَدِيرَ الْكَلَامَ كُلَّهُ عَلَيْهِ، وَإِنْ انْحَرَفَ عَنْهُ يَمَنَةً أَوْ يَسْرَةً فَلِكِي يُرْجِعُهُ إِلَيْهِ.

ومن أحسن ما نظم شوقي في الرثاء وفي غير الرثاء قوله عند وفاة والده علي بك

شوقي:

ورثاء الأبِ دَيْنٌ أَي دَيْنٌ	سألوني لِمَ لَمَ أرثِ أبي
أينَ لي العقلُ الذي يُسعدُ ^(١) أينَ	أيُّها اللوامُ ما أظلمكم
كلَّ نفسٍ للمنايا فَرَضُ عَيْنِ	يا أبي ما أنتَ في ذا أول
ونعى الناعونَ خيرَ الثَّقَلينِ ^(٢)	هُلِكتُ قبلكَ ناسٌ وقرى
أخِذْ ياأخِذْهُ بالأصغرينِ ^(٣)	غايةَ المرءِ وإن طال المدى
نافضًا من طِبهِ خُفي حُنينِ	وطبيبٌ يتولّى عاجزًا
لقي الموتَ كِلانا مرَّتينِ	أنا من ماتَ ومن ماتَ أنا
ثمَّ صرنا مُهَجَّةً في بدنينِ	نحن كُنا مُهَجَّةً في بدنِ
ثمَّ نُلقي جُثَّةً في كَفَينِ	ثمَّ عُدنا مُهَجَّةً في بدنِ

وهذا من أعلى الفلسفة. وقد يقال إن هذا معروف ليس فيه معنى مبتكر، والجواب على ذلك أن أفصح الكلام هو ما تضمن المعنى المعروف لا المعنى الغامض، ولكن العبرة في القوالب. وأتى نجد هذه الحقائق في مثل هذه الرقائق. وبعد أن ذكر كيف كان هو وأبوه واحدًا، ثم صارا اثنين. عاد فقال إن هذين الاثنين سيصيران إلى واحد هو ابنه علي:

وبه نُبعثُ أولى البعثينِ	ثمَّ نحيا في عليٍّ بعدنا
كلُّ هذا أصله من أبوينِ	انظر الكونَ وقُلِّ في وصفه

وهذا أيضًا من أعلى الفلسفة، ومما جاء في كتاب الله، قال تعالى: (ومن كل شيء خلقنا زوجين)، وقال تعالى: (وأُنبتت من كل زوج بهيج)، وقال تعالى: (وأنه خلق الزوجين)، وقال تعالى: (وخلقناكم أزواجًا)، وقال تعالى: (والذي خلق الأزواج). وغير ذلك من الآي العظام في هذا المعنى، وقد فسّر العلامة الرياضي الفريد الغازي مختار باشا، رحمه الله، في كتابه "سرائر القرآن"، هذه الآيات وغيرها بقوله: إن جميع الكون مبني على الزوجية،

(١) يُسعد: يُعين.

(٢) الثقلان: الإنس والجن، وخير الثقلين رسول الله (ﷺ).

(٣) الأصغران: القلب واللسان.

فالعالم الحيواني كلّه أزواج كما هو ظاهر، والعالم النباتي أيضًا لا يختلف عن العالم الحيواني في الزوجيّة. والجمادات فيها القوتان السلبية والإيجابية من الكهربائيّة أي فيها الزوج، كالحيوانات والنباتات، فالكون كلّه أب وأمّ. ثمّ قال شوقي:

ما أبي إلاّ أخٌ فارقتُهُ وُدّه الصِدقُ ووُدُّ الناسِ مَينٌ^(١)
طالما قمنا إلى مائدةٍ كانت الكِسرةُ فيها كسرتينُ
وشربنا من إناءٍ واحدٍ وغسلنا بعدَ ذا فيه اليدينُ
وتمشّينا يدي في يدهِ من رآنا قال عنا أخوينُ
نظرَ الدهرُ إلينا نظرةً سوتِ الشرِّ فكانتِ نظرتينُ
يا أبي والموتِ كأسٌ مرّةً لا تذوقُ النفسُ منها مرّتينُ
كيف كانت ساعةٌ قضيتها كلُّ صعبٍ قبلها أو بعدُ هينُ
أشربتَ الموتَ فيها جرعةً أمّ شربتَ الموتَ فيها جرعتينُ

كانّ شوقي يسأل أباه، رحمهما الله، كيف تجرّع تلك الكأس؟ هل تجرّعها نفسًا واحدًا أمّ تجرّعها أنفاسًا؟ فقد صار الآن يدري ما دراه أبوه، وكلّ حيّ فهو داريا في يوم من الأيام. ثمّ قال:

لا تخفُ بعدك حُزنا أو بُكا جمّدتُ منّي ومنك اليومَ عينُ

أي جمّدتُ عين أبيه بالموت، وجمّدت عينه، بكونه أصبح لا يبكي لمصيبة بعد موت أبيه، إذ المصائب كلّها تهون بعد هذا المصاب. وهذا معنى طرّقه الشعراء، فليس بجديد، ولي أنا في رثاء صديقي محمود سامي باشا:

هانتُ بمصرعك الأرزاءُ أجمعها فليسَ يعظم من رُزءٍ ولو عَظما

وقد كرّرت في قصيدة حديثة، هي رثاء لصديقي الحاج عبد السلام بنونة عميد بلاد الريف بالمغرب:

يقبل بعدك مدفونًا فجعتُ به أن استطارَ عليّ ضعفي لِحَدَثانِ

(١) المَين: الكذب.

ثم يقول شوقي:

ليت شعري هل لنا أن نلتقي
وإذا متُّ وأودعتُ الثرى
مرةً أم إذا افتراق المَلّوين^(١)
ألتقى حفرةً أم حفرتين

لعمرى هذا هو المشكل الذي أعى على الثقلين عرفانه، ولم يُضئ من طريق العقل برهانه، وإنما هو ممّا أوحى به الدين وحيًا لا يخالف العقل، بل هو يؤيده. وقد قال أحد السادة الصوفية: ما رأته العيون يُنسب إلى العلم، وما رأته القلوب يُنسب إلى اليقين. وهذا ممّا تراه القلوب لا العيون.

ثم يتساءل شوقي: هل بعد هذه الدنيا اجتماع حتى يجتمع بأبيه؟ وهل هذه هي الحفرة الأخيرة، أم يعود فيلِد مرةً أخرى ويستقبل حفرة ثانية؟ وهل جراً. وقد ذهب الناس من كبير وصغير، ودرج الخلائق من أول وأخير، وهم في حسرة أن يعرفوا من طريق الفكر، هذا السرّ في هذه الحياة الدنيا قبل أن يموتوا، فماتوا والحسرة في قلوبهم.

ثم يرثي جدّته:

خُلِقْنَا للحياة وللِمَمَاتِ
ومن هذَيْن كلُّ الحَادِثَاتِ
ومَنْ يولد يَعِشُ ويمُتُّ كَأَنْ لَمْ
يمرَّ خيَالُهُ بالكَائِنَاتِ
هي الدنيا قِتَالٌ نحن فيه
مقاصد للحُسامِ وللِقِنَاةِ
وكلُّ الناس مدفوعٌ إليه
كما دُفِعَ الجبانُ إلى الثِّبَاتِ
نُرُوعٌ ما نُرُوعُ ثم نُرْمَى
بسهمٍ من يدِ المقدورِ آتِ

ومراد الشاعر هنا أن الإنسان يُرِوع طول حياته، ويقضيها كلها في آلام وأهوال، ثم ينتهي منها إلى أعظم البلاء الذي هو الموت.

ولي في هذا المعنى في رثائي للمرحوم أحمد باشا تيمور^(٢)، وهو توارد خواطر:

لعمرك ما بالعيش إربٌ لعاقلٍ
توغَّل في علم الحقيقة خاطِرُهُ
تسلسلُ آلام وتردادُ محنةٍ
تراوحه في كربها وتباكره
وخيبةُ آمالٍ وفقدُ أعزّةٍ
وبعد طوال السجنِ فالموتُ آخرُهُ

(١) المَلّوان: الليل والنهار، الواحد منهما: مَلَا.

(٢) أحمد تيمور باشا، (١٨٧١ - ١٩٣١). أديب مصري من علماء العربية، صاحب مكتبة مشهورة، من آثاره: "تصحيح لسان العرب".

ثمَّ أهتئى الفقيد، بأنه جاز هذه الدنيا إلى حياة لا يُرَوَّع فيها دائماً باستقبال الموت،
فأقول:

لِيُهْنِكَ يَا تيمور أنك جزتها
وفارقت داراً لا يزال قطينها
فإن تكُ عقبى الدار قسمة فاضلٍ
ثمَّ يقول شوقي لجدته:

تَبْنَاكِ الملوِكُ وكنْتِ منهم
يُظْلونَ المناقبَ منك شتى
وما ملكوكِ في سوقٍ ولكن
بمنزلة البنينِ أو البناتِ
ويؤونَ التُّقى والصالحاتِ
لدى ظلِّ القنا والمُرَهفاتِ

أي أنها لم تكن أمة اشتراها النخاس في سوق، ولكن كانت من جملة السبي في الحرب،
ثمَّ يفصل ذلك:

عَنَّتْ لهم بمورة^(١) بنتَ عشرٍ
فكنتِ لهم وللرحمن صيداً
تبعْتِ محمّداً من بعد عيسى
وسيفُ الموتِ في هام الكُماةِ
وواسطة لعقدِ المُسلماتِ
لخيركِ في سنيكِ الأولياتِ

وتحرير الخبر أنها كانت من جملة سبي حرب المورة، فهي رومية الجنس، نشأت الإسلام،
وهي بنتُ عشر سنوات، ولم يشأ شوقي أن يجعل للمتنبّي وحده حصّة الفخر بجدته،
ويجعل لجدته حقّ الفخر به. فالمتنبّي يقول في رثاء المرحومة جدته:

ولو لم تكوني بنتَ أكرم والد
لكان أباكِ الضخم كُونكِ لي أمّا

أي أنها تقدر أن تفتخر بنسب ابنها، ولكن لو فرضنا أنها لم تكن بنت أب كريم، لكان
يجزئها في مقام الفخر، كونها جدّة أبي الطيّب.

وهنا شوقي يقول:

ولو لم تظهري في العُربِ إلا
لأحمدَ كنتِ خيرَ الوالداتِ

(١) مورة: مكان بالأندلس، هو الوطن الأول لجدّة أحمد شوقي.

تجاوزتِ الولائدَ فاخراتِ
وأحكَمَ مَنْ تَحَكَّمَ فِي يِرَاعِ
وأبرأَ مَنْ تَبَرَّأَ مِنْ عِدَائِ
وأصَوْنَ صَائِنِ لِأَخِيهِ عِرْضًا
وأقتلِ قَاتِلِ لِلدَّهْرِ جِرَاءًا
إلى فخر القبائل واللغاتِ
وأبلغِ مَنْ تَبَلَّغَ مِنْ دَوَاةِ
وأنزهِ مَنْ تَنَزَّهَ عَنْ شِنَاتِ
واحفظِ حَافِظِ عَهْدِ اللَّدَاتِ
وأصبرِ صَابِرِ لِلغَاشِيَاتِ^(١)

والحاصل أنه أقضى بجميع ما عنده من حسن الظن بنفسه، رحمه الله، فلولا قليل، لبلغ من الفخر مبلغ ابن سناء الملك، ولكن الذي حفّزه إلى ركوب هذا المركب في رثاء جدته، هو أن والده الروحي أبا الطيّب، قد ركب هذا المركب من قبل في مثل هذا المقام، ولا غرو أن يحذو الفتى حذو والده.

ولمّا كنّا في باريس أنا شوقي، لأول معارفتنا في الثالثة والعشرين من العمر، كان يذكر لي دائماً محبة عبد الرحمن باشا رشدي له، ويطلّعي على كُتُب من هذا الوزير إليه. ولمّا كنّا نمرح ونعبث، ويقول كلّ منا للآخر كلّ شيء يخطر بباله، قال لي مرّة: إنّه يحبّ عبد الرحمن باشا رشدي مثل والده، وإنّه متى مات سييادر برثائه، فكانت نكتة ضحكنا لها كثيراً، وقلت له: ما أحسن وفاءك. وقد حصل ذلك فعلاً، فإنّ عبد الرحمن باشا رشدي بعد هذا الكلام بسنوات، قد مضى إلى رحمة ربّه؛ وقد أنجز شوقي وعده برثائه، وقال فيه ما يدلّ على شدّة تعلقه به، فقال:

يقولون رشدي متّ قلتُ صدقتُمو
وركني الذي للنائبَاتِ أُعِدّه
لرُشدي لقد عِشتَ الذي عِشتَ سيِّدًا
ولم تألُ كُتُبَ العِلمِ درسًا ومطلبًا
وكنْتَ تحلّ الفضلَ أسمى محلّةِ
ولم تتخيّر ألفَ خِلٍّ وصاحبِ
ومات صوابي يومَ ذاكَ وآمالي
وذخري في الماضي وعوني على الحالِ
ولم تكُ عبدَ الجاهِ والأمرِ والمالِ
ولم تكُ عنها في الثمانينَ بالسالي
وتنزل أهل الفضل في المنزلِ العالِي
ولكنَّ مَنْ تختارَه الواحدُ الغالي

(١) الغاشيات: الدواهي.

فشوقي في رثاء عبد الرحمن باشا رشدي لم ينسَ أن يمدح نفسه أيضًا، ثمَّ يقول:
حَبِبتِكَ والدنيا تُحَبِّكَ كُلُّها
وقِسْتُ بِكَ الأعيانَ حَيًّا ومَيِّتًا
ولو أنَّ إنسانًا من الموت يُفْتَدَى

ورثي فقيدي العلم الوزير علي باشا مبارك والطبيب سالم باشا سالم، فقال:
ما لَذا الدهر مالُهُ والدعائم
نَقَصَ اللهُ مصرَ من طَرَفِها
الذي كان مظهرَ العلمِ فيها
وإذا قَدَّرَ الإلهُ شقاءَ
أعليُّ بالأمسِ واليومِ سالمٌ؟
بالفقيديين من طبيبٍ وعالمٍ
والذي كان طِبِّها والمراهِمُ
لِبِلادٍ أصابَ فيها الأعاظِمُ

وله رثاء في غاية السلاسة للمرحوم سليمان باشا أباطة، قال فيه:

مَنْ ظَنَّ بعدَكَ أن يقولَ رِثاءَ
ومنها:

أبَا مُحَمَّدٍ اتَّئِدُ في ذا النَوَى
واستَبقِ عِزَّهُمُ بطَهراءَ^(٢) التي
أدجى بها ليلُ الخُطوبِ وطالما
وإذا سُلَيْمانَ^(٤) استَقَلَّ محلَّةَ
وارفُقْ بِأَلِيكَ وارحَمِ الأبناءَ
كانوا النجومَ بها وكنتَ سماءَ
مُلئتَ منازلُها سَنىً وسَناءَ^(٣)
كانتَ بساطًا للندي ورِخاءَ

لا شكَّ أنَّ شوقي، عندما لَفَظَ اسمَ سليمان، خطرَ بباله سليمان بن داود، فتذكَّرَ معه بساطَ الرِّيحِ والرِّيحِ الرِّخاءِ، فجاءَ بهما في البيتِ وحوَّلَهُما إلى معنىٍ آخَرَ، وهكذا هو الشعرُ كثرةَ شجونٍ وانتقالِ أفكارٍ، وأحسنَ الناسَ شعرًا أسرعُهُمُ انتقالًا. ثمَّ يقول:

سارتَ جِنازَةٌ^(٥) كلُّ فضلٍ في الورى
لَمَّا ركبَتَ الآلةَ الحَدباءَ^(٦)

(١) القالي: المُبغِضُ. ويجوز الكثرة والقلة على المفرد من قبيل دلالة الجزء على الكل، فنقول: كثر الشجاع فيكم: أي الشجعان.

(٢) طهراء: بلد الفقيه.

(٣) السَّنى والسَّناء: الرُّفعة والضياء.

(٤) سليمان باشا أباطة: أحد سُراة مصر الكبار، كان وزيرًا للمعارف سنة ١٨٨٢ وتوفي سنة ١٩٠١.

(٥) الجِنازة: الميت، والجِنازة: النعش؛ أمَّا الأهر فيقول إنَّها بعكس ذلك.

(٦) الآلة الحدباء: النعش.

وتَيَّم الأيتام أول مرة
ولقد عَهْدتُكَ لا تُضَيِّعُ راجياً
وعلمت أنك من يَوَدُّ ومن يفي
أبنيه كونوا للعدي من بعده

ورمى الزمان بصرفه الفقراء
واليوم ضاع الكلُّ فيك رجاءً
فقف الغداة لو استطعت وفاءً
كيداً وكونوا للولي عزاءً

وكان سليمان باشا أباطة من أفاضل مصر، لائقاً بهذا الرثاء، وقد تعرّفت إليه بواسطة أستاذا الشيخ محمّد عبده، وسمرنا عنده ليلة في سنة ١٨٩٠، فرأيت كثيراً من نبله وسمعت جزيلاً من فضله. ولشوقي رثاء، رثى به سليم بك تقلا، مؤسس الأهرام، فقال:

صنَّ الزمانُ به وكان كريماً
فقدتُ يداهُ منه أسمرَ حالياً
بكتِ القلوب عليه قبل عيونها
أمودّع الأوطان تاركِ عهدها
ماذا رحيلك إنَّها كانت ترى
لله أهرام الزمانِ وما جلا
أودّعتهَا لُمح الهدى وبدائِها
فارحلُ حبيباً ما يُطاقُ رحيله
واستحفظِ الأهرام قومك إنَّهم
وله رثاء لعلِّي حيدر باشا يَكُن:

واعتلَّ بعد أن استقام سليماً
لَدنا كما تهوى الأمورُ قويماً
فجرَّينَ حَباتٍ وسِلنَ صَميماً
حِكماً وآداباً به وعُلوماً
لك أن تدومَ لمجدِها فيدوماً
فيها لسانُ الصدقِ منكَ كريماً
لو كُنَّ للجوزاءِ كُنَّ نُجوماً
واقدم مُرجى ما يطاقُ قدوماً
سمَّ الأعادي حادِثاً وقديماً

قلتُ لَمَّا لقيتُ حيدرَ يوماً
هكذا البرِّ والندی والأيادي
أنتَ لو كان في الغنى لك ثانٍ
شُرِّقتُ بالوزيرِ أُسرةً مجدٍ
كان ركنًا لبيتهم وعماداً
وأُصِبتُ وزارةً وبلاداً

هكذا هكذا الدمُّ العلويُّ
والمعالي والسؤددُ اليكُنِي
لم يُبغِضْ إلى الفقيرِ الغنيُّ
مثل ما شُرِّقتُ بحاتمِ طيِّ
فتولّى فأنهدَّ رُكنٌ قويُّ
لِعَلِّي فيها المقامُ العَلِيُّ

ثمَّ عزّى فيها ولده صفر بك، فقال:

العزاء العزاء يا صفر الخيد
ر فأنت الفتى اللبيب التقي
حُكْمُ الله في أبيك وحُكْمُ الله في الخلق سابقٌ مقضي
كُلُّنا من بكى أباه وكلُّ
بعدَ حينٍ مُودّعٍ مَبْكِي

ورثى المرحوم أمين باشا فكري، وكان أمين باشا صديقًا للمرحوم اسماعيل باشا صبري، فقال يرثي الأول ويعزّي الثاني:

يا أقربَ الناسِ من أمين
وأفقدَ الناسِ للثمينِ
خَطْبُكَ هذا أجلُّ خَطْبِ
فخُذْ له الصبرِ باليمينِ
أُسْليكَ فيه ولي فؤادُ
يذوبُ للميتِ والحزينِ
فقمُ بنا نندب المعالي
فجرحها اليومَ في الوتينِ^(١)
أمِثْلُ فكري أبا حسينِ
يموتُ في نَضرةِ السنينِ
والناسُ في حاجةٍ إليه
والقَطْرُ يرجوه للشؤونِ
مؤمِّلُ الكلِّ في شبابِ
ومُرتجى الأهلِ والبَنينِ
كذلكَ الموت كلَّ يومٍ
يُبْدي فنونًا من الجنونِ
فلو علِمْتَ المَنونَ شخصًا
لقلتَ لا عقلَ للمنونِ

وكان اسماعيل باشا صبري^(٢) كما لا يخفى، من كبار الشعراء ومن حسنات مصر الكبرى، وقد رثى صديقه أمين باشا فكري بقصيدة أثبتتها شوقي في ديوانه تعظيمًا لمقام الرائي والمرثي، فيها أنذا أيضًا أقفو أثر شوقي، فأنشر رثاء شوقي ورثاء صبري، وأعزّزهما بثالث هو رثائي لأمين باشا. فقد كان صديقي، وكان من شبّان مصر المُشار إليهم بالبنان، والذين يجدر بمصر وبغيرها من بلاد العرب، أن ترثيهم وتبكيهم على طول الزمان. قال اسماعيل باشا صبري:

وهبتك يا دهر من تطلبُ
أبعدَ أمينٍ أخٌ يُصحبُ

(١) الوتين: عِرْقٌ رئيسي في القلب.

(٢) اسماعيل صبري باشا، (١٨٥٥-١٩٢٣)م. شاعر مصري، كان أستاذًا للشعراء من معاصريه، امتاز بأسلوبٍ موسيقيٍّ على بلاغة وعمق.

فأَيَّ وِدَادِ أَمْرِي أَخْطَبُ
وَأَيَّ شَمَائِلِهِ أُنْدُبُ
فَبَيْنِي وَبَيْنَكَ مَا يُوجِبُ
مِنَ الْقَلْبِ أَوْ أَنْتَ لِي أَقْرَبُ
وَهَذَا لَذَا أَبْنٌ وَهَذَا أَبٌ
نَدِيمِي جَذِيمَةٌ^(١) لَا يَكْذِبُ
فَكَانَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَحْسَبُ

طَوَيْتَ الْمَوَدَّةَ فِي شَخْصِهِ
وَأَيَّ بَدِيلٍ لَهُ أُرْتَضِي
أَمِينٌ أَتَدُّ فِي النَّوَى وَأَرْعَنِي
أَتَذَكُرُ إِذْ أَنْتَ مَنِّي النَّيَاطُ
وَإِذْ نَحْنُ هَذَا لِهَذَا أَخٌ
وَمَنْ قَالَ عَنَّا مِنَ النَّاطِرِينَ
حَسِبْتَ بِأَنَّكَ لِي خَالِدٌ

كم تتوارد الخواطر بين الشعراء، فأني عندما قرأت هذا البيت تذكّرت قولِي منذ شهر من الزمن، لا غير، في رثاء صديقي الحاج عبد السلام بنونة:

مَدِيدَ عَمْرٍ وَأَلْقَاهُ وَيَلْقَانِي
نَفْسِي بِنَجْوَى وَأَرْعَاهُ وَيَرْعَانِي
وَكَمْ أَرْتُنِي اللَّيَالِي ضِدَّ حِسَابِي

قَدْ كُنْتُ أَمَلُ أَنْ نَحْيَا مُعَاَصِرَةً
أَدْعُو لَهُ فِي جَنَانِي كُلَّمَا انْفَرَدْتُ
فَخَيْبَ الْبَيْنُ مَا قَدْ كُنْتُ أَمَلُهُ

ثمَّ يَقُولُ اسْمَاعِيلُ صَبْرِي:

يَمُوتُ الْفَتَى الطَّاهِرُ الطَّيِّبُ
وَعَتَبِي عَلَى فِعْلِهِ أَعْجَبُ
لِكُلِّ أَمْرٍ أَجَلٌ يُكْتَبُ
وَكُلٌّ إِلَى حَتْفِهِ يَسْرُبُ
وَيَدْلِفُ بِالْعِلَّةِ الْأَشْيَبُ
وَأَهْلُ الْغِنَى بِالْغِنَى أَتَعْبُ
وَيَخْرُجُ بِالْعَالَمِ الْمَذْهَبُ
فَأَيُّ مَوَارِدِهَا الْأَعْذَبُ
وَتَدْرِي يَدُ الْمَوْتِ مَنْ تَضْرِبُ؟

أَفِي ذَا الشَّبَابِ وَهَذَا الْإِهَابِ
عَجِيبٌ مِنَ الْمَوْتِ أَفْعَالِهِ
بِذَا حَكَمَ اللَّهُ فِي خَلْقِهِ
وَجَدْتَ الْحَيَاةَ طَرِيقَ الْمَمَاتِ
وَيَعْتَرُ فِيهِ الْفَتَى بِالشَّبَابِ
وَيَتَعَبُ بِالزَّادِ فِيهِ الْفَقِيرُ
وَيَشْقَى أَخُو الْجَهْلِ فِي جِهْلِهِ
مَوَارِدُ مَشْرُوعَةٌ لِلْحَيَاةِ
أَتَعْلَمُ عَيْنَ الرَّدَى مَنْ تُصِيبُ

(١) جذيمة: هي حذام، امرأة جاهلية، ضرب بها المثل في صدق الخبر وقوة البصر.

أَلَمَّا تَكَامَلَ نَوْرُ الْأَمِينِ
وَأَوْفَى الْمَكَارِمَ مَا أَمَلْتُ
طَوَاهُ الرَّدَى عَلَمًا فَانطَوَى
فِيَا نَائِيًا وَالْهَوَى مَا نَأَى
هَنِيئًا لِدَارِ تَيْمَمَتِهَا
ومنها:

وَجَادَكَ رِضْوَانُهُ الصَّيِّبُ
وَأَنْتَ لِأَذْيَالِهَا تَسْحَبُ
تُخَامِرُهَا مُهَجٌ تُسْكَبُ

حَسِبْتَ عَلَى رَحِمَاتِ الرَّحِيمِ
وَلَا زَالَتِ السُّحُبُ مِنْهَلَةً
وَرَوْتِكَ مِنَّا دَمُوعٌ تَسِيلُ

وأما رثاء كاتب هذه السطور للمرحوم أمين باشا فكري، فهو هذا:

وَأَمَالٌ عِزٌّ أَنْ أَنْ تَتَقَطَّعَا
مِنَ الشَّرْقِ شَطْرًا فِي مَنِيَّتِهِ مَعَا
يَلُوحُ لَنَا أَنْ مُزْنَهَا لَيْسَ مُقْلَعَا
فَلَقِي لَعْمَرِي الْجَمْعُ وَالْفَرْدُ مَصْرَعَا^(١)
فَمَا أَجْدَرُ الْأَرْزَاءِ أَنْ تَتَنَوَّعَا

بَقِيَّةٌ مَجْدٍ وَدَّعْتُ يَوْمَ وَدَّعَا
وَلَمْ تَنْعِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا وَأَدْمَجْتُ
لَقَدْ جَادَنَا نَوْءُ الزَّمَانِ مَصَائِبَا
وَسَبْحَانَ مَنْ سَاقَ الرَّدَى بِوَجْوهِهِ
إِذَا شَنَّ جَيْشُ النَّحْسِ فِي الْقَوْمِ غَارَةً

وقد وقع مصاب أمين باشا فكري في أبام كانت كلها مصائب سياسية على مصر، من جملتها استيلاء الإنجليز على السودان:

إِذَا سَاءَ لَا يَرْتَادُ لِلْعَذْرِ مَوْضِعَا
وَأَفْسَدَ مِنْ مَعْنَى وَعَطَّلَ مَرَجِعَا
وَرَاخَى مَجَالَاتِ الْمَرَاثِي وَأَوْسَعَا
وَتَنَقَّلَ الْعَلِيَا بِمَارِنٍ أَجْدَعَا^(٢)

وَمَا كُنْتُ حَتَّى الْيَوْمِ أَحْسَبُ دَهْرَنَا
أَلَمْ يَكْفِهِ مَا غَالَ مِنْ كُلِّ غَايَةٍ
وَضِيْقُ أَرْجَاءِ الرَّجَاءِ فَسَدَّهَا
كَذَا فَلْيَجِلِّ الْخَطْبُ وَلِيْفُدِّحِ الْأَسَى

(١) إشارة إلى استيلاء الإنجليز على السودان في ذلك الوقت.

(٢) المارن: طرف الأنف؛ وجدع الأنف: قطعه.

حَلَفْتُ فَلَا تَمْرِي^(١) النَوَابِ عِبْرَتِي
فَهَيْهَاتَ مَا إِنْ أُسْتِثَارَ لِفَاجِعٍ
أَحْبَبْنَا إِنْ قِيلَ فِي الصَّبْرِ رُجْلَةٌ
تَرَكْتُ لَكُمْ فَضْلَ التَّصَبُّرِ صَبْرَةً
وَسَعَسَعِ كُؤُوسَ الدَّمْعِ بِالدَّمِ سَاقِيَا
وَأَعْتَدَهَا نَحْوَ الْأَمِينِ خِيَانَةً
فَمَا كَانَ وُدِّي لِلْأَعْزَةِ ضَائِعًا
حَمَلْتُ لَهُ بَيْنَ الضُّلُوعِ أَمَانَةً
وَأَصْفِيئَتُهُ مِنِّي إِخَاءٌ لَوْ أَنَّهُ
وَمَا زِلْتُ أُرْعَاهُ عَلَى الْبُعْدِ صَاحِبًا
فَإِنْ يَكُ هَذَا التُّرْبِ غَرَّبَ بَدْرُهُ
وَلَا لَمَعَتْ تِلْكَ الْبُرُوقُ وَقَدْ خَبْتُ
قَضَى الْيَوْمَ مَنْ رَاعَ الْبَرِيَّةَ رُزُوهُ
وَلَمْ يَأْتِ فِيهِ الْمَوْتُ مُصْرَعًا وَاحِدٍ
أَصَابَ الْحِجْيَ وَالْعِلْمَ وَالْحَزْمَ وَالْمَضَا
وَمَا بَقِيَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ سَجِيَّةٌ
فَلَوْ نَفَعَتْ عِنْدَ الْمَنُونِ شِفَاعَةٌ
وَدَافِعَ عَنِ حَوْبَائِهِ طَيِّبُ الثَّنَا
وَلَكِنْ دَاعِي الْمَوْتِ لَا يَقْبَلُ الرَّشَى
مُصَابٌ لَهُ الْأَقْطَارُ إِذْ شَاعَ زَلْزَلَتْ
أَذَلَّ إِبَاءَ الدَّمْعِ مِنْ كُلِّ جَامِدٍ

على فائتٍ ولينعِ دهرُكَ مَنْ نَعَى
إِذَا كَانَ مِنْ أَوْدَى الْأَمِينِ الْمُشِيْعَا
فَإِنِّي فَتَى أَبْغِي أَنْوَحَ وَأَجْزَعَا^(٢)
وَقَلْتُ لَطَرْفِي الْيَوْمَ لَا تَأَلُّ مَدْمَعَا
فَكُلَّ شَرَابِ زِينَهُ أَنْ يُشْعَشِعَا
إِذَا أَنَا لَمْ أُشْتَفَّ ذَا الْكَأْسِ مُتْرَعَا
وَلَا كَانَ قَلْبِي مِنْ أَخِي الْوَدِّ بَلَقْعَا^(٣)
لَوْ احْتَمَلَتْهَا الشُّمُّ مَالَتْ تَصَدُّعَا
أَعَارَ اللَّيَالِي صَفْوَهُ رَقْنَ مُشْرَعَا
وَقَبْلِي نَجْمُ الْأَفْقِ مِثْلِي مَنْ رَعَى
فَلَا زَهَرَتْ تِلْكَ الْكَوَاكِبُ مَطْلَعَا
بُرُوقُ أَمَانٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ لُمَعَا
وَلَيْسَ يُرَاعُ النَّاسَ إِلَّا لِأَرْوَعَا
وَلَكِنَّهُ كَانَ الْمِصَارِعَ أَجْمَعَا
وَصَدَقَ الْمِبَادِي وَالذَّمَامَ الْمُمْتَعَا
وَلَا خِطَّةٌ إِلَّا ثَوْتُ مَعَهُ مَضْجَعَا
كَفْتُهُ فَرِيدَاتُ الْخِصَالِ مُشْفَعَا
وَخَلَّدَهُ لَوْ أَنَّ فِي الْخُلْدِ مَطْعَمَا
وَلَمْ يَلْقَ أَسْرَى مِنْهُ نَفْسًا وَأَرْفَعَا
فَلَا رَكْنَ لِلْعَلِيَاءِ إِلَّا تَزَعَزَعَا
فَلَمْ يَبْقَ عَاصٍ مِنْهُ حَتَّى تَطْوَعَا

(١) مَرَّتِ الْعَبْرَةُ: كِنَايَةٌ عَنِ الْغَزِيرِ مِنَ الدَّمْعِ. وَالْمَعْنَى اللَّغْوِيُّ يَتَّصِلُ بِاحْتِلَابِ النَّاقَةِ، فَالْمَرِي هِيَ النَّاقَةُ الْغَزِيرَةُ اللَّبْنُ؛ وَمَرَى النَّاقَةُ: مَسَحَ صَرَعَهَا لِتَدْرُ.

(٢) الْقَوْلُ عَلَى (أَنْ) الْمَضْمَرَةَ، أَي أَنْ أَنْوَحَ وَأَجْزَعَا.

(٣) الْبَلَقْعُ: (لُغَةً) هِيَ الْأَرْضُ الْمُقْفَرَةُ، يَرِيدُ أَنْ قَلْبَهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا خَالِيًا مِنْ صَدِيقِهِ أَمِينٍ بَاشَا فِكْرِي.

ولم أر في الأرزاء أبعد غارة
 عشية ما في الناس مالك عبرة
 عشية لم تبق الفجيرة مسكة
 عشية وارى الناس شمساً وأظلمت
 فكم من يد أضحت تدقُّ بأختها
 فإن يك وادي النيل أشعر فقدهُ
 كريمٌ به لفظ الكريم مقصّرٌ
 توخى طريق الخير محضاً كأنه
 له خُلُقٌ سهلٌ ونفسٌ أبيّةٌ
 وأقلام صدق راجع في ولائها
 فمن بعد عبد الله كان مؤملاً

ولا من قلوب الخلق أقرب موقعا
 ولا زفرات الصدر إلا تصنعا
 ولا حزم للمحزون إلا مضيعا
 لها الشمس حتى لا ترد بيوسعا^(١)
 وكم شفة باتت تجاور إصبعا
 فلا جبل في الشام إلا تضعضعا
 إذا قيل عن قوم كرام توسعا
 من المهد حتى اللحد جاء لينفعا
 وحسن خلال دونها الروض ممرعا
 لأكتب من أوتي الكتاب وأبرعا
 بأن لم يغيب ذا الأصل إلا وفرعا

هذه ثلاث مرثيات في أمين باشا فكري، لثلاثة أصحاب من أعز الناس عليه وأعزهم له. ولو فسح المقام لاستوفيت له ثلاثين مرثية، وكان بها قمنا^(٢) وقد تأملت الآن كيف كنا أربعة أصحاب، كلُّ يحبُّ أخوانه الآخرين ويجلِّهم، فقد كنتُ أحبُّ أمين باشا وأجلُّه، وكانت بيننا مراسلة بعد مراسلة مع أبيه عبد الله باشا فكري، الأديب المشهور؛ وكنتُ أحبُّ اسماعيل باشا صبري، وأجلُّه إجلالي لأخيه أمين باشا. ولما كان صبري محافظاً للأسكندرية وقدمها من أبناء عمي، الأمير عارف أرسلان، احتفى به اسماعيل باشا جدِّ الاحتفاء، فلما عاد ابن عمي إلى سورية، رغب إليّ في أن أرسل قصيدة بامضائه إلى اسماعيل باشا شكراً له على حفاوته، فنظمت قصيدة سيقراها قراء ديواني الذي تحت الطبع. وكنتُ أحبُّ شوقي وأجلُّه وأقدِّسه، كما يدلُّ عليه كتابي هذا، وكان شوقي يحبُّ صبري وفكري، ويجلِّهما كما ترى من شعره. فهؤلاء ثلاثة أخوان في نسق، قد طوتهم المنون من دوني، وبقيت في حياة موحشةً بفقد أصحابي، مقفرةً من أنس أترابي، أتسلى عنهم بالآثار والذكريات، وأرسلُ وراءهم الحسرات والزفرات الكبريات، قائلاً:

(١) يوشع: أحد أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجل له الغروب، فأجابه، ونسى الشمس عن غروبها.

(٢) قمنا: جديراً.

لا حياة بعد صدع ذلك السَّمَل، وبي منهم فوق الرمل ما بهم في الرمل، كما قال أبو الطَّيِّب من قبل.

ولمَّا أصاب اسماعيل باشا صبري، حادث في القطار الحديدي، بعث شوقي إليه بهذه الأبيات التي يصحّ أن تكون من جملة مختاراته:

أنتني الصُّحُفُ عنكَ مُخْبِرَاتِ
بخطبك في القطار أبا حُسينِ
أصِيبَ المجدُّ يومَ أُصِبتَ فيه
وساءَ الناسَ أنْ كَبَتِ المعالي
ولستُ بناسِ الآدابِ لَمَّا
وكانَ الشعرُ أجزعها فؤادًا
هجرتَ القولَ أيامًا قصارًا
بحادثةٍ ولا كالحادثاتِ^(١)
وليسَ من الخُطوبِ الهَيِّناتِ
ولم تَخُلُ الفضيلةُ من شكاةِ
وأزعجهم عِثارُ المكرُماتِ
تراءت رَبِّها مُتلهِّفاتِ
وأحرَصها لديكَ على حياةِ
فكانتُ فترةً للمُعجزاتِ

فما أبدع قوله: فكانت فترةً للمعجزات.

- شعره العائلي -

ولشوقي من الشعر العائلي، لاسيما في خطاب أولاده، ما يرويه الناس ويستلطفونه، وإني لا اختار منه قوله لولده علي بك يوم ولادته:

رُزِقْتُ صاحبَ عهدي
هُمُ يحسدوني عليهِ
ولا أراني ونجلي
وسوفَ يَعْلَمُ بيتي
فيا علي لا تَلْمِني
وأنتَ منِّي كروحي
فإن أساءَكَ قولي
وتمَّ لي النَّسْلُ بعدي
ويَغِبطوني بسعدي
سنلتقي عندَ مجدِ
أني أنا النَّسْلُ وحدي
فما احتقارُكَ قصدي
وأنتَ من أنتَ عندي
كذُّبُ أباك بوعدِ

(١) من جوازات الشاعر تسكين الحركة للضرورة الشعرية، كقوله: طُرُقًا أي طُرُقًا، ومَعَهُ أي مَعَهُ، والصُّحُفُ أي الصُّحُفُ.

قيل لنابليون الأول: نريد أن نكتب تاريخ عائلتك، وقد تحيرنا من أين نبدأ؟ فقال: ابدأوا بي فإني أنا عائلتي. وشوقي يريد أن يقول إن ولده لن يبلغ عبقريته، فلذلك سيكون شوقي وحده هو نسل شوقي، وليس في ذلك تصغير لابنه، أي لا غضاضة على ابنه إن قصر عن شأو أبيه، فليس كأبيه كثير من الخلق؛ فشوقي يعرف من نفسه أنه سينفرد، وأن ابنه لن يدركه، وهذا يشير إلى المعنى الذي قلته أنا من رثاء شوقي:

هذا أمير الشعر غير مدافع في الشرق أجمع منذ فتق لهاته
ما عاب أهل العبقرية أتهم قد قصرُوا في الجري عن غياته

ومثله قولي في الإفرنج، يوم هزمهم صلاح الدين في وقعة حطين:

لم يجبنوا ساعة وإن فشلوا وإنما الليث دونه النمر

وكان لي صاحب لا بأس به، وكان تامّ الرجولة فارساً مغواراً قارياً للضيف، وإنما كان له أب أعلى منه بدرجات، فكان الناس يروّنه صغيراً في جانب أبيه، ويقولون لي: ولد النجيب لا ينجب، فكان يقول لي: إني والله لم أكن مقصراً في وغي ولا في ندى، ولا ممن يجد الناس فيه منتقداً، ولكن أبي فضحني وأظهر قصوري، ولو كنت ابن رجل آخر لكان أظهر لنجابتي، فإنما الناس تصغر وتكبر بالقياس.

- الحكايات في شعر شوقي

ولم يجتزئ شوقي من الشعر بالأمداح والمراثي، والأمثال الحكيمية والمراسلات الأخوانية، بل هام في جميع أودية الخيال وضرب من عالم الإنشاد في كل منكب؛ وأبى إلا أن يكون شاعراً كامل الأدوات، مستوفياً الشروط، قابضاً على ناصية الفصاحة، في كل موضوع، فنظم شعراً كثيراً من الحكايات على نسق لافونتين^(١)، ونظم على ألسن الطير والحيوانات والحشرات. وله في الجزء الأول من الشوقيات أربعون أو خمسون صفحة ملأى بهذه الخرافات، جعل كلامه فيها مناسباً لموضوعها، فهو كما يعلو في المقامات العالية، ويختار لها فخم الكلام وشريف اللفظ، يُسِفّ في المقامات الساذجة ويُلبسها القوالب الخفيفة السهلة اللاتقة بها، فتراه مثلاً يقول في حكايته عن الخفّاش ومليكة الفراش:

(١) لافونتين، (١٦٢١ - ١٦٩٥)م. شاعر فرنسي، صاحب كتاب "الأمثال" الشهير، يمتاز أسلوبه بعذوبته وحيويته.

مررت على الحُقَاشِ مليكةُ الفراشِ
تطيرُ بالجموعِ سعيًا إلى السُّمُوعِ
فعطفتُ ومالتُ واستضحكتُ فقالتُ:
أزريتَ بالغرامِ يا عاشقَ الظلامِ
صِفْ لي الصديقَ الأسودا الخاملَ المُجرِّدا
قالَ: سألتِ فيه أصدقَ واصفيه
هو الصديقُ الوافي الكاملُ الأوصافِ
جِوارُهُ أمانُ وسِرُّهُ كِتمانُ
وطرفُهُ كليلُ إذا هفا الخليلُ
يحنو على العُشاقِ يسمعُ للمشتاقِ
وجملَةُ المقالِ هو الحبيبُ الغالي
فقالَتِ الحمقاءُ وقولُها استهزاءُ
أين أبو المسكِ^(١) الخصي ذو الثمنِ المُستَرخِصِ؟
من صاحبِ الأميرِ الظاهرِ المُنيرِ؟
إنَّ عُدَّ فيمنَ أعرفُ أسمو به وأشرفُ
وإنَّ سئلتُ عنه وعن مكاني منه
أفاخِرُ الأترابا وأنثني إعجابا
فقالَ يا مليكةُ وربَّةَ الأريكةِ
إنَّ من الغُرورِ ملامةَ المغرورِ
فأعطني قفاكِ وامضِ إلى الهلاكِ
فتركتُهُ ساخره وذهبتُ مُفاخره
وبعدَ ساعةٍ مضتُ من الزمانِ فأنقضتُ

(١) أبو المسك: كنية كافور الأخشيدي، الذي مدحه المتنبّي ثم هجاه.

مَرَّتْ عَلَى الحُقَاشِ	مَلِيكَةُ الفِرَاشِ
نَاقِصَةً الأَعْضَاءِ	تَشْكُو مِنَ الفَنَاءِ
فَجَاءَهَا مُنْهَمَكَا	يُضْحِكُهُ مِنْهَا البُكََا
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ	هَلَكْتَ أَوْ لَمْ تَهْلِكِ
رُبَّ صَدِيقٍ عَبْدٍ	أَبْيَضُ وَجْهَ الوُدِّ
يَفْدِيكَ كَالرَّئِيسِ	بِالنَّفْسِ وَالنَّفِيسِ
وَصَاحِبِ كَالنُّورِ	فِي الحُسْنِ وَالظُّهُورِ
مُعْتَكِرُ الفُؤَادِ	مُضَيِّعُ الوِدَادِ
حِبَالُهُ أَشْرَاكُ	وَقُرْبُهُ هَلَاكُ

نعم، كم من شخص حَسَنَ الوجه سيءَ الفعل، هذا الذي يريد شوقي أن يَسْتَفِصَه^(١) من هذه الحكاية، كما أراد أن يستخرج من هذه الحكايات كلها، العِبْرَ التي استخرجها أمثاله من الشعراء أو من الكُتَّاب الذين تكلموا على ألسن الحيوان والطيور، ورموا مرامي حكيمة، بعيدة من هذه الحكايات الصغيرة، وهم مثل صاحب كليلة ودمنة وغيره.

ومن أقوال شوقي في هذا الباب حكاية عن الأسد عندما استوزر الحمار:

لَلَيْثِ مَلِكُ القِفَارِ	وَمَا تَضُمُّ الصَّحَارِي
سَعَتْ إِلَيْهِ الرَعَايَا	يَوْمًا بِكُلِّ انْكَسَارِ
قَالَتْ تَعِيشُ وَتَبْقَى	يَا دَامِي الأَظْفَارِ
مَاتَ الوَازِرُ فَمَنْ ذَا	يَسُوسُ أَمْرَ الصَّوَارِي
قَالَ الحِمَارُ وَزِيرِي	قَضَى بِهَذَا اخْتِيَارِي
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ	مَاذَا رَأَى فِي الحِمَارِ؟
وَخَلَّفَتْهُ وَطَارَتْ	بِمُضْحِكِ الأَخْبَارِ
حَتَّى إِذَا الشَّهْرُ وَلَّى	كَلِيلَةَ أَوْ نَهَارِ

(١) استفص: استخرج.

لم يشعُر اللَّيْثُ إِلَّا
الْقِرْدُ عِنْدَ الْيَمِينِ
وَالْقِطُّ بَيْنَ يَدَيْهِ
فَقَالَ مَنْ فِي جُدُودِي
أَيْنَ اقْتِدَارِي وَبَطْشِي
فَجَاءَهُ الْقِرْدُ سِرًّا
يَا عَالِي الْجَاهِ فِينَا
رَأْيُ الرَّعِيَّةِ فِيكُمْ

وقال في القبرة وابنها:

رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الرِّيَاضِ قُبْرَهُ
وَهِيَ تَقُولُ يَا جَمَالَ الْعُشِّ
وَقِفْ عَلَيَّ عَوْدٍ بِجَنْبِ عَوْدِي
فَانْتَقَلْتُ مِنْ فَنَنِ إِلَى فَنَنِ
كَيْ يَسْتَرِيحَ الْفَرَخُ فِي الْأَثْنَاءِ
لَكِنَّهُ قَدْ خَالَفَ الْإِشَارَةَ
وَطَارَ فِي الْفُضَاءِ حَتَّى ارْتَفَعَا
فَانكسرت في الحال رُكْبَتَاهُ
وَلَوْ تَأَنَّى نَالَ مَا تَمَنَّى
لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ وَقْتُهُ

وقال في الثعلب وهو في السفينة:

أَبُو الْحُصَيْنِ جَالٌ فِي السَّفِينَةِ
يَقُولُ إِنَّ حَالَهُ اسْتِحَالًا
لِكَوْنِ مَا حَلَّ مِنَ الْمَصَائِبِ

وَمُلْسُكُهُ فِي دَمَارِ
وَالكَلْبُ عِنْدَ الْيَسَارِ
يَلْهُو بِعَظْمَةِ فَارِ
مِثْلِي عَدِيمَ الْوَقَارِ
وَهَيْبَتِي وَاعْتِبَارِي؟
وَقَالَ بَعْدَ اعْتِذَارِ
كُنْ عَالِي الْأَنْظَارِ
مَنْ رَأَيْكُمْ فِي الْحِمَارِ

تُطِيرُ ابْنَهَا بِأَعْلَى السَّجْرَةِ
لَا تَعْتَمِدُ عَلَى الْجَنَاحِ الْهَشِّ
وَافْعَلْ كَمَا أَفْعَلُ فِي الصُّعُودِ
وَجَعَلْتُ لِكُلِّ نَقْلَةٍ زَمَنُ
فَلَا يَمَلُّ ثِقَلَ الْهَوَاءِ
لَمَّا أَرَادَ يُظْهِرُ الشُّطَارَةَ
فَخَانَهُ جَنَاحُهُ فَوَقَعَا
وَلَمْ يَنْلِ مِنَ الْعُلَا مَنَاءُ
وَعَاشَ طَوْلَ عَمْرِهِ مُهْتَا
وَغَايَةَ الْمُسْتَعْجَلِينَ فَوْتُهُ

فَعَرَفَ السَّمِينِ وَالسَّمِينَةَ
وَإِنَّ مَا كَانَ قَدِيمًا زَالًا
مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَى الثَّعَالِبِ

وَيُغْلِظُ الْإِيمَانَ لِلدُّيُوكِ
بأنهم إن نزلوا في الأرض
قيلَ فلما تركوا السفينه
حتى إذا ما نَصَفُوا الطَّرِيقَا
وقال إذ قالوا عَدِيمَ الدِّينِ
فإنما نحن بنو الدَّهَاءِ
ومن تخاف أن يبيعَ دينه
لِما عسى يقي من الشُّكُوكِ
يروُنَ منه كلَّ شيءٍ يُرضي
مشى مع السمينِ والسَمِينَه
لم يبقَ منهم حولَه رفيقا
لا عَجَبٌ إن حَشَّتْ يَمِينِي
نعملُ في الشِدَّةِ للرِّخَاءِ
تكفيك منه صُحْبَةُ السَّفِينَه

وخلاصة القول أن شوقي لم يهمل هذا الباب أيضًا، وأنه دنا في اللفظ إلى الغاية التي تدركها الأطفال ويحفظها الجهال، ولكلِّ مقامٍ مقال. وكان مثله في هذا مثل بشار، فقد حدث ابن مهرويه عن أبيه، قال:

قلت لبشار، يا أبا معاذ إنك لتأتي بالأمر المتفارق، فمرة تثير بشعرك العجاج، فتقول:
إذا ما صَرَبْنَا صَرْبَةً مُضْرِبَةً
إذا ما أَعْرُنَا سَيِّدًا من قبيلةِ
هتكننا حجابَ الشمسِ أو قَطَرَت دما
ذرى منبرٍ صَلَّى علينا وسلما
ثم تقول:

ربابُ رَبَّةِ البَيْتِ
لها سبعُ دجاجاتِ
تَصَبُّ الخَلَّ في الزَيْتِ
وديك حَسَنُ الصَّوْتِ

فقال بشار: «إنما أكلتم كلَّ إنسان على قدر معرفته، فأنت وعلية الناس يستحسنون ذلك، وأما رباب فهي جارية تربي دجاجًا وتجمع بيضهن، فإذا أنشدتها هذا حرصت على جمع البيض، وهو أحسن عندها وأنفق من شعري كله. فإذا أنشدتها في النمط الأول ما فهمته ولا انتفعت بها».

قلنا: وهذه قضية لا جدال فيها، فالثوب ينبغي أن يُفَصَّل على قدر القامة، والقول يجب أن يتناسب مع الحالة، وقد أورد أبو العلاء المعري قصة بشار هذه في عرض الكلام على قصيدة المتنبي السخيفة في صبة، وهي التي أولها:

ما أنصفَ القومُ صَبَّةً
وأُمّه الطَّرْطُوبَةَ

فقال: «إنَّ أبا الطَّيِّبِ اجتاز يوماً بالطف، فنزل بأصدقاء له، وصادف ولداً اسمه ضَبَّةٌ يغدر بكلِّ أحد، وسارت الخيل إلى هذا العبد واستركبوه، فلزمه السير معهم، فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه، وليس سلاحه لهم إلاَّ شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم، ويسمِّي أبا الطَّيِّبِ بشتمه، وأراد القوم أن يجيبه أبو الطَّيِّبِ بمثل ألفاظه القبيحة وسأله ذلك، فتكلَّف لهم على مشقَّة، وعلم أنه لو سبه لهم معرضاً، لم يفهم ولم يعمل فيه عمل التصريح، فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو قال تلك الأبيات: ما أنصف القوم ضَبَّةً... إلخ. وروى المعري عن ابن جنِّي أنه قال: ورأيتُه (أي رأى المتنبي)، وقد قرأت عليه هذه القصيدة وهو ينكر إنشادها.

قلت: وهذا دليل على أنَّ المتنبي كان خَجَلٍ من نفسه ونَدِمَ على إرسال تلك الكلمة المشثومة التي صارت السبب في قتله وحرمان الناس من ذلك اللسان، وذلك الجنان اللذين بَخَلَ بمثلها الزمان. فأما المعري فلشدة إعجابه بالمتنبي وما اشتهر من حبه له، فقد حاول أن يتمحَّل له عذراً وأن يدمج هذه القصيدة تحت حكم "لكلِّ مقامٍ مقال"، وهذا التشبيه محال. ثمَّ حاول من جهة أخرى عذراً ثانياً، وهو أن يجعل هذه القصيدة على ألسن أولئك الجماعة الذين كان يشتمهم ضبة، وهو أيضاً عذر ضعيف أرقّ من خيط باطل، إذ المتنبي يعلم أنه مهما قال فقوله لا بُدَّ أن يسير، وأنَّ الكلمة الفاردة من مثله تُحفظ وتبقى وتعلّق في الأذهان، فكيف المنظوم الذي تسير به الركبان؟ والحقيقة، أنها كانت سويعة نحس، غفل فيها المتنبي عن نفسه وغاب عن حسّه، فأرسل هاتيك الأبيات، وهو يظنُّ أنها لن تتجاوز ذلك المكان، وأنه إنَّما يشفي بها غليل جماعته، أو أنه يضحكهم على ضبة، ونسي أنه بهذا العمل قد وضع نفسه في صفِّ ذلك السفیه، الذي وصفوا ما وصفوا من سفاهته وحمقه، ومَن ذا يعضُّ الكلب إذا الكلب عضّه؟ فكانت من أبي الطَّيِّبِ هذه النبوة القبيحة سبباً في إتلافه ومصيبة الأدب العربي، بفقد رجل كان من أرجح أدباء الدنيا ميزاناً وأقواهم برهاناً وأذلقهم لساناً. ومن هذه القصة يجب أن تؤخِّد العبرة اللازمة، والعظة التي لا يجوز أن تفارق الخاطر، وهي أنَّ الرجل الكبير يجب أن يبقى كبيراً في جميع أطواره، وأن يعلم أنَّ كلَّ ما يقوله سيسير ويُحفظ عليه، وأنه سيبقى ويُنسب إليه. والقول لقائله كالولد لناجله. ومن أحسن مزايا شوقي أنه لم يتلوَّث بشيءٍ من هذه القاذورات، وأنَّ أدب النفس كان أثيرَه، فنزهه عن المرافثة^(١) قليل نظمه وكثيره، فلا أثار بقوله حفائظ ولا هاج أحقاداً، وقد مضت جميع معاركه الأدبية على سلامة.

(١) رَكَت في كلامه: أفضح.

- شعر الملاحم

وقد آن لنا الآن أن نصف من شعر شوقي القسم الذي هو فيه الشاعر الفرد والأسد الورد، وهو شعر الملاحم épique أو الشعر التاريخي الذي بدأ فيه الأولين والآخرين، وسما وحلق في عيون جميع الناظرين. وإني برغم عصبيتي لصديقي محمود سامي باشا البارودي أقول إنه قد فاته هذا الغرض، ولم يُقيِّض له الله هذه الفتوحات التي قيَّضها لشوقي والتي ضارع فيها شعراء الإفرنج وكفر عن سيئاته في المديح ومبالغاته، إن كان لا بُدَّ أن يُحسب ذلك عليه من السيئات.

وقد فرط شوقي إلى هذا الحوض من أول مرّة، وتنبّه له في مقبل عمره، ففي سنة ١٨٩٤، أي بعد اجتماعنا في باريز بسنتين لا غير، كانت له تلك الهمزية التي قالها عن وادي النيل وأنشدها في مؤتمر المستشرقين المنعقد في جنيف، وهي التي يقول فيها:

وحداه ^(١) بِمَنْ تُقِلُّ الرِّجَاءُ	هَمَّتِ الْفُلُكُ واحْتَوَاهَا الْمَاءُ
ها سماءٌ قد أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ	ضربَ الْبَحْرُ ذُو الْعُبابِ حَوَالِدِ
ض شِبَاكًا تَمَدَّهَا الدَّمَاءُ ^(٢)	ورأى المارقون ^(٣) من سَرَكِ الْأَر
تَدَجَّى كأنَّهَا الظُّلْمَاءُ	وجبالاً مَوَائِجًا فِي جِبَالِ
لُ وَهَاجَتِ حُمَاتُهَا الْهَيْجَاءُ	وَدَوِيًّا كَمَا تَأَهَّبَتِ الْحَي

هذا البيت الأخير ينظر إلى قول المتنبي عن بحيرة طبرية:

تهدر فيها وما بها قَطْمٌ	والموجُ مثل الفحول مُزبدةٌ
جيشا وغي هازمٌ ومُنْهَزِمٌ	كانها والرياح تَضْرِبُهَا

ثمَّ يقول:

كهضابٍ ماجت بها البيداءُ	لُجَّةٌ عند لُجَّةٍ عند أخرى
يتولّى أشباحهنَّ الخفاءُ	وسفينٌ طورًا تلوح وحينًا
كالهوادي يهزهنَّ الحداءُ	نازلاتٌ في سيرها صاعداتٌ

(١) حداه: من حدا الإبل، وحدا بها: ساقها وغنى لها.

(٢) المارقون: (هنا) الهاربون.

(٣) الدماء: البحر.

هذا من الوصف، الذي يصح أن يكون مثلاً في الإبداع وصحة التصوير، فتأمل عندما تكون في عرض البحر الخضم تنظر السفين عن بُعد تارة تلوح لك أشرعتها من بعيد، وطوراً تحدق فلا تراها من سعة اليمّ وارتفاع أمواج الخضم، وتأمل أيضاً تشبيهه للسفن في صعودها ونزولها على ظهر الموج التي تتقاذفها، بالإبل السائرة في البيداء، فراكب السفينة كراكب البعير، لا يفتأ يشعر بنفسه صاعداً نازلاً. ثمّ يقول وهو من أبداع ما قيل:

رَبِّ إِنْ شِئْتَ فَالْفِضَاءُ مَضِيقٌ	وَإِذَا شِئْتَ فَالْمَضِيقُ فِضَاءٌ
فَلْجَعَلُ الْبَحْرِ عَصْمَةً وَابْعَثِ الرَّحْدَ	مَمَّةً فِيهَا الرِّيحُ وَالْأَنْوَاءُ
أَنْتَ أَنْسُ لَنَا إِذَا بَعَدَ الْإِذْ	سِ وَأَنْتَ الْحَيَاةُ وَالْأَحْيَاءُ
يَتَوَلَّى الْبِحَارَ مَهْمَا ادْلَهَمَّتْ	مَنْكَ فِي كُلِّ جَانِبٍ لِأَلَاءِ
وَإِذَا مَا عَلَتْ فِذَاكَ قِيَامٌ	وَإِذَا مَا رَغَتْ فِذَاكَ دُعَاءُ
فَإِذَا رَاعَهَا جَلَالُكَ خَرَّتْ	هَيْبَةً فَهِيَ وَالْبَسَاطُ سَوَاءُ
وَالْعَرِيضُ الطَّوِيلُ مِنْهَا كِتَابٌ	لَكَ فِيهِ تَحِيَّةٌ وَثَنَاءُ

لا تظهر عبقرية شوقي ظهوراً باهراً، مثلما تظهر في هذا النوع من الشعر، فلو قلت إن كل ما قاله شوقي في باب المديح وباب الرثاء، وباب الحكايات، لا يوازي هذه الأبيات، لم أكن مبالغاً. فكان شوقي كلما علا الموضوع علا هو معه، فلما رأى أمامه جلاله هذا الخلق العظيم وتأمل جلاله خالقه تعالى، ارتفع به البيان إلى الدرجات العلى، وتعلق بسيرة المُنْتَهَى التي تليق بوصف تلك الجلالة. وأمّا الكتاب الذي يتكلم عنه، وهو عبارة عن العريض الطويل من هذا الخلق العظيم، الذي هو البحر، فإن لي حكاية هي من هذا الموضوع بسبيل.

كنت أيام الحرب مبعوثاً لسورية في الآستانة، دار الخلافة العثمانية، تولاها الله برحمته، وكانت بيني وبين عبد الحقّ حامد بك، الذي يقال له أديب الأتراك الأعظم، مودة أكيدة، ولم تنحصر في لحمه الأدب، بل تجاوزت إلى لحمه النسب، لأنّ أديب الأتراك الأعظم عربي الأصل ينتمي إلى عبد الحقّ السنباطي، وقد جاء سلفه إلى استانبول فاستركوا، وكانت لي معه - فسح الله في أجله لأنه لا يزال حياً - مجالس نتناشد فيها الأشعار ونتناقل الآثار، وفي ذات يوم صادفته ذاهباً إلى اسماعيل حقّي بك - من أدباء الترك، كان والياً لبيروت يوم انتهت الحرب - وهو من مردي عبد الحقّ حامد، فأخذ بيدي وقال لي، تعال معي، حتى نقرأ عليك

شيئاً من آثاره الجديدة، فمضيتُ معه حتى وافينا منزل اسماعيل حقي. وما استقر بنا الجلوس، حتى بدأ اسماعيل حقي يتلو علينا رواية "طارق" التي منها ما هو نظم ومنها ما هو نثر، وكل ذلك بالتركي، فوصلنا إلى مكان يسميه عبد الحق حامد (مناجاة)، وهو أن طارقاً يولي وجهه سطر السماء ويناجي ربه، بأقوال يضرع بها إليه، ولستُ متذكراً منها الآن إلا قوله: يا رَبِّ أَلَمْ تَقُلْ لَنَا كَذَا وَكَذَا فِي كِتَابِكَ الْمُنَزَّلَةِ؟ أَلَمْ تَقُلْ كَذَا وَكَذَا بِلِسَانِ الطَّبِيعَةِ الَّتِي هِيَ أَيْضًا مِنْ كِتَابِكَ الْمُنَزَّلَةِ؟ إِلَى آخِرِ مَا يَقُولُ. فلما وصل إلى هذه الجملة، وهي أن الطبيعة هي من الكتب المنزلة، قلتُ أنا فوراً: وربما كانت أقدمها. فاهتز لذلك عبد الحق حامد، وقال لاسماعيل حقي: "أمان أمان بوني يازيكز" أي بالله عليك أكتب هذه. وبقي يرّد هذه النكتة، وهي أن الطبيعة هي أقدم الكتب الإلهية. وبعد ذلك بمدة وجدت رسالة طارق مطبوعة، وفي حاشية الفصل الذي اسمه "مناجاة" مكتوبة هذه الجملة: "وربما كانت هي أقدم الكتب المنزلة"، وبجانبها يقول: "هذه الجملة هي من الأمير شبيب أرسلان". فقضيت العجب من أمانة هذا الشاعر الكبير، الذي أبي أن ينسب هذا المعنى لنفسه، وأصرّ على نسبه إليّ بالصراحة، بينما كثير من الشعراء والأدباء، يتحلون أقوالاً لم يكونوا هم قائلها ويتبنون معاني قد يكون نجلها غيرهم. ولكن عبد الحق حامد أغنى من أن يسرق.

والشاهد هنا أن الخواطر تواردت، وأن شوقي يرى البحر كتاباً من كتب الله، له فيه تعالى تحية وثناء، وأن عبد الحق حامد الذي هو في الترك كشوقي في العرب، يرى في الطبيعة كتاباً إلهياً أنزله الله ليقرأه عباده. وأن هذا العاجز يرى هذا الكتاب أقدم الكتب الإلهية، لأن الله خلق الطبيعة قبل أن بعث الأنبياء وأنزل عليهم الوحي. ثم يقول شوقي:

يا زمان البخار لولاك لم تُفد	جَع بُنْعَمَى زَمَانَهَا الْوَجْنَاءُ ^(١)
فقدِيمًا عَنْ وَخْدِهَا ^(٢) ضَاقَ وَجْهُ الْإِلَهِ	أَرْضٍ وَأَنْقَادَ بِالشَّرَاحِ الْمَاءِ
وَأَنْتَهتْ إِمْرَةٌ الْبَحَارِ إِلَى الشَّرِّ	قِ وَقَامَ الْوَجُودَ فِيمَا يَشَاءُ
وَبِنِينَا فَلَمْ نُخَلِّ لِبَانِ	وَعَلَوْنَا فَلَمْ يَجْزُنَا عِلَاءُ
وَمَلَكْنَا فَالْمَالِكُونَ عَيْدُ	وَالْبِرَايَا بِأَسْرِهَا أُسْرَاءُ
قُلْ لِبَانِ بِنِي فَشَادَ فَعَالِي	لَمْ يَجْزُ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ

(١) الوجناء: الناقة الشديدة.

(٢) وَخْدُهَا: سيرها السريع وسعة خطوها.

بِأَلِّ سُمًّا وَأَنْ تُنَالَ السَّمَاءُ

ن وَدَانَتْ لِبَاسِهَا الْآنَاءُ

لَيْسَ فِي الْمَمَكِنَاتِ أَنْ تُثْقَلَ الْأَجْدَانُ

أَجْفَلَ الْجِنُّ عَنْ عِزَائِمِ فِرْعَوْنَ

يريد أن يقول، إِنَّ الْأَوَّلِينَ كَلَّمَا رَأَوْا عَجَبًا عَدَوْهُ مِنْ صِنْعَةِ الْجِنِّ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ مَعَ ذَلِكَ جَاءَ بِالْأَهْرَامِ الَّتِي لَمْ يَنْسِبْهَا أَحَدٌ إِلَى الْجِنِّ، وَهِيَ أَعْجَبُ وَأَصْعَبُ مِنْ كُلِّ مَا نُسِبَ إِلَى الْجِنِّ مِنْ بِنَاءِ الْبَشَرِ. ثُمَّ يَقُولُ:

وَيُورَى الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ

وَالْجَدِيدَانُ^(١) وَالْبِلَى وَالْفَنَاءُ

مُؤَافِصَعِبٌ عَلَى الْحَسُودِ الثَّنَاءُ

بِيَدِ الْبَغْيِ مَلُؤَهَا ظَلْمَاءُ

بِيَدِهَا وَالْخَلَائِقُ الْأَسْرَاءُ

حَمَةُ الرَّأْيِ وَالنُّهْيِ وَالذِّكَاؤُ

وَالْعُلُومُ الَّتِي بِهَا يُسْتَضَاءُ

نَا وَدَعْوَاهُمْ خَنْئِي وَافْتِرَاءُ

وَقُبُورٌ تُحَطُّ فِيهَا اللَّيَالِي

تَشْفُقُ الشَّمْسُ وَالْكَوَاكِبُ مِنْهَا

فَاعْذِرِ الْحَاسِدِينَ فِيهَا إِذَا لَا

زَعَمُوا أَنَّهَا دَعَائِمُ شَيْدَتِ

دُمَّرَ النَّاسُ وَالرَّعِيَّةُ فِي تَشَدُّ

أَيْنَ كَانَ الْقَضَاءُ وَالْعَدْلُ وَالْحُكْمُ

وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعْزَةِ مِصْرَ

فَادَّعَى مَا ادَّعَى أَصَاغِرُ آثِي

يريد أن يقول إن يونان، التي زعمت كون هذه الأهرام بُنِيَتْ بِالظُّلْمِ وَالْقَسْرِ عَلَى أَيْدِي الْعَبِيدِ، وَأَنْفَقَتْ عَلَيْهَا أَمْوَالُ الرَّعِيَّةِ، إِنَّمَا قَالَتْ ذَلِكَ حَسَدًا وَنَفَاسَةً، لِعَجْزِهِمْ عَنْ مِثْلِهَا، وَإِنَّ قَوْلَهَا فَحْشٌ وَافْتِرَاءٌ. ثُمَّ أَثْنَى عَلَى الْفِرَاعِنَةِ الَّذِينَ شَيَّدُوا تِلْكَ الْأَبْنِيَةَ الْخَالِدَةَ عَلَى الدَّهْرِ، تَتَحَدَّى الزَّمَانَ وَتَبَارِزُ الْحَدِثَانَ. وَقَالَ: إِنَّ تِلْكَ الدَّوْلَةَ قَدْ انْتَقَلَتْ إِلَى أَنَاسٍ خَالَفُوا سُنْنَ مَنْ قَبْلَهُمْ وَهُمْ مَلُوكُ الرَّعَاةِ، فَسَامُوا مِصْرَ الْعَذَابِ، فَتَرَاهُ يَقُولُ فِي هَؤُلَاءِ:

وَأِذَا مِصْرُ شَاةٍ خَيْرٍ لِرَاعِي السِّدِّ

قَدْ أَذَلَّ الرِّجَالَ فَهِيَ عَبِيدُ

وَلِقَوْمٍ نَوَالِهِ وَرِضَاهُمْ

فَفَرِيقٌ مَمْتَعُونَ بِمِصْرَ

وَأِذَا مِصْرُ شَاةٍ خَيْرٍ لِرَاعِي السِّدِّ

قَدْ أَذَلَّ الرِّجَالَ فَهِيَ عَبِيدُ

وَلِقَوْمٍ نَوَالِهِ وَرِضَاهُمْ

فَفَرِيقٌ مَمْتَعُونَ بِمِصْرَ

(١) الْجَدِيدَانُ: اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

(٢) إِمَاءٌ: مَفْرَدُهَا أَمَةٌ (بِالتَّخْفِيفِ)، هِيَ الْجَارِيَةُ الْخَادِمَةُ وَالْمَمْلُوكَةُ.

إن ملكت النفوس فابغِ رضاها
فلها ثورةٌ وفيها مضاءٌ
يسكن الوحش للوثوب من الأسر
ر فكيف الخلائقُ العُقلاءُ؟

يعني براعي السوء، أحد الملوك الرعاة الذين يقال لهم الهكسوس، والذين شوقي يقول فيهم:

أعلنتُ امرها الذئابُ وكانوا
في ثياب الرعاة من قبل جاءوا

وبعد أن وصف هذه الدولة بما وصفها به من استعباد مصر، التفت فنصح الإنجليز الذين يحتلونها اليوم مستبدين، فقال لهم: إن كنتم ترؤن أنفسكم قد تغلبتم على أهل مصر، فلا ينبغي أن تأمنوا انتفاضهم بعد خضوعهم لكم بالقوة، فإن للنفوس ثورة ومضاء. وإن الوحش تتحرك لتفلت من القيود، فكيف لا تتحرك البشر لتحطيم القيود؟ وليس لي اعتراض هنا إلا على قوله يسكن الوحش للوثوب من الأسر... إلخ. فإن السكون والوثوب لا يقترنان، ولو أنه قال ينزع الوحش للوثوب من الأسر لكان أقعد.

ثم أتى شوقي على تاريخ رمسيس وسيزوستريس، وأشاد بذكرهما إشادة تجدر بعظمة مصر في تلك الأعصر الخوالي، وما زال إلى أن وصل إلى قمييز ملك الفرس، الذي استولى على مصر وجعل أعزة أهلها أذلة، ووصف ما حلّ بملوك مصر، فقال:

بنتُ فرعون بالسلاسل تمشي
أزعج الدهر عريها والحفاءُ
فكأن لم ينهض بهودجها الدهر
ر ولا سار خلفها الأمراءُ
أعطيت جرّةً وقيل إليك الذ
هر قومي كما تقوم النساءُ
فمشت تُظهِر الإباء وتحمي الد
والأعادي شواخصٌ وأبوها
مع أن تسترقه الضراءُ
فأرادوا لينظروا دمع فرعو
بيد الخطبِ صخرةٌ صماءُ
ن وفرعون دمعهُ العنقاءُ^(١)
يسأل الجمع والسؤالُ بلاءُ
فأروهُ الصديق في ثوب فقيرٍ
كبي رحمةً وما كان من يبه
كي ولكن ما أراد الوفاءُ

(١) العنقاء: طائر مجهول، ويكتى به عن الشيء البعيد المنال.

يريد أن يقول إنَّ فرعون لم تبدر له دمعة، لمّا رأى ابنته تحمل الجرة وتذهب إلى النهر لتسقي كإحدى الإماء، ولكّنه لمّا رأى أحد أصدقائه يسأل الناس من فقره، أجهش، ولم يملك دمعه. وما كان سريع الدمعة، ولكن الوفاء غلبَ عليه.

ثمّ ذكر كيف أنّ الاسكندر غلب على مصر، وأزال منها حُكْمَ الفُرس، فقال:
طِلبَةٌ للعباد كانت لاسكندر
شاد إسكندرٌ لمصر بناءً
بلدًا يرحلُ الأنامُ إليه
والجواري^(١) في البحر يُظهرنَ عزّال
والرعايا في نعمة ولبطلي
موس^(٢) في الأرض دولةً علياءً
درّ في نيلها اليدُ البيضاءُ
لم تُشدّه الملوك والأمرأُ
ويحجُّ الطلابُ والحكماءُ
ملك والبحر صولةً وثرأُ
موس^(٢) في الأرض دولةً علياءً

يقول إنَّ مصر في عهد البطالسة صارت دار علم وحكمة، واستراحت فيها الرعايا وغلظ أمرها، وكان لها أسطول حربي وأسطول آخر تجاري، عبّر عنهما بقوله: «والبحر صولة وثرأ»، ثمّ ذكر خراب الدولة البطالسة بمجئ كليوباترة، فقال:

ضيّعت قيصرَ البريّة أنثى
فتنتُ منه كهفَ روما المرجى
فأتاها من ليس تملكه أن
يا لرَبِّي ممّا تجرُّ النساءُ
والحُسامَ الذي به الاتّقاءُ
شى ولا تسترقه هيفاءُ

أشار كيف لعبت كليوباترة بقلب قيصر، ثمّ بقلب أنطونيوس، حتّى جاءها أوكتافيوس الذي لم يؤثّر فيه جمالها، فغلب عليها، وانتحرت بأن وضعت حيّة على صدرها، وهو ما أشار إليه بقوله:

سلبتها الحياة فاعجب لِرِقطا
أراحَت منها الورى رِقطاءُ

ثمّ جاء هنا بالمقطع الذي هو بيت القصيد، والذي لم أزل أبحث في شعر المعاصرين فلا أجد ما يدانيه. ولو كان شوقي لم يقل غيرَه، لكان كافيًا لمجده وأجره ولجزاه دنيا وآخرة، تأمل في هذا المفصل المدهش في جلاله معناه وجزالة مبناه، قال:

(١) الجواري: السفن.

(٢) بطليموس: حاكم مصر بعد الإسكندر، ومؤسس دولة البطالسة من سنة ٣٢٣ ق.م إلى سنة ٣٠٠ ق.م، إذ سقطت في عهد كليوباترا.

بَ بِهَا يُهْتَدَى وَلَا أَنْبِيَاءُ
جَمَعْتَهَا الْحَقِيقَةُ الزَّهْرَاءُ
فَلَهُ بِالْقَوَى إِلَيْكَ انْتِهَاءُ
هِ فَإِنَّ الْجَمَالَ مِنْكَ حَبِيبُ
فِإِلَيْكَ الرَّمُوزُ وَالْإِيمَاءُ
بَا فَمِنْكَ السَّنَا وَمِنْكَ السَّنَاءُ
ثَارِ نَعْمَاكَ حُسْنُهُ وَالنَّمَاءُ
فَالْمِرَادُ الْجَلَالَةُ السَّمَاءُ
مَلِكُ فَضْلٍ تَحِبُّوهُ مِنْ تَشَاءُ
مَاكَ وَالْعَاصِفَاتُ وَالْأَنْوَاءُ
حَامٌ وَالْأُمَّهَاتُ وَالْآبَاءُ
خُضَّعٌ وَالْمُؤَنَّثَاتُ إِمَاءُ

رَبِّ سُقَّتَ الْعِبَادَ أَرْمَانَ لَا كُتُّ
ذَهَبُوا فِي الْهَوَى مَذَاهِبَ شَتَّى
فَإِذَا لَقِبُوا قَوِيًّا إِلَهًا
وَإِذَا آثَرُوا جَمَالًا بِتَنْزِيهِ
وَإِذَا أَنْشَأُوا التَّمَاثِيلَ غُرًّا
وَإِذَا قَدَرُوا الْكَوَاكِبَ أَرْبَا
وَإِذَا أَلَّهُوا النَّبَاتَ فَمَنْ آ
وَإِذَا يَمَّمُوا الْجِبَالَ سَجُودًا
وَإِذَا تَعَبَّدُوا الْمُلُوكَ فَإِنَّ الْ
وَإِذَا تُعَبَّدُوا الْبَحَارُ مَعَ الْأَسْدِ
وَسِبَاعِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَرْ
لِعَلَّاكَ الْمَذْكُورَاتُ عِبِيدُ

أراد شوقي أن يسرد تاريخ ديانات أهل مصر، فقال: إنهم قبل أن تنزل الكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل والقرآن، تحيروا في العبادة، وذهبوا مذاهب شتى يجمعها حقيقة واحدة هي الاعتقاد بالله، ولكنهم نشدوه من طُرُق مختلفة، فهذا يعبد القوي وذاك يعبد الجميل، وذلك ينحت التماثيل، ومنهم من عبدوا الكواكب، ومنهم من قدسوا الأشجار، ومنهم من انحنوا للجبال، ومنهم من ألهوا الملوك، ومنهم من سجدوا للبحار والأسماك والعواصف والطيور والوحش وغير ذلك. وكل المراد المقصود المنشود هو الحقيقة الإلهية. كأنما شوقي يعتذر عن تنوع عباداتهم هذه، وتسفل بعضها حتى صارت إلى الحيوانات بجهل الناس هناك، الطريق القويم، لعدم وجود الدليل. فكانت عقول الخلق في طفولتها، وكانوا يخشون ويرجون ويفزعون ويضرعون، ولا ينزل عليهم وحي يعرفون أنه الحق فيعولوا عليه، وما زالوا في هذه الحيرة حتى جاءت الرُّسُل فأنارت الطريق، وحصص الحق. وقد قدّم شوقي هذا الاعتذار عن تخبط البشر في عقائدهم بقوله: يا ربّ إنّنا عشقناك وهَمْنَا وراءك في كلّ مكان، فلا عجب إن كنا ضللنا السُّبُل.

رُبَّ هذي عقولنا في صباها
فِعشقناك قبل أن تأتي الرُّسُ
واتخذنا الأسماء شتى فلما
نالها الخوفُ واستباها الرجاءُ
لُ وقامت بحبك الأعضاء
جاء موسى انتهت لك الأسماءُ

ثم ذكر كيف أن فرعون ربى موسى، واعتمد على وفائه، فخانه موسى لأجل ربه،
لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فقال:

ظنَّ فرعون أن موسى له وا
لم يكن في حسابه يوم ربى
فراى الله أن يعقّ ولله تفي لا لغيره الأنبياءُ
مصر موسى عند انتماء وموسى
فيه فخرها المؤيد مهما
فِ وعند الكرام يُرجى الوفاءُ
أن سيأتي ضدّ الجزاء الجزاء
مصر إن كان نسبةً وانتماءً
هُزَّ بالسيد الكليم اللواءُ

فقد خرجنا هنا بالمصريين، من عهد الرموز والتمثيل والعبادات المتنوعة والآلهة،
أشكالاً وألواناً إلى عبادة الواحد الأحد، الذي دلّ عليه موسى، عليه السلام، فوضع أساس
السلام بما لا أظنّ عيسويّاً على وجه الأرض، قال أحسن منه، ولا مثله، ألا ترى أنه ليس
فيمن ينطق بالضاد من مسلم ومسيحي تقريباً من يجهل هذه الآيات:

وُلِدَ الرفقُ يوم مولد عيسى
وازدهى الكون بالوليد وضاءت
وسرت آية المسيح كما يسد
تملاً الأرض والعوالم نوراً
لا وعيدٌ ولا صولةٌ لا انتقامٌ
ملكٌ جاور التراب فلما
وأطاعته في الإله شيوخٌ
أذعن الناسُ والملوكُ إلى ما
فلهم وقفة على كل أرضٍ
دخلوا (ثيبة) فأحسن لقياً
والمروءاتُ والهدى والحياءُ
بسناه من الشرى الأرجاءُ
ري من الفجر في الوجود الضياءُ
فالشرى مائجٌ بها وضاءُ
لا حسامٌ لا غزوةٌ لا دماءُ
ملّ نابت عن التراب السماءُ
خُصَّعٌ خُصَّعٌ له ضعفاءُ
رسموا والعقول والعقلاءُ
وعلى كل شاطئٍ إرساءُ
هم رجالٌ بشيبة حكماءُ

أن ينالَ الحقائقَ الفُهَمَاءُ
 وإذا الدير رونقٌ وبهاءُ
 سُ ونيلُ الثراءِ والبَطْحَاءُ
 وملوكِ الحقيقة الأنبياءُ
 هم وكلُ الهوى لهم والولاءُ
 هم بما يُنكرونه أشقياءُ

فهموا السرَّ حين ذاقوا وسهلُ
 فإذا الهيكلُ المقدَّسُ دِيرُ
 وإذا ثيبةٌ لعيسى ومنفي
 إنما الأرض والفضاء لِرَبِّي
 لهم الحبُّ خالصًا من رعايا
 إنما ينكر الدياناتِ قومُ

بعد أن ذكر مجئ موسى بالشريعة الإلهية، جاء الدور إلى عيسى، فقال إنه بمولده وُلِدَ الرفق والحياء والمروءة وانتشر النور في الأرض؛ وكانت شريعة ليس فيها شيء غير اللين والعطف واللطف، تحمل الأذى وحبّ الأعداء والعفو عن الذنب وعدم مقابلة الشرّ بالشرّ، وقد عاش عيسى عليه السلام ما عاش، إلى أن رفعه ربّه إلى السماء، فتاب عنه في الأرض الحواريون، وهم قوم ضعفاء مساكين صيادو سمك أطاعوه، فصاروا بطاعتهم له مادة الأرض، وخضعت لهم الملوك والقيصرة، فضربوا في البلاد وقطعوا البحار ونزلوا بكلّ شاطئ. وجاء أحدهم (مُرْقُص)، فدخل ثيبة إحدى عواصم مصر، فتلّقاه أهلها وكانوا حكماء، فذاقوا الكلام الذي جاء به مُرْقُص واتبعوا ذلك النور الذي معه، وليس بعجب أن يفهم الحكمة الحكماء، فردّوا هياكلهم كنائس، وصارت مصر لعيسى. وحقيقة الأمر أنّ ملوك العالم هم الأنبياء، والناس تطيعهم من دون الملوك، لأنّ طاعة الأنبياء تخالط القلب، وطاعة الملوك لا تخالط إلا الجسم، والأنبياء لهم الباطن والملوك لهم الظاهر، وما أنكر الأديان قومٌ إلا شقوا بما أنكروه. ثمّ قال:

لات كالناس داوهُنَّ الفناءُ
 لُ الأقاليم إن أتاهم النداءُ
 لنا وسيمتهُ (ثيبةُ) العَصَمَاءُ
 لُ ومن بعد ما لِنُعْمَى بقاءُ

هرمت دولة القياصر والدو
 ليس تُغني عنها البلاد ولا ما
 نال (روما) ما نال من قبل آثي
 سنّة الله في الممالك من قب

أراد شوقي هنا أن يذكر هرم الدولة الرومانية، وأنّ الدول تهرم كما يهرم الرجال حسبما قال ابن خلدون، وأنها لا يُغني عنها كثرة الملك والمال إذا أتاهم أمرُ ربّها (فإذا جاء أجلمهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون). فرومة نالها ما نال من قبلها آثينا عاصمة يونان

وثيبة عاصمة مصر، ولم تكن دولة تبقى إلى الأبد. ولما هرمت الدولة الرومانية انتشرت في نواحيها الضلالة، ففتك بها الجهل وتشعبت المذاهب، وأخذ الناس يقتتلون على العقائد وعادوا إلى مثل الوثنية الأولى، وقطعوا ما أمر به أن يوصل، فرأى الله أن لا بُدَّ من القوة لإقامتهم على الحق، وأنه لا بأس بالسيف إذا لم ينجح الوعظ ولم تُغنِ النُّذُر؛ وقد يقطع الطبيب عضوًا من الجسم لسلامة الأعضاء. فقال شوقي وقد جعل هذه الحالة توطئة لظهور محمد عليه الصلاة والسلام:

وتولّى على النفوس هوى الأو	ثان حتّى انتهت له الأهواءُ
فرأى الله أن تُطَهَّرَ بالسي	ف وأن تغسل الخطايا الدماءُ
وكذاك النفوسُ وهي مراضُ	بعضُ أعضائها لبعضِ فداءُ
لم يُعادِ الله العبيدَ ولكن	سَقِيَتْ بالغباوة الأغبياُ
وإذا جلّت الذنوب وهالت	فمن العدل أن يهولَ الجزاءُ
أشرقَ النورُ في العوالم لما	بشّرتها بأحمدَ الأنبياءُ
باليتمِ الأميِّ والبشرِ المُو	حَى إليه العلومُ والأسماءُ

فهو يقول: إنَّ الله لا يريد لعباده إلا الخير، ولكن بعض عباده أصرّوا على المعاصي ومردوا على النفاق. وإذا كانت الذنوب عظيمة وأعظمها هو الشُّرك، فمن العدل أن تُقَمَّعَ بالسيف، إذ لا حيلة فيمن كانت قلوبهم غلفًا وآذانهم صُمًّا؛ ولذلك أرسل الله الرسول العربي اليتيم الأميِّ، الذي أنزل عليه الفرقان^(١)، فمحا الشُّرك وشدخ يافوخ^(٢) الكفر، وقد كنت أحبّ أن يستعمل شوقي محلّ قوله: فمن العدل أن يهولَ الجزاء. قوله: فمن العدل أن يجلّ الجزاء. لأنَّ جزاء تلك الذنوب التي عددها، لم يكن قاسيًا هائلًا بالنسبة إليها. وكان ينبغي لشوقي أن يذكر مبدأ الرسالة المحمدية بالنصح والقول الحسن، ودعوة الناس إلى الحقّ مدّة مديدة من الزمن، ليس فيها بأس ولا شدّة ولا شيء يختلف عن دعوة عيسى لقومه، إلى أن أصرّ المشركون على عنادهم، وحاولوا قتل الرسول الأمين لأجل بلاغه المبين، فهاجروا إلى قوم نصرّوه وآزروه حتّى لا تموت الدعوة ولا تذهب الحقيقة ضحية أهواء ذوي السلطة وأنصار الضلالة، فلم يقع الجزاء إلا بعد أن انقطع الرجاء، وما كان إلا جزاء وفاقًا.

(١) الفرقان: القرآن.

(٢) يافوخ؛ ويافوخ: من الرأس أعلاه وهي نقطة ضعيفة في الجمجمة. ويريد بقوله «شدخ يافوخ الكفر»: صدّعه بالإيمان.

ثمَّ قال:

قوَّةُ الله إن تولَّت ضعيفًا
أشرفُ المرسلين آيته النُّطُ
لم يَفُهْهُ بالنوابغ الغرَّ حتى
وأنته العقول منقادة اللُّبِّ
جاء للناس والسرايرُ فوضى
وحِمى الله مُستباحٌ وشرعُ الله والحقُّ والصوابُ وراءُ
فلجبريلَ جيئةً ورواحُ
يَحسبُ الأفقَ في جناحيه نوراً
تلك آيُ^(١) الفرقان أرسلها الله ضياءً يَهدي بها مَنْ يَشَاءُ
نَسَخَتْ سُنَّةَ النَّبِيِّينَ^(٢) والرُّسُدُ
وَحَمَاهَا غرُّ كرامٍ أشدَّا
تعبت في مِراسِه الأقوياءُ
قُ مبيناً وقومُه الفصحاءُ
سبق الخلقَ نحوه البلغاءُ
ولبى الأعوانُ والنُّصراءُ
لم يؤلَّف شتاتهنَّ لِوَاءُ
وهبوطُ إلى الثرى وارتقاءُ
سَكنته النجومُ والجوزاءُ
ل كما يَنسَخُ الضياءُ الضياءُ
عُ على الخصمِ بينهم رُحماءُ

قال: إنَّ الله إذا تولَّى ضعيفًا لم تقدر على مقاومته الأقوياء، ومَنْ ينصره الله فلا غالب له، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾^(٣)، وقال: إنَّ محمَّدًا هو أشرف المرسلين، وإنَّ الله بعث كلَّ رسول بآية، وإنَّ آية محمَّد، عليه السلام، كانت النُّطق المبيِّن، لأنه بُعث في قوم فصحاء، لسانهم أفصح الألسنة، وقرائحتهم أصفى القرائح، فهم أقرب أن يتأثروا بالفصاحة من كلِّ قبيل، ولذلك لم يَفُهْهُ الرسول بتلك الكلمات النوابغ، حتى أقبل البلغاء عليه قبل غيرهم، وانقادوا له، وقد كان الناس أوانتدٍ في شِقاق بعيد وفي ارتكاب محارم، يَتِدُون بناتهم، ولا يعلمون حلالاً ولا حراماً، وكان يتسلَّط قوئهم على ضعيفهم، ويجعلون الحقَّ دَبْرَ آذانهم^(٤)، فنزل جبريل على محمَّد، صلَّى الله عليه وسلَّم، بالشريعة التي ألَّفت بين قلوبهم وجعلتهم إخواناً، وطَهَّرت خلائقهم من تلك الآثام التي كانوا منغمسين فيها، ونقلتهم من عبادة الأوثان إلى

(١) آي: مفردها "آية". تقول: آي الله وآياته، وهي بمعنى واحد.

(٢) النبيين: مفردها "نبي"، وهي جمع مذكَّر سالم، ولها من الجموع "أنبياء" كذلك.

(٣) سورة القصص: الآية ٥.

(٤) يجعلون الحقَّ دَبْرَ آذانهم: أي أنهم يُغفلونه ولا يلتفتون به.

عبادة الرحمن، وذلك كله بآيات القرآن الذي نسخ ما قبله لا نسخ ضياء لظلام، بل نسخ ضياء لضياء، لأنَّ شريعة موسى كانت حقًا، فجاءت شريعة عيسى فأكملتها، ولأنَّ شريعة عيسى كانت حقًا فطرات عليها طواري، فجاءت شريعة محمد فقوّمتها وأعادتها إلى أصلها. قال: وقد تولّى حماية هذه الشريعة الجديدة، صحابة للرسول كرام (أشداء على الكفار رُحماء بينهم)، ثمَّ قال:

وتؤول العلوم والعلماء	أمة ينتهي البيان إليها
جاور الرشد أهلها والذكاء	كلما حثت الركب لأرض
ل ونالت حقوقها الضعفاء	وعلا الحق بينهم وسما الفض
زان من دينها إلى من تشاء	تحمل النجم والوسيلة والميد
هو طبُّ الوجود وهو الدواء	وتنيل الوجود منه نظاما
سنَّ والجاحدون والأعداء	يرجع الناس والعصور إلى ما
ذووها ويشتهي الأذكيا	فيه ما تشتهي العزائم إن هم
ولمن أثر الشقاء شقاء	فلمن حاول النعيم نعيم
ماء عجيبا أن تُنجب البيداء؟	أيرى العجم من بني الظل والمد
أ تراها آسادها الهيجاء	وتشير الخيام آساد هيجا
أرض طرا في أسرها والفضاء	ما أنافت على السواعد حتى ال
د ومصر والغرب والحمراء	تشهد الصين والبحار وبغدا

يقول: إنَّ الأمة العربية أمة ينتهي إليها البيان، وتجذ فيها العلوم صدوراً منسرحة، فهي تُقبل عليها بطبيعتها وتقيم وزناً للعلماء حيث كانوا، فكانت كلما استولت على قطر اهتز العلم، وربا ونشأ فيه العلماء الفحول، وعلت راية الحق ونال كل إنسان ما يستحقه بعمله واضمحلت الطبقات وارتفعت الفروق، وعلم الناس أنهم شرع في نظر الشرع، وأنَّ أكرمهم عند الله أتقاهم، وأنَّ الملك والسوقة سواء، وأنَّ جبلة الأيهم^(١) إذا لطم الأعرابي يقاد منه في الحال، وأنَّ الحد الشرعي يقام على الجميع من دون مراعاة وعلى ابن الخليفة، وأنَّ

(١) جبلة بن الأيهم (متوفى سنة ٦٤١م)، آخر ملوك الفساسنة.

الرسول يهتف قائلاً: (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لأمرتُ بقطع يدها)، وأنَّ عمر يقول: (والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد من يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة وليعمل لما عند الله، فإنَّ مَنْ قَصَّرَ به عمله لا يسرع به نسبه)، وأنَّ الرسول كان يقيد من نفسه، وأنَّ عمر كان يقيد من نفسه، وأنَّ علياً كان يساوي اليهودي في القضاء، فكانوا يصدعون بمبادئ القرآن ويطبّقونها على الكبير والصغير. وصادف أن الدولة الفارسية والدولة الرومانية كانتا قد أسرع إليهما الفساد، وضاعت فيهما الحقوق وعلا القوي فوق الضعيف؛ فما ظهر الإسلام حتى انهارت الأولى لديه انهياراً تاماً، وتقلّصت الثانية أمامه تقلّصاً أورث الإسلام، ثلثي ممالكها. فالعرب حملوا العدل الذي في دينهم إلى الأمم التي استولوا عليها، وأثاروا فيها حبّ العمران والسعي في مناكب الأرض، وصار هذا الدين نظاماً للوجود، يرجع الناس إليه في أمور الدنيا والعقبى، ولم يكن بدين آخرة فحسب، بل كان ناظماً للدنيا والأخرى معاً، أحلّ الله فيه الطيبات وبيّس ما تشتهي نفوس الأذكياء، وإنما حرّم الإسراف والخيلاء والإثم والاعتداء والمشى في الأرض مرحاً، فهو دين برٍّ بمنّ برّه صارم على من عقه. ثمّ قال: ولم يكن عجباً أن أبناء الصحراء، يفوقون أبناء الظلّ والماء ويتزوّن منهم ممالكهم، فطالما كانت الصحارى مواطن الآساد، فما ثارت هذه الآساد من بادية العرب حتى رأينا الأقطار تنتظم في ملكهم، من الصين شرقاً إلى المغرب والأندلس غرباً. ثمّ قال:

شادَ فيها والملّةُ الغراءُ	مَنْ كعمرو البلاد والضادُ ممّا
ضافيَ الظلّ دأبه الإيواءُ	شاد للمسلمين ركناً جسماً
فاطمأت وقامت الخلفاءُ	طالما قامتِ الخلافة فيه
إنَّ عمراً لنيرٌ وضاءُ	فابكِ عمراً إن كنت مُنصِف عمرو
ل لمن يقتنيه أفريقاءُ	جاد للمسلمين بالنيل والني
ل وفي رقه لها إزراءُ	فهي تعلقو شأننا إذا حرّر الني

لم يكن لشوقي بدّ من ذكر عمرو بن العاص، رضي الله عنه، وهو فاتح وادي النيل للإسلام ومتمّعه بتلك النعم الجسام. قال شوقي: إنَّ العروبة والإسلام كانا في مصر من غرس يدي عمرو، وأنه جعل من مصر ركناً للملّة الإسلامية، تأوى إليه وتدّرّ خيراتها عليه، فإذا مسّت المجاعة أهل المدينة (دار الخلافة وقتئذٍ) أغاثها عمرو بالأرزاق المتّصلة من وادي النيل.

قال: ففضل عمرو على الإسلام لا حد له، لأنه ملك المسلمين النيل، والنيل هو إفريقيا، وكفى بذلك وصفًا لعظمة العمل الذي قام به عمرو بن العاص.

ويظهر أن شوقي استطال تاريخ مصر في الإسلام، فلم يشأ أن يُعرج منه إلا بالحادثات الكبرى، وطوى دور الأمويين في مصر، ودور بني العباس، فلم يقل شيئًا عن آل طولون، ولم يُعرج على الفاطميين، مع أنه كانت لهم دولة زاهرة لمعت ردحًا من الدهر، ولعله تجانف عن ذكرهم بحيدهم عن طريق السنة والجماعة. وبالجملة، فقد قفز شوقي من زمن عمرو بن العاص طفرة واحدة إلى زمن صلاح الدين الأيوبي، فقال:

واذكر الغرَّ آل أيوب وامدح	فمن المدح للرجال جزاءُ
هم حُماة الإسلام والنفر والبيد	ضُ الملوك الأعزَّة الصُّلحاءُ
كلَّ يوم بالصالحية حصنٌ	وبلبيس قلعة شمَاءُ
وبمصر للعلم دار وللضيفا	نِ نارٌ عظيمةٌ حمراءُ
ولأعداء آل أيوب قتلٌ	ولأسراهم قِرى وثواءُ
يعرفُ الدينُ من صلاحٍ ويدري	من هو المسجدان والإسراءُ
إنَّه حصنه الذي كان حصنًا	وحِماهُ الذي به الاحتماءُ

أشار إلى ما كان عليه بنو أيوب من الحمية، وعزّة النفس الإسلامية، والصلاح والجهاد؛ وأنهم كانوا يبنون الحصون، ويشيدون دور العلم، ويقرون الضيوف، ويوقدون نار الوغى للأعداء ونار القِرى للقُصّاد، ويكرّمون أسراهم شأن الأبطال الكرماء. وأنّ الدين الإسلامي يعرف مقام صلاح الدين من حمايته، وأنّ الحُرّم الثلاثة تعرف خدمته العظيمة. أشار بقوله المسجدان إلى مكّة والمدينة، وبقوله الإسراء إلى القدس الشريف، وقال إنّه كان حصنًا للقدس وحمىً لذلك الحمى. ثمّ أتى على ذكر الحرب الصليبية لأنها من الملاحم الكبرى، فقال:

يوم سار الصليبُ والحاملوه	ومشى الغرب قومُه والنساءُ
بنفوس تجول فيها الأمانى	وقلوب تشورُ فيها الدماءُ
يُضمِّرون الدّمّار للحقّ والنّا	س ودين الذينَ بالحقّ جاءوا
ويهدّون بالتلاوة والصُّد	بان ما شادَ بالقنا البَناءُ

فتلقّتهمُ عزائمُ صدق
مزقت جمعهم على كلّ أرضٍ
وسبّتُ أمردَ الملوكِ فردّت
ولو أنّ المليكِ هيبَ أذاهُ
هكذا المسلمون والعربُ الحنا
فبهم في الزمان نلنا الليالي
ليس للذلّ حيلةٌ في نفوس

نُصّرَ للدينِ بينهنّ خِباءٌ^(١)
مثلما مزّق الظلامَ الضياءُ
هُ وما فيه للرعايا رجاءُ
لم يخلّصه من أذاها الفداءُ
لونَ لا ما تقوله الأعداءُ
وبهم في الوري لنا أنباءُ
يستوي الموتُ عندها والبقاءُ

من أحسن مزايا شوقي رسوخه في اللغة، فهو يقول (قومه والنساء)، وذلك لأنّ القوم هم جماعة الرجال، خاصّةً لأنهم يقومون بعظائم الأمور.

وقد قابل القوم بالنساء كأنه يقول: ومشى الغرب رجاله والنساء، وقد كانوا في حرب الصليب جاءوا بالفعل رجالاً ونساءً.

أما النساء فمنهنّ من كُنَّ قد جئنَ مع أزواجهنّ، ومنهنّ من كُنَّ قد استُجلبنَ للرفث^(٢)، وكان هذا الجيش من النساء كثيراً في جيش الإفرنج، وقد وصفهنّ العماد الأصفهاني الكاتب، في الفتح القدسي، بأسجاعه المعهودة وجناساته المعروفة وصفاً يلذّ المُجان^(٣)، ولكنّه يُنبئ بحقيقة تاريخية، تدلّ على أنّ هذا الأمر قديم العهد في جيوش الإفرنج.

ثمّ إنّ شوقي يشير كيف جاء الصليبيون بنفوس ملأى بالأمانى، وصدور مفعمة بالأحقاد، يريدون أن يقضوا على الإسلام ويخنقوا كلّ من دان به، وأن يهدموا الحقّ، وأن يدمروا من جاء بالحقّ.

وقال: إنهم لما هاجموا بلاد الإسلام تلقّتهم من المسلمين عزائم صادقة، نهض بها الدين، فنثرت جموعهم على كلّ أرض، وأسرت في بعض هذه الحروب لويس التاسع، ملك فرنسا، الذي يقال له القديس لويس، وانقطع أمل قومه منه ولكنّه فدى نفسه بالمال بعد مدّة من أسره، ولو كان المسلمون خافوا عاقبة إطلاقه ما قبلوا منه الفدية، ولكنهم كانوا أوثق بأنفسهم وأعظم اتكالاً على الله من أن يخافوا عاقبة تسريح ملك من ملوك أوربة.

(١) الحِباء: ما يُعمل من صوف أو وبر أو شعر للسكن.

(٢) الرفث: الفحش.

(٣) مُجان: مفرد ماجن، وهو من كثر مزاحه وقلّ حياؤه.

قال: وكان هكذا المسلمون من العزّ والمنعة. وعطف على قوله: (المسلمون) بقوله: (والعرب الخالون) من باب التخصيص على حدّ (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى)، وأنهم لم يكونوا كما يصوّرهم الإفرنج للناس، وأنا بهم سدنا في العالم زمنًا طويلًا وورثنا ما ورثناه من تاريخ مجيد. وقال: إذا استوى عند أمة الموت والحياة، فلا حيلة فيها للعدو، وهو من قبيل:

تَأخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أُتَقَدِّمًا

ولا بُدَّ لي هنا من الوقوف بعض الشيء، بل من الاعتراض على شوقي، رحمه الله، فقد قصّر المسافة بين زحف الصليبيين وبين تلقي المسلمين لهم بعزائم الصدق. والحال، أنّ بين العهدين حقبة يصحّ أن تُسمّى دهرًا، وذلك أنّ أول وقعة أضلتها الجموع الصليبية الجيش الإسلامي، كانت واقعة نيقية في الأناضول، التي وقعت بين الصليبيين والترك، وفاز بها الصليبيون واسترجعوا نيقية، وتاريخها ٢٦ يونيو سنة ١٠٩٧. ومنذ ذلك اليوم إلى واقعة "حطين" التي قضت على دول الصليبيين في الشرق، تسعون سنة، كان فيها الصليبيون يسرحون ويمرحون، في ظلّ فوضى الإسلام ومشاقّة بنيه بعضهم لبعض. فإنّه ما رأى الرايون ولا روى الرايون، ولا يمكن أن يتصوّر العقل مهما كان واسعًا، ولا الخيال مهما كان خصبًا، درجة الفوضى التي كانت عليها الدول الإسلامية وقتما زحف الصليبيون إلى الشرق. ففي كلّ بلدة أمير نائر على سلطانه، وفي كلّ قصبة شيخ نائر على أميره، وفي كلّ قطر دولة تناوئ أختها، وفي كلّ مملكة وزراء يمدّون أيديهم في الخفاء إلى أعداء دولتهم، والفاطميون في مصر حرب على العباسيين في بغداد، والسلاجقة حربٌ بعضهم على بعض، بين فرع ألب أرسلان أصحاب فارس، وفرع قطولش أصحاب قونية والأناضول، وجميع السلاجقة أعداء للدانشمنديين أصحاب شرقي الأناضول. وهذا كلّ سهل لا يُعدّ شيئًا بالقياس إلى فوضى سورية، التي كان كلّ من فيها تقريبًا يريد أن يكون مستقلًا.

فالشام في يد دقاق السلجوقي، وحلب في يد رضوان أخيه، وهما يقتتلان برغم أنهما أخوان، وحماة في يد أمير، وحمص في يد أمير آخر، وطرابلس لها أمراء، وفلسطين يتقاسمها الفاطميون والسلاجقة؛ ولا يقيم العامل في عمله أكثر من أشهر معدودة، حتّى يثور على دولته طمعًا في الاستقلال. ولا يوجد قائد حصن إلا وهو يأبى أن تكون فوق يده يد. وقد جاء الصليبيون فارتكبوا من الذبح والفتك والقتل العام، وحصد الرؤوس بلا استثناء،

واستئصال الأهالي المسلمين كالمحاربين، وإتلاف النساء والأطفال والشيوخ والأسرى، والتجاوز على الأعراض، وإنزال المُمِرَّات بيوت الصون والستر، ما لا رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على بال؛ وأسالوا من الدماء في أنطاكية، ومعرة النعمان، وحارم، وتلّ باشر، وعزاز، والرها، وسروج، وشيزر، وحماة، واللادقية، وطرابلس، وبيروت، ويافا، وعسقلان، وعكا؛ ما لا تصف هولهُ الألفاظ ولا تبلغ كنههُ العبارات. والطامة الكبرى في القدس، حيث تعترف تواريخهم نفسها بأن الخيل غاصت في الدماء إلى صدورها، وتواريخ العرب تقول إن الذين ذبحهم الصليبيون في المسجد الأقصى، كانوا سبعين ألفاً بينهم النساء والأطفال.

وكلّ هذا، لم يكن كافياً في نظر المسلمين، مدّة تسعين سنة، أن يتحدوا في وجه العدو، وأن يتركوا الشقاق والعداء فيما بينهم، ويتخلّصوا من هذه المجازر المستمرة التي كان الإفرنج يرتكبونها فيهم ويفتنونهم - لا في كلّ عام بل في كلّ يوم - مرّة أو مرّتين وهم لا يُدركون، بل كانوا يمدّون أيديهم لمعاهدة الإفرنج، وقد يجتمعون معهم على إخوانهم وجيرانهم، ويكون الإفرنج قد قفلوا من بلدة للمسلمين فتحوها واستأصلوا جميع من فيها، فيأتي إليهم أمير من أمراء المسلمين، وهم غائصون في دماء المسلمين، يعاهدهم ويمشي معهم على أمير آخر من قومه كأنه لم يفعل شيئاً.

ولمّا فتح الصليبيون أنطاكية، وذبحوا تلك الألوف المؤلفة من مسلمي أنطاكية وما يجاورها، كانت الدولة الفاطمية ترسل وفداً من القاهرة لتهنئة الصليبيين بهذا الفتح العظيم، وتعرض عليهم الخلف، وكان الصليبيون قد ظفروا بالمسلمين في إحدى الوقائع، يوم كان الوفد الفاطمي ضيوفاً عندهم، فأرسل أمراء الصليبيين إلى الوفد الفاطمي ثلاثمائة رأس من رؤوس قتلى المسلمين، ينفحون الوفد بها ويكرّمونه بمشاهدتها، كما لو قدّموا لهم شيئاً من الفاكهة مثلاً. وكان الفاطميون يُظهرون سرورهم بذلك الفوز الصليبي، وكان الأمراء بنو عمّار، أصحاب طرابلس، ينصحون الخدمة للصليبيين، ولولاهم لانكسر بودوين الأول، عندما كان في شمالي سورية. ومن أمثال هذه النوادر أشياء لا تدخل تحت الاحصاء قد استقصيتها كلّها من كتب العرب وكتب الإفرنج معاً، ومحصتها تمحيصاً لا يدع إمكاناً لعارض شكّ ينقدح في صحتها.

ولم تكن هذه الحوادث عبارة عن فلتات، جاءت على خلاف القياس، أو وقعت في الأحايين من غير انتباه، بل استمرت هذه الفوضى الإسلامية بشكل لا يمكن عقل عاقل أن

يُذرك مداه مدة سنتين، إلى سبعين سنة. وما كفى تمزيق المسلمين بعضهم لبعض، حتى نجحت منهم فرقة الاسماعيلية الحشاشين، وتمالأوا مع الإفرنج، وصار هؤلاء كلما خشوا عادية أمير مسلم يرؤن فيه خطراً عليهم، أو يبدو لهم منه أنه يسعى في جمع شمل الإسلام، رموه بهؤلاء الحشاشين، فذهب هؤلاء واغتالوه. وقد يكونون في هذه المؤامرة في اتفاق مع أناس من ملوك المسلمين، وذلك كما اغتيل مودود، قائد الجيش السلجوقي، الذي جاء لاستنقاذ مسلمي سورية، فخاف طغطكين، أمير دمشق، من مغبة الأمر وأرسل من اغتاله في الجامع الأموي وهو يصلي، وكان ذلك بتواطؤ بين طغطكين والصلبيين. وكما اغتيل برسوق، صاحب حلب والموصل، وهو يصلي في جامع الموصل، وكان من كبار المجاهدين. وكثيراً ما جاءت جيوش جرارة من آل سلجوق، مجتمعة من فارس والعراق والجزيرة، لأجل استخلاص سورية من أيدي الإفرنج، فلم تكن تصل هذه الجيوش إلى سورية، حتى تجد كثيراً من أمراء المسلمين في سورية قد انحازوا إلى الإفرنج، ووقفوا صفاً واحداً معهم، في وجه تلك الجيوش الآتية لاستنقاذهم، وقاتلوا أشد قتال. ثم ترجع هذه الجيوش إلى بلادها وتترك المسلمين في سورية بإزاء الإفرنج، فيعود الإفرنج ويكرّون على المسلمين، وينقضون العهد الذي كانوا عاهدوهم إياه، ويذبحون الرجال والنساء والأطفال، ثم لا تجد المسلمين يتوبون ولا يذكرون، ولا تجد مع ذلك أمراء الإسلام في سورية مستفيدين أيّ عبرة من نكث الإفرنج المتكرّر، ولا متناهين عن غيهم وغرامهم بالشقاق، وقاتل بعضهم بعضاً.

وإني لأجد هذا الشقاق في كلّ أمة ولا يخلو منه مكان، وقد وقع بين الصليبيين أنفسهم، ولكن إن كان الشقاق عاماً، فلا شك في أنّ تسعة أعشاره هي عند المسلمين والعشر الواحد، عند سائر الأمم بأجمعها. وإن فسح لي الوقت لأكتب كتاباً وأسميه (الفوضى الإسلامية وما جنته على المسلمين، والوحدة الإسلامية وما جنته للمسلمين). وحسبك أنّ الصليبيين بعد فتحهم للقدس، رجع أكثر المقاتلة منهم إلى بلادهم. قيل أنه رجع منهم عشرون ألف مقاتل، فلم يبق في القدس إلاّ عدّة مئات لا غير، أي كان بيت المقدس بقي بلا حامية، وكانوا أو انئذ لو جمعوا جميع جند الصليبيين في سورية، كما زادوا على أربعة أو خمسة آلاف، وهم مع ذلك أشتات في كلّ بلدة منهم شردمة يسيرة. ومع هذا، فإنّ فوضى المسلمين، قد كفلت للصليبيين البقاء والاطمئنان، ولم تحدّثهم أنفسهم بأن يتحدوا على هذه الشراذم المشتة، ويخلصوا بلادهم من العبودية لها.

وما زال هذا الأمر على هذه الصفة، التي ليس لها مثال في التاريخ، حتى ظهر عماد الدين زنكي، وهو عامل من عمال السلاجقة، فكان أول واضع لأساس الوحدة السورية في وجه الصليبيين، بعد أن أدب ملوك الطوائف من المسلمين؛ وتلاه ابنه نور الدين العادل الشهير، الذي وطّد تلك الوحدة، فتمكّن من الإيقاع بالصليبيين وأراهم أنّ في السويداء رجالاً؛ ثمّ تلاه صلاح الدين يوسف، فكان ما كان ممّا لا يحتاج إلى بيان.

وقد حذف شوقي هذا القسم المؤلم المخجل، المُدْمِي للقلوب، من تاريخ الإسلام، في قصيدته هذه، وطوى هاتيك الحقبة التاعسة التي وصمت الإسلام بالعار، وأدهشت الإفرنج أنفسهم ممّا رأوا من تخاذل المسلمين، وجاء رأساً يُنوّه بعزائم صلاح الدين ورهطه، التي بدّلت الأرض غير الأرض، ورأى فيها الإفرنج من الإسلام، غير الإسلام الذي عرفوه من قبل. ولرأى هذه السطور، قصيدة في صلاح الدين، هي من شعر الملاحم، نظمتها إذ أنا في طبرية سنة ١٩٠٢، ومطلعها:

أحسنُ ما فيه يسرُّ النظرُ وادِ بحيث الأردنّ ينفجرُ^(١)

وقد كانت مجلة المقتطف نشرتها في حينها، ثمّ أعادت جريدة الفتح نشرها في العام الماضي، وهي ستظهر في ديواني الذي هو الآن تحت الطبع. ولذلك لا أجد داعياً لإعادتها هنا برمتها، ولكنّي أذكر منها بعض أبيات:

أسس عيسى هنا شريعته وقومُ موسى توارتهم فسروا
وفي حروب الصليب قد رفعتُ راياتُ دين الذي نمتُ مُضْرُ

وقبل أن دخلت في تاريخ صلاح الدين، وجدت فرصاً ذكر المقدمة التي مهّدت له طريق الوحدة الإسلامية بإزاء الإفرنج، بدلاً من تلك الفوضى، وهي دولة آل زنكي، عماد الدين بن آق سنقر، ثمّ ولده نور الدين العادل، المشهور بالعدل والزهد وحبّ النبيّ، فقلت فيه:

فاتحة النصرِ في ولاية نور الد ين ملكٌ بالعدل يأتزُرُ
تقرّ عينُ النبيّ سيرته ويرتضي مثل هديه عُمرُ
مجاهدٌ ماهدٌ بغرته زال البلا واستحالتِ الغيرُ

(١) نهر الأردن.

ثم ذكرت تربية نور الدين لصلاح الدين، وكيف أصلح صلاح الدين يوسف أحوال المملكة المصرية، فقلت:

أصلحَ شعثَ الأمور فانقلبت
بيوسفَ مصرُ وهي تفتخرُ
وأما يوم حطين، فقلت فيه:
يا يوم حطين كم حططت من ال
عدوا على الشرق بالجيوش فلم
وكلُّ جيشٍ أراد صدَّهُمو
ومنها في وصف الواقعة:

الشرق والغرب بعد طول وغي
ثلاثة والنزال بينهما
فمن هنا آل أحمد دلف
ومن هنا معشرُ المسيح مشى
كأنما قومنا وقد وثبوا
كأنما قومنا وقد ثبتوا
كم من بغي طيره بأجنحة
ذاقَ العدى من سلافِ طعنهم
تبارزا والبرازُ مختصرُ
نزالٌ من بعد يومه العُصرُ
والذكر يُتلى في الصّف والسورُ
والصلبوت الشهيرُ والصورُ
زعازعٌ للغصون تهتصرُ
شمٌ حصون لها القنا جذرُ
إذ قصرت عن ضميره الضمرُ
خمرًا بغير العنقودِ تعتصرُ

ثم ذكر كيف دارت الدائرة عليهم وفرّ منهم كونت طرابلس مع خيله، ووقع جيشهم كله في الأسر:

لما رأوا الأمرَ غير ما حسبوا
ولوا ظبي يوسف^(١) ظهورهم
وأدبرَ القمص^(٢) مع فوارسه
والناس من فوق صبرهم صبروا
تأخذ منها فوق الذي تذر^(٣)
ما غره مثل غيره الغررُ

(١) جزر السباع: اللحم الذي تأكله.

(٢) ظبي يوسف: سيوف صلاح الدين.

(٣) تذر: تبقّي وتدع.

(٤) القمص: هو كونت طرابلس، فرّ يومئذٍ قبل نهاية القتال.

والهَيْكَلِيَّونَ^(١) مع قَسَاوِرِهِمْ
 لم يَجْبُنُوا سَاعَةً وَإِنْ فَشَلُوا
 أَوْثَقَ بِالْأَسْرِ كُلَّ جَيْشِهِمْ
 قَاصِمَةُ الظَّهْرِ لِلْفَرَنْجِ غَدَتُ
 بِهَا جَدُودُ الْإِسْلَامِ قَدْ صَعَدَتْ
 حِظُّ ابْنِ أَيُّوبٍ أَنْ يَفُوزَ بِهَا
 وَحِظُّ قَوْمٍ بَغَوْا الْجِهَادَ فَلَمْ
 لم يَبْقَ إِلَّا هَيَاكِلُ دُثْرُ
 وَإِنَّمَا اللَّيْثُ دُونَهُ النَّمِرُ
 وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ ضِمْنَ مَنْ أُسِرُوا
 وَقَعَةُ قَرْنِي حِطِّينَ مُدَّ ظَهَرُوا
 مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ أَهْلُهُ عَثَرُوا
 وَاللَّهُ فِي خَلْقِهِ لَهُ أَثَرُ
 يَشْغَلُهُمْ عَنِ جِهَادِهِمْ وَطَرُ

ومنها في كيفية استيحاء صلاح الدين للإفرنج، بعد أن صاروا جميعاً في قبضة يده، قيل
 كان عددهم ذلك اليوم ثلاثين ألف مقاتل، وقيل خمسين ألفاً:

أَبَى عَلَيْهِ الْإِبَاءُ مَصْرَعَهُمْ
 أَرَادَ أَنْ يَشْهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ
 إِنَّ ذَوِيهِ الْأَعْلُونَ فَضْلَهُمْ
 وَإِنَّهُ فِي السَّلَامِ غَالِبُهُمْ
 عَوْمِلَ بِالْأَسْرِ مُوقِنٌ بِرَدَى
 وَعَفْوُهُ وَالْخَلَائِقُ الزُّهْرُ
 عِقَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ إِذْ قَدِرُوا
 فِي الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ لَيْسَ يَنْحَصِرُ
 وَغَالِبٌ وَالْحُرُوبُ تَسْتَعْرُ
 وَجَلَّ مَلِكًا مَعَ الْعَمَى الْعَوْرُ

ومنها في كيفية قتله للبرنس أرناط أمير الكرك، وهو من أمراء فرنسا. يقال له reinaud
 de chatillon، وكان الأمير من أخبث أمراء الإفرنج خلقاً وأسوأهم عهداً، وأكثرهم نكاية
 بالمسلمين، مراراً أراد صلاح الدين أن يصمد إليه في الكرك، ويريح الإسلام منه، فكان يستشفع
 لديه ويتعهد بإصلاح نفسه. وكان صلاح الدين، رحمه الله، يصفح عنه لما هو معروف به
 من سعة الصدر والميل إلى العفو. ولكن أرناط كان غداراً لا حيلة فيه.

وأخيراً، قبض أرناط على قافلة من الحجّاج قاصدة إلى الحجاز، فألقى بهم في سجن قلعة
 الكرك ونهبهم وجرّدهم من كلّ ما معهم، وقال لهم: ادعوا محمّدكم يخلّصكم. ووصل
 خبر هذه الواقعة إلى صلاح الدين، وكان وقتئذٍ في الديار الجزرية يفتقد ملكه هناك، فأنحى
 الناس على السلطان صلاح الدين باللائمة وقالوا له: إنك مازلت تعفو عن هذا الرجل

(١) الهَيْكَلِيَّونَ: هم الذين كان يقال لهم "التامبليّة" وكان لهم نظام خاص، وقاموا بدور عظيم في الحرب الصليبية.

الذي لا يستحقّ العفو، فتأملُ الآن ماذا صنع بعد عفوك. وكان صلاح الدين ذلك اليوم مريضاً، قد اشتدّت به العلة. وما زالوا به حتى أقسم لهم بأنه إذا وقع أرناط في يده ليقته بيده، فكان وقوع أرناط في يوم حطين مع ملك القدس وسائر أمراء الإفرنج، وجلس السلطان بعد انتهاء الواقعة وجلس أمامه الأمراء الإفرنج. ومن شدة الحرّ جيء بماء مثلوج، فشرب منه السلطان وأعوانه وشرب أمراء الصليبيين، ولما وصل الدور إلى أرناط قال السلطان للساقى: أنت سقيته أما أنا فلم أسقه. قال القاضي بهاء الدين بن شدّاد، صاحب سيرة صلاح الدين المسماة بالمحاسن اليوسفيّة، وكان ملازماً للسلطان يقيد كل ما يراه ويسمعه: إن صلاح الدين كان على جميل عادة العرب لا يُجوز قتل من نزل وأكل من الزاد وشرب من الماء، فأراد أن يقول إن الساقى هو الذي سقى أرناط من نفسه.

ففهم الناس من هذا، أن السلطان لا يريد أن يعفو هذه المرّة عن برنس الكرك، بعد أن نذر بقتله. ثمّ قام السلطان وانتهاز أرناط وضربه بالسيف، فرماه وأجهز عليه الأعوان، وعندما رماه في الأرض قال له: أنا أقتصّ منك لمحمّد. فأخذ ملك الإفرنج يرتجف ظلماً بأن السلطان قاتله في تلك الساعة، كما قتل أرناط. فقال له صلاح الدين: ليسكن روعك، فإن الملوك لا يقتل بعضهم بعضاً، وإنما نذرت قتل هذا الرجل لكثرة ما أفحش من النكايّة بالمسلمين، وكلّ مرّة كنت أصفح عنه وهو يعود إلى غدره، ثمّ إنّه قذف علناً نبينا، صلّى الله عليه وسلّم، فلهذه الأمور قد استثنيتّه من العفو.

ولقد وردت هذه الحادثة في الأبيات الآتية:

بنكته السهل ضاق والوعرُ	عفوًا به عمّهم وأخرج من
إذ لم تحك به النذرُ	وفى بأرناط نذره بيدِ
ها أنذا للنبي أنتصرُ	وقال إذ تله بصارمه
مخضوبة صارمًا هو الذكّر ^(١)	أزوج تحت التهليل مهجته
يملاه بعد ما رأى الدغرُ	فأصبح الملك وهو مرتجفُ
فقال إثر البرنس اقتفرُ	أبصرَ جسمَ البرنس منعفرًا ^(٢)
أبلغ إن لن يُصيبه ضررُ	فأفرخ الروع منه ساعة إذ

(١) الصارم الذكر: السيف.

(٢) منعفرًا: انعفر في التراب، أي تمرغ.

ومنها في ذكر حبّ صلاح الدين للعفو وشدة تحرّجه من سفك الدماء، حتّى عابه بعض المؤرّخين، وقالوا: إنّه بعفوه عن الإفرنج وتركه إيّاهم بعد حطين وبعد فتح القدس، مكتفياً بتجريدتهم من السلاح، قد جرّ على الإسلام مصيبة عظيمة، فإنّهم ذهبوا إلى صور واعتصموا بها، ولمّا توافر جمعهم زحفوا منها وقاتلوه أشدّ قتال:

إِنْ عَيْبَ بِالْحَلْمِ رَجُلٌ فَإِنَّهُ خَيْرٌ مَا هَفَا الْبَشْرُ

وقلت عن شدة تعظيم الإفرنج إلى الآن لقدر صلاح الدين، بسبب هذه الأخلاق العالية:

وَكَانَ مِنْ حُرْمَةِ الْعَدُوِّ لَهُ أَنْ ذَكَرَهُ فِي بِلَادِهِمْ عَطِرُ

وذكرت زيارة الأمبراطور غليوم الثاني، عاهل ألمانيا، لضريح صلاح الدين في دمشق، وما أظهره من الخشوع في ذلك المقام:

تَغْدُو عِظَامُ الْمُلُوكِ وَاقْفَةَ بَبَابِهِ وَهُوَ أَعْظَمُ نُخْرُ
وَيُنْحِنِي حَاسِرًا بِتُرْبَتِهِ رَأْسٌ بِأَعْلَى التَّيْجَانِ مُعْتَجِرُ

وقد ذكر هذه الزيارة شوقي بعد وقوعها بقليل، أي سنة ١٨٩٨، فقال تحت عنوان تحية غليوم الثاني لصلاح الدين في القبر:

عَظِيمُ النَّاسِ مَنْ يَكِي الْعِظَامَا	وَيَنْدِبُهُمْ وَلَوْ كَانُوا عِظَامَا
وَأَكْرَمُ مَنْ غَمَامٍ عِنْدَ مَحَلِّ	فَتَى يُحْيِي بِمَذْحَتِهِ الْكِرَامَا
وَمَا عُذْرُ الْمُقْصِرِ عَنْ جِزَاءِ	وَمَا يَجْزِيهِمْوُ إِلَّا كَلَامَا
فَهَلْ مِنْ مُبْلِغِ غَلِيَوْمَ عَنِّي	مَقَالًا مُرْضِيًا ذَاكَ الْمَقَامَا؟
رِعَاكَ اللَّهُ مِنْ مَلِكِ هِمَامِ	تَعَهَّدَ فِي الثَّرَى مَلِكًا هُمَامَا
أَرَى النَّسِيَانَ أَظْمَأَهُ فَلَمَّا	وَقَفْتَ بِقَبْرِهِ كُنْتَ الْغَمَامَا
تُقَرِّبُ عَهْدَهُ لِلنَّاسِ حَتَّى	تَرَكَتَ الْجَيْلَ فِي التَّارِيخِ عَامَا
أَتَدْرِي أَيَّ سُلْطَانٍ تُحْيِي	وَأَيَّ مُمْلَكٍ تُهْدِي السَّلَامَا؟
دَعَوْتَ أَجَلَ أَهْلِ الْأَرْضِ حَرَبًا	وَأَشْرَفَهُمْ إِذَا سَكَنُوا سَلَامَا
وَقَفْتَ بِهِ تُذَكِّرُهُ مَلُوكًا	تَعُودَ أَنْ يُلَاقُوهُ قِيَامَا

وكم جَمَعْتُهُمْ حَرْبٌ فَكَانُوا
 كِلَامٌ^(١) لِلْبَرِيَّةِ دَامِيَاتٌ
 فَلَمَّا قُلْتَ مَا قَدْ قُلْتَ عَنْهُ
 تَسَاءَلَتِ الْبَرِيَّةُ وَهِيَ كَلَّمَى
 وَأَنْتَ أَجْلٌ أَنْ تُزْرِي بِمَيْتِ
 فَلَوْ كَانَ الدَّوَامُ نَصِيبَ مَلِكِ
 حَدَائِدَهَا وَكَانَ هُوَ الْحَسَامَا
 وَأَنْتَ الْيَوْمَ مَنْ ضَمَدَ الْكِلَامَا
 وَأَسْمَعْتَ الْمَمَالِكَ وَالْأَنَامَا
 أَحْبَبًا كَانَ ذَاكَ أَمْ اِنْتِقَامَا؟
 وَأَنْتَ أَبْرٌ أَنْ تُؤْذِي عِظَامَا
 لَنَالَ بِحَدِّ صَارِمِهِ الدَّوَامَا

وقد ترجمتُ من عهدٍ غير بعيد هذه الأبيات لجلالة الأمبراطور غليوم الثاني، وذكرتُ له من شوقي في العالم العربي، وأنه كان أشعر شعرائنا، فارتاح جدًا لهذه الأبيات وترحم على قائلها. وأما البيت الأخير، فقد وقع بيني وبين شوقي توارُد خواطر على معناه، لأنني لما زرت مقام سيّدنا خالد بن الوليد، رضي الله عنه، في حمص كتبت هذين البيتين على الجدار:

مَغْيِيكَ سَيْفُ اللَّهِ^(٢) فِي غَمْدِكَ الثَّرَى
 فَلَوْ أَنْ فَرَدًا خَلَّدَتْهُ فَتَوْحُهُ
 دَلِيلٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَا شَكَّ وَاحِدٌ
 لَمَا كَانَ فِي الْأَقْوَامِ إِلَّاكَ خَالِدٌ

وتاريخ هذين البيتين أقدم من تاريخ أبيات شوقي.

ولو لم يكن لشوقي إلا ما قاله في هذه القصيدة عن الحرب الصليبية، لكان ذلك كافيًا له حتّى يُلقب بالشاعر الإسلامي، وهي الصفة التي استمالت له قلوب المسلمين شرقًا وغربًا، فكيف وله في هذا الباب يتائم تقلّد بها جيّد الدهر؟ وقد ذكر منها الكاتب البليغ الأستاذ مُحَبُّ الدين الخطيب، مطلع قصيدته في حرب الدولة العثمانية مع اليونان:

بَسَيْفِكَ يعلو الحقُّ والحقُّ أغْلَبُ
 وما السيفُ إلا آيةُ الله في الوري
 فادّب به القومَ الطغاةَ فإنه
 وَيُنْصِرُ دِينَ اللَّهِ أَيَّانَ تَضْرِبُ
 وما الأمرُ إلا للذي يتغلبُ
 لِنِعْمِ الْمَرْبِيِّ لِلطُّغَاةِ الْمُؤَدِّبُ

وقوله عند سقوط أدرنة:

يَا أُخْتَ أَنْدَلَسِ عَلَيْكِ سَلَامٌ
 بِكُمْ أُصِيبَ الْمَسْلَمُونَ وَفِيكُمْ
 هَوَاتِ الْخِلَافَةَ عَنْكَ وَالْإِسْلَامُ
 دُفِنَ الْيِرَاعُ وَغُيِبَ الصَّمْصَامُ

(١) الكِلَامُ (بالكسر) والكَلُوم: الجراح.

(٢) سيف الله: لقب خالد بن الوليد (المتوفى سنة ٦٤٢م)، وهو من كبار القادة العرب وأبطالهم.

وقوله يوم أسقط الكماليون في تركيا منصب الخلافة:

عادت أغاني العرس رَجَع نواحٍ
صَجَّت عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ
يا للرجالِ لِحِرَّةِ مَوْءودَةٍ
إنَّ الذينَ أَسَتْ جراحَكَ حُرْبُهُم
هتكوا بأيديهم ملاءةَ فخرِهِم
إنَّ الغرورَ سقى الرئيسَ براحِهِ
ونُعيتَ بينَ معالمِ الأفراحِ
وبكَّت عليكِ ممالكٌ ونواحي
قُتِلتْ بغيرِ جَريرةٍ وجُنّاحِ
قتلتكِ سِلْمُهُم بغيرِ جراحِ
مَوْشِيَّةً بمواهبِ الفِتاحِ
كيف احتيالكِ في صريعِ الراحِ^(١)

وذكر له ما قاله في الحجّ، عندما دعاه الخديوي أن يكون معه، وهو في الدرجة القصوى من التأثير لا يقرأه قارئ إلا ويستعبر:

لكَ الدينُ يا ربَّ الحَجيجِ جمعتهم
دعاني إليك الصالحُ ابنُ محمدٍ
وقدّمتُ أَعذارِي وذُلِّي وخَشيتي
وفي راحتي ماضٍ إذا ما هَزَزْتَهُ
أتيتَ به يا ربَّ نورًا وحِكمةً
وتشهدُ ما آذيتُ نَفْسًا ولم أضُر
ولا غَلَبتني شِقْوَةٌ أو سعادةٌ
ولا جالَ إلا الخَيْرُ بينَ سرائري
ولا بتُّ إلا كَابنِ مريمَ مُشفِقًا
ولا حُمَلت نفسٌ هوىً لبلادها
وإنّي ولا مَنْ عَليكِ بطاعةٍ
أَبالغُ فيها وهي عدلٌ ورحمةٌ
لبيتِ طهورِ السّاحِ والعَرَصاتِ^(٢)
فكان جوابي صالحَ الدَعواتِ
وجئتُ بضعفي شافعًا وسكّاتي
تركتُ عدوّ الله في السّكراتِ
ونزّهته عن ريبَةٍ وأذاةٍ
ولم أبغِ في جَهري ولا خَطراتي
على حِكمةٍ آتيتني وأناةٍ
لدى سُدّةِ خيريّةِ الرغباتِ
على حُسدي مُستغفِرًا لِعُدّاتي
كنفسيَ في فِعلي وفي نَفْثاتي
أُجِلُّ وأُغلي في الفروضِ زكّاتي
ويتركها النّسّاك في الخَلّواتِ

(١) الراح: الحمر.

(٢) عرصات: مفردا عرصة، وهي البقعة بين الدور، ليس فيها بناء.

وأنت ولي العفو فأمح بناصع
ومن تضحك الدنيا إليه فيغترر

من الصفح ما سودت من صفحتي
يمت كقتيل الغيد^(١) بالبسمات

ولعمري، من عرف شوقي معرفة تامة، واختلط به، لم يجده مبالغاً فيما ناجى به ربه،
ولشوقي عدا هذا، قصائد نبوية مشهورة منها هذه الهمزية:

وُلد الهدى الكائناتُ ضياءُ
الروحُ والملائِكُ حولَه
والعرشُ يزهو والحظيرةُ تزدهي
وحديقةُ الفرقانِ ضاحكةُ الربى
والوحي يقطر سلسلاً من سلسل
نظمتُ أسامي الرُّسلِ فهي صحيفةُ
اسمُ الجلالةِ في بديعِ حروفه
يا خيرَ مَنْ جاء الوجودَ تحيةً
بيتُ النبيينِ الذي لا يلتقي
خيرُ الأبوةِ حازهم لك آدم
هم أدركوا عزَّ النبوةِ وانتهت
خُلقتُ لبيتك وهو مخلوقٌ لها
ومنها:

وفمُ الزمانِ تبسمُ وثناءُ
للدينِ والدنيا به بُشراءُ
والمنتهى والسُدرةُ العصماءُ
بالترجُمانِ شذيةُ غناءُ
واللوحُ والقلمُ البديعُ رواءُ
في اللوحِ واسمُ محمدٍ طغراءُ^(٢)
ألفٌ هنالك واسمُ (طه) الباءُ
من مُرسلينِ إلى الهدى بك جاءوا
إلا الحنائفُ فيه والحنفاءُ^(٣)
دون الأنامِ وأحرزتُ حواءُ
فيها إليك العزّةُ القعساءُ^(٤)
إنَّ العظائمُ كفؤها العظماءُ

يعرفه أهلُ الصدقِ والأمناءُ
منها وما يتعشقُ الكُبراءُ
ديننا تُضيءُ بنوره الآناءُ

بسوى الأمانةِ في الصبا والصدق لم
يا مَنْ له الأخلاق ما تهوى العلى
لو لم تُقمِ ديننا لقامت وحدها

(١) الغيد: مفردا غيدا، وهي المرأة اللينة الناعمة.

(٢) الطغراء: هي التي تُكتب بالقلم «العريض» في صدر الأوامر، فتكون حروفاً أكبر من سائر الحروف.

(٣) الحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام، وكل من كان على دين إبراهيم عليه السلام؛ وهو مفرد حنفاء.
وحنائف: مفردا حنيفة (للمؤنث).

(٤) قعساء: منبغة ثابتة.

أما الجمال فأنت شمسُ سماءهِ
والحسنُ من كرمِ الوجوه وخيرُهُ
وإذا سخوتَ بلغتَ بالجود المدى
وإذا عفوتَ فقادرًا ومقدرًا
وإذا رحمتَ فأنت أمُّ أو أبُّ
وإذا غَضِبْتَ فإنما هي غضبُهُ
وإذا رَضِيتَ فذاك في مرضاته
وإذا خَطَبْتَ فللمنابر هِزَّةٌ
وإذا قضيتَ فلا ارتيابَ كأنما
وإذا حميتَ الماءَ لم يُورَدْ ولو
وإذا أجرتَ فأنت بيتُ الله لم
وإذا ملكتَ النفسَ قمتَ ببرِّها
وإذا بنيتَ فخيرُ زوجِ عِشْرَةٍ
وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيته
يا أيُّها الأميَّ حَسْبُكَ رتبةُ
الذِّكْرِ آيةُ ربِّك الكُبرى التي
صَدُرَ البيانُ له إذا التقتِ اللُّغى^(١)
نُسِختَ به التوراة وهي وضيئة
بك يا ابن عبد الله قامتِ سمحةٌ
بُنيتَ على التوحيد وهو حقيقةٌ

وملاحه الصديقِ منك أياءُ^(٢)
ما أوتِيَ القُواد والزعماءُ
وفعلتَ ما لا تفعلُ الأنواءُ
لا يستهين بعفوك الجهلاءُ
هذان في الدنيا هما الرُّحماءُ
في الحقِّ لا ضِغْنٌ ولا بَغْضاءُ
ورضى الكثيرَ تحلِّم^(٣) ورياءُ
تعرو النديَّ وللقلوب بكاءُ
جاء الخصومَ من السماءِ قضاءُ
أنَّ القياصِرَ والملوكَ ظمَاءُ
يدخل عليه المستجيرُ عداً
ولو إن ما ملكتَ يداك الشاءُ
وإذا ابتنيتَ فدونك الآباءُ
فجميعُ عهدك ذمَّةٌ ووفاءُ
في العلم أن دانتُ بك العلماءُ
فيها لباغي المعجزاتِ غناءُ
وتقدّمَ البلغاءُ والفصحاءُ
وتخلفَ الإنجيلُ وهو ذكاءُ^(٤)
بالحقِّ من مللِ الهدى غراءُ
نادى بها سُقراطُ والقدماءُ

(١) آياه الشمس: نورها.

(٢) التحلّم: تكلف الحلم.

(٣) اللُّغى: مفردا لغة، ومن جموعها: لغات ولُغون، وهو نادر.

(٤) ذكاء: من أسماء الشمس، وهو نحوياً اسم غير منصرف.

وأصمَّ منك الجاهلين نداءً
والناسُ في أوهامهم سجناءُ
ومن النفوس حرائرٌ وإماءُ
يوصف له حتى أتيت دواءً
لا سوقةً^(٣) فيها ولا أمراءُ
والناس تحت لوائها أكفاءُ
والأمر سُورى والحقوق قضاءُ

لما دعوت الناس لبي عاقلُ
أبوا الخروج إليك من أوهامهم
ومن العقول جداول وجملامد^(١)
داء الجماعة من أرسطاليس^(٢) لم
فرسمت بعدك للعباد حكومةً
الله فوق الخلق فيها وحدهُ
والدين يُسرُّ والخلافة بيعةُ

قد ذكر شوقي هنا، ما لم يكن أتى به في همزية وادي النيل، وما أشرت إليه في تعليقي
على قصيدته تلك، فأنت ترى أنه لا يفوته شيء إن نقص كلامه في محلّ كَمَلَّ في محلّ
آخر، ثم يقول:

لولا دعاوى القوم والغلواء^(٤)
وأخفُّ من بعض الدواء الداءُ

الإشتراكيون أنت أمامهم
داويت مُتتدًا وداووا طفرةً

أي أنّ الزكاة المشروعة في الإسلام، والتي هي والصلاة توأمان، تضمن من سدّ الفقر
وتقريب الطبقات بعضها من بعض، ما تضمن المبادئ الإشتراكية التي قاموا بها في العصر
الحاضر، ولكن الإشتراكيون غلّوا وأرادوا الطفرة، فكان عملهم أبلغ في الضرر من الحالة
الأولى التي أرادوا الخلاص منها. ثم يقول:

ومن السموم الناقيات دواءُ
لا مينة ممنونة وحباءُ
حتى التقى الكرماء والبخلاءُ
فالكلُّ في حق الحياة سواءُ
ما اختار إلا دينك الفقراءُ

الحربُ في حقّ لديك شريعةُ
والبرُّ عندك ذمّةٌ وفريضةُ
جاءت فوحّدت الزكاة سبيله
أنصفت أهلَ الفقر من أهل الغنى
فلو أنّ إنسانًا تخير ملةً

(١) الجلمود: الصخر.

(٢) أرسطاليس، (٣٨٤ - ٣٢٢) ق.م. هو "أرسطو"، مرتي الإسكندر، وفيلسوف اليونان.

(٣) سوقة الناس: رعيّتهم وعامتهم.

(٤) الغلواء: الغلّو.

هو يقول إنَّ الحرب في تأييد الحقِّ مشروعة في الإسلام، لا غبار عليها، وهي دواء لسُموم الضلال الناقعة، وإنَّ البرَّ ليس بفضيلة اختيارية في الإسلام ولا إثارة، بل هو فرض كفرض الصلاة، لا يجوز قطعه، وإنَّ الزكاة يجب على المسلم إخراجها إذا أراد أن يكون مسلمًا. فلا تعود إلى إرادته وإلى خُلُقهِ من كرم أو لؤم، وليس هذا فرض في سائر الأديان، كما هو في الإسلام. يقول إنَّ الفقراء قد كفاهم الإسلام مؤونة الاحتياج، وذلك بالزكاة التي انتصف منها الفقراء من الأغنياء. ومن قوله في الإسرائ:

يا أيُّها المُسرَى به شرقًا إلى
الله هَيًّا من حظيرة قُدسِهِ
والرُّسل دون العرش لم يُؤذَن لهم
ما لا تنالُ الشمس والجوزاءُ
نزلًا لذاتك لم يَجزُهُ علاءُ
حاشا لغيرك موعد ولقاءُ

ومن قوله في شجاعة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

الخيلُ تَأبَى غيرَ أحمدَ حاميا
شيخُ الفوارس يعلمون مكانه
وإذا تصدَّى للظبيِّ^(١) فمُهَنَّدُ
ساقِي الجريحِ ومُطعمُ الأسرى ومَن
إنَّ الشجاعة في الرجال غلاظةُ
وبها إذا ذَكَرَ أسمُهُ خِيلاءُ
إن هَيَّجَتْ آسادها الهَيَّجاءُ
أو للرماح فصَعْدَةٌ^(٢) سمرأُ
أَمِنَتْ سَنابِكَ خَيْلِهِ الأشلأُ
ما لم تُزِنها رَافَةٌ وسخاءُ

لله دُرٌّ شوقي في هذا الوصف الذي يليق بأن ينشد عنده:

وإنَّ أحسنَ بيتَ أنتَ قائلهُ
بيت يُقال إذا أنشدتهُ صدَقا

نعم، كان محمدٌ، عليه الصلاة والسلام، أشجع الشجعان وأقدمهم، إذا حمي الوطيس، وأثبتهم إذا دارت الدائرة على الصحابة، كما ظهر في يوم أُحُد وغيره، وكان مع صلابته هذه، أرف الناس وأرقهم قلبًا وأنداهاهم محجرًا^(٣)، وكان إذا ظهر على عدوه يعرف أن يرق ويعفو، ولم تكن خيله لتدوس على المطروحين بالعراء من أعدائه. ثم يقول:

الحقُّ عَرَضُ اللهُ كلُّ أبيَّةِ
والحقُّ والإيمانُ إن صُبا على
بينَ النفوسِ حمى له ووقاءُ
بردٍ ففيه كَتِيبَةٌ خرساءُ

(١) الظبي: مُطلق حدِّ السيف، مفردا ظبة.

(٢) الصعدة: القناة المستوية المستقيمة.

(٣) أنداهاهم محجرًا: هنا، أكثرهم شفقة تستجلب الدمع.

ويقول عن الصحابة الكرام:

واستأصلوا الأصنامَ فهي هَبَاءُ
وبهم حِيَالٌ نعيمها إغضاءُ
لم يُطغِهِم ترفٌ ولا نَعْمَاءُ

نَسَفُوا بِنَاءَ الشَّرْكَ فهو خرائب
يمشون تُغْضِي الأَرْضُ منهم هَيْبَةً
حتى إذا فُتِحَتْ لهم أطرافُها

ثمَّ يقول مخاطبًا الرسول:

ومن المديح تَضَرَّعٌ ودعاءُ
في مثلها يُلقَى عليك رجاءُ
رَكِبْتَ هواها والقلوبُ هواءُ؟
ثقةٌ ولا جمَعَ القلوبَ صفاءُ
ونعيمٌ قومٍ في القيودِ بلاءُ
وغَدُوا وهم في أرضهم غرباءُ
ما لم يَنَلْ في رومةَ الفقهاءُ

ما جئتُ بِأَبْكَ مادِحًا بل داعيًا
أدعوكَ عن قومي الضُّعَافِ لأزمةِ
أدرى رسولُ الله أنْ نفوسهم
متفكِّكونَ فما تضمَّ نفوسهم
رقدوا وغرَّهُمُ نعيمٌ باطلٌ
أقَطَعْتَهُمُ غُرَّرَ البلادِ فضيَعوا
ظلموا شريعتك التي نلنا بها

ما أصدق قوله: "وغدوا وهم في أرضهم غرباء" إلا ما ندر.

ولشوقي، غير هذه الهمزية في الرسول، صلى الله عليه وسلم، قصيدة معارضة للبردة الشريفة، رضي الله عن صاحبها، ولو استشارني شوقي في هذه المعارضة لنهيته عنها. وهل نظمه في هذه المعارضة للبردة أقل إبداعًا من سائر نظمه؟ أو أنزل عن طبقته المعهودة؟

لا والله، فنظمه نظمه، نسجٌ واحدٌ، هو نسيجٌ وحده في هذا العصر، ولكن يا سبحان الله متى قابلته بالبردة فقد رونقه ذلك، وصرت تريد أن تطويه على غُرر، وتتجاوزته إلى غيره، فما ألقى الله بردة الفصاحة على قصيدة نبوية كيميية صاحب البردة؛ هكذا كتب في اللوح وجفَّ القلم وأثر الله البوصيري^(١) ببيكاره البردة، وأعجز كلَّ فحل عن افتراع مثلها، فما كانت معارضة شوقي للبردة بالرأي الموفق، ولو كانت أبيات قصيدته كلها عامرة بالمحسن، ولنستشهد مع ذلك ببعض ما قاله فيها مثلاً:

(١) البوصيري، (١٢١٣ - ١٢٩٦م). شاعر مصري، بربري الأصل، كان خطاطًا ماهرًا ومُحدثًا، اشتهر بقصيدته "البردة" التي عارضها شوقي أمير الشعراء بقصيدة أسماها "نهج البردة".

يا نفسُ دنياءِ تُخفي كلَّ مُبكيةٍ
فُضِّي بتقواكِ فاهما كلما ضحككتُ
لا تحفلي بجناها أو جنايتها

وإن بدا لك منها حُسنٌ مُبتَسِمٍ
كما يُقضُّ أذى الرقشاء^(١) بالثرَمِ^(٢)
الموتُ بالزهرِ مثلُ الموتِ بالفحمِ

هنا جاء شوقي بمعنى عصري، وهو أن الكربون يقتل في الزهر، كما يقتل في الفحم،
ولم أجد لذلك طلاوة لأن الشعر بعيد عن الكيمياء بعد الأرض عن السماء، ثم يقول:

يا ويلتأه لنفسي راعها ودهى
رَكَضُها في مَرَبِعِ المُعصياتِ وما
هامتُ على أثرِ اللذاتِ تَطْلُبُها

مُسَوْدَةُ الصُّحُفِ فِي مُبَيَّضَةِ اللَّمَمِ
أخذتُ من حِمِيَةِ الطاعاتِ لِلتَّخَمِ^(٣)
والنفسُ إن يدعُها داعي الصِّباتِ تَهَمِ

اجتهدَ بقدر إمكانه أن يقلد البوصيري في نهجه، وأن يأتي بمثل ديباجته، وأن يقابل بيتًا
ببيت، ويحذو قذة بقذة^(٤) فحام وما نزل^(٥)، ورمى وما قرطس^(٦)، إلا أنه لما وصل إلى المديح
ارتقى عن ذي قبل، وجاء بما من حقه أن تسمعه ولو من دون البردة:

لَزِمْتُ بابَ أميرِ الأنبياءِ وَمَنْ
فكَلُّ فَضْلِ وإِحسانِ وعارِفَةٍ
عَلِقْتُ من مدحه حبلًا أعزُّ به
يُزري^(٧) قَرِيضِي^(٨) زُهَيْرًا^(٩) حينَ أمدحه
محمَّدٌ صَفوَةٌ الباري ورحمته
وصاحبُ الحوضِ يومَ الرُّسُلِ سائِلَةٌ

يُمسِكُ بمفتاحِ بابِ اللهِ يَغْتَمِ
ما بين مُستَلِمٍ منه ومُلتزمِ
في يومِ لا عِزَّ بالأَنسابِ واللُّحْمِ
ولا يُقاسُ إلى جُودي ندى هِرَمِ^(١٠)
وبُغيةِ اللهِ من خلقٍ ومن نَسَمِ
متى الورودِ وجبريلُ الأمينُ ظَمي؟

(١) الرقشاء: نوع من الحيات الحبيثة.

(٢) الثرم: كسر أو اقتلاع الأسنان، وأنت لا تأمن سم الأفعى إلا إذا استأصلت نايها.

(٣) البيت: تشبيه ضمني لإطلاق النَّفس وإرسالها في غوايتها، كما تنهافت البهائم على المرعى الخصب.

(٤) يحذو قذة بقذة: مثل يضرب في التسوية بين الشئين، من القَد وهو القطع، قطع الريشة المقذوذة على قدر صاحبها في التسوية.

(٥) حام وما نزل: والأكثر شيوعًا "وما نهل"، والمعنى واحد، هو أن الظمان لم يرد الماء يُطفئ عطشه رغم دورانه حوله.

(٦) رمى وما قرطس: أراد الشيء والغرض، فلم يصبه ولم يفز به. يريد الكاتب أن شوقي في هذه القصيدة لم يستطع بلوغ مبلغ "البوصيري".

(٧) يُزري: يُعيب.

(٨) القرِيض: الشُّعر.

(٩) زهير: هو "زهير بن أبي سلمى"، الشاعر الجاهلي المعروف.

(١٠) هَرَم: هو "هَرَم بن سنان"، كان زهير مدحه بشعر بديع فأجزل "ابن سنان" مكافأته.

ثمَّ يقول:

لَمَّا رَأَى بَحِيرًا^(١) قَالَ نَعْرِفُهُ
سَائِلٌ حِرَاءَ^(٢) وَرُوحَ الْقُدُسِ^(٣) هَلْ عَلِمَا

ثُمَّ قَالَ:

وَنُودِي أَقْرَأُ تَعَالَى اللَّهُ قَائِلُهَا
هَنَّاكَ أَذْنَ لِلرَّحْمَنِ فَامْتَلَأَتْ
جَاءَ النَّبِيُّونَ بِالْآيَاتِ فَانصَرَمَتْ
أَيُّ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

آيَاتِهِ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُدٌ
وَمَنْ مَسْتَحْسَنَ آيَاتِهَا:

جُبَّتْ السَّمَاوَاتُ أَوْ مَا فَوْقَهُنَّ بِهِمْ
رَكُوبَةٌ لَكَ مِنْ عِزٍّ وَمِنْ شَرَفٍ
مَشِيئَةُ الْخَالِقِ الْبَارِي وَصَنَعْتَهُ
حَتَّى بَلَغَتْ سَمَاءً لَا يُطَارُ لَهَا
وَقِيلَ كُلُّ نَبِيٍّ عِنْدَ رُبَّتِهِ
وَلَمَّا كَانَ صَاحِبَ الْبُرْدَةِ قَالَ:

فَإِنَّ لِي ذِمَّةً مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي

أَرَادَ أَحْمَدَ شَوْقِي أَنْ يَبَارِيهِ فِي ذِمَّةٍ مِثْلَهَا مِنَ التَّسْمِيَةِ بِأَحْمَدَ:

يَا أَحْمَدَ الْخَيْرَ لِي جَاءَ بِتَسْمِيَّتِي
الْمَادِحُونَ وَأَرْبَابُ الْهَوَى تَبَعُ

بِمَا حَفِظْنَا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالسُّيَمِ
مَصُونٌ سِرٌّ عَنِ الْإِدْرَاكِ مُنْكَتِمٍ

لَمْ تَتَّصِلْ قَبْلَ مَنْ قِيلَتْ لَهُ بِفَمٍ
أَسْمَاعُ مَكَّةَ مِنْ قُدْسِيَةِ النَّعْمِ
وَجِئْنَا بِحَكِيمٍ غَيْرِ مُنصَرَمٍ

يَزِينُهُنَّ جَلَالَ الْعِتْقِ وَالْقَدَمِ

عَلَى مُنَوَّرَةٍ وَرَدِيَةِ اللَّجْمِ^(٤)
لَا فِي الْجِيَادِ وَلَا فِي الْأَيْتِقِ الرَّسْمِ^(٥)
وَقَدْرَةُ اللَّهِ فَوْقَ الشُّكِّ وَالتُّهْمِ
عَلَى جَنَاحٍ وَلَا يُسْعَى عَلَى قَدَمٍ
وَيَا مُحَمَّدُ هَذَا الْعَرْشُ فَاسْتَلِمِ

مُحَمَّدًا وَهُوَ أَوْفَى الْخَلْقِ بِالذَّمِّ

وَكَيْفَ لَا يَتَسَامَى بِالرَّسُولِ سَمِي
لصاحب البردة الفيحاء ذي القدم

(١) بحيرا: هو الراهب المشهور أيام الرسول (ﷺ).

(٢) حراء: جبل في مكة فيه غار (كهف) كان يتعبد فيه الرسول (ﷺ).

(٣) الروح القدس: جبريل عليه السلام.

(٤) وردية اللجم: البراق، وهي الدابة المجنحة التي طارت بالرسول (ﷺ) من مكة إلى القدس في ليلة الإسراء والمعراج.

(٥) الأيتق الرسم: النوق الشديدة الوطء لقوتها حتى كأنها ترسم أخفافها في الرمال.

الله يشهد أنني لا أعارضه

من ذا يعارض صوب العارض العرم

وإنما أنا بعض الغابطين ومن

يغبط وليك لا يذمم ولا يلّم

وقد أحسن أبو علي بهذا الاستدراك، وتنصّله من معارضة سيّد من جاء بالسهل المتنع والداني المرتفع. ثمّ قال خطاباً للرسول عليه السلام:

إن قلت في الأمر لا أو قلت فيه نعم

فخيرة الله في لا منك أو نعم

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له

وأنت أحييت أجيالاً من الأمم

ودخل شوقي في جدل، مع الذين اعترضوا على الإسلام، وقراع مع القادحين فيه، فقال:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا

لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل أحلام وسفسطة

فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كل ذي حسب

تكفل السيف بالجهال والعمم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به

ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت

بالصاب من شهوات الظالم الغلم^(١)

لولا حماة لها هبوا لتصرتها

بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم

يريد أن يقول، إن كلام هؤلاء المعترضين سفسطة محضة، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وإن نبي الإسلام في بدء دعوته لم يأل جهداً في الدعوة بالرفق والمقارعة بالبرهان، وأنه ما دفع إلى الضرب والحرب، إلا من بعد أن رأى عقم الوعظ والنصح، وأن لا حيلة في الجهل والظلم إذا مرد الناس عليهما، إلا بالتأديب، إن هذه المسيحية التي تعلن أنها دين السلام، أصابها من الطرد والقتل والتعذيب والانتقام والاصطلام، ما لا تسعه الكتب المؤلفة؛ وبقي ذلك مدة ثلاثمائة سنة إلى أن تنصّر قسطنطين، فحينئذ استقرت قواعدها وانتشرت في الأرض وأمنت الغوائل، ولم تنتشر في الأرض، إلا بقوة ملوكها وسلاطينها. وكم من ملك من ملوك النصرانية بث المسيحية أو الكاثوليكية بالسيف، مثل شارلمان وملوك فرنسا، ومثل قياصرة بيزنطية، ومثل ملوك الروسية، وملوك المجر، وغيرهم. ثم عزز كلامه هذا بشواهد العصر الحاضر، فقال:

(١) الغلم: الثائر الظالم.

تلك الشواهد تُتري كل آونةٍ
بالأمس مالت عروشٌ واعتلت سُررٌ
أشياءُ عيسى أعدوا كل قاصمةٍ

في الأعصرِ الغرِّ لا في الأعصرِ الدهمِ
لولا القذائفُ لم تُثلم ولم تُصمِ
ولم نُعدَّ سوى حالات مُنقِصِ

جاء في الطبعة الثانية من ديوان شوقي تعليقًا على هذه الأبيات، ولعله بقلم الكاتب الفاضل حسين بك هيكل ما يلي: إنَّ المتشيعين اليوم للدين المسيحي "دين الهدوء والسلام"، "هم أهل القوة الحربية الدائبون على إعداد المهلكات في الحروب، حتى كأنهم أصبحوا ولم يبقَ لهم من شغل يشغلهم إلا استخراج الذهب من بطون الأرض، وأنفاقه على مصانع الحديد والفولاذ، لطبع آلات الحرب في طول الأرض وعرض البحر، وقد افتتوا في أسباب الإهلاك والتدمير، ولم يكفهم أن يُدمدِموا على الناس ويأخذهم بالبلاء عن أيمانهم وعن شمائلهم ومن خلفهم ومن تحت أرجلهم، حتى قاموا على تسخير الرياح ليرموهم من فوق رءوسهم" (١) بكلّ دهياء... إلخ.

ثمَّ هاجت بشوقي نخوة الإسلام، شأنه في كلِّ موقف، وحمي (٢) أنفه للمدينة الإسلامية، وقارن بينها وبين غيرها، فقال:

واترك رعمسيس إنَّ المُلْك مَظهره
دارُ الشرائع روما كلِّما ذُكرت
ما ضارعتها بيانًا عند ملتأمٍ
ولا احتوت في طرازٍ من قياصرها
من الذين إذا سارت كتائبهم
ويجلسون إلى عِلمٍ ومعرفةٍ

في نهضة العدل لا في نهضة الهرمِ
دارُ السلام لها أَلقت يدَ السَّلَمِ
ولا حَكَّتْها قضاءً عند مُختصمِ
على رشيدٍ ومأمونٍ ومُعتصمِ
تصرَّفوا بحدودِ الأرض والتُّخْمِ
فلا يُدانون في عقلٍ ولا فَهَمِ

وختم شوقي هذه القصيدة بأبيات في غاية التأثير، تذوب لها القلوب حسرةً وذكرى، وتتحدَّر العبرات شفقًا ووترًا، وتشهد لشوقي فوق شهادات لا تُحصى، بأنه شاعر الإسلام بجميع جوارحه، رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيرًا:

(١) رءوسهم ورووسهم: صحيحان، ومسئول ومسؤول: صحيحان. (راجع قاعدة الهمزة في المدرستين الكوفية والبصرية وقبائل فصاح العرب.)

(٢) حمي أنفه: عزَّ.

يا رَبِّ هَبَّتْ شُعُوبٌ مِنْ مَنِيَّتِهَا
سَعْدٌ وَنَحْسٌ وَمَلِكٌ أَنْتَ مَالِكُهُ
رَأَى قِضَاؤُكَ فِينَا رَأَى حِكْمَتَهُ
فَالطَّفَ لِأَجْلِ رَسُولِ الْعَالَمِينَ بِنَا
يا رَبِّ أَحْسَنْتَ بَدَأَ الْمُسْلِمِينَ بِهِ

ومن أحسن ما قال شوقي، الخطاب الذي خاطب به الخديوي، عند زيارته للمدينة المنورة:

إذا زرت يا مولاي قبرَ مُحَمَّدٍ
وفاضت من الدمع العيونُ مهابةً
وأشرق نورٌ تحت كلِّ ثنيةٍ
لِمُظْهِرِ دِينِ اللَّهِ فَوْقَ تَنُوفَةٍ^(١)
فقل لرسول الله: يا خير مرسلٍ
شعوبك في شرقِ البلادِ وغربها
بأيمانهم^(٢) نورانِ ذِكْرٌ وَسُنَّةٌ
وذلك ماضي مجدهم وفخارهم
وهذا زمانُ أرضه وسماؤه
مشى فيه قومٌ في السماء وأنشأوا
فقلْ رَبِّ وَفَّقْ لِلْعِظَائِمِ أُمَّتِي

وقبلت مثنوى الأعظمِ العَطِرَاتِ
لأحمدَ بينِ السِترِ والحُجْرَاتِ
وضاعَ أريجٌ تحتَ كلِّ حِصَاةٍ
وباني صروحِ المجدِ فوقِ فِلاةٍ
أبثك ما تدري من الحسراتِ
كأصحابِ كهفٍ في عميقِ سُبَاتِ
فما بالهم في حالِكِ الظُّلُمَاتِ
فما ضرَّهم لو يعملونَ لآتِ
مجالٌ لمِقدامِ كبيرِ حياةٍ
بوارجٍ في الأبراجِ مُمتنعاتِ
وزين لها الأفعالَ والعزَمَاتِ

(١) التنوفة: المغازة، وهي الأرض الواسعة، البعيدة الأطراف، لا ماء فيها.

(٢) أيمانهم: جمع يمين، وهي الجهة المضادة لليسر.

شوقي والخلافة

وجاء في ديوان شوقي الذي طُبِعَ مؤخرًا، وعليه مقدّمة من قلم محمّد حسين بك هيكل، تحت عنوان "خلافة الإسلام"، ما يلي:

ما كاد العالم الإسلامي يفرح بانتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب والسياسة، ذلك النصر الحاسم الذي كان حديث الدنيا، والذي تمّ على يد مصطفى كمال باشا في سنة ١٩٢٣، قلنا: هذا نمط مشهور، فالحركة الوطنية في تركيا، قام بها كاظم قرّة بكير، وغيره قبل مصطفى كمال، ثمّ قال إنّها بعد أن التحق مصطفى كمال بالحركة لم يكن فيها وحده، بل كان فيها عدّة أبطال مثل: كاظم قرّة بكير، وحسين رؤوف، وعلي فؤاد، ورأفت، وعلي إحسان، ونور الدين، وعمر فوزي، وغيرهم ممّن أنقذ تركيا اجتماع مجهوداتهم وأكثر الفضل في انقياد الشعب التركي لهؤلاء، يرجع إلى علماء الدين، الذين تقدّموا إلى الشعب بأسم الدين، ولولاهم لم يقيم أهل الأناضول بهذه الحرب الاستقلالية - حتى أعلن هذا إلغاء الخلافة - ونفى الخليفة من بلاد الأتراك؛ فنظم الشاعر هذه القصيدة يرثي فيها الخلافة، وينبّه ممالك الإسلام إلى إسداء النصح لهذا الرجل لعله يبني ما هُدمَ وينصف من ظلم:

عادت أغاني العرس رجع نواحٍ ونُعيت بين معالم الأفراحِ
كُفّنت في ليل الزفاف بثوبه ودُفّنت عند تبّجّج الإصباحِ

أي أنّ مجلس أنقرة الكبير، ومصطفى كمال نفسه، أعلنوا بمنشور رسمي يوم أسسوا الحكومة التركية في أنقرة، بأنّ جُلّ مقصدهم من هذه الثورة على الدول الأجنبية المحتلة، هو إنقاذ الخلافة الإسلامية واستخلاص الخليفة، الذي هو أسير في استامبول بين أيدي الإنجليز، وأعلنوا هذا القرار على جميع سكّان تركيا، بل أوصلوه إلى جميع العالم الإسلامي، وكتبوا به إلى الإمام يحيى^(١)، وغيره، من ملوك الإسلام. فإنقاذ الخلافة كان هو الغرض الأول بزعم مصطفى كمال من هذه الحرب الإستقلالية، فلمّا انتهت الحرب بالطائفة للأتراك، كان أول ما فعله مصطفى كمال إلغاء نفس هذه الخلافة، التي زعم أنه إنّما ثار لأجل المحافظة عليها، فكان دفنها ليلة الزفاف كما قال شوقي. ثمّ قال:

(١) الإمام يحيى حميد الدين، (١٨٦٩ - ١٩٤٨)م. إمام اليمن سنة ١٩٠٤، عُرف بمحاربه الأتراك.

سُيِّعَتِ مِنْ هَلَعٍ بِعَبْرَةٍ ضَا حَكَ	فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَسُكْرَةٍ صَاحِ
صَجَّتْ عَلَيْكَ مَآذِنٌ وَمَنَابِرٌ	وَبَكَتْ عَلَيْكَ مَمَالِكٌ وَنُوحِ
الهِندُ وَالهِهَةُ وَمَصْرُ حَزِينَةٌ	أَمَحَا مِنَ الْأَرْضِ الْخِلَافَةَ مَا حِ؟
وَأَتَتْ لَكَ الْجَمْعُ الْجَلَائِلُ مَا تَمَّا	فَقَعْدَنْ فِيهِ مَقَاعِدَ الْأَنْوَا حِ
يَا لِلرِّجَالِ لِحُرَّةٍ مَوْءُودَةٍ	قُتِلَتْ بِغَيْرِ جَرِيرَةٍ وَجُنَاحِ
إِنَّ الَّذِينَ أَسَتْ جِرَاحَكَ حَرْبُهُمْ	قَتَلْتِكَ سِلْمَهُمْ بِغَيْرِ جِرَاحِ

أي ثاروا لأجل أن يضمّدوا جراح الخلافة بزعمهم، فلما اتسق لهم النصر، قتلوا هذه الخلافة نفسها بغير جراح وبئس العهد وساءت الشيمة:

هَتَكُوا بِأَيْدِيهِمْ مَلَاءَةً فَخَرِهِمْ	مَوْشِيَّةً بِمَوَاهِبِ الْفَتَّاحِ
نَزَعُوا عَنِ الْأَعْنَاقِ خَيْرَ قِلَادَةٍ	وَنَضُّوا عَنِ الْأَعْطَافِ خَيْرَ وِشَاحِ
حَسِبْتُ أَنِّي طَوَّلَ اللَّيَالِي دُونَهُ	قَدْ طَاحَ بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَصَبَاحِ
وَعَلَاقَةٌ فُصِّمَتْ عُرَى أَسْبَابُهَا	كَانَتْ أَبْرًا عِلَاقِ الْأَرْوَاحِ

نعم، كانت الخلافة هي أحسن علاقة جامعة بين المسلمين، وكان أربعمئة مليون مسلم في العالم يتولّون حكومة تركيا، بحجة أنها دولة الخلافة. فجاء مصطفى كمال وقطع هذه العلاقة بين تركيا والعالم الإسلامي، وزعم أنه لا يلوي على غير علاقة الترك، خاصة وإن سائر المسلمين والأجانب في نظره سواء، وهو أمر مخالف للحقيقة وللواقع وللمصلحة، وكان أنور، رحمه الله، يقول لي: إن الأتراك الذين في الروسية لا يعطفون علينا نحن أتراك تركيا، بسبب أننا ترك، بل بسبب أننا مسلمون. وهؤلاء الياقوت الذين هم في سيبيريا، هم ترك في المحتد مثلنا، ولكن نظراً لكونهم وثنيين لا يعطفون علينا، ولا نعطف عليهم، ولا يعرفوننا ولا نعرفهم.

جَمَعَتْ عَلَى الْبِرِّ الْحَضُورَ وَرَبَّمَا	جَمَعَتْ عَلَيْهِ سَرَائِرَ النَّزَاحِ
نَظَّمَتْ صَفُوفَ الْمُسْلِمِينَ وَخَطَوَهُمْ	فِي كُلِّ غُدُودَةٍ جَمْعَةٍ وَرَوَا حِ
بَكَتِ الصَّلَاةَ وَتَلَّكَ فِتْنَةً عَابَثِ	بِالْشَّرِّ عَرَبِيدِ الْقَضَاءِ وَقَا حِ

وقد علّق تحت هذا البيت تفسيراً للعرييد، وهو الشرير الكثير العريدة وهي سوء الخلق من السكر.

أفتى خُزَعْبِلَةٌ وَقَالَ ضَلَالَةٌ
وَأَتَى بِكَفْرِ فِي الْبِلَادِ بَرَّاحٌ^(١)
إِنَّ الَّذِينَ جَرَى عَلَيْهِمْ فِقْهُهُ
خُلِقُوا لِفِقْهِ كَتِيبَةٌ وَسِلَاحٌ

أي أنّ هذه النظريّات إنّما انقاد لها أناس، لا يعلمون شيئاً سوى الحرب والضرب، فأما الذين يفكّرون في مصائر الأمور ويفهمون شدّوا^(٢) من السياسة، فلا يمكن أن تعجبهم.

إِنْ حَدَّثُوا نَطَقُوا بِخَرَسٍ كَتَائِبِ
أَوْ خَطَبُوا سَمِعُوا بِصَمِّ رِمَاحِ
أَسْتَغْفِرُ الْأَخْلَاقَ لَسْتُ بِجَاحِدِ
مَنْ كُنْتُ أُدْفَعُ دُونَهُ وَأُلَاحِي
مَا لِي أَطَوَّقُهُ الْمَلَامَ وَطَالَمَا
قَلَّدْتُهُ الْمَأْثُورَ مِنْ أَمْدَاحِي

لا جرّم أنّ شوقي، وغير شوقي، قد استعجلوا في الحكم، وأنا نفسي من هؤلاء المستعجلين، وطالما عدلت صديقي أنور على خلافه مع مصطفى كمال، ولما كان مراد أنور بعد الحرب أن ينسلّ نجياً، من برلين إلى الأناضول، ويأخذ بنصيبه من الجهاد لاستقلال تركيا، نهيته عن هذا الأمر خشية أن يكون ذهابه إلى الأناضول، مثار فتنة بينه وبين مصطفى كمال، تكون نتيجتها صدع الوحدة وتشظية العصا.

وقد استعنت عليه بالدكتور ناظم بك - أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي والوطني المشهور، الذي كانت نزاهته أشهر من أن تُذكر، وشنّقه مصطفى كمال بتهمة المؤامرة على حياته، وهو بريء من تلك المؤامرة براءة الذئب من دم يوسف، ولكنّه كان ينتقد سياسة الغازي علناً - فهذا الرجل هو الذي أعانني على أنور عندما كنت في برلين، حتّى توقّف عن الدخول إلى الأناضول. وهكذا أمنا شرّ الاختلاف بين قائدي الأتراك الكبيرين. ولكن مصطفى الكمال، إلى ذلك العهد، كان جاعلاً شعاره الإسلام لا غير، وكان يشهد الجمع، ويحضر قراءة المولد ولا يبرح يخطب قائلاً: إخواننا العرب، إخواننا العرب، إخواننا المصريون وإخواننا المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها.

وقد ذكرت مرّة في إحدى الجرائد كيف قال لي: لا بُدَّ أن نسترجع القدس إن شاء الله، وهذا محقّق، وإنّما أقول إن شاء الله كمسلم، ولا أقول إني فاعل ذلك غداً إلاّ أن يشاء الله. فهذه النغمات التي كان يسمعها الناس منه دائماً، ولا يعلمون ما يُطوى في قلبه من دونها، حملتْ الناس على حبّه والثناء عليه بإسراف. فلما انعقدت معاهدة لوزان، وتمّ الصلح مع

(١) البرّاح: البين الظاهر، والكفر البرّاح: تقول أتى بكفر البرّاح، أي جاء به جهاراً.

(٢) شدّوا: طرّفًا (جزماً).

تركيا، وظنّ الغازي أنه أمين المستقبل، قلب ظهر المِجَنّ ونسي ما كان يقوله، وجاهر بعكس ما كان يجاهر به من قبل:

هو رُكنُ مملكةٍ وحائطُ دولةٍ
أقول من أحبي الجماعة مُلحدٌ
الحقّ أولى من وليك حرمةً
فامدح على الحقّ الرجالَ ولمهمو
وقريع شهباءٍ وكَبَشُ نطاحٍ
وأقول من ردّ الحقوق إباحي؟
وأحقُّ منك بنصرة وكِفاحٍ
أو خلّ عنك مواقفَ النصّاحِ

لا شكّ بأنّ الحقّ أولى بأن يقال، ولكن نقطة العراك هنا، هي تعيين الحقّ، فإنّه بعد أن استقلت تركيا ظلّ الناس سبيل الحقّ في تاريخ حوادث هذا الاستقلال، فجعلوا الفضل كلّه في تحرير تركيا لمصطفى كمال، وزعموا أنه هو الذي أوجدها من العدم، بعد أن كان قضى عليها القضاء المبرم. وهذا خلاف الحقّ، وهو الخطأ المشهور الذي لا بُدّ للتاريخ من أن يصحّحه في يوم من الأيام، ولو كان مصطفى كمال خدّم تركيا في الحرب الخدمة الكبرى، وكان من أعظم القوّاد بلا نكير:

ومن الرجال إذا انبريت لهدمهم
فإذا قذفت الحقّ في أجلاده
أدوا إلى الغازي النصيحة ينتصح
إنّ الغرور سقى الرئيسَ براحه
هرمٌ غليظٌ مَنَاكِبِ^(١) الصّفّاحِ^(٢)
ترك الصراعَ مُضغَضَ الألواحِ
إنّ الجوادَ يشوبُ بعد جَمّاحِ
كيف احتيالك في صريعِ الراحِ
والناس نقلَ كتائبٍ في الساحِ
نقلَ الشرائعَ والعقائدَ والقُرى

أي أراد أن يلغي العقائد والتقاليد القديمة والأوضاع، التي مضت عليها القرون، بمجرد أوامر عسكرية، أشبه بالأوامر التي يصدرها في ساحة الحرب.

تركته كالشبح المؤلّه أمةً
هم أطلقوا يده كقيصرَ فيهم
غرته طاعاتُ الجموع ودولةً
وإذا أخذت المجد من أمةٍ
لم تسأل بعدُ عبادة الأشباحِ
حتّى تناول كلّ غيرِ مُباحِ
وجدَ السوادُ لها هوى المرتاحِ
لم تُعطَ غير سرايه اللّمّاحِ

(١) المناكب: هنا، الجوانب والنواحي.

(٢) الصّفّاح: حجارة رقيقة عريضة.

مَنْ قَائِلٌ لِلْمُسْلِمِينَ مَقَالَةً

لَمْ يُوْحَهَا غَيْرَ النَّصِيحَةِ وَاحٍ

عَهْدِ الْخِلاَفَةِ فِي أَوَّلِ ذَائِدٍ

عَنْ حَوْضِهَا بِيْرَاعَةِ النَّضَّاحِ

لم يختلف شوقي عن موقف صدق، من المواقف الإسلام جميعها، ومن جملتها تأييد الخلافة الإسلامية، وقد سبق لنا شواهد كثيرة من شعره تؤيد صحة دعواه هذه:

حُبُّ لِدَاتِ اللَّهِ كَانَ وَلَمْ يَزَلْ

وَهَوَى لِدَاتِ الْحَقِّ وَالْإِصْلَاحِ

إِنِّي أَنَا الْمِصْبَاحُ لَسْتُ بِضَائِعٍ

حَتَّى أَكُونَ فِرَاشَةَ الْمِصْبَاحِ

غَزَوَاتُ أَدْهَمَ كَلَّلْتُ بِذَوَابِلِي

وَفَتْوَحُ أَنْوَرُ فَصَلَّتْ بِصِفَاحِي^(١)

أدهم هو أدهم باشا، قائد الجيش العثماني المظفر في الحرب اليونانية، وأنور هو أنور باشا، المشهور أحد أبطال الإسلام في التاريخ.

وَلَّتْ سِيَوْفُهُمَا وَبَانَ قَنَاهُمَا^(٢)

وَسَبَا^(٣) يِرَاعِي^(٤) غَيْرُ ذَاتِ بَرَّاحٍ^(٥)

لَا تَبْدَلُوا بُرْدَ النَّبِيِّ لِعَاجِزٍ

عُزْلٍ يَدَافِعُ دُونَهُ بِالرَّاحِ

بِالْأَمْسِ أَوْهَى الْمُسْلِمِينَ جِرَاحَةً

وَالْيَوْمَ مَدَّ لَهُمْ يَدَ الْجِرَاحِ

فَلتَسْمَعُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ دَاعِيَا

يَدْعُو إِلَى الْكُذَّابِ^(٦) أَوْ لِسَجَّاحٍ^(٧)

وَلتَشْهَدُنَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فِتْنَةً

فِيهَا يُبَاعُ الدِّينَ بَبَيْعِ سَمَاحٍ

رحم الله شوقي، فلم يكن طيب أبصر منه بعلى الإسلام الحاضرة، وكان يعلم أن أكثر من يبيعون الدين ويفتون لأعداء الإسلام بما يريدون منه، هم من رجال الدين ومن ذوي العمائم ويا للأسف، فقد جنت هذه الطبقة على الدين جنائيات لا توصف، وأخذت الصادقين المخلصين من هذه الطبقة، ومنهم فقهاء الأناضول الذين لولاهم لم يتم القيام لمحاربة اليونان والحلفاء.

يُفْتَى عَلَى ذَهَبِ الْمُعْزِّ وَسَيْفِهِ

وَهَوَى النُّفُوسِ وَحَقْدِهَا الْمِلْحَاحِ

(١) الذوابل والصفاح: الرماح والسيوف، (مطلقاً). وفي فقه اللغة، الرماح الذوابل: الدقيقة، والسيوف الصفاح: العريضة الشفرات.

(٢) القنا: الرماح، مفرداً قناتاً.

(٣) الشبا: حد كل شيء، مفرداً شباة.

(٤) اليراع: هنا، القلم.

(٥) البراح: الزوال.

(٦) الكذاب: مُسَيِّئَةٌ.

(٧) سجاج: امرأة كانت تدعي النبوة.

قصيدة في المولد النبوي

وله في ذكرى المولد، قصيدة ليس للقلب طاقة أن يمرّ بها، فلا يأخذ منها إلى هذا الكتاب شيئاً، ولا سيّما أنّ في أولها أبياتاً هي اليوم لسان حالي الباعث بي لهذه الذكريات، أضمدّ بها جراح النوى وأرد أورد الأسي، فهو يقول:

وكلّ بساطٍ عيشٍ سوف يُطوى	وإن طال الزمان به وطابا
كأنّ القلب بعدهممو غريبٌ	إذا عادته ذكرى الأهل ذابا
ولا يُنيبك عن خُلُق الليالي	كمن فقدّ الأحبّة والصحابا
أخا الدنيا أرى دنياك أفعى	تُبدّلُ كلّ آونةٍ إهابا
فمن يغترّ بالدنيا فإني	لبستُ بها فأبليتُ الثيابا
لها ضحكك القيان إلى غبيّ	ولي ضحكك اللبيب إذا تغابى
جنيتُ برؤُضها وردًا وشوكًا	وذقت بكأسها شهدًا وصابا
فلم أر غير حكم الله حكمًا	ولم أر دون باب الله بابا
ولا عظمتُ من الأشياء إلاّ	صحيحَ العلم والأدب اللبابا
ولا كرمتُ إلاّ وجهَ حرّ	يقلّد قومه المِنَّنَ الرّغابا
ولم أر مثل جمع المال داءً	ولا مثل البخيلِ به مُصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها	كما تزنُ الطعامَ أو الشرابا

أي، حفظ المال ينبغي أن يكون بميزان، كما يزن الإنسان طعامه وشرابه على قدر حاجته إليهما، فلا يُسرف ولا يُقتّر، ويكون بين ذلك قوامًا. ثمّ يقول:

وخذُ لبنيك والأيام ذخرا	وأعطِ الله حصّته احتسابا
فلو طالعت أحداث الليالي	وجدتَ الفقرَ أقربها انتيابا
وإنّ البرّ خيرٌ في حياةٍ	وأبقى بعدَ صاحبه ثوابا

ولم أرَ خَيْرًا بالشرِّ آبا
على الأعقابِ أوقعتِ العقابا
ولا ادرعوا الدعاءَ المُستجابا
ظواهرَ خَشِيَةٍ وَتُقَى كِذَابا
إذا داعي الزَّكَاةِ بهم أهابا

وإنَّ الشرَّ يصدعُ فاعليه
فرفقًا بالبنين إذا الليالي
ولم يتقلدوا شكر اليتامى
عجبتُ لمعشرٍ صلّوا وصاموا
وتلفيهم حيالَ المالِ صُمًّا

وهذا مرض المسلمين، في الوقت الحاضر، تجدهم اختلفوا في كل شيء، إلا أنهم اجتمعوا على خلق واحد، وهو الإمساك الشديد في المصالح العامة، مع أنهم يرون النصارى واليهود ماذا يبذلون وماذا يتكلفون على مصالحهم العامة، وأنهم يجودون في هذا السبيل جود من لا يخشى الفقر. وكأن المسلمين يريدون أن يكتفوا بالصلاة والصيام، دون الزكاة التي لا يكون الإسلام إسلامًا من دونها. وهذا أكثر الأصل في بلائهم الذي يتخبطون فيه. وقد وقى شوقي هذا الموضوع حقّه، وكان كما قلنا نطاسيًا^(١) تامًا في معرفة علل الإسلام الحاضرة:

لقد كنتموا نصيبَ الله منه
ومن يعدل بحبِّ الله شيئًا
أراد الله بالفقراء برًّا
فربَّ صغير قومٍ علّموه
وكان لقومه نفعًا وفخرًا
فعلّم ما استطعت لعلَّ جيلًا
ولولا البخلُ لم يهلك فريقٌ
تعبتُ بأهله لومًا وقبلي
كأنَّ الله لم يُخصِ النُّصَابا
كحبِّ المالِ ضلَّ هوىَّ وخابا
وبالأيتام حبًّا وارتبابا^(٢)
سما وحما المُسَوِّمة العرابا
ولو تركوه كان أذى وعابا
سيأتي يُحدثُ العجب العجابا
على الأقدار تلقاهم غضابا
دُعاءُ البرِّ قد سئمو الخطابا

وكان شوقي سخيًّا بما يملك، لا يأبى أن يجمع المال، ولكنه كان يجمعه لينفقه ويعطي البرَّ حقّه ويمتّع به أهله الذين كان لهم، كما قال خليل مطران «رثبالاً في اللأواء»^(٣). وكان

(١) النطاسي: الطيب الحاذق؛ ومطلقًا: العالم.

(٢) أرتب الصبي ارتبابًا: رثاه حتى أدرك.

(٣) رثبالاً في اللأواء: أي أسدًا في الشدائد.

فعل شوقي مطابقاً لقوله من جهة مؤاساة الفقراء. ثم إنه أخذ يبين المساواة الطبيعية بين البشر، ليتبصر بها الذين يستأثرون بالمال لأنفسهم، ولا يريدون أن يجعلوا للفقير نصيباً.

ألم ترَ للهواء جري فأفضى
وأنَّ الشمس في الآفاق تغشى
وأنَّ الماء ترَوَى الأَسْدُ منه
وسوَى الله بينكم المنايا
إلى الأكواخ واخترق القبابا
حمى كسرى كما تغشى اليبابا
ويشفي من تعلقها الكلابا
ووسدكم مع الرُّسلِ الترابا

ومن هنا تخلص إلى ذكر الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلّم، الذي لم يُشرف الفقراء ولا اليتامى بشيء، مثل كونه خرج منهم، فقال شوقي:

وأرسلَ عائلاً منكم يتيماً
نبيُّ البرِّ بينه سبيلاً
تفرَّقَ بعد عيسى الناسُ فيه^(١)
وكان بيانه للهدى سُبلاً
وعَلَّمنا بناءَ المجد حتّى
وما نيلُ المطالب بالتمني
وما استعصى على قومٍ منالٍ
دنا من ذي الجلال فكان قاباً^(٢)
وسنَّ خلاله وهدى السُّعابا
فلمّا جاء كان لهم مثابا
وكانت خيله للحقِّ غابا
أخذنا إمرةَ الأرضِ اغتصابا
ولكن تُؤخِّدُ الدنيا غلابا
إذا الإقدام كان لهم ركابا

هذه الأبيات تكاد تكون أمثالاً سائرة أشبه بقول شوقي: «وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت»، ثم ذكر شوقي مولد الهادي عليه السلام، فقال:

تجلّى مولدُ الهادي وعمّت
وأسدتُ للبريّة بنتُ وهبٍ^(٣)
ولقد وصّعته وهاجاً منيراً
بشائره البوادي والقصابا
يداً بيضاء طوّقت الرقابا
كما تلدُ السمواتُ الشهابا

(١) قاب القوس: ما بين نصف وتر القوس وطرفه، والمعنى أنه كان قريباً.

(٢) الضمير في «فيه» يعود على البرّ.

(٣) بنت وهب: السيّدة آمنه، أم الرسول (ﷺ).

ثمَّ خاطب النبيَّ قائلاً له: إني سألت النصر لأبناء ديني، فإن كنت أنت الوسيلة عنده تعالى، فإنه المجيب هذا الدعاء. فهو يقول:

سألتُ الله في أبناء ديني
وما للمسلمين سِواكَ حصنٌ
كأنَّ النحاسَ حين جرى عليهم
لو حفظوا سبيلك كان نوراً
بنيتَ لهم من الأخلاق رُكنًا
فخلّوا الركنَ فأنهدمَ اضطراباً
فإن تُكُنَّ الوسيلةَ لي أجاباً
إذا ما الضرَّ مَسَّهُم وناباً
أطار بكلِّ مملكةٍ غراباً
وكان من النُّحوس لهم حجاباً
فخلّوا الركنَ فأنهدمَ اضطراباً

فكيف قلبتَ نظرك في شعر شوقي، وجدته يطوف في الآفاق، ويرجع إلى مركز واحد، هو الإسلام في دينه، والشرق في وطنه، والعربية في لغته، والأخلاق في وصيته، والعلم في رغبته؛ فكان عقله قويمًا، وذوقه سليمًا، ووفاءه عظيمًا. وقد قلت فيه يوم رثيته:

كانت قصائده هي الصوت الذي
بُعِثَتْ به روحُ الحياة كأنها
سَرَى عن الإسلامِ ثقلُ سُبَاتِهِ
هي صُورُ إسرافيل في زَعَقَاتِهِ

وقلت:

ما حلَّ بالإسلام حَيْفٌ مصيبةٍ
يحمي حقائقه ويوضحُ سُبُلَهُ
إلّا وكان لها لسانُ سُكَاتِهِ
ويُقِيل طولَ الوقت من عَثْرَاتِهِ

وقلت:

وفى عن الشرق القديم نضالُهُ
أبدًا يحذّره استلابُ تراثه
من يوم نشأتَه ليوم وفاتهِ
لم يفتن من عصره بمساويءِ
كَلّا ولم يغمطه من حسناتِهِ
قد لازم الإنصاف في أحكامه
لا فرق بين صحابه وعُدَاتِهِ

ملحمة شوقي في حرب اليونان

ولا مرأ في أنه لم يُقل من شعر الملاحم أعظم من قصيدته البائية في الحرب العثمانية اليونانية التي أولها: "سيفك يعلو الحق والحقُ أغلبُ"، فإنها القصيدة الغراء واليتيمة الدهماء، والكلمة التي طارت في الآفاق، فحلقت فوق المحلقات، ولا نظن أنه يوجد عربي يمت إلى الأدب بسبب، إلا وهو يروي من هذه القصيدة كثيراً أو قليلاً. ونحن أولاء الآن نروي منها بعض المقاطع التي يلوح لنا أنها آخذٌ للألباب، وأملكُ للقلوب من غيرها، وإلا فهي من الألف إلى الياء مُحكّمة السرد متساوية النسخ، لا تجد فيها عوجاً ولا أمّتا^(١).

قال:

ومملكة اليونان محلولة العرى	رجاؤك يُعطيها وخوفك يسلبُ
هددت أمير المؤمنين كيانها	بأسطع مثل الصبح لا يتكذبُ
وما زال فجراً سيف عثمان صادقاً	يساريه من عالي ذكائك كوكب ^(٢)
إذا ما صدغت الحادثات بحدّه	تكشف داجي الخطب وأنجاب غهب ^(٣)
سما بك يا عبد الحميد أبوة	ثلاثون حصار الجلالة غيبُ

يريد أنه سليل ثلاثين سلطاناً، إن كانوا قد درجوا^(٤)، فإن جلالتهم لا تزال حاضرة في الأذهان:

قياصرُ أحياناً خلائفُ تارة	خواقين ^(٥) طوراً والفخار المقلبُ
----------------------------	---

يريد بقوله قياصرة أنهم استووا على عرش القسطنطينيين مكان قياصرة الرومان، ويقوله خلائف، أنهم تسلّموا الخلافة الإسلامية منذ عهد سليم الأول من بني العباس، ويقوله خواقين بأنهم سلاطين الأتراك، لأن ملك الترك يقال له خاقان. قال الحسن ابن هاني:

كان عمود الصبح خاقان معشر	من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
---------------------------	--------------------------------

(١) أمّتا: نقصاً أو ضعفاً.

(٢) معناه: لكل فجر كوكب يسيره ويصحبه، وفجر هذا السيف فجرك الوضاء.

(٣) الغيب: الظلمة.

(٤) درجوا: ماتوا.

(٥) الخواقين: ملوك الترك.

ثم قال:

نجومُ سعودِ الملكِ أقمارُ زهُوهِ
تواصوا به عصرًا فعصرًا فزاده
ثم يقول:

لو أنَّ النجومَ الزُّهرَ يجمعها أبُ
مُعَمَّمُهُم من هيبَةِ والمعَصَبُ

ظهورًا يسوء الحاسدين ويُتَعَبُ
لرأيك فيهم أو لسيفك مَضْرِبُ
جَهَامٌ من الأعوان أن أهدى وأكذبُ
وما كنت يا برق المنيّةِ تَخْلِبُ
من الذود إلا ما أطلوا وأسهبوا
ولكن خُلِقَا في السباع التاهبُ
ويذهب عنهم أمرهم حين تذهبُ
حسام مُعِزُّ أو يراعُ مهذبُ

ظهرت أمير المؤمنين على العدى
سلِ العصرَ والأيام والناس هل نبا
همو ملأوا الدنيا جهامًا وراءه
فلما استللت السيف أُخْلِبَ برُقهم
أخذتهمو لا مالكين لحوضهم
ولم يتكلف قومك. الأسدُ أهبةُ
كذا الناسُ بالأخلاق يبقى صلاحهم
ومن شرف الأوطان أن لا يفوتها

يعيد معنى بيته (وإنما الأمم الأخلاق)، يذكر أن الأوطان لتكون عزيزة محتاجة إلى
الجمع بين السيف والقلم. ثم يقول:

لجيشك ممدود وفي الغربِ مَضْرِبُ
لها مِخْلِبُ فيهم وللמותِ مِخْلِبُ
وإن غضبت فالشرُّ يقظانُ مُغْضَبُ
وأبعدُ من شمس النهار وأقربُ
وتطلع فيهم من مكان وتغرُبُ
فثيبهنَّ البكر والبكر ثيبُ
سديدُ المرائي في الحروب مجرَّبُ
كما تدفعُ اللُّجَّ البحارُ وتَجذبُ

ملكته سبيلهم ففي الشرقِ مَضْرِبُ
ثمانون ألفًا أسدُ غاب ضراغيمُ
إذا حملت فالشرُّ وسنانُ حالمُ
فيالقُ أفشى في البلاد من الضحى
تلوح لهم في كلِّ أفق وتعتلي
وتغشى أبياتِ المعازل والذرى
يقود سراياها ويحمي لواءها
يجيء بها حينًا ويرجعُ مرةً

ومنها:

ونادت فلبى الخيلُ من كلِّ جانبٍ
خِفَافًا إلى الداعي سِرَاعًا كأنما
مُنيفين من حول اللواء كأنهم
وما هي إلا دعوةٌ وإجابةٌ
فأبصرتُ ما لم تبصرا من مشاهدٍ
ولبى عليها القسور^(١) المترقبُ
من الحرب داعٍ للصلاة مُثَوِّبُ
له معقلٌ فوق المعازل أغلَبُ
إن التحمت والحرب بكرٌ وتغلبُ^(٢)
ولا شهدت يومًا معدًّا^(٣) ويعرُبُ

هنا جاشت الفكرة برأس شوقي، فذهبت به إلى أبعد حدود المبالغة، فلا نزاع في الترك إذا ذكرت الشجاعة والصبر على الحروب، كانوا في الذروة العليا التي ينحط عنها السيل، ولكن القول بأن مشاهدهم لم تشهدها معدًّا ويعرُبُ فيه نظر. ولعمري، أنَّ معدًّا ويعرُبُ عندما فاضت جموعها على بلاد الله، كانت تقاتل في ساحات لا يحصيها العدد، فبينما جيوشها تحاصر القسطنطينية، كانت جيوش أخرى تفتح إسبانيا وجنوبي فرنسا، وأخرى تقاتل أمة البربر العاصية، وأخرى تتوغل في إفريقية، وجحافل تغزو الهند، وفيلق تغزو الجزر، وجيوش فيما وراء النهر تغزو الأتراك في عقر دارهم. وكل ذلك في وقت واحد لا تلهيهم حرب عن حرب، ولا تشغلهم ساحة قتال عن ساحة قتال، وكانت حرب الترك ساحة واحدة من تلك الساحات الكثيرة، يستقل بها قائد مثل قتيبة بن مسلم الباهلي^(٤)، تجتمع عليه الترك من كلِّ حدب، فيوالى عليها الهزائم ويقودها بالهزائم، وهو في قلّة بالقياس إلى أم الترك التي اجتمعت عليه من كلِّ صوب، وما زال يُشخّن فيها حتى ضرب عليها الذلّة والمسكنة إلى حدود الصين، ولاذت أخيرًا من بأسه بالإسلام ودانت به، فكان من ذلك الوقت مبدأ دخول الترك في الدين العربي، فصاروا فيما بعد أحمى حماته وأمضى سيوفه. ولكن لا يُقال، إنَّ أمة من الأمم تقدر أن تبدّ العرب في ميادين القتال، إذا كانت العرب مجتمعة على قلب واحد. وما أتى العرب، إلا من تقطّع ما بينهم، وصعوبة مقادتهم لرئيس واحد. وفي هذا يفضلهم الترك، وبهذا سادوهم.

(١) القسور: الأسد، ويريد به فارس الترك.

(٢) بكر وتغلب: قبيلتان، لم تقف بينهما العداوة عند حدّ.

(٣) معدًّا: منه أكثر القبائل العدنانية من عرب الشمال.

(٤) قتيبة بن مسلم، (المتوفى سنة ٧١٥م). من كبار القادة الأمويين، له فتوحات مشهودة.

ومن أحسن ما قال شوقي في حياته في هذه القصيدة وفي غيرها، وما قاله شاعر قديم،
أو حديث، وصف عبور الجيش العثماني مضيق (ملونا) في الحرب العثمانية اليونانية، ولا
يكاد يوجد في العرب مَنْ يمتّ إلى الأدب بسبب، إلا وهو يعرف هذه الأبيات، قال:

جبالُ ملونا لا تخوري وتجزعي
إذا مالَ رأسٌ أو تَضَعُضَعُ منكبُ
فما كنتِ إلا السيف والنار مركبًا
وما كان يستعصي على الترك مركبُ
علّوا فوق علياء العدو ودونه
مضيق كحلق الليث أو هو أصعبُ
فكان صراط الحشر ما ثمّ ريبةُ
وكانوا فريق الله ما ثمّ مذنبُ
يمرون مرّ البرق تحت دُجْنَةٍ
دخانًا به أشباحهم تتجلببُ^(١)

إلى أن قال في قتال الحاج عبد الأزل باشا، قائد فرقة الفرسان، الذي اقتحم الموت جهراً،
لا يمشي إليه الضراء وذلك طمعاً في الشهادة:

واشمطُ سَواسِ الفوارسِ أشيبِ
يسير به في الشعبِ أشمطُ^(٢) أشيبُ
رفيقاً ذهب في الحروب وجيئةِ
قد اصطحبا والحُرّ للحُرّ يصحبُ
إذا شهداها جدّدا هزّة الصبا
كما يتصابى ذو ثمانين يطربُ
فيهتزّ هذا كالحسام وينشني
وينفر هذا كالغزال ويلعبُ
توالى رصاص المطلقين عليهما
يُخْضَلُ من سَيِيئِيهما ويُخْضَبُ
فقل أنل أقدامك الأرض إنَّها
أبرُّ جوادٍ إن فعلت وأنجبُ
فقال أيرضى واهب النصر أننا
نموت كموت الغانيات ونعطبُ؟
ذروني وشأني والوغى لا مبالياً
إلى الموت أمشي أم إلى الموت أركبُ
إلى أن يقول:

فهل من ملونا موقفٌ ومسامعُ
ومن جبلها منبرٌ لي فأخطبُ؟
فأسأل حصنيها العجيبين في الورى
ومدخلها الأعصى الذي هو أعجبُ

(١) أي: تحت ظلمة من الدخان الكثيف تختفي بها أشباحهم.

(٢) الأشمط: الذي يخالط بياض رأسه سواد، يريد بها الفارس، ويريد بالشرط الثاني: الفرس.

ويلاحظ هنا على قوله: (منبر لي فأخطب) بضمّ الفعل المضارع، وقد سبق ذلك إستفهام في قوله: (فهل من ملونا)، فالقاعدة هي أنّ الفعل ينتصبُ بعد الفاء، إذا سبقه نفي أو إستفهام. ثمّ يقول عن الترك:

هل البأسُ إلاّ بأسهم وثباتهم
أم الدينُ إلاّ ما رأت من جهادهم
وأيّ فضاءٍ في الوغى لم يُضيّقوا
أم الحزمُ إلاّ عزمهم والتلبُّب^(١)؟
أم الملكُ إلاّ ما أعزّوا وهَيَّبوا؟
وأيّ مضيقٍ في الوغى لم يُرحّبوا؟

وقال عن تلاقي الترك واليونان في سهل فرساله:

و(فرسال)^(٢) إذ باتوا وبتنا أعاديًا
وقام فتانا الليلَ يحمي لواءه
توسّد هذا قائمَ السيفِ يتّقي
وهل يستوي القرنان هذا مُنعمٌ
إلى أن يقول:

ورُحنا يهبُ الشرّ فينا وفيهم
أي أنّ رياح الحرب تهبّ شمالاً وجنوباً.
ثمّ يقول:

كأنا أسودٌ رابضاتٌ كأنهم
كأنّ خيام الجيش في السهل أيقق^(٤)
كأنّ السرايا ساكناتٍ موائجًا
كأنّ القنا دون الخيام نوازلاً
كأنّ الدجى بحرٌ إلى النجم صاعدٌ
قطيعٌ بأقصى السهل حيرانٌ مُذئبٌ^(٣)
نواشز^(٥) فوضى في دجى الليل سُزّب^(٦)
قطائعُ تُعطى الأمن طورًا وتُسلبُ
جداولٌ يجريها الظلام ويسكبُ
كأنّ السرايا مُوجهُ المتضربُ

(١) التلبب: من تلبب الرجل، أي تحزّم وتشمّر لها.

(٢) فرسال: مدينة يونانية في تساليا.

(٣) أذاب القطيع: فرغ من الذئب، فهو مُذئب.

(٤) أيقق: مفرداها ناقة.

(٥) نواشز: مرتفعة.

(٦) سُزّب: متفرقة.

كَأَنَّ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظَلَامِهِ
كَأَنَّ صَهِيلَ الْخَيْلِ نَاعٍ مُبَسَّرٌ
كَأَنَّ وَجُوهَ الْخَيْلِ غُرًّا وَسِيمَةً
كَأَنَّ أَنْوْفَ الْخَيْلِ حَرَّى مِنْ الْوَعْيِ
كَأَنَّ صُدُورَ الْخَيْلِ غُدْرٌ^(١) عَلَى الدُّجَى
كَأَنَّ سَنَا الْأَبْوَاقِ فِي اللَّيْلِ بَرْقُهُ
كَأَنَّ نِدَاءَ الْجَيْشِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
كَأَنَّ عَيُونَ الْجَيْشِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ

هُمُومٌ بِهَا فَاضُ الضَّمِيرُ الْمُحَجَّبُ
تَرَاهُنَّ فِيهِ صُحْكًا وَهِيَ نُحْبُ
دِرَارِيٌّ لَيْلٍ طُلَعُ فِيهِ نُقْبُ
مَجَامِرُ فِي الظُّلْمَاءِ تَهْدَا وَتَلْهَبُ
كَأَنَّ بَقَايَا النَّضْجِ فِيهِنَّ طَحْلَبُ
كَأَنَّ صَدَاهَا الرِّعْدُ لِلْبَرْقِ يَصْحَبُ
دَوِيٌّ رِيَّاحٍ فِي الدُّجَى تَتَذَابُ^(٢)
مِنْ السَّهْلِ جِنَّ جَوْلٍ فِيهِ جُوبُ

يريد بعيون الجيش جواسيسه وأرصاده، ثم يقول:

كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا كَأَنَّ جَنُودَنَا
كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا كَأَنَّ الرَّدَى قِرَى
كَأَنَّ الْوَعْيَ نَارًا كَأَنَّ بَنِي الْوَعْيِ
وَتَبْنَا يَضِيقُ السَّهْلُ عَنْ وَتَبَاتِنَا
مَشَتْ فِي سَرَايَاهُمْ فَحَلَّتْ نِظَامَهَا

مَجُوسٌ^(٣) إِذَا مَا يَمَّمُوا النَّارَ قَرَّبُوا^(٤)
كَأَنَّ وَرَاءَ النَّارِ حَاتِمٌ يَأْدُبُ
فَرَّاشٌ لَهُ فِي مَلْمَسِ النَّارِ مَأْرَبُ
وَتَقَدَّمْنَا نَارًا إِلَى الرُّومِ أَوْثَبُ
فَلَمَّا مَشِينَا أَدْبَرَتْ لَا تُعْقَبُ

لم يمرّ بي في الشعر العربي (كأناات) أحلى وأجزل من هذه (الكأناات) التي هي مع وصف عبور ملونا، واستشهاد عبد الأزل باشا، عيون هذه الملحمة الجبارة، ثم يقول:

فَمَا فِي الْقَوَى أَنَّ السَّمَوَاتِ تُرْتَقَى
سَمَوْتُمْ إِلَيْهِ وَالْقَنَابِلُ دُونَهُ

بِجَيْشٍ وَأَنَّ النُّجْمَ يُغْشَى فَيُغْضَبُ
وَشَهَبِ الْمَنَايَا وَالرِّصَاصِ الْمُصَوَّبُ

يريد بالقنابل كرات المدافع المنفجرة، وهو خطأ دخل على لغة شوقي من كلام الجرائد وكم للجرائد من فريسة في ميدان اللغة. فالقنابل في اللغة جمع قنبلة، وهو مضيئة يصاد بها أبو براقش؛ والقنابل أيضا جمع قنبل بفتح فسكون ففتح، وهو الطائفة من الناس، والطائفة من

(١) الغنر: مفردا غدير.

(٢) تتأذب: تضطرب، أي تهب مرة بعد مرة.

(٣) المجوس: عبّاد النار.

(٤) قرّبوا لله: قدّموا له القربان.

الخيل قيل في الخمسين فصاعداً، وقيل من الثلاثين إلى الأربعين. وأما الكرة المحشوة بالديناميت التي تنفجر عند قذفها من فم المدفع، فقد شبهوها بالقنبرة لا بالقنبلة أي بالراء لا باللام، ووجه الشبه أن الكرة لها رأس ناتئ محدّد، وأن القنبرة وهي نوع من الدجاج لها فضل ريش في رأسها، وهذه الكرة في شكلها كالقنبرة، وأظنّ هذا الاستعمال بدأ في زمان محمّد علي أمير مصر، لأنني رأيت هذه اللفظة في قصيدة للشيخ أمين الجندي الشاعر الحمصي، حيث يقول:

إن قيل إبراهيم جاء محارباً
قامت قيامة عكّة من بأسه
بمدافع ما إن لها من دافع
ثم يقول شوقي:

صعدتم وما غير القنائم مضعّد
كما ازدحمت بتران جو بمورد
فما زلتمو حتى نزلتم بروجّه
ولا سلّم إلا الحديد المذرب^(١)
أو ارتفعت تلقى الفريسة أعقب^(٢)
ولم تحتضّر شمس النهار فتغرب^١

والشطر الثاني من البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة، ينظر إلى قول محمود سامي:

ونقع كموج البحر خضت غماره
ولا عاصم إلا الصفيح المشطّب

وأما قوله "ولم تحتضّر شمس النهار فتغرب"، فالأولى فيه نصب فعل تغرب، لأنه وارد بعد نفي كما تقدّم الكلام عليه. وفي آخر القصيدة، يقول شوقي مخاطباً السلطان عبد الحميد ولا ينسى في هذا الخطاب نغمته الدائمة، وهي أنه شاعر النيل غير مدافع:

وإني لطير النيل لا طير غيره
إذا قلت شعراً فالقوافي حواضر^١
ولم أعدم الظلّ الخصب وإنما
فلازلت كهف الدين والهادي الذي
وما النيل إلا من رياضك يحسب^١
وبغداد بغداد ويشرب يشرب^١
أجاذبك الظلّ الذي هو أخصب^١
إلى الله بالزلفى له يتقرب^١

(١) الحديد المذرب: المسموم.

وذرب السيف: صقله وأحده.

(٢) بتران وبتران: مفرداها بازبي. أعقب العقبان: مفرداها عقاب. وهذان من الطيور الجوارح.

وهذا البيت الأخير ينظر إلى قول القائل، وأظنه الكميت في قصيدة يمدح بها آل البيت،

منها:

من النَّفَرِ البِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إلى الله في ما نابني أتقربُ
بني هاشمٍ رهطِ النبيِّ فَإِنِّي بهم ولهم أَرْضَى مِرَارًا وَأَغْضَبُ

قصيدة شوقي بمناسبة مجيء (ملنر) إلى مصر

ولشوقي يوم جاء اللورد ملنر إلى مصر سنة ١٩١٩، قصيدة رثاء عن المشروع الذي يسميه المصريون بمشروع ملنر، لأنَّ شوقي لم يغفل حادثة سياسية ذات بال في الشرق، حتى مهرها منظومة لتسجّل تلك الحادثة على الدهر، قال:

إِثْنِ عِنَانَ الْقَلْبِ وَأَسْلَمَ بِهِ من رَبِّبِ الرَّمْلِ وَمَنْ سَرِبِهِ
وَمَنْ تَشَنَّى الْغَيْدِ عَنْ بَانِهِ مُرْتَجَّةَ الْأُرْدَافِ عَنْ كُثْبِهِ
إلى أن يقول:

يا ظبية الرمل وُقِيتِ الهوى وإن سَعَتِ عَيْنَاكَ فِي جَلْبِهِ
ولا ذَرَفْتَ الدَّمْعَ يَوْمًا وَإِنْ أَسْرَفْتَ فِي الدَّمْعِ وَفِي سَكْبِهِ
هَذي الشواكي النجلُ صُدُنَّ امرأ مُلْقَى الصَّبَا أَعْزَلَ مِنْ غَرْبِهِ
صَيَّادَ آرَامٍ رَمَاءِ الهوى بِشَادِنٍ لَا بُرءَ مِنْ حَبِّهِ
شَابَ وَفِي أَضْلَعِهِ صَاحِبٌ خَلَوْ مِنْ الشَّيْبِ وَمَنْ خَطْبِهِ
وَاهٍ بِجَنبِي خَافِقٌ كَلَّمَا قَلْتُ تَنَاهَى لَجَّ فِي وَثْبِهِ
مَا خَفَّ إِلَّا لِلهوى وَالْعَلَى أَوْ لَجَلالِ الوَفْدِ فِي رَكْبِهِ

بدأ هذه القصيدة بالنسيب ككثير من قصائده، لأنه كان على عادة شعراء العرب في تقديم النسيب. وأمّا الذي لم يرافق صاحبه في الشيب، وشاب الصاحب ولم يشب المصحوب فيريد به القلب، لأنه طالما يكون الإنسان شيخًا ويكون قلبه شابًا، وتقول العامة لمن كان في هذه الحالة "نفسه خضراء"، وأمّا قوله "واه بجنبي خافق"، فهي كلمة للشيخ أحمد الزرقاني،

الشاعر الذي أنشدني قصيدة من شعره يوم ذهبت إلى مصر، قدمتي الأولى إليها منذ خمس وأربعين سنة. وما زال عالقًا بذهني منها ما يلي:

أرى لوعةً بين الجوانح لا تهذا
ويا أيها الواهي الخفوق بجانبي
أهذا الذي سمّاه أهلُ الهوى وجدًا؟
أأنتَ هو القلبُ الذي يحفظُ الوُدَّ؟

وكانت في شعر الزرقاني رقّة، يشعر بها كلّ سامع. ثمّ يقول شوقي:

ما بال قومي اختلفوا بينهمُ
كأنهم أسرى أحاديثهم
يا قوم هذا زمنٌ قد رمى
لو أنّ قيدًا جاءه من علٍ
وهذه الضجّة من ناسه
من يخلع النّير يعشُ برهةً
يا نشأ الحى شباب الحمى
بني الألى أصبح إحسانهم
موسى وعيسى نشأ بينهم
وعالجا أولَ ما عالجا
ما نسيتُ مصر لكم برّها
في مدحةِ المشروع أو ثلّبه؟
في لئِن القيد وفي صلبه
بالقيد واستكبر عن سحبه
خشيتُ أن يأبى على ربّه
جنازة الرقّ إلى تربه
في أثر النّير وفي ندبه
سُلالة المشرق من نخبه
دارت رَحى الفنّ على قطبه
في سعةِ الفكر وفي رُخبه
من عِللِ العالم أو طبّه
في حازبٍ^(١) الأمر وفي صعبه

يقول لأهل مصر: ما لكم تختلفون في درجة الحرّية، التي هي مدار الخلاف بينكم وبين إنجلترا، إنّ هذا الزمان قد رمى القيود كلّها، وأبى أن يسحب قيدًا ولو كان القيد من السماء، وإنّ هذه الضجّة التي ترونها إنّ هي إلاّ ضجّة جنازة الرقّ المحمولة إلى الدفن، ولكن من كان يحمل النّير فإنّه وإن تخلّص منه فلا يزال عليه أثرُ جرحه. ثمّ يذكر أهل مصر بماضيهم العظيم، وبما هم جديرون به في المستقبل^(٢).

(١) حازب الأمر: شديده.

(٢) المستقبل: آه لو عاش شوقي إلى اليوم ورأى بعينه تحطيم هذا القيد وتحرير مصر إذا لغنى الصوت الذي يرن في الخافقين ولسقى من كرمة ابن هاني ما تغني وترقص له جبال الحنين.

رثاء المؤلف لمحمد فريد، رحمه الله

وقد ذكّرتني هذه الأبيات، أبياتاً قلّتها في رثاء المرحوم محمد بك فريد، رئيس الحزب الوطني، الذي توفي سنة ١٩١٩ في برلين، ولم أكن أطلعت على قصيدة شوقي هذه، بل كانت وفاة فريد قبل مشروع ملنر، وإنما توارّد الخاطر مع الخاطر. قلت:

فانظُرْ إلى مصر العزيزة بعضها
تمشي إلى التحرير لا هيابة
حاشا لو جار القوي ولو طغى
مهما استعزّ الغالبون بجندهم
قد أقبل الزمن الذي أبناؤه
مثل البريم^(١) ببعضها مَشْدودًا
خطرًا ولا الموت الزوام مُبيدا
أحرارَ مصر أن تكونَ عبيدا
فالحقُّ أعظم قُوّة وجنودا
لا يحملون سلاسلًا وقيودا

وهذا هو بيت القصيد. ومنها خطاباً لفريد، رحمه الله:

ولله وقيت الأمانة حقّها
وأذبت في حسراتها كبدًا بها
وكان موت فريد بمرض الكبد. ثمّ قلت:

لم تدخِر في حبّ مصر وأهلها
ما عزّ عندك أن تركتَ لأجلها
ولذائذًا ونفائسًا أورثتها
غادرته طفلاً وطال بك النوى
لخلاص مصرٍ قد تركتَ مآثرًا
كنتَ المتيمّم والعميد بحبّها
كَمْ خطّأوك وعاندوك وكلّ من
وسعا ولا جهداً هناك جهيدا
وطنا وقصرًا كالسدير مشيدا
عنها انصرفتَ وعيلاً ووليدا
فحُرمتَ منظره وصار رشيدا
بينصا سهرت لها ليالي سودا
فلذا لفتيتها غدوت عميدا
يفري فريتك^(٢) لم يزل محسودا

(١) البريم: الحبل المفتول.

(٢) فرى الفري: مشدّدة لزيادة المعنى: أتى بلعجب في عمله.

خَرُّوا لَدَيْهَا رُكَّعًا وَسُجُودًا
بَلْ كُنْتَ تَنْظُرُ مُذْ نَظَرْتَ بَعِيدًا
نِعْمَ الْإِلَهِ مُؤَيَّدًا تَأْيِيدًا
لِنَظِيرِ صَنَعِكَ تَسْتَحِثُّ وَفُودًا
حَفًّا الْجَمِيعُ لَوَاءِكَ الْمَعْقُودًا

حَتَّى تَمَحَّضَتْ السَّنُونَ حَقَائِقًا
عَلِمُوا بِأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ مَتَهَوِّرًا
عَمَدُوا الرَّأْيِكَ فَانْقَلَبَتْ وَتَلَكْ مِنْ
لَمْ تُحْتَضَّرْ إِلَّا وَمِصْرَ كُلِّهَا
فَلَشِدًّا مَا قَرَّتْ عَيْونُكَ عِنْدَمَا

لا شكَّ أنَّ الكثيرين ممَّن كانوا يرمون محمَّد فريد بالتهوُّر وعقم المساعي، عادوا بعد الحرب العامَّة إلى أفكاره، حتَّى أصبح الجميع وطنيين، يدينون من العقيدة الوطنية بما كان يُدين به، فصار الجميع حزبًا وطنيًا. ومنها:

يَوْمَ تَأْذَنَ بِالْخِلاصِ عَتِيدًا
مِصْرَ تَوْمُّمَ شَخْصِكَ الْمَلْحُودًا
أَنْ قُمْ وَشَاهِدِ يَوْمَكَ الْمَوْعُودًا

نَمْ يَا فَرِيدَ عَلَيَّ يَقِينِكَ أَنَّهُ
لَا بُدَّ مِنْ فَرَجٍ قَرِيبٍ عِنْدَهُ
وَيَسِّرُونَكَ بِالْخِلاصِ إِلَى الثَّرَى

ولعمري، كان جديرًا بالمصريين، بعد عقد المعاهدة التي انعقدت بينهم وبين الإنكليز، أخيرًا أن يؤمِّوا قبري مصطفى كامل ومحمَّد فريد، ويترحموا عليهما وعلى الشيخ جاويش^(١) في يوم مشهود.

ويظلَّ قبرك مثلها مشهودًا
ويعود مَأْتَمَكُ الْمُفْجَعُ عِيدًا

يبقى مع الأهرام ذكرُك ثابتًا
وهناك تنقلب المدامع قُرَّةً

ولهذه المرثية نكتة لا بأس بإيرادها، وما زال الحديث شجونًا، وذلك أني لما سمعت نعي محمَّد بك فريد، كنتُ في برن من سويسرة، وكنتُ أسكن أنا وسعادة الدكتور عبد الحميد بك سعيد، رئيس جمعية الشبان المسلمين اليوم، في أوتيل واحد على قمة الجبل المشرف على برن. فلما جاءنا خبر فريد، وكان عزيزًا على كلِّ منَّا بلغ الأسى منَّا مبلغه، فقال عبد الحميد بك: لا بُدَّ أن ترثيه. فقلت له: وهو كذلك. وثاني يوم، قال لي بعد أن نهضنا عن الطعام: هل عملت الرثاء للمرحوم فريد؟ فقلت: لا. قال: فيجب أن تعمله الآن. قلت: لا بُدَّ لي من القيلولة بعد الطعام. قال: إلاَّ أنَّ البريد سيمشي الآن، فوالله لا تقيل قبل أن تعمل هذا الرثاء. فصعدتُ إلى غرفتي، ونظمتُ هذه الأبيات في نصف ساعة، ورجعتُ إلى

(١) جاويش: هو الشيخ عبد العزيز جاويش، عضو في المجمع اللغوي في القاهرة.

عبد الحميد بك، فناولته إياها، فدهش وقال لي: اذهب الآن ونم. وحقيقة الحال أن سرعة النظم هي على قدر عمق التأثر، ودرجة الاقتناع بالموضوع، فإذا كان الإنسان ملآن من الموضوع، انثالت عليه الألفاظ كأنها تتقلع من صلب، آخذًا بعضها بقراب بعض. وإذا كان الإنسان محمولاً على الموضوع بغير سائق الشعور أو حادي الاقتناع، كان في نظمه أو نثره متعملاً متكلفاً، كأنما يصعد جبلاً. فأوصاف محمد فريد وأعماله، هي التي أملت على ناظم هذه المراثية ما أملته، حتى قال هذه الأبيات في نصف ساعة، وهو ثقيل الأجفان يريد أن ينتهي منها ليأخذ نصيبه من الراحة.



ولنعد إلى قصيدة شوقي في مشروع ملنر، فهو يقول:

يا رَبَّ قِيدٍ لا تحبّونه	زمانكم لم يتقيّد به
ومطلب في الظنّ مستبعدٍ	كالصبح للناظر في قربه
والياس لا يجمُلُ من مؤمن	ما دام هذا الغيب في حُجبه

قصيدة شوقي في مشروع ٢٨ فبراير

وقال شوقي في مشروع ٢٨ فبراير، ويا ليته عاش حتى رأى مصر حرّة مطلقّة من عقالها كما هي اليوم:

أعدّت الراحة الكبرى لمن تعباً	وفاز بالحقّ من يألّه طلباً
-------------------------------	----------------------------

وجاء في حاشية هذه القصيدة هذا التفسير، وأظنه لمحمد حسين بك هيكل: "لم يأل لم يقصّر قال تعالى (لا يألونكم خبالاً)، وهذا البيت من الحكم الغالية التي لا تُتاح لغير أمير الشعراء، فكّم وراء جهاد الحياة من راحة، وكّم وراء الضعف من قوّة". قلت: إن لشوقي بلا نزاع حكماً غالية لم تكن تُتاح لغيره، إلا أنه لم يكن أبا عذرة^(١) هذه الحكمة التي استهلّ بها هذه القصيدة، فإن أبا تمام الطائي من قبله هو الذي قال:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها	تُنال إلا على جسرٍ من التعب
------------------------------	-----------------------------

(١) أبو عذرتها: (كناية) أول من قام بها، وهنا: أول من قالها.

وهي من قصيدته التي هنا بها المعتصم على فتح عمورية:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكُتُبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في
فِي حَدِّهِ الحَدَّ بَيْنَ الجِدِّ واللَّعِبِ
مُتَوْنِهِنَّ جِلاءُ السُّكِّ والرَّيْبِ
ثُمَّ يَقولُ شوقِي:

وما قضت مصرٌ من كلِّ لُبانتها
في الأمرِ نَمًا فيه من جدِّ فلا تقفوا
حَتَّى تَجِرَّ ذِيولُ الغِبطةِ القُشْبَا
من واقعِ جَزَعًا أو طائرِ طرْبَا
لا تُثبِتُ العَيْنُ شَيْئًا أو تُحَقِّقْه
إذا تحيَّرَ فيها الدمعُ واضطرابا

يريد أن يقول، إنَّ الناسَ مَنْ استطاره طربًا هذا الإستقلال المقيّد، لأنّه رآه بالقياس إلى الماضي غير منتظر. ومنهم مَنْ استطاره جزعًا، لأنّه نصف إستقلال وليس هو بنشيدة آمال المصريين. فهو ينهى الفريقين هذا عن الطرب، وهذا عن الجزع. ثمَّ يقول للجزاع: إنَّ العين لا ترى المراثيات جيّدًا إذا كان يجول الدمع في مآقيها، فارفع الدمع من عينيك حتّى تقدر أن ترى جليًّا.

إذا طلبتَ عظيمًا فاصبرنَّ له
ولا تَعِدِّ صغيراتِ الأمور له
أو فاحشِدَنَّ رماحِ الخطِّ والقُضْبَا
إنَّ الصغائرَ ليست للعلَى أهْبَا
ولن ترى صحبةً تُرضي عواقبها
كالحقِّ والصبرِ في أمرٍ إذا اصطحبا
إنَّ الرجالَ إذا ما ألجئوا لجأوا
إلى التعاونِ فيما جَلَّ أو حزبا^(١)

قال: إمّا الصبر وإمّا الحرب، فأما الصغائر فلا تصل بكم إلى غاية. ثمَّ يقول:
تمهّدتُ عقباتٍ غيرُ هيئَةٍ
وأقبلتُ عقباتٍ لا يُدَلِّلُها
تلقَى رِكابُ السُّرى من مثلها نَصْبَا
في موقفِ الفصلِ إلاّ الشعبُ مُتخِبا
وسهَّلَ الغدُّ في الأشياءِ ما صَعْبَا
كَمْ صَعَبَ اليَوْمُ من سهلٍ هممتَ بهِ
لَا تَمَلُّوا الشدقَ من تعريفها عجبًا
صُمِّمُوا الجهودَ واخلُّوها مُنْكَرَةً

يريد أن يقول، إنَّ عقابًا كأداء قد تمهّدت، ولا تزال عقاب لا تقلّ عن تلك غير ممهّدة. ولكن إذا اتفق الشعب وانتخب نوابه، فقد يصل إلى أربه، وربما تيسر في الغد ما لم يتيسر اليوم (ولقد تيسر ما تكهّن به شوقي، بعد ثماني سنوات ممّا قال)، فصمّموا مجهوداتكم

(١) حَزَبُهُمُ الأَمْرُ: أصابهم.

واجعلوها فكرة منسوبة للبلاد بأسرها، ولا تضيعوا الوقت في نسبتها إلى الأشخاص،
وتفضيل زيد على عمرو، والاختلاف على من كان هو العامل.

أفي الوغى ورحى الهيجاء دائرةٌ
تُحصونَ مَنْ ماتَ أو تُحصونَ ما سُلِبَا؟
خلّوا الأكاليل للتاريخ إن له
يدًا تؤلّفها دُرًّا ومَحْشَلَبَا^(١)
أمرُ الرجال إليه لا إلى نفرٍ
من بينكم سبقَ الأنبياءَ والكتُّبا

يقول: إذا كانت الهيجاء دائرة، فليس من العقل أن يشتغل الناس بإحصاء مَنْ ذَهَبَ، أو
إحصاء ما ذهب، بل هذا متروك إلى ما بعد انتهاء المصاف، كذلك المعارك السياسية التي
التاريخ وحده هو الذي يُعطي فيها كلَّ مقاتل حَقَّهُ، فإلى التاريخ مرجع الفصل في هذه
القضية، وأمّا أنتم فلستم الآن في تاريخ، بل في سياسة تجب معالجتها بما يناسبها. ثمَّ يقول:

قالوا الحماية، زالت قلتُ لا عجبٌ
بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأسُ الحمايةِ مقطوعٌ فلا عَدِمَتْ
كنانةُ الله حَزَمًا يقطعُ الذنبا

ولقد أتى الله الكنانة حزمًا كافيًا في أثناء غارة إيطاليا على الحبشة، فاستغلت الخصام
الإيطالي الإنكليزي، وقطعت ذنب تلك الحماية.

لو تسألون «أُنْبِي»^(٢) يوم جندَلْها
يا فاتحَ القدس خلَّ السيفَ ناحيةً
بأيّ سيفٍ على يافوخها ضربا
إذا نظرتَ إلى أين انتهتْ يدهُ
ليس الصليبُ حديدًا كان بل خشبا
علمتَ أن وراء الضعف مقدرةً
وكيف جاوزَ في سُلطانهِ القُطبا
وإنَّ للحقَّ لا للِقْوَةِ الغَلْبا

أي أن الصليب كان خشبًا لا حديدًا، وكان أصحابه أضعف خلق الله، ومع هذا فقد
انتهى أمرهم إلى ما انتهى إليه من القوّة، فلا ينبغي أن يعتمد على قوّته ويسرف في الاعتماد
عليها، وكم من الله على الذين استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمةً.

وهذه الأبيات الثلاثة الأخيرة، هي من الأبيات الخالدة التي يحفظها مئات الألوف من
الناطقين بالضاد، ولا يرحون يطرّزون المجالس بها، ولو تُرجمت إلى لغة أجنبية لما خسرت
شيئًا من طلاوتها ولا قوّة معناها، كما هو الشأن فيما يحوّل من لغة إلى لغة.

(١) المَحْشَلَب: الزجاج.

(٢) أُنْبِي: Allenby (١٨٦١ - ١٩٣٦). مارشال بريطاني، احتلّ فلسطين سنة ١٩١٧، هو المندوب السامي في مصر (١٩١٩ - ١٩٢٥).

قصيدة شوقي عن تأجيل حفلة التتويج لملك إنكلترة

ولشوقي قصيدة في تأجيل حفلة التتويج لملك إنجلترا إدوارد السابع، وقالوا إنها تأجلت لإصابة الملك بدُمَل، ومطلع هذه القصيدة هو هذا:

لَمَنْ ذَلِكَ الْمَلِكُ الَّذِي عَزَّ جَانِبُهُ
لقد وعظ الأملاك والناس صاحبه
ومنها:

أَيُّبُطْلُ عَيْدِ الدَّهْرِ مِنْ أَجْلِ دُمَلٍ
وتخبو مجاليه وتطوى مواكبه؟
وِيرْجِعُ بِالْقَلْبِ الْكَسِيرِ وَفَوْدُهُ
وفيهم مصابيح الورى وكواكبه
وَتَسْمُو يَدُ الدَّهْرِ ارْتِجَالًا بِأَسْهَاهَا
إلى طنب الأقواس والنصر ضاربه
وَيَسْتَغْفِرُ الشَّعْبُ الْفَخُورُ لِرَبِّهِ
ويجمع من ذيل المخيلة^(١) ساحبه
ما أحسن قوله يجمع من ذيل المخيلة ساحبه، أي يقصر من ذيل الخيلاء الذي كان يُجرّره.
أَلَا هَكَذَا الدُّنْيَا وَذَلِكَ وَدُّهَا
فهلّا تأنى في الأمانى خاطبه
أَعَدَّ لَهَا (إِدْوَارْدُ) أَعْيَادَ تَاجِهِ
وما في حساب الله ما هو حاسبه

قصيدة شوقي في ذكرى كارنارفون

وقال شوقي في ذكرى كارنارفون:

مَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَمُوتَ فَبِالْعُلَى^(٢)
خَلَدَ الرِّجَالَ، وَبِالْفِعَالِ النَّابِهَ
مَا مَاتَ مَنْ حَازَ الثَّرَى آثَارَهُ
وَاسْتَوْلَتِ الدُّنْيَا عَلَى آدَابِهِ
قُلْ لِلْمُدْلِ بِمَالِهِ وَبِجَاهِهِ
وَبِمَا يُجِلُّ النَّاسُ مِنْ أَنْسَابِهِ
هَذَا الْأَدِيمُ^(٣) يُصَدُّ عَنْ حَضَارِهِ
وَيَنَامُ مَلءَ الْجَفْنِ عَنْ غِيَابِهِ
إِلَّا فَتَى يَمْشِي عَلَيْهِ مُجَدِّدًا
دِيْبَاجَتِيَهْ مُعَمَّرًا لِحِرَابِهِ

(١) المخيلة: الكبير.

(٢) العلى: من عليّ علاء، وتعالى؛ ارتفع ولا يجري فيها القياس، رغم صحته (علا، يعلو). ومعروف أن الأسم هنا على المقصور.

(٣) الأديم: يريد به وجه هذه الأرض.

قصيدة شوقي في تكريم الريحاني

وله في إكرام الفيلسوف الأديب الكبير الأستاذ، أمين الريحاني اللبناني، عندما جاء إلى مصر، وأقام له الأدباء حفلاً على سفح الأهرام، قال:

قِفْ نَاجِ أَهْرَامَ الْجَلالِ وَنَادِ
هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسٌ أَوْ نَادِ؟
ومنها:

إِيهِ أَمِينُ لِمَسْتَكَلِّ مُحَجَّبِ
قُمْ قَبْلُ الْأَحْجَارِ وَالْأَيْدِي التِّي
وَحُذِّ النَّبوغِ مِنَ الْكِنَانَةِ^(١) إِنَّهَا
مَا زَالِ يَغْشَى الشَّرْقَ مِنْ لِمَحَاتِهَا
كَمْ مِنْ جَلَائِلِ أَنْعَمَ لِمَحْمَدِ
لَوْلَا اهْتِمَامُهَا لَطَلَّ الشَّرْقُ فِي
فِي الْحُسْنِ مِنْ أَثْرِ الْعُقُولِ وَبَادِ
أَخَذَتْ لَهَا عَهْدًا مِنَ الْآبَادِ
مَهْدُ الشُّمُوسِ وَمَسْقَطِ الْآرَادِ^(٢)
فِي كَلِّ مُظْلِمَةٍ شُعَاعٌ هَادِ
بَلْ كَمْ لَأَسْمَاعِيلَ بِيضِ أَيْادِ
وَادِ وَأَبْنَاءِ الزَّمَانِ بَوَادِ

ثمَّ يخاطب الريحاني^(٣)، وهذا الخطاب يذكّرني بدويًّا سمع مديحًا في رجل كبير، فقال:
القول على الفعل يُزِين.

يَا نَجْمَ سوريَا وَلَسْتَ بِأَوَّلِ
اطلَعِ عَلَيَّ يَمَنْ يُمِينِكَ فِي غَدِ
وَأَجَلُ خيَالِكَ فِي طُلُولِ مِمَالِكِ
مَاذَا نَمَتَ مِنْ نَيْرِ وَقَادِ
وَتَجَلَّ بَعْدَ غَدِ عَلَيَّ بِغَدَادِ
مِمَّا تَجُوبُ وَفِي رَسُومِ بِلَادِ

يقول له: لست أنت أول نجم من أنجم سورية، فقد طلع منها نيرات وقادة قبلك، فاطلع الآن بعد مصر على اليمن، وتجلّ على العراق، لترى ما ترى في رسوم تلك الأربيع، وتتذكّر مجد العرب القديم. ولقد قام الريحاني، وأيمُّ الله، بهذه المهمة، وكتب عن أحوال جزيرة العرب الكتب الممتعة، ودعا إلى وحدة العرب بكلّ طريقة، ولا بُدَّ من الاعتراف بهذه الحقيقة. ثمَّ قال له:

(١) الكنانة: مصر.

(٢) الأراد: جمع راد، وهو وقت ارتفاع الشمس في الضحى.

(٣) أمين الريحاني، (١٨٧٦-١٩٤٠م). أديب لبناني من الكبار، كتب بالعربية والإنكليزية، له: "قلب لبنان" و"قلب العراق" و"تاريخ نجد الحديث" و"الريحانيات" و"ملوك العرب".

قَضَيْتَ أَيامَ الشَّبَابِ بِعَالَمِ
وَلَدَ الْبِدَائِعِ الرَّوَاعِعَ كُلَّهَا
لَمْ يَخْتَرِعْ شَيْطَانٌ حَسَانَ وَلَمْ
اللَّهُ كَرَّمَ بِالْبَيَانِ عَصَابَةَ
لَبَسَ السَّنِينَ قَشِيْبَةَ الْأَبْرَادِ
وَعَدْتُهُ أَنْ يَلِدَ الْبَيَانَ عَوَادِ
تُخْرِجُ مَصَانِعُهُ لِسَانَ زِيَادِ
فِي الْعَالَمِينَ عَزِيْزَةَ الْمِيْلَادِ

يقول للريحاني إنك قضيت أيام شبابك في عالم جديد، أدلَّ الله له أعرافَ البدائع الصناعية، وألانَ أعطافَ الروائع العلمية، ولكنه لم يُدرك شأوَ العرب في فصاحة اللسان، ولم يُلِدْ شعراء كثيرين مثل حسان بن ثابت ولا خطباء كثيرين مثل زياد بن أبيه. ثمَّ قال:

هُوميرٌ^(١) أَحَدَثَ مِنْ قُرُونِ بَعْدِهِ
وَالشَّعْرُ فِي حَيْثِ النَّفُوسِ تَلَذُّهُ
شِعْرًا وَإِنْ لَمْ تَحُلْ مِنْ أَحَادِ
لَا فِي الْجَدِيدِ وَلَا الْقَدِيمِ الْعَادِي

يقول: إن هومير وهو أقدم الشعراء، لا يزال شعره حديثًا طليًا، لم يبلغ درجته شعراء كثيرون، تأخروا عنه عشرات من القرون، وذلك أن الشعر ليس فيه قديم وجديد، وإنما فيه لذيذ وغير لذيذ. فما استلطفته النفوس، فهو شعر لا تُخلق ديباجته ولو كان قديمًا. وما مجَّته الأذواق، فليس بشعر ولو كان جديدًا.

رأي المؤلف في قديم الشعر وجديده

قلت: ولو كانت القدمة ممَّا يهجن الشعر، لوجب أن يكون هومير منبوذًا، فإنه أقدم شاعر. ونحن لم نزل نقول لهؤلاء الذين لا يفتأون يتكلمون في القديم والجديد من الشعر، ويزعمون أن لكل عصر "مدرسة"، على قولهم في الشعر: إنَّ هذه "المدرسة" تكون في العلم، وتكون في الصناعة، وتكون في الزراعة، وتكون في كلِّ شيء إلا في الشعر. فإنَّ مدرسته هي القلب، وإنَّ طريقته هي النفس، وإنَّ النفس البشرية لم تتغيَّر ولن تتغيَّر، فهي هي في أذواقها ومشاربها، ومواردها في الحياة ومصادرها. فإذا كان العلم يتغيَّر بظهور حقائق جديدة وبروز أسرار كونية، كانت حتى اليوم خافية، فإنَّ العلم شيء والشعر شيء آخر.

(١) هومير: هوميرُس Homeros (القرن التاسع ق.م). هو شاعر اليونان الكبير، صاحب "الإلياذة" و"الأوديسة".

وما سمعنا - يا ليت شعري - أن الإنجليز زهدوا في شعر (شكسبير)، لكونه عاش قبل هذه الأيام بثلاثمائة سنة، ولا أن الألمان عابوا (غوته) لِقَدَمِ عهده ومجيئه قبل اليوم بمائة وخمسين سنة. ولم يزل (غوته) هو عند الألمان سيّد الشعر، ولم يزل (شكسبير) عند الإنكليز أكبر الشعراء. و(شكسبير) و(غوته) و(ملتون) و(كورنيل) و(راسين) و(دانتي)، وكل هؤلاء لم يعرفوا شيئاً من أوضاع العصر الحاضر ببداهته، كونهم قد سبقوه بأعْضُر، وهم على كلِّ حالٍ متقدّمون لا محدثون.

وكمّ من مرّة نقول لهم: ليس الشعر بكيمايا ولا طبّ ولا جغرافية ولا طبيعيات، وإنّما هو تأثيرات نفسية وانطباعات فكرية لا غير. هذا من جهة الشعر على العموم، وأمّا من جهة الشعر العربي الذي تريدون أن تُفَرِّجوه؛ فالشعر العربي لا يكون شعراً إلا إذا وافق ذوق العرب، ولا عم مشارب أنفسهم، وجانس مذاهب لغّتهم، واتّصل بمناحي حياتهم، نظمه قديم أو متوسّط أو محدث كلّهم على حدّ سواء. فإذا باين^(١) الشعر العربي أساليب العرب في بيانها، وطُرُقها في التعبير عن خوالج نفوسها، لم يتأثر به قارئ، ولا تسوّغه سامع من العرب، وربما لم يفهموه أصلاً، على حدّ قول الأستاذ محبّ الدين الخطيب: إنّ الواحد من هؤلاء "يظلّ يومه يسطو على منظومات الإفرنج، يستلّ منها معانيها الغربية عن الأذواق العربية، فيصوغها بألفاظ وتراكيب يلعن بعضها بعضاً، فلا يفهم منها القارئ العربي إلا بقدر ما أفهم أنا من الصيني". وأنا أيضاً معترف بأنّي لا أفهم هذه اللغة التي يكتبون بها.

ثمّ يختم شوقي خطابه للريحاني:

غني الأصيلُ بمنطقِ الأجدادِ
جعلَ الجمالَ وسرّه في الضادِ

أو دَعُ لسانك واللغات فربّما
إنّ الذي ملأ اللغات محاسناً

إحدى قصائد شوقي في السلطان عبد الحميد

ولمّا أُلقيت قذيفة على السلطان عبد الحميد، سنة ١٩٠٥، ونجا السلطان منها، هنّأه شوقي بقصيدة، مطلعها:

نجاتك للدين الحنيف نجاهُ

هنياً أمير المؤمنين فإنّما

(١) باين الشيء: ابتعد عنه.

ومنها:

بلوناك يقظان الصوارم والقنا
سهرت ولدَّ النوم وهو منية
فلولاك ملكُ المسلمين مُضَيِّعٌ
لقد ذهبت رايأتهم غير رايةٍ
حنيفيةٌ قد عزَّها وأعزَّها
حماها وأسامها على الدهر منهمو
غمائمٌ في محلِّ السنين هو اطلُّ
تهادت سلامًا في ذراك مطيفةٌ
تموتُ سباع الجوّ غرثي^(٣) حيالها
سننت اعتدالَ الدهر في أمر أهله
أكان لهذا الأمرِ غيرك صالحٌ
ومن يسس الدنيا ثلاثين حجةً
وما زلت حسان المقام ولم تزل
زهدت الذي في راحتك وشاقتني

إذا ضيَّع الصيِّدَ الملوكُ سُبَاتُ
رعايا تولَّاهَا الهوى ورُعاةُ
ولولاك سَمَلُ المسلمين سَتَاتُ
لها النصرُ وَسَمٌ والفتوحُ شِيَاتُ^(١)
ثلاثون مَلَكًا فاتحونَ غزاةُ
ملوكٌ على أملاكه سرواتُ^(٢)
مصاييحٌ في ليل الشكوكِ هُدَاةُ
لها رغباتُ الخلقِ والرَّهَبَاتُ
وتحيى نفوسُ الخلقِ والمُهْجَاتُ
فباتَ رضىًا في ذراكٍ وباتوا
وقد هَوْنَتْهُ عندك السنواتُ؟^(٤)
تُعْنُهُ عليها حكمةٌ وأناةُ
تليني وتسري منك لي النفحاتُ
جوائزُ عندَ الله مُبْتَغِيَاتُ

يجعل نفسه من السلطان الخليفة بمقام حسان من رسول الله، عليه السلام، ويقول إنه لم يزل مغمورًا بعطايا الخليفة، ولكنه هو إنما يرغب في جوائز الله بتأييد خليفته في الأرض، لا في جوائز هذه الدنيا. ولم يشأ شوقي أن يمدح الخليفة، من دون أن يمدح نفسه، مقتديًا في ذلك بإمامه أبي الطيب المتنبي الذي كان يقول:

فدع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني أنا الطائرُ المحكيُّ والآخرُ الصدى

(١) شيات: مفردها شية، وهي العلامة.

(٢) سروات: سادات وروساء، أي أن سلاطين آل عثمان هم ذرى ملوك الإسلام.

(٣) غرثي: جماعة.

(٤) أي صارت إدارة الملك، ملكة عندك بطول اضطلاعك بها.

ويقول:

خليليّ إني لا أرى غيرَ شاعرٍ فلمِ منهمو^(١) الدّعوى ومني القصائدُ

ويقول، وقد تجاوز الحدّ، وانتهى بذلك إلى الحقّ:

سيعلمُ الجمعُ ممّن صمّ مجلسنا بأنني خيرٌ من تسعى به قدّمُ

وهذه قصيدته "وا حرّ قلباه ممّن قلبه سبمُ"، ملأى بأوا وعجبًا وعجرف، لا يشكّ سامعها في أنّ المتنبي قصد يومئذٍ فراق سيف الدولة وقطع صلته به، ومن إعجاب الشعراء بأنفسهم ما يغتفره لهم الناس مثل قول المتنبي:

أنا الذي نظرتُ الأعمى إلى أدبي وأسمعتُ كلماتي من به صمّمُ

ولكن منه ما يسمج على كلّ حال، مثل قول المتنبي "بأنني خيرٌ من تسعى به قدّم"، شهد لنفسه بما لا يوافق عليه أحد. فأما شوقي، فلم يصل إلى ذلك الأمد في البأو^(٢)، وإن كان لم يقصّر في ذلك عند قوله:

ومن كان مثلي أحمد الوقت لم تجزُ عليه ولو من مثلك الصدقاتُ

ولي دُرُّ الأخلاق في المدح والهوى وللمنبي دُرّة وحصاةُ

أي أنه كما كان أحمد بن الحسين المتنبي، رجل وقته في الشعر، فإن أحمد شوقي، هو رجل هذا الوقت، وأنه يفضّل المتنبي بكون شعره سويًا، لا تجد فيه عوجًا ولا أمتًا^(٣)، وإن المتنبي كان في شعره يعلو ويسفل، ويقرن بين الدرر والحصى والسيف والعصا.

شوقي نصير الصّون والعضاف

ولشوقي قصيدة ألقيت على جمع حافل من سيّدات مصر، في حديقة الأزبكية، تدلّ على شدّة اهتمامه بصيانة الأخلاق والفضائل، وتحصين التربية العائلية من نزعات العصر الحاضر، ونزعات الخلاعة والفجور، بينما كثير من الأدباء يزيّنون للناشئة الخروج على تقاليد الصّون، ويريدونها فوضى إجتماعية لا لجام لها. وقال شوقي، ولم يزل على صراطٍ مستقيم:

(١) منهمو: الضمير عائد للشعراء.

(٢) البأو: الفخر والتكبر.

(٣) الأمت: هنا، الضعف.

قُمْ حَيِّ هَذَا النِّيْرَاتِ
 وَاحْفَظْ جَيْبَكَ هَيْبَةً
 زَيْنُ الْمَقَاصِرِ وَالْحِجَابِ
 هَذَا مَقَامُ الْأُمَمَاتِ
 لَا تَلْعُ^(١) فِيهِ وَلَا تَقُلْ
 وَإِذَا خَطَبْتَ فَلَا تَكُنْ
 أَذْكَرَ لَهَا الْيَابَانَ لَا
 مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْحَضَا
 لَمْ تَلَقَ غَيْرَ الرَّقِّ مِنْ
 حَيِّ الْحَسَانِ الْخَيْرَاتِ
 لِلْخُرْدِ الْمُتَحَفَّرَاتِ
 لَوْ زَيْنُ مِحْرَابِ الصَّلَاةِ
 فَهَلْ قَدَرْتَ الْأُمَمَاتِ؟
 غَيْرَ الْفَوَاصِلِ مُحْكَمَاتِ
 خَطْبًا عَلَى مِصْرَ الْفِتَاةِ
 أَمُّ الْهَوَى الْمُتَهْتِكَاتِ
 يَا أُخَيَّ التَّرَهَاتِ؟
 عُسْرٍ عَلَى الشَّرْقِيِّ عَاتِ

ينهي أهل مصر عن أن يقوم فيهم من يخطب فيفجر، فيكون خطبًا على مصر الناشئة، ويرخي فيها من قيود الآداب الإجتماعية، ويسهل العبث بالتقاليد القديمة الكريمة، ويقول لهم: تأملوا في اليابان، وشدة اعتصامها بتقاليدها، مع علو كعبها في المدينة، ثم يقول لهم: ماذا افتتانكم إلى ذلك الحد في حضارة أوروبية، لم تجدوا من ورائها غير العسر والرق، ثم يقول:

خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيدِ
 وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِي
 هَذَا رَسُولُ اللَّهِ لَمْ
 الْعِلْمُ كَانَ شَرِيعَةً
 رِضْنِ التَّجَارَةِ وَالسِّيَا
 كَانَتْ سَكِينَةً^(٢) تَمَلَأُ الدَّ
 رَوْتَ الْحَدِيثَ وَفَسَّرْتَ
 وَحَضَارَةَ الْإِسْلَامِ تَنْدُ
 بَغْدَادُ دَارُ الْعَالِمَا
 مِثْ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الثَّقَاتِ
 فَعَةٍ وَاتَّبِعْ نُظْمَ الْحَيَاةِ
 يُنْقِصُ حَقُوقَ الْمُؤْمِنَاتِ
 لِنِسَائِهِ الْمُتَفَقِّهَاتِ
 سَةِ وَالشُّؤُونَ الْأَخْرِيَاتِ
 نِيَا وَتَهْزَأُ بِالرَّوَاةِ
 آيِ الْكِتَابِ الْبَيِّنَاتِ
 طِقُ عَنْ مَكَانِ الْمُسْلِمَاتِ
 تِ وَمَنْزِلِ الْمُتَادِبَاتِ

(١) لَعَا لَفَوًّا، وَلَغِي مَلْفَاةً: بِمَعْنَى وَاحِدٍ، هُوَ قَوْلُ الْبَاطِلِ مِنْ غَيْرِ رُوْيَةٍ وَفَكْرٍ.

(٢) سَكِينَةٌ: هِيَ بِنْتُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، حَفِيدَةُ الرَّسُولِ (ﷺ).

ودمشق تَحْتُ^(١) أُمِّيَّة

أُمُّ الْجَوَارِي النَّابِغَاتِ

وررياض أندلس نَمِيَّة

بِنَ الْهَاتِفَاتِ الشَّاعِرَاتِ

جزاه الله عن الإسلام خيرًا، بل جزاه عن المجتمع الشرقي بأسره خيرًا، فإنه لم يقف موقفًا من مواقف الاجتماع، غفل فيه عن الطريقة المثلى. وهو وإن كان كلامه لم ينجع كما يجب، ولم يؤثر بقدر ما نحب، بسبب استيلاء الضلالة على العقول وإفلات الشهوات من العقل، فلا بُدَّ أن تكون للأخلاق كَرَّة، وأن يعود السلطان للشريعة، ويتناشد الناس أقوال شوقي هذه ويترحموا عليه. ثم يقول:

للصالحات عقائل الـ

وادي هوى في الصالحات

الله أنبتهن في

طاعاته خير النبات

فأتين أطيب ما أتى

زهر المناقب والصفات

لم يكف أن أحسن حـ

تى زدن حظ المحسنات

يمشين في سوق الثوا

ب مساومات رابحات

مصر تجدد مجدها

بنسائها المتجددات

النافرات من الجمو

د كانه شبح الممات

هل بينهن جوامدًا

فرق وبين الموميات

لما حصن لنا القض

ية كن خير الحاضنات

غذيتها في مهدها

بلبانهن الطاهرات

ينفثن في الفتیان من

روح الشجاعة والثبات

يهوين تقبيل المهنة

د أو معانقة القنائة

ويرين حتى في الكرى

قبل الرجال محرمات

فرق شوقي، بين الجمود وبين الاعتصام بالتقاليد الكريمة والمبادئ الفاضلة، التي لا سعادة للمجتمع إلا بها، فليس هذا من هذا، بل الجمود ليس من تقاليد هذه الأمة، وإن أحسن ما يعمل في مدارس الإناث، هو تحفيظ هذه الأبيات للآنسات، وتجديد تلاوتها في المحافل.

(١) تحت: هنا، بمعنى عرش.

شوقي يُدمدم على رذيلة الانتحار

ورأى شوقي ما فشا في مصر من انتحار صغار الطلبة، لدن سقوطهم في الامتحانات، فنظم هذه القصيدة في ذم اليأس، ودعوة هؤلاء الشبان إلى الثبات في المعركة، وإلى بسط الأمل في الحياة، فقال:

كَلَّ يَوْمٍ خَبِرَ عَن حَدَثِ	سَيِّمَ الْعَيْشَ وَمَنْ يَسَامُ يَذَرُ ^(١)
عَافَ بِالدُّنْيَا بِنَاءً بَعْدَمَا	خَطَبَ الدُّنْيَا وَأَهْدَى وَمَهْرُ
حَلَّ يَوْمَ الْعُرْسِ مِنْهَا نَفْسَهُ	رَحِمَ اللَّهُ الْعُرُوسَ الْمُحْتَضِرُ ^(٢)
ضَاقَ بِالْعَيْشَةِ ذُرْعًا فَهَوَى	عَن سَفَا الْيَأْسِ وَيَسَّ الْمُنْحَدَرُ
رَاحِلًا فِي مِثْلِ أَعْمَارِ الْمُنَى	ذَاهِبًا فِي مِثْلِ آجَالِ الزَّهَرِ
لَا أَرَى الْأَيَّامَ إِلَّا مَعْرَكًا	وَأَرَى الصُّنْدِيدَ فِيهِ مَن صَبَرَ
رُبَّ وَاهِي الْجَاشِ فِيهِ قَصْفُ ^(٣)	مَاتَ بِالْجُبْنِ وَأُودِيَ بِالْحَدَرُ
لَامَهُ النَّاسُ وَمَا أَظْلَمَهُم	وَقَلِيلٌ مَّن تَغَاضَى أَوْ عَذَرَ
وَلَقَدْ أَبْلَاكَ عُذْرًا حَسَنًا	مَرْتَدِي الْأَكْفَانَ مُلْقَى فِي الْحَقْرِ
قَالَ النَّاسُ صَرَعَةٌ مِّن قَدَرِ	وَقَدِيمًا ظَلَمَ النَّاسُ الْقَدَرُ
وَيَقُولُ الطَّبُّ بَلٌ مِّن جِنَّةِ ^(٤)	وَرَأَيْتُ الْعَقْلَ فِي النَّاسِ نَدَرُ
وَيَقُولُونَ جَفَاءً رَاعَهُ	مِن أَبٍ أَغْلَظَ قَلْبًا مِّن حَجَرُ
وَامْتِحَانٌ صَعَبْتُهُ وَطَاةٌ	شَدَّهَا فِي الْعِلْمِ أَسْتَاذٌ نَكِرُ
لَا أَرَى نِظَامًا فَاسِدًا	فَكَكَّ الْعِلْمَ وَأُودِيَ بِالْأَسْرِ
مِن ضَحَايَاهُ وَمَا أَكْثَرُهَا	ذَلِكَ الْكَارِهِ فِي غَضِّ الْعُمُرُ
مَا رَأَى فِي الْعَيْشِ شَيْئًا سَرَّهُ	وَأَخْفَى الْعَيْشِ مَا سَاءَ وَسَرَّ

(١) يَذَرُ: يترك ويَدَع.

(٢) المختضر: الميت في صباه؛ وهو من اختضر العشب، أي قطعه وهو أخضر.

(٣) القصف: الضعف والخور.

(٤) الجنَّة: الجنون.

نَزَلَ الْعَيْشَ فَلَمْ يَنْزِلْ سِوَى
وَنَهَارٍ لَيْسَ فِيهِ غِبْطَةٌ
وَدُرُوسٍ لَمْ يُذَلَّلْ قَطْفُهَا
شُعْبَةَ الْهَمِّ وَبِيدَاءَ الْفِكْرِ
وَلِيَالٍ لَيْسَ فِيهِنَّ سَمَرٌ
عَالِمٌ إِنْ نَطَقَ الدَّرْسَ سَحَرَ

وبعد أن ذكر هذه الأسباب، التي تُضَيِّقُ سُبُلَ الْعَيْشِ عَلَى الْأَحْدَاثِ، وَأُنْحَى بِاللَّائِمَةِ عَلَى الْأَهْلِ وَالْمُعَلِّمِينَ، عَادَ فَنصَحَ لِلأَحْدَاثِ بِالصَّبْرِ وَالتَّأَنِّي وَالتَّقَدُّمَ إِلَى الْأُمَامِ، فَقَالَ:

نَشَأَ الْخَيْرِ رُويْدًا قَتَلُكُمْ
لَوْ عَصَيْتُمْ كَاذِبَ الْيَأْسِ فَمَا
تُضْمِرُ الْيَأْسَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا
فِيمَ تَجْنُونَ عَلَى آبَائِكُمْ
وَتَعْتُونَ بِلَادًا لَمْ تَنْزَلْ
فَمُصَابُ الْمَلِكِ فِي سُبَّانِهِ
لَيْسَ يَدْرِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِمَا
فِي الصَّبَا النَّفْسَ ضَلَالٌ وَخُسْرٌ
فِي صِبَاهَا يَنْحَرُ النَّفْسَ الصَّجْرُ
عِنْدَهَا مِنْ حَادِثِ الدُّنْيَا خَبْرٌ
أَلَمَ الثُّكُلِ شَدِيدًا فِي الْكِبَرِ
بَيْنَ إِشْفَاقٍ عَلَيْكُمْ وَحَذَرٍ
كَمْصَابِ الْأَرْضِ فِي الزَّرْعِ النَّضِيرِ
كَانَ يُعْطَى لَوْ تَأَنَّى وَانْتَظَرَ

أَي رَبِّمَا كَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَرِّينَ لِأَجْلِ سَقُوطِهِمْ فِي الْإِمْتِحَانِ، مَنْ لَوْ صَبَرَ عَلَى نَفْسِهِ لَجَاءَ عَالِمًا كَبِيرًا، وَكَانَ فِي عَصْرِهِ نَادِرًا.

رَوْحُوا الْقَلْبَ بِلذَاتِ الصَّبَا
فَكَفَى السَّيْبُ مَجَالًا لِلْكَدْرِ

أَي بَكَرْتَهُمْ فِي الْغَمِّ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا، فَسَوْفَ تَأْتِيكُمْ الشَّيْخُوخَةُ، بِمَا هُوَ حَسْبُكُمْ مِنْ هَذِهِ الْجَهَةِ.

عَالِجُوا الْحِكْمَةَ وَاسْتَشْفُوا بِهَا
وَاقْرَأُوا آدَابَ مَنْ قَبْلَكُمْ
وَاعْتَمُوا مَا سَحَرَ اللَّهُ لَكُمْ
وَاطْلُبُوا الْعِلْمَ لِذَاتِ الْعِلْمِ لَا
كَمْ غُلَامٍ خَامِلٍ فِي دَرْسِهِ
وَاسْتَدُوا مَا صَلَّ مِنْهَا فِي السَّيْرِ
رَبِّمَا عَلَّمَ حَيًّا مَنْ غَبَرَ^(١)
مِنْ جَمَالٍ فِي الْمَعَانِي وَصُورٍ
لشَهَادَاتٍ وَآرَابٍ أُخِرُ
صَارَ بَحْرَ الْعِلْمِ أَسْتَاذَ الْعُصْرِ

(١) غَبَرَ: مَضَى، كُنَايَةٌ: مَاتَ.

النشأ محرّكة جمع نشء، وهو النسل، وكثيراً ما يستعمل شوقي هذه اللفظة في خطاب الشبان هذا، وكَمْ أصاب في قوله: "اطلبوا العلم لذات العلم"، فقد رأيت كثيراً من الشبان يجعلون جميع وكدهم في تحصيل الشهادة، ويرونَ بها منتهى السعادة، وإذا حصل الواحد عليها ظنَّ نفسه عالماً لا يجوز أن يقال له أخطأت. أو ليس أنه أحرز الشهادة؟ ورأيت شباناً آخرين يكاد أحدهم يذوب حسرةً وتألماً على كونه لم يُصِب الشهادة، ولم يفز بما فاز به غيره، وهو يتخيّل أن الأرض قد ابتلعتة، فكنت أقول للفتة الأولى: لا يُغرّنكم نيل الشهادة، فتناموا بعدها، قائلين لأنفسكم أنكم صرتم علماء، بحجة أن الشهادة هي في أيديكم. بل يجب أن تثابروا على الدرس والتحقيق، كأنّ شهادتكم لم تكن، فالشهادة ليست العلم. وكنت أقول للفتة الثانية: ما أرى تأخركم في الامتحان إلا خيراً لكم، إذ بهذا التأخر تضطرون إلى مراجعة دروسكم المرّة والمرتين والثلاث، فيكون ذلك وسيلة لتمكّنوا من العلم، وتعرفوا أكثر ممّا عرفه أصحاب الشهادات، واعلموا أن الشهادة ليست هي العلم الحقيقي، بل هي علامة من علاماته. فمن عرف نفسه قد أحكم الفن الذي عكف عليه، فلا ينبغي أن يحزن على تأخر الشهادة. ومن عرف نفسه لا يزال غير ضليع في العلم الذي درسه، فلا ينبغي أن يفرح بهذه الورقة التي أعطاه إياها الأساتيد^(١)، وكثيراً ما قدموا متأخراً وأخروا متقدماً؛ فكَم من طالب تأخر أيام التحصيل، ثمّ بعد خروجه من الجامعة، نبغ وتقدّم وصار من كبار العلماء. وهذا ما يقوله شوقي، الذي قَسَمَ الله له من المنطق، ما لم يقسم إلاّ لأعظم الفلاسفة. وخَتَمَ شوقي هذه القصيدة بدم الانتحار، واستنكار قتل النفس التي لا يجوز أن تموت إلاّ بأسم الله تعالى، ولم يحمد موطناً يجوز فيه الاستخفاف بالنفس إلاّ موطن الجهاد. فقال، رحمه الله:

قاتل النفس ولو كانت له	أسخَطَ الله ولم يُرضَ البشرُ
ساحة العيش إلى الله الذي	جعل الورْدَ بإذنٍ والصَدْرُ
لا تموت النفس إلاّ بأسمه	قامَ بالموتِ عليها وقَهَرُ
إنما يسمعُ بالروح الفتى	ساعة الرّوعِ إذا الجمعُ اشتجرُ
فهناك الأجرُ والفخرُ معاً	من يعيشُ يُحمَدُ ومن مات أُجِرُ

(١) أساتيد: مفرداها أساتذ. تقول في جمع أساتذ - وهو لفظ دخيل على العربية - أساتذة وأساتيد.

- شوقي يتوجع على بيروت، يوم ضربها الطليان أيام حرب طرابلس

وله عندما ضرب الأسطول الإيطالي مدينة بيروت في أثناء حرب طرابلس الغرب:

يا رَبِّ أَمْرُكَ فِي الْمَمَالِكِ نَافِذٌ
وَالْحُكْمُ حُكْمُكَ فِي الدَّمِ الْمَسْفُوكِ
إِنْ شِئْتَ أَهْرِقُهُ وَإِنْ شِئْتَ أَحْمِهِ
هُوَ لَمْ يَكُنْ لِسِوَاكَ بِالْمَمْلُوكِ

ثمَّ يقول:

بيروت مات الأسدُ حتفَ أنوفِهِم^(١)
سبعون ليشاً أحرِقوا أو أغرقوا
لم يَشْهَرُوا سِيفًا وَلَمْ يَحْمُوكِ
يا لَيْتَهُمْ قَتَلُوا عَلَيَّ "طَبْرُوكِ"

يريد بها "طَبْرُوكِ"، الواقعة غربي السَّلوم، ضمن حدود قضاء دَرْنَة، وقد كان الناس دعوا جنود السفينة الصغيرة العثمانية، الراسية في المرفأ للخروج منها قبل أن يضربها الأسطول، فأبى الضباط ذلك وأصرّوا على البقاء في السفينة قيامًا بالواجب، ولو كانوا سيموتون لا محالة، فتلّقوا الموت اليقين حتّى لا يقال إنهم فرّوا منه.

بيروتُ يا راحَ النزيلِ وَأُنْسَهُ
الحسنُ لَفْظٌ فِي الْمَدَائِنِ كُلِّهَا
نَادَمْتُ يَوْمًا فِي ظِلَالِكَ فَتِيَّةٌ
يُنْسُونَ حَسَانًا عَصَابَةَ جَلَّقِ^(٢)
يمضي الزمان عليّ لا أسلوكِ
ووجدته لفظًا ومعنى فيك
وَسَمَوْا^(٣) الملائك في جلال ملوكِ
حتّى يكادَ بجَلَّقِ يفديكِ

يشير إلى قول حسان:

(لله دُرٌّ عَصَابَةٌ أَنْسَتْهُمْ
تالله ما أحدثت شرًّا أو أذى
إن يجهلوكِ فَإِنَّ أُمَّكَ سوريًا
لك من رُبِي النيل المبارك جيرةٌ
يومًا بجلق في الزمان الأولِ)
حتّى تُراعي أو يُراعَ بنوكِ
والأبْلَقَ الفردَ الأشمَّ أبوكِ
لو يقدرُون بدمعِهِم غَسْلوكِ

يشير بالأبلق الفرد الأشمّ إلى جبل لبنان، ويُنوّه بسورية العزيزة، وطن الكرم والشجاعة، قائلاً لبيروت إنها أمك البرّة.

(١) تقول "مات حتفَ أنفه": أي مات على فراشه موتًا طبيعيًا.

(٢) واسم فلانة في الحسن، فوسمته: أي غلبه فيه.

(٣) جلق: دمشق.

وصف شوقي لاستانبول

ولشوقي وصف للأستانة:

مَنِّي لعهْدِكِ يا فَرُوقُ^(١) تحيَّةٌ
أو كالنسيم غدا عليكِ وراح من
أو كالأصيل جرى عليكِ عقيقه
تلك الخمائلُ والعيونُ اختارها
قد أفرغتُ فيكِ الطيعةُ سحرها
خلعت عليكِ جمالها وتأمّلت
عن جيدِكِ^(٢) الحالي^(٣) تَلَفَّتِ الرُّبى
إن أنسَ لا أنسَ الشبيبةُ والهوى
وليالياً لم ندرِ أين عشاؤها
وصبوحنا^(٤) من (بندلار) و(شرشر)
كعيونِ مائِكِ أو رَبى واديكِ
فوق الرياضِ ووُشِيها المحبوكِ
أو سالَ من عِقْيَانِه^(٥) شاطيكِ
لكِ من رَبى جَنّاتِه باريكِ
مَنْ ذا الذي من سحرها يَرْقِيكِ
فإذا جمالكِ فوق ما تكسوكِ
واستضحكتِ حُورُ الجِنانِ بِفِيكِ
وسوالِفَ اللذاتِ في ناديكِ
من فجرها لولا صِياحُ الديكِ
وغَبوقنا^(٦) (بترابيا) و(بيوك)^(٧)

هذه منازل ومنتزهات في البوسفور، أمّا (البندلار) فهي أودية ذات سدود، تشكّلت منها بحيرات، يذهب ماؤها إلى الأستانة. و(شرشر) هي عين ماء، و(ترابيا) هي قرية على ضفة البوسفور، وكذلك (بيوك دره). ثمّ يقول:

لا يحزننك من حماتكِ خِطَّةٌ
وهمو الخفافُ إليكِ كالأنصارِ إذ
والمشتروكِ بمالهم ودمائهم
كانت هي المثلَى وإن ساءوكِ
قلّ النصيرِ وعزٌّ مَنْ يفديكِ
حين الشيوخُ بجبّةِ باعوكِ

(١) فَرُوقُ: هي الأستانة.

(٢) العِقْيَانُ: الذهب الخالص.

(٣) الجيّدُ: العنق.

(٤) الحالي: ما دام فيه عقدٌ من الحلي.

(٥) الصَّبوحُ: شراب الصباح.

(٦) الغَبوقُ: شراب المساء.

(٧) (بندلار) و(شرشر) و(ترابيا) و(بيوك): أسماء أمكنة في الأستانة.

هنا تحامل أخونا شوقي على الشيوخ، الذين لولاهم في الحقيقة لم يقم أهل الأناضول، ولا لبوادعوة كاظم قره بكير، ولا مصطفى كمال، ولا أحد سواهما. فالجهاد التركي في وجه الحلفاء واليونان، وبعبارة أخرى يسمونها بحرب الاستقلال، لم تكن إلا بتحريض الأئمة والمشايخ وجميع أصحاب العمائم. وذلك بصارخة الإسلام التي لبأها الشعب التركي.

هذه هي حقيقة، لا يُكابِر فيها إلا مَنْ أعمت الضلالة قلوبهم، ومَنْ غلبوا على الأمور اليوم، فظنوا أنهم يُسخِّرون الحقائق كما يُسخِّرون الأهالي، ويغلبون على التاريخ كما غلبوا على المناصب. ولا نعلم أحدًا من علماء الترك باع بلاده من الأجانب بجبّة، وإنّما كان بعضهم سيء الظنّ ببعض القواد الذين أقحموا أنفسهم بحرب الاستقلال، وكانوا مطلقين من قبل على ضمائرهم بحق الإسلام والأخلاق، متوقّعين مَنْ غلبهم أن يؤوّل الأمر إلى ما آل إليه من الإلحاد بالدين، ومن هدم الخلافة ومن القضاء على الأوضاع الإسلامية بأسرها، ممّا عاد شوقي نفسه بعد قليل، فاعترف به وناح وبكى من أجله، وقصيدته الحائيّة التي مرّت أعظم شاهد على ذلك. فالذين أفتوا بما أفتوا به، لم يكونوا خائنين لوطنهم، وإنّما كانوا أمناء لدينهم خائفين على الإسلام من أمر يأتي.

وقد يجد المعارض على كلامي هذا وجهًا للجواب، ولكنه يكون جواب سفسطة. ليس هنا محلّ الشرح والتفصيل لبيانه. وقد زلق شوقي في هذه الفكرة، كما زلق ملايين من الخلق، ولكن الحقيقة لا يضرّها كثرة عدد مخالفيها.



قصيدة شوقي في اللورد كرومر

يوم عزل عن مصر

ومن قصائد شوقي المشهورة، القصيدة المُسمّاة (وداع اللورد كرومر):

أيامكم أم عهد إسماعيلاً
أم حاكم في أرض مصر بأمره
يا مالِكاً رِقَّ الرقاب ببأسه
هلاً اتخذت إلى القلوب سبيلاً
أم أنت فرعون يسوس النيلاً؟
لا سائلاً أبداً ولا مسئولاً؟

يقول لكرومر: إنك غلبت على مصر بقوة الأسطول الإنجليزي، أمنا بذلك، فهل تقدر أن تقول إنك ملكت قلباً واحداً من قلوب أهل مصر؟ ومن لم يملك القلوب، فلا يقال إنه ملك شيئاً، لأن الممالك لا يمكن أن تركز على رؤوس الحراب دائماً.

أوسعتنا يوم الوداع إهانة
هلاً لك أن تجامل بعدما
انظر إلى أدب الرئيس ولطفه
في ملعب للمضحكات مُشيد
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله
وتصدّر الأعمى به تطفيلاً
أدب لعمرك لا يُصيب مثيلاً
صاغ الرئيس لك الثنا إكليلاً؟
تجد الرئيس مُهذباً ونبيلاً
مثلت فيه المبكيات فصولاً

لما جرت حفلة الوداع للورد كرومر في دار الأوبرا، يوم خروجه من مصر، خطب رئيس النظار، مصطفى باشا فهمي وبحسب العادة في مثل تلك الحفلات، أثنى على المودع وأظهر الأسف لفراقه. فأجابه اللورد كرومر بكلام نال فيه من كرامة الأمة المصرية ومن الخديوي اسماعيل، ولم يُراع شيئاً من شروط الكياسة. وأغرب ما في الأمر، أنه قال ما قال، في حضور الأمير حسين كامل بن الخديوي اسماعيل، وسلطان مصر فيما بعد، وهذا ما يُشير إليه شوقي بقوله (شهد الحسين عليه لعن أصوله)، وأما الأعمى فهو صديقنا، الأستاذ الشيخ عبد الكريم سليمان، وكان بصره ضعيفاً حتى كاد يكف في الآخر. وما نظن شوقي ذكره هنا إلا على سبيل النكتة، أو كما يقال جرته القافية، فإن الشيخ عبد الكريم لم يكن له شأن في

السياسة، ولم يكن حضوره تلك الحفلة إلا كما يحضر سائر الإجتماعات، فقد كان مولعاً بذلك، وكان الناس يتنادرون عليه في كثرة وجوده في المآدب والمحافل، وكان حلّو الفكاهة يطارد في ميدان المداعبة أحسن طراد، وكانت الناس تستخفّ روحه. فأما أن يقوم الشيخ عبد الكريم ويردّ على اللورد كرومر في وجهه، على حين الأمراء والوزراء تحمّلوا كلامه وأبلسوا^(١) أمامه، فلم يكن من فرسان ذلك الميدان. ثمّ يقول:

أندرتنا رقاً يدوم وذلةً	تبقى وحالاً لا ترى تحويلاً
أحسبت أن الله دُونكَ قُدْرَةٌ	لا يملك التغيير والتبديلاً؟
الله يحكمُ في الملوكِ ولم تكنُ	دُولُ تُنازعه القُوى لِتَدولا
فَرعونُ قبلكَ كان أعظمُ سطوةً	وأعزَّ بين العالمينَ قبيلًا
اليومَ أخلفتِ الوعودَ حكومةً	كنا نظنّ عهدَها الإنجيلًا
دخلتَ على حُكم الودادِ وسرعه	مصرًا فكانت كالسُّلالِ ^(٢) دُخولا
هدمت معالمها وهَدّت رُكنَها	وأضاعت استقلالَها المأمولًا
قالوا جلبتَ لنا الرفاهةَ والغنى	جحدوا الإلهَ وصنَعَهُ والنَّيلا

نعم، إن الكثيرين من سعاة الأجنبي ودعاتهم، كانوا دائماً يبيّنون للناس ما جرى من الإصلاحات في مصر لعهد الإنجليز، وينسون أن الله تعالى أنعمَ على مصر بالنيل، وأنه لولا النيل لم تتسهّل هذه الإصلاحات، وأنّ الإنجليز دخلوا بلادًا غير مصر، فلم يوفّقوا إلى شيء مما وُفّقوا به في مصر، لأنه لم يكن لتلك البلاد نيل يسقيها ويُسبّل الذهب في واديهها. ثمّ إنّ هؤلاء ينسون شيئًا آخر، وهو أن مصر، على فرض أن الإنجليز لم يدخلوها، ما كانت لتقف في مكانها السياسي والاجتماعي والإداري، وتبقى متأخرة عن درجة غيرها. أفلا يرون أنّ محمّد علي، كان قد أنشأها نشأةً جديدةً، وبنى فيها المدارس والمعاقل، ونظّم الجيوش، وأجرى في البحر الأساطيل، ومهد الطُرق، وبنى السدود، وشقّ الجدول، إلى غير ذلك مما يعدّده شوقي. فيقول:

وحياة مصرَ على زمان محمّدٍ	ونهوضُها من عهد إسماعيلًا
ومدارسًا لبني البلاد حوافلًا	حَظُّ الفقير بهنَّ كان جزيلاً

(١) أبلسوا: هنا، انكسروا.

(٢) السُّلال: هو داء السلّ.

ومعاقلاً لا تمحّي آثارها
وجداولاً بين الصّبياع جوارياً
ومدائناً قد حُطّطت وطرائقاً
والقطن مزروعاً بفضل محمّدٍ
قد مدّ إسماعيلُ قبلكَ للورى
إنّ قيسَ في جودٍ وفي سرفٍ إلى

وجيوشَ ابراهيمَ والأسطولا
تذرُ اليبابَ مزارعاً وحقولا
كانت حزوناً فاستحلنَ سهولا
في مصرَ محلوجاً بها مغزولا
ظلَّ الحضارةُ في البلادِ ظليلاً
ما تُنفِقون اليومَ عدّاً بخيلاً

يريد أن يقول إنَّ الإنجليز كانوا يجورون على خزانة مصر، ويُجحفون بها أكثر ممّا كان إسماعيل يجور عليها، فلماذا لا يزالون ينتقدون إسرائفه؟

أو كان قد صرع المُفتّش مرّةً فلکم صرعتَ (بدنشواي) قتيلاً

أي أنه إن كان إسماعيل باشا ظلّم، وقَتَلَ إسماعيل باشا المُفتّش ظلماً، فكم ظمتم لأنتم وقتلتم ظلماً من أناس في حادثة دنشواي، وهي أنّ جنوداً من جيش الإنجليزي اصطادوا حماماً لأهل دنشواي (قرية من أعمال المنوفية)، برغم رجاء أهل القرية لهم أن لا يفعلوا. فوقع بين الفريقين نزاع من أجل صيد الحمام، فاعتدى الجنود الإنجليز على بعض الأهالي، فدافعوا عن أنفسهم، وفرّ أحد الإنجليز في الحرّ، فأصيب الشمس فمات؛ وعند ذلك قامت اللورد كرومر، فأمر بأهل القرية فحوكموا محاكمة صارت مثلاً مضروباً في الظلم، وشنقَ عدّة أشخاص من أهل القرية، وجلّد آخرين، وسجنَ كثيرين. وشاعت فظاعة هذه الحادثة، حتّى في إنجلترا نفسها، فاضطرت الحكومة الإنجليزية، أن تصرف اللورد كرومر عن مصر بسببها، ولذلك غلب عليه الحقد، فتكلّم بما تكلم به في حفلة توديعه، وخالف الأدب بما فعله، وتركها على نفسه سبّة باقية، زادها شعر شوقي تخليداً.

لا تذكر الكرباج في أيامه من بعد ما أنبت فيه ذيولا

أي أنه، إن كان إسماعيل قد استعمل المقرعة في أيامه، فأنت أيها اللورد جعلتَ لهذه المقرعة ذيولا، وجلدتَ أكثر ممّا جلّد إسماعيل، ومن جملة ما جلدتَ في دنشواي.

كم منّة موهومة أتبعتهها
منا على الفطن الخبير ثقيلاً
في كلّ تقريرٍ تقولُ خلقتكم
هلاً ترى تقريرك التنزيلاً؟

أي كلما قدّم اللورد كرومر تقريراً سنوياً عن مصر والسودان، ادّعى لنفسه من الإصلاحات ما ادّعى، ونزّل ذلك منزلة الحقائق التي لا شكّ فيها، ومنّ بها على مصر منّا ثقيلًا. كما قال بعضهم:

رأيتك تكويني بميسم منه كأنك كنت الأصل في يوم تكويني

ثمّ ذكر كيف أضع اللورد كرومر الجيش المصري، وضعضع قوّته عمدًا، وقلم أظافره خبثًا ولؤمًا، وحرّم ضباطه الترقّي عن درجات معلومة، فصاروا يعيشون بلا أمل ويخدمون بلا مكافأة، مع أنّ إنجلترا إنّما فتحت السودان بدم هذا الجيش المصري لا بغيره. وقد صاغ شوقي هذا الموضوع بالأبيات الآتية:

أم هل يعدّ لك الإضاعة منّة جيش كجيش الهند بات ذليلا
انظر إلى فتياه ما شأنهم أو ليس شأنًا في الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلاء ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فإذا تطلعت الجيوش وأملت مستقبلاً لم يملكوا التأميلا
من بعد ما زفوا (لإدوارد) العلى فتحًا عريضًا في البلاد طويلا

ثمّ يذكر شوقي أصناف الناس، الذين يحقّ لهم أن يأسفوا على انفصال كرومر عن ولاية أمر مصر، مثل الإنجليز الذين ملكهم كرومر زمام هذا القطر، ومثل أعضاء (الكلوب) أو النادي في القاهرة، ومثل القسيسين المبشرين، ومثل الصرّافين بلندن، ومثل جريدة (التايمس) والجرائد الاستعمارية، ومثل شركة قناة السويس. فقال:

لو كنت من حمر الثياب^(١) عبدتكم من دون عيسى مُحسِنًا ومُنِيلا
أو كنت بعض الإنجليز قبلتكم ملكًا أقطع كفه تقبيلًا
أو كنت عضوًا في (الكلوب) ملائته أسفًا لفرقتكم بُكًا وعويلا
أو كنت قسيسًا يهيم مُبشّرًا رتلّت آية مدحك ترتيلا
أو كنت صرّافًا (بلندن) دائنًا أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت (تيمسك) ملأت صحائفي مدحًا يُردّد في الوري موصولًا
أو كنت في مصر نزيلا جاهدًا سبختُ بأسمك بكرة وأصيلا

(١) حمر الثياب: كناية عن العسكر الإنكليزي المحتل لمصر.

يشير بالبيت الأخير إلى النزلاء الأجانب، الذين يتمتعون بالإميازات الأجنبية، ولا تقدر الحكومة المصرية أن تواجه منهم أحداً، إلا عن طريق قنصله. وهذه الإميازات، كان اللورد كرومر من أشد المحافظين عليها، رغبةً في تقييد مصر وكسر شوكتها.

أنتم حَبَوْتُم بالقناة الجيلا

أو كنت (سريونا)^(١) حلفتُ بأنكم

لا يبخسون المُحسنين فتبلا

عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم

أي أن الفرنج لا يبخسون المحسنين حقهم، وهل من رجل أحسن إليهم بقدر إحسانك في مصر؟ وذلك على ظهر أهلها.

مُسْتَعْفِيَا إن شئت أو معزولا

فَارْحَلْ بِحُفْظِ اللَّهِ جُلَّ صَنِيعُهُ

واخلف هناك (غراي) أو (كميلا)

واحمِلْ بساقك رِبْطَةً في (لندن)

وَسِسِ الممالكَ عَرَضَهَا والطولا

أو شاطرِ الملكَ العظيمَ بلاده

كان اللورد كرومر، قد حُمِلَ على الاستعفاء، من بعد حادثة دنشواي، ولكنه هو وأصحابه، حاولوا إقناع الناس بأنه استُعْفِيَ بمجرد إرادته واختياره. فشوقي يقول له: على كل حال، قد ذهبتَ عتاً مستعفياً أو معزولاً بحفظ الله، وقوله (بحفظ الله) أسلوب من أساليب الكلام التي يقصد بها غير ظاهرها، كما يقول الإنسان: (أذهب مع السلامة) لمن يريد أن يتخلص منه. ثم يقول له: كُنْ ما شئتَ بعد أن تخلّصت مصر منك، فليعطوك وسام ربطة الساق، ولتخلف هناك الوزير "غراي"، أو الوزير "كمبيل"، ولتشاطر "إدوارد" في ملكه. هذا كله لا يهمننا، على شرط أن ترحل عتاً. ثم يقول:

والله كان بنيلهن كفيلا

أنا تمنّينا على الله المُنَى

مُتَمَكِّنٌ عندَ الإلهِ رسولا

مَنْ سَبَّ دِينَ مُحَمَّدٍ فَمُحَمَّدٌ

يقول لكرومر: قد تمنّينا على الله أن يقلعك فانقلعت. وهذا كل ما نريد. وإن من سبَّ دين محمد، فمحمد، عليه السلام، له جاه عظيم عند الله، فالله ينتقم له. وهذا إيحاء إلى ما جاء في تقرير اللورد كرومر عن سنة ١٩٠٦، من أن دين الإسلام دين لا يصلح لهذا العصر. فقد بلغ من جبروت هذا العميد الإنجليزي، وخطرسته، وعداوته للإسلام، أن قذفَ بدين أهالي مصر، التي كان يلي أمرها، وبدين أتباعه وهم خمس العائلة البشرية، وذلك في تقرير

(١) (سريون) هذا مدير شركة قناة السويس.

رسمي يقدمه لحكومته ويتشتر في الأرض، فلا جرم، أن مصر قد صبرت على الأذى في دنياها ودينها إلى أقصى مراحل الصبر، ولقد تأذن الله أن يفك قيودها الثقيلة في هذه السنة، بفضل نزاع إنكلترا وإيطاليا (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لفُسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين).

ولا نظنّ أديباً أو شادياً شيئاً من الأدب، في مصر وجوارها، غير حافظ لقصيدة شوقي هذه، وحافظ له جميلها؛ فهي لسان المصري المتور، المتأجج صدره، وغراً المنتقم لوطنه ودينه وشرفه ومُلْكه وماله، الذي ينطق عن قلب ملآن وكبد، قد قرّحتنا الأحزان، ويتكلم بلسانٍ من دونه السنان.

قصيدة شوقي في الثورة السورية

ولمّا دمرّ الفرنسيس دمشق في إبّان الثورة السورية - وفي أيام العداوة بين السوريين والفرنسيس - أقيمت في القاهرة حفلة استنكار لذلك العمل، وتُليت فيه الخطب والقصائد، فقال شوقي القصيدة الآتية وتسابقت الصحف إلى نشرها، فاشترت جريدة السياسة، امتياز سبق إلى نشر هذه القصيدة بأربعين جنيهاً، وضمّ هذا المال إلى إعانة منكوبي الثورة السورية:

سلامٌ من صبا بردي أرقُّ	ودمعٌ لا يكفكفُ يا دمشقُ
ومعذرةُ اليراعة والقوافي	جلالُ الرزءِ عن وصفِ يدقُّ
وذكرى عن خواطرها لقلبي	إليكِ تَلُفتُ أبداً وخَفُقُ
وبي ممّا رمتك به الليالي	جراحاتُ لها في القلب عمقُ
دخلتُك والأصيلُ له ائتلاقُ	ووجهك ضاحكُ القسماتِ طَلَقُ
وتحت جنانك الأنهار تجري	وملءُ ريباكِ أوراقٌ وورقُ
وحولي فتيةٌ غرٌّ صباحُ	لهم في الفضلِ غاياتٌ وسبقُ
على كهواتهم شعراءُ لسنُّ	وفي أعطافهم خطباءُ سُذِقُ
رُواة قصائدي فاعجب لشعري	بكلِّ محلّةٍ يرويه خَلْقُ

يقول إنه كان حوله يوم دخل دمشق فتية غرّ الأفعال، صباح الوجوه، هم بلهواتهم كناية عن أفواههم - شعراء لسن جمع ألسن وهو الفصيح، وفي أعطافهم - كناية عن مواقفهم - خطباء شُذق جمع أشدق وهو المفوّه البليغ. ومع هذا فإنهم رواة شعري الذي بكلّ محلة من الدنيا له رواة. قلت: لم يبالغ شوقي في هذا، ولكن لم يرو عنه الرواة من الشعر، كما رَووا من هذه القصيدة. ثمّ قال:

غمزتُ إباءهم حتى تَلَطَّتُ	أنوفُ الأسدِ واضطرمَّ المَدَقُّ ^(١)
وضجَّ من السَّكِيمةِ كلُّ حُرٍّ	أبيٍّ من أُمِيَّةٍ فيه عِثْقُ
لحاهها الله أبناء توالَتْ	على سَمْعِ الوَلِيِّ بما يشقُّ
يُفَصِّلُها إلى الدنيا بريدٌ	ويُجمِلُها إلى الآفاقِ برقُ
تَكَادُ لروعةِ الأحداثِ فيها	تُخالُ من الخرافةِ وهي صِدْقُ
وقيلَ معالمُ التاريخِ دُكَّتْ	وقيلَ أصابها تلفٌ وحرَقُ

يقول إنه كانت تأتي أخبار هذه القارعة النازلة بدمشق الصائكة للأسماع، مُجمَلَّةً بالبرقيّات، مفصَّلةً بالكتابات، يكاد الناس يحسبونها من الخرافات المخيلة. والحقيقة، إنها وقائع وقعت فعلاً، وقيل إنه دمر ذلك اليوم، أبنية تاريخية وبيوت مزدانة بأفخر الصنعة العربية. ثمّ قال:

ألستِ دمشقُ للإسلامِ ظئراً ^(٢)	ومرُضعةُ الأبوةِ لا تُعَقِّ؟
صلاحُ الدين تاجكُ لم يُجمَلْ	ولم يوسم بأزين منه فرقُ
وكلُّ حضارةٍ في الأرض طالتُ	لها من سَرْحِكِ ^(٣) العُلوي عِرْقُ
بنيتِ الدولة الكبرى ومُلْكًا	غبارُ حضارتيهِ لا يُشَقُّ
له بالشامِ أعلامٌ وعرسُ	بشائره بأندلسٍ تُدَقُّ

بعد أن ذكر صلاح الدين، دفين دمشق، ذكر الدولة الكبرى، ويريد الدولة الكبرى دولة بني أمية، لأنه لم تتسع فتوحات الإسلام في دور، كما اتسعت في زمانهم، لا سيّما خلافة عبد

(١) المَدَقُّ: قصة الأنف.

(٢) الظنن: المرُضعة.

(٣) السرح: الشجر العملاق أو العظام.

الملك بن مروان. ويشير بقوله (غبار حضارتيه إلخ...) إلى الحضارة الأموية في دمشق والحضارة الأموية في قرطبة، فإنَّ الثانية هذه لها عروق من الأولى. ثمَّ قال:

رباعُ الخُلْدِ ويحك مادهاها
أحقُّ إنَّها درست أحقُّ؟
وهل غرف الجنان مُنضداتُ
وهل لنعيمهنَّ كأس نسقُ؟
وأين دُمي المقاصر من حجالِ
مهتكةٍ وأستار تُشَقُّ
برزَنَ وفي نواحي الأيكِ نارُ
وخلفَ الأيكِ أفراخُ تُزَقُّ
إذا رُمِنَ السلامة من طريقِ
أتتُ من دونه للموتِ طُرقُ
بليلٍ للقذائفِ والمنايا
وراءَ سمائه خُطفٌ وصَعقُ
إذا عَصَفَ الحديدُ أحمرَّ أفقُ
على جنَّباته وأسودَّ أفقُ

إذا قرأ القارئ هذه الأبيات تصوّر الحالة كأنه يراها بعينه، عقائل مقصورات في الحجال برزَنَ إلى الطرق للنجاة، والنار تعمل في البيوت وتأخذ على الهاربين والهاربات أفواه الطرق، وعلى أيدي أولئك العقائل أطفال كالأفراخ التي تزقُّها أمهاتها بمناقيرها، وقد ضاقت على الناس الأرض بما رحبت، فكيف سلخوا فهي النار النازلة عليهم في جوف الظلام، تخطف الأرواح وتصعق الأجسام طول الليل - لأنَّ ضرب دمشق بالمدافع استمرَّ ٥٦ ساعة - كلما نزلت كرة من كرات الديناميت، أحمرَّ جانب من الأفق بلون اللهب، وأسودَّ الجانب الآخر بلون الدخان. ويستحيل على أيِّ شاعر أن يبلغ هذه الدرجة من البلاغة في وصف القذائف الحربية، ولا سيَّما تحت الظلام. ثمَّ قال:

سلي من راعٍ غيدك بعد وهنِ
أبين فؤاده والصخر فرقُ؟
وللمستعمرين وإنَّ الأنوا
قلوبٌ كالحجارة لا ترقُ
رماكٍ بطيشه ورمى فرنسا
أخو حربٍ به صلفٌ وحُمقُ
إذا ما جاءه طلابُ حقِّ
يقول: عصابة خرجوا وشقوا

يقول: هل من أدخل على نساء دمشق هذا الهول كلّه، يقال إنَّ بين قلبه والصخر فرقًا؟ لا لعمرى إنَّ قلبه كالصخر قسوة، وهذه حال الدول الإستعمارية بأسرها، فإنَّ رجالها وإنَّ الأنوا القول فليتهم رياء، وفعلهم بعكس قولهم، وقلوبهم كالحجارة أو أشدَّ قسوة. وقد رماكٍ يا دمشق ورمى فرنسا، نفس وطنه، بسبب رميكَ قائد، متكبرٍ أحقق، يعني به الجنرال

(سراي). وقد كان الناس إذا جاءوه يرجونه الكفّ عن ضرب دمشق، أجا بهم أنه إنما يضرب عصاة شقوا عصا الطاعة.

ويشير بقوله (رمى فرنسا)، إلى أنّ هذا الفعل، قد بقي سبّةً وعارًا في التاريخ على فرنسا بسبب هذا القائد، ولم يقدر أن يدافع عنه أحد.

قلت: وقد نشرت أنا في ذلك، رسالة بالإنجليزية وطبعتها في جنيف، ووزعتها في الآفاق، واستحسنها الناس، وجاءني من المستر (ماكدونالد) نفسه استنكار لتدمير دمشق، وقد كان ذلك بعد رئاسته الأولى لنظار إنجلترا، ولكن (ماكدونالد) هذا لم يكن بأقلّ ظلماً في عمله لتهويد فلسطين، التي فجعتها لا تُقاس بها فجيرة. ثمّ قال:

دمُ الثَّوار تعرفه فرنسا	وتعلمُ أنه نورٌ وحقُّ
جرى في أرضها فيه حياةٌ	كمنهَلِّ السماء وفيه رِزقُ
بلادٌ ماتَ فثيْتُها لتحْيى	وزالوا دون قومهم ليبقوا
وحُرّرت الشعوبُ على قناها	فكيف على قناها تُسْتَرَقُّ؟

يريد أنّ فرنسا لها ضراوة بدم الثَّوار، وهي تعلم، ما أوجدته الثورة فيها من حقوق كانت ضائعة، وأنوار علم كانت خافية، وإنّ الثورة كانت حياة لفرنسا، وقد مات فيها البعض ليحيى الكلّ. ومن عادة الشعوب أن تنال حرّيتها برووس الحراب، فكيف يُعقل أن سورية تزداد رِقاً على رِقّ برووس الحراب، بعد أن سفك السوريون دماءهم لأجل الحرّية؟ ثمّ قال:

بني سورية اطرحوا الأمانى	وألقوا عنكم الأحلامَ وألقوا
فمن خِدَعِ السياسة أن تُغرّوا	بالقاب الإمارة وهي رِقُّ
وكمّ صيدٍ بدا لك من ذليلٍ	كما مالت من المصلوبِ عُنقُ
فتوقُ الملك تحدثُ ثمّ تمضي	ولا يمضي لمختلفين فتقُّ

يخاطب أبناء سورية قائلاً: ذروا الأمانى وانبذوا الأحلام الكواذب، ولا تغتروا بلقب (الدولة السورية)، ولا (لبنان الكبير)، ولا (دولة جبل الدروز)، ولا (حكومة العلويين)، وما أشبه ذلك من ألقاب مملكة في غير موضعها، فإنّ كلّ هذه الحكومات أسماء، ما أنزل الله بها من سلطان، وكلّها مستعبدة لفرنسا. وقد تجدون من عليه لقب أمير أو وزير، وهو جالس على كرسيه، وإنّما هو مائل العُنق، ينظر إلى نقطة واحدة، يخاله الناس أميراً أصيد من شدة

كبره. وليس ذلك بعبارة، بل المصلوب أو المشنوق يميل بعنقه وهو ميت. وقد أنث شوقي العنق هنا، وليس ذلك بخطأ، وإن كان التذكير أقوى. ثم قال إن فتوق الملك تحدث في كل مكان، ولكنها قابلة للرتق، إلا إذا انصدعت الوحدة، وتفرقت كلمة الشعب، وذلك فتق لا رتق له وشق لا يُحاص، فإياكم وإن تصدعوا وحدتكم بالخلاف فيما بينكم. ولو عاش شوقي إلى اليوم، لقرت عيونه بما رآه من وحدة كلمة السوريين، التي حملت فرنسا على الاعتراف باستقلالهم، في الوقت الذي كانت فيه إنكلترا تعترف باستقلال مصر، فتحرر القطران الشقيقان في وقت واحد.

نصحتُ ونحنُ مختلفونُ دارًا
ويجمعنا إذا اختلفت بلادُ
ولكن كلنا في الهمِّ سرقُ
بيانٌ غيرُ مختلفٍ ونُطقُ

يقول: ليست مصر والشام بدار واحدة، ولكن مصر والشام كلتاهما من الشرق، وبينهما جامعة شرقية، ولسان كل من القطرين هو اللسان العربي، وأية رحم شابكة أكثر من هذا؟

وقفتم بين موتٍ أو حياةٍ
ولالأوطان في دمٍ كلِّ حرُّ
فإن رُمْتُم نعيمَ الدهرِ فاشقوا
يدٌ سَلَفَتْ ودينٌ مُسْتَحِقُّ
ومن يسقي ويشربُ بالمنايا
ولا يبني الممالكَ كالضحايا
ولا يدني الحقوقَ ولا يُحقُّ
وفي الأسرى فِدَى لَهُمُ وعتقُ
وللحريةِ الحمراءِ بابُ
بكلِّ يدٍ مُضْرَجَةٍ يُدَقُّ

ينثر شوقي بهذا النظم نصائحه الغالية لأهل سورية، مبنية على التجربة والتاريخ والمبادئ السرمدية، فيقول للسوريين: وقفتم الآن بين الموت والحياة، فإن رمتم الراحة الكبرى فاتعبوا، وإن نشدتم النعيم المقيم فاختاروا لأنفسكم الشقاء مدة من الزمن، لأنه لا يدرجُ النعيم إلا من أوكار العذاب. وإن دماء الأحرار المسفوكة في سبيل الأوطان، ديون مستحقة، لا بُدَّ للدهر من أن يتوفّر على إيفائها، ومن لعمرى يسقي ويشرب بكؤوس المنايا نهلاً وعللاً إذا كان أحرار البلاد لا يشربون بتلك الكؤوس، ولا يسقون بها، وهو معنى فيه شيء من قول الشاعر:

سَقِينَاهُمُ كَأَسَا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا
ولكنهم كانوا على الموتِ أضرباً

وقال، إنَّه لا شيء يقوم عليه أساس الممالك مثل الضحايا، ولا ما يحقّ الحقوق غيرها، فكلُّ أمة بذلت في سبيل حرّيتها دماء، فإنَّ تلك دماء تنال لها حقوقها في الحرّية، ولا يقدر أن يكابر فيها مكابر، وبالجملة فلا تحيا الأمم إلاّ بقتل بعض رجالها، ولا يعيشون طلقاء إلاّ بأسر البعض الآخر. وما قرعَ باب الحرّية الحمراء إلاّ الأيدي المملّخة بالدم. وقد وصف الحرّية (بالحمراء)، كناية عن كونها لا تُنال إلاّ بالدم المسفوك، ويجوز أن يقال في معنى «الحمراء» إنَّها «الشديدة»، وذلك أن العرب وصفوا الشدّة دائماً بالحمرة.

ثمَّ قال:

جزاكمُ ذو الجلالِ بني دمشقِ وعزُّ الشرقِ أوَّلُهُ دمشقُ
نصرتُم يومَ محنته أخاكم وكلُّ أخٍ بنصرِ أخيه حقُّ

يدعو لأهل دمشق أن يؤيِّدهم الله، ويذكر أن دمشق في الحقيقة، كانت أول مركز عزِّ وسيادة للشرق، فإنَّ الدولة الإسلامية الأولى وهي دولة بني أمية، إنَّما اتخذت دمشق لها عاصمة. ثمَّ يقول لأهل دمشق: مرحى لكم أنتم الذين نصرتُم إخوانكم الدروز، يوم زحف إليهم الفرنسيين، فلم تذروهم منفردين وشغلتم الفرنسيين من وراء بثورة الغوطة. ولا عجب في ذلك فإنَّكم إنَّما نصرتُم إخوانكم، وكلُّ أخٍ حق بنصر أخيه. وقوله حق: هو بمعنى حقيق أو جدير. ثمَّ يقول:

وما كان الدروزُ قبيلَ شرِّ وإن أخذوا بما لم يستحقِّوا
ولكن ذادةٌ وقراءةٌ ضيفِ كيُنْبوع الصفا خُسُنُوا ورَقُوا
لهم جبلٌ أشمُّ له شِفافٌ مواردُ في السحابِ الجُونِ بُلُقُ
لكلِّ لبوءٍ ولكلِّ شِبلِ نضالٌ دونَ غابتهِ ورَشِقُ
كأنَّ من السَّموئلِ فيه شيئاً فكلُّ جهاتهِ شرفٌ وخُلُقُ

قال: وإنَّ إخوانكم الدروز هؤلاء لم يكونوا قبيلة شرِّ، وإنَّهم لم يستحقِّوا النكال الذي أراد الفرنسيين أن ينزلوه بهم. فالدروز في الحقيقة قوم كرام، يعزّون الضيف، ويمنعون حماهم بالسيف، وهم يجمعون بين الرقة والخشونة، ففي حال السلم وعدم الاعتداء عليهم، تراهم أرقّ الناس خُلُقاً وأكثرهم أدباً وأخفضهم جناحاً، فإذا اعتدى عليهم معتدٍ انقلب كلُّ منهم ليثاً عادياً، بعد أن كان حملاً وديعاً، وما أشبههم بالينبوع المنفجر من الصخر في الجمع بين

الرقّة والجمود. ولهم جبل أشمّ له رؤوس كأنها موارد للسحاب، وهذه الرؤوس تجمع بين البياض من صخورها، والسواد من السحب التي تتراكم عليها، فلذلك هي بُلُق. وإذا اعتدى معتد على الدروز، وجدت كل امرأة منهم أسدة تناضل عن قومها، وكلّ شاب أسدًا يُراشِق عن قومه وكأنما هو السموأل في وفائه وشرف نفسه وحمية أنفه، مع سعة حلمه ورقّة طبعه، فهو من كلّ الجهات شرف وحسن خلق.

قال شوقي في الدروز هذه الأبيات، وأحسن ما فيها أنه قال قولاً لم ينكره أحد عليه، لأنّ الإجماع واقع على اتّصاف بني معروف بهذه الخلال التي عرفها شوقي فيهم. إمّا من التاريخ، وإمّا في أثناء قدماته إلى الشام، وإمّا من الاثنين معاً.

وممّا أذكره عن هذه الأبيات، أنني لما قفّلتُ من الحجّ الشريف ووقفتُ أياماً في السويس، وجاء أحمد شوقي، رحمه الله، يُسَلِّم عليّ في تلك البلدة، فيمنّ جاءوا من مصر للسلام عليّ، كان لا بُدّ من أن نتذاكر الشعر فجرّتنا القافية إلى قصيدته الدمشقية هذه، لأنّ العالم العربي كلّه قام لها وقعد، وهلّل بها وكبر، فلما وصلنا إلى الأبيات المختصّة بالدروز، قلت له: عندما بدأت بقولك: (لكلّ لبوءة ولكلّ شبل)، خفتُ أن يكون جواب هذه الجملة (نضال عن مغارته ورشق)، فقال لي: (وهي إيه). قلت له: (هي نضال دون غابته ورشق)، والغابة هي والمغارة كلتاها مأوى للأسد، ولكن الغابة أخفّ وقعا على السمع وأقرب إلى الأنس.

هذا وقيل إنّ هذه القصيدة التي لم يُقلّ فيها شوقي شيئاً سوى الحقّ، كانت سبباً في غضب الفرنسيين على شوقي، وفي حرمانه زيارة المغرب. سمعت أنه استأذن الحكومة الإفريقية في هذه الزيارة، فأبت عليه الإذن بها، معتلةً عليه بقصيدته هذه. وقد حرّمت عالم الأدب بمنعها شوقي من زيارة المغرب، بدائع آثار ويتائم أشعار كانت تسير في الأقطار، فلو رأى شوقي ذلك القطر العظيم بما فيه من آثار المدينة العربية، البالغة حدّ التناهي في الفخامة ودقّة الصنعة وسلامة الذوق، والتي هي نسج واحد مع حمراء غرناطة، ومسجد قرطبة، وقصر إشبيلية، وشاهد من بقايا حضارة الإسلام، ما حدا الكاتِبين الإفريقيين الكبارين، جيروم وجان تاور أن يقولوا: إنّ الذي لم يشاهد مقبرة الملوك السعديين في حاضرة مراكش، لم يعلم إلى أيّة درجة تناهت المدينة الإسلامية في العالم، وكانت ولا شكّ قد استفزته تلك المناظر وهاتيك المساكن، المتناسبة مع أهلها، المأهولة بذلك الشعب المغربي الكريم، وتلك الأمة الموصوفة بالعزّة والمنعة من القديم، ما أنطقه بقوافٍ سائرات في الأقطار وفاخرات باللائئ الكبار، لا سيّما وهو شاعر الإسلام غير مُدافع، وصنّاعة غير مُنازِع في هذا العصر.

قصيدة شوقي في السلطان حسين

ولشوقي قصيدة في السلطان حسين كامل، يذكر فيها مفاخر عائلة محمد علي، فيقول:

الملك فيكم آل اسماعيلا
لطف القضاء فلم يَمِلْ لوليتكم
هذي أصولكم وتلك فروغكم
إلى أن يقول:

وأخون اسماعيلَ في أبنائه
ولبست نعمته ونعمة بيته
ووجدت آبائي على صدق الهوى
رؤيا عليّ يا حسين تأوّلت
القومُ حين دهِى القضاءُ عقولهم
هدموا بوادي النيل رُكنَ سيادة
ولقد وُلدتُ ببابِ اسماعيلًا؟
فلبست جزلاً وارتديت جميلا
وكفى بآباء الرجال دليلا
ما أصدق الأحلامَ والتأويلا
كسروا لأيديهم بمصرَ غلولا
لهم كُرُكنَ العنكبوت ضئيلا

يقول: إنَّ حلم محمد علي بجعل مصر مملكة مستقلة تمام الاستقلال عن السلطنة العثمانية، قد تحقّق هذه المرّة، فالأتراك حينما دخلوا في الحرب العامة، ساقوا إنجلترا إلى إعلان فصل سيادتهم عن مصر، فكانهم هم بأيديهم قطعوا روابطهم مع وادي النيل. ثمّ يقول:

يا أكرمَ الأعمام حسبك أن نرى
من عثرة ابن أخيك تبكي رحمة
ولو استطعت إقالة لعشاره
يا أهلَ مصر كلوا الأمور لرّبكم
جرت الأمورُ مع القضاء لغاية
أخذت عنانا منه غيرَ عنانها
هل كان ذلك العهد إلا موقفاً
للعبرتين بوجنتيك مسيلا
ومن الخشوع لمن حباك جزيلا
من صدمة الأقدار كنت مُقيلا
فالله خيرٌ موثلاً ووكيلا
وأقرّها من يملكُ التحويلا
سبحانه مُتصرِّفاً ومُدّيلا
للسلطتين وللبلادِ وبيلا؟

يقول للسلطان حسين إنك أكرم الأعمام، وحسبنا أننا نراك تبكي رحمة على عشرة ابن أخيك الخديوي عباس، كما إنك تبكي من خوف الخضوع لمن أجلسوك على العرش، ولو استطعت أن تعيد ابن أخيك إلى سريرته لفعلت ولا أثرته على نفسك. ثم يقول لأهل مصر: دعوا التدبير لله، فلقد كان العهد الماضي موقفاً لسلطتين متناقضتين، ولم يكن في ذلك خير للبلاد. يريد بالسلطتين، السلطة الشرعية التي كانت للسلطان ووكيله الخديوي، والسلطة الفعلية التي كانت للإنجليز المحتلين.

قصيدة شوقي في أبي الهول

وله في أبي الهول:

إذا ما تطاول غير الضجر؟	أبا الهول ماذا وراء البقاء
على لبدي والنسور الأخر	عجبت للقمان في حرصه
ولو لم تطل لتشكى القصر	وشكوى لبيد ^(١) لطول الحياة
لحقت بصانعك المقتدر	ولو وجدت فيك يا ابن الصفاة
إذا لبسته وتبلي الحجر	فإن الحياة تفل الحديد

يقول إن بقاءك يا أبا الهول إلى اليوم، إنما هو لأنك لست حياً، فلو كنت حياً للحقت بالذين نحتوك، لأن الحياة ما لبست كائناً إلا أبلته، ولو كان حديداً.

وقال:

مع الدهر شيء ولا يُختقر	أبا الهول ونحك ويستقل
فنقر عينيك فيما نقر	تهزأت دهرًا بديك الصباح
وأوغل منقاره في الحفر	أسال البياض وسل السواد
قطيع القيام سليب البصر	فعدت كأنك ذو المحبسين

(١) لبيد بن ربيعة: الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام، وقد روي أنه مات وهو ابن مئة وأربعين سنة، والملح شوقي إليه، لأن لبيد اشتكى طول العمر فقال:

وسؤال هذا الناس كيف لبيد؟

”ولقد سنمت من الحياة وطولها“

كأنَّ الرمال على جانبَيْك
 كأنك فيها لواء القضاءِ
 أبا الهول أنتَ نديمُ الزمانِ
 بسطتَ ذراعَيْك من آدمٍ
 تُطِلُّ على عالمٍ يستهْلُ
 فعينٌ إلى مَنْ بدا للوجودِ
 فحدّث فقد يُهتدى بالحديثِ
 ألم تَبُلُ فرعون في عزّه
 وأبصرت إسكندراً في الملا
 وشاهدت قيصرَ كيف استبدَّ
 وكيف تجبّر أعوانه
 وكيف ابتلوا بقليل العديده
 رمى تاج قيصر رمي الزجاج
 فدع كلَّ طاغية للزمان

يقول لأبي الهول: لا يُحتقر شيء مع الدهر. ألا ترى أنك أنت، عندما هزأت بديك الصباح أي الزمن الذي لا يخلو من ديك يصيح باكراً، جاء هذا الزمن فنقر عينيك، فعدت كأنك أبو العلاء المعرّي. ثم يقول له: إنك من على عنق الدهر باسط ذراعيك تنظر إلى الناس، تودّع الغابر من الأمم وتستقبل القادم، فحدّثنا عمّا رأيت فإنك تاريخ عامّ.

ثم أخذ شوقي يسرد الوقائع التاريخية التي مرّت على مصر، وما قيل في أبي الهول شيء من الشعر يُداني هذه القصيدة.

(١) ديدبان: لفظ دخيل على العربية من الفارسية، معناه العين، أي الحارس والرقيب.

(٢) القَصْر: الأعناق.

شعر شوقي في الأزهر

ولشوقي قصيدة في الأزهر، مطلعها:

قُمْ فِي فَمِ الدُّنْيَا وَحَيِّ الْأَزْهَرَ
وَإخْشَعْ مَلِيًّا وَاقْضِ حَقَّ أُمَّةٍ
لَا تَحْذُ حَذُوَ عَصَابَةِ مَفْتُونَةٍ
وَلَوْ اسْتَطَاعُوا فِي الْمَجَامِعِ أَنْكَرُوا
مَنْ كُلِّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدَمِهِ
وَأَتَى الْحَضَارَةَ بِالصَّنَاعَةِ رِثَةً
وَإثْرٌ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَ
طَلَعُوا بِهِ زُهْرًا وَمَاجُوا أَبْحُرًا
يَجِدُونَ كُلَّ قَدِيمِ شَيْءٍ مُنْكَرًا
مَنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ أَوْ عُمَرًا
وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبِنَايَةِ قَصْرًا
وَالْعِلْمِ نَزْرًا وَالْبَيَانِ مُثْرًا

يخاطب نفسه قائلاً: قُمْ وَحَيِّ الْمَعْدِ الْعِلْمِي الْأَكْبَرَ، وَإخْشَعْ لَهُ وَاقْضِ حَقُوقَ الْأُمَّةِ الْأَبْحُرِّ، الَّذِينَ مَاجُوا فِيهِ مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ، وَلَا تَكُنْ كَأَوْلئكِ الْمَفْتُونِينَ الَّذِينَ يَنْكُرُونَ كُلَّ قَدِيمٍ، وَلَوْ اسْتَطَاعُوا لِأَنْكَرُوا آبَاءَهُمْ، وَهُمْ مَعَ شِدَّةِ رَغْبَتِهِمْ فِي الْهَدْمِ، وَكُونِهِمْ فِرْسَانًا فِي التَّخْرِيْبِ، نَجِدُهُمْ رَاجِلِينَ فِي الْبِنَاءِ. فَإِذَا دَعَوْتَ الْوَاحِدَ مِنْهُمْ إِلَى صِنَاعَةٍ لَمْ يُحْسِنَهَا، أَوْ إِلَى عِلْمٍ لَمْ يَأْتِ بِشَيْءٍ مِنْهُ، أَوْ إِلَى بَيَانٍ مَا جَاءَ إِلَّا بِالْثَّرَثَةِ. ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ مِمَّنْ تَخْرَجُوا فِي الْأَزْهَرِ، فَإِنِّي لَا أَقْصُرُ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ، وَإِنَّ إِصْلَاحَ الْأَزْهَرِ لِيَهْمُنِي كَمَا يَهْمُنِي كَمَا يَهْمُنِي، وَلِذَا قُمْتُ مَهْنَةً بِهَذَا الْإِصْلَاحِ بِأَسْمِ الْحَنْفِيَّةِ.

مَا ضَرَّنِي أَنْ أَفْقَكَ مَطْلَعِي
لَا وَالَّذِي وَكَلَّ الْبَيَانَ إِلَيْكَ لَمْ
لَمَّا جَرَى الْإِصْلَاحُ قُمْتُ مَهْنَةً
نَبَأَ سَرَى فَكَسَا الْمَنَارَةَ^(١) حَبْرَةً^(٢)
وَسَمَا بِأَرْوَقَةِ الْهُدَى فَأَحْلَاهَا
وَعَلَى كَوَاكِبِهِ تَعَلَّمْتُ السُّرَى
أَكُ دُونَ غَايَاتِ الْبَيَانِ مُقْصِرًا
بِأَسْمِ الْحَنْفِيَّةِ بِالْمَزِيدِ مُبَشِّرًا
وَزَهَا^(٣) الْمُصَلَّى وَاسْتَخَفَّ الْمَنْبِرَا
فَرَعَ الثَّرِيَا وَهِيَ فِي أَصْلِ الثَّرَى

(١) المنارة: المثندة.

(٢) الحبرة: السُّرور.

(٣) يأتي (زها) لازماً ومعندياً.

حلّقاً كهالاتِ السماءِ منوّراً

ومشى إلى الحلقاتِ فانفرجتْ له

وأبا حنيفة وابن حنبلٍ حُضّراً

حتى ظننّا الشافعيّ ومالكاً

كيف يتغنّى بوصف الأزهر، ولا يذكر المصلّى والمنارة والمنبر، ولا يشير إلى الأروقة وإلى

حلقات الدروس، ولا يذكر أئمة المذاهب الأربعة، إنّه لشاعر لا يؤتى من جهة في فنه.

قصيدة شوقي في الرحالة حسنين

وله من قصيدة عن الرحالة المصري، حسين بك، وصف فيها رحلته الشاقّة في صحراء

ليبيا، جاء فيها:

كلتاهُما في مفاجاةِ الفتى شرعُ

كَمْ في الحياة من الصحراءِ من سبّه

لا تعلم النفس ما يأتي وما يدعُ

وراءَ كلِّ سبيلٍ فيهما قدر

أي حياة الإنسان هي كالصحراء، في كلّ دقيقة يجوز أن يطلع عليه قدر لا يتوقّعه.

تهبُّ ريحاهُما أو يطلعُ السبُعُ

فلستَ تدري وإن كنتَ الحريصَ متى

من العواصفِ فيها الخوفُ والهلعُ

ولستَ تأمن عند الصحو فاجئةً

متى تشدُّ رحالاً أو متى تَضَعُ

ولستَ تدري وإن قدّرتَ مجتهداً

أنّ الدليل وإن أرداك مُتَبِعُ

ولستَ تملكُ من أمرِ الدليلِ سوى

إلا سرابٌ على صحراءٍ يَلْتَمِعُ

وما الحياة إذا أظمتْ وإن خدعتْ

ما نحت شاعر من مقاطع التشبيه أبداع من هذه التشابيه، التي وجدها شوقي بين

الصحراء والحياة، كلّ منهما لا يدري السائر فيها متى تهبّ عواصفها، ومتى تسكن، ومتى

يطلع فيها السبع، ومتى يختفي، ومتى يشدّ السائر الرحل، أو متى يضعه، وإنّه إذا اتّبع دليلاً

فهو رهن معرفة الدليل، لا مناص له من اتّباعه، وإن أداه إلى الهلاك، وإنّه يلوح في كلّ منهما

بارق الأمل، فإذا به خُلب وإذا الشراب سراب. ثمّ يمتدح همّة الرحالة حسنين. فيقول:

ترومُّ ما لا يرومُّ الفتيّةُ القنْعُ

أكبرتُ من حسنينِ همّة طمحتُ

فيما يُبلِّغُها حمداً فتندفعُ

وما البطولةُ إلا النفسُ تدفعُها

طاحوا على جنّبات الحمد أم رجعوا

ولا يُبالي لها أهلٌ إذا وصلوا

قال إنَّ الدافع الذي يجعل من الإنسان بطلاً، هو أنه يطمح إلى ما لا يطمح القانعون، وأنَّ نفسه، تسمو به إلى ما يبلغها المجد، ذهبت في سبيل المجد أم رجعت سالمة. ثمَّ هو يسأل حَسَنِينَ عَمَّا رَأَى فِي تِلْكَ الصَّحَارَى، وَعَنْ أَهْلِهَا الَّذِينَ لَمْ يَزَالُوا عَلَى الْفِطْرَةِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ، وَالَّذِينَ اهْتَدَى إِلَيْهِمُ الْإِسْلَامُ فِي فَيَافِيهِمُ الْمُنْقَطَعَةَ وَاهْتَدَوْا بِهِ وَأَصْبَحُوا مُصَلِّينَ صَائِمِينَ فَقَالَ:

رَحَالَةَ الشَّرْقِ أَنْ الْبَيْدَ قَدْ عَلِمْتَ
بَأَنَّكَ اللَّيْثُ لَمْ يُخْلَقْ لَهُ الْفَزَعُ
مَازَا لَقَيْتَ مِنَ الدَّوِّ^(١) السَّحِيقِ وَمَنْ
قَفَّرَ يَضِيقُ عَلَى السَّارِي وَيَتَّسِعُ
وَهَلْ مَرَرْتَ بِأَقْوَامٍ كَفِطْرَتِهِمْ
مِنْ عَهْدِ آدَمَ لَا خُبْتُ وَلَا طَبَعُ^(٢)
وَمَنْ عَجِيبٍ لَغَيْرِ اللَّهِ مَا سَجَدُوا
عَلَى الْفَلَا وَلغَيْرِ اللَّهِ مَا رَكَعُوا
مَا النَّافِيَةُ لَا يَتَقَدَّمُهَا شَيْءٌ، مِمَّا فِي حَيْزِهَا، خِلَافًا لِلْكَوْفِيِّينَ، وَنَحْوَ قَوْلِ الشَّاعِرِ:
إِذَا هِيَ قَامَتْ حَاسِرًا مُشْمَعِلَةً^(٣)
نَخِيبُ^(٤) الْفَوَادِ رَأْسَهَا مَا تَقْنَعُ

مع شدوذه محتمل للتأويل:

كَيْفَ اهْتَدَى لَهُمُ الْإِسْلَامُ وَانْتَقَلَتْ
مَعِ شَدُوذِهِ مَحْتَمَلٌ لِلتَّأْوِيلِ:
جَزَّتْكَ مِصْرُ ثَنَاءً أَنْتَ مَوْضِعُهُ
إِلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعُ
فَلَا تَذُبُ مِنْ حَيَاءٍ حِينَ تَسْتَمِعُ
مِنْ الْمَلُوكِ عَلَيْكَ الرَّيْشُ وَالْوَدَعُ^(٥)
وَلَوْ جَزَّتْكَ الصَّحَارَى جِئْنَا مَلِكًا

قصيدة له في حفلة تكريم

وممَّا أَحَبَّ أَنْ أَنْوَّهُ بِهِ مِنْ شَعْرِ شَوْقِي، قَصِيدَتَهُ فِي تَكْرِيمِ الْأَخْوَانِ: عَبْدُ الْمَلِكِ بَكْ حَمْزَةَ، وَاسْمَاعِيلُ بَكْ كَامِلٌ، وَعَوْضُ بَكْ الْبَحْرَاوِيُّ، بَعْدَ رَجُوعِهِمْ إِلَى مِصْرَ مِنَ الْغَرْبَةِ الَّتِي اغْتَرَبُوهَا أَثْنَاءَ الْحَرْبِ الْعَامَّةِ، فَإِنَّ شَعْرَ شَوْقِي فِيهِمْ يَعْبرُ عَنْ شُعُورِ كَثِيرِينَ، وَرَاقِمٌ هَذِهِ الْأَسْطَرِ مِنْهُمْ أَوْ فِي طَلِيعَتِهِمْ. قَالَ:

(١) الدَّوِّ: المفازة، أو البرية.

(٢) الطبع: الشَّيْنُ وَالغَيْبُ وَالذَّنْسُ.

(٣) مُشْمَعِلَةٌ: مَفْرُوقَةٌ.

(٤) وَنَخِيبٌ: جَبَانٌ.

(٥) أَي، مَلِكًا مِنْ مَلُوكِ أَوْاسِطِ أَفْرِيْقِيَّةِ، الَّذِيْنَ عَنَوَانَ الْمَلِكِ عِنْدَهُمُ الرَّيْشُ وَالْوَدَعُ.

وطنٌ يرفُّ هوىَ إلى شبَّانِهِ
هم نَظْمُ حَلِيَّتِهِ وَجَوْهَرِ عِقْدِهِ
يرجو الربيعَ بهم وَيَأْمَلُ دَوْلَةً
مَنْ غَابَ مِنْهُمْ لَمْ يَغِبْ عَنْ سَمْعِهِ
وَإِذَا أَتَاهُ مُبَشِّرٌ بِقُدُومِهِمْ
وَلَقَدْ يَخْصُّ النَّافِعِينَ بِعَطْفِهِ
هَيْهَاتَ يَنْسَى بَدْلَهُمْ أَرْوَاحَهُمْ
وَقَفُوا لَهُ دُونَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ
فِي شِدَّةٍ نُقِلَتْ أَنَاةُ كَهَوْلَةٍ

هذا البيت الأخير معنى مطروق كثيراً، ومما أتذكره منه قول الشيخ ناصيف اليازجي،
شاعر سورية في وقته في الأرسلايين:

فتيانهم في العقلِ مثلُ شيوخهم
ثمَّ قال:

قُمْ يَا خَطِيبَ الْجَمْعِ هَاتِ مِنَ الْحَلِيِّ
نَادِ الشَّبَابِ فَلَمْ يَزَلْ لَكَ نَادِيَا
أَلْقِ التَّحِيَّةَ غَيْرَ هَائِبٍ وَقَعَهَا
قُلْ لِلشَّبَابِ زَمَانُكُمْ مَتَحَرِّكُ

وقد صادف الاحتفال بتكريم هؤلاء المجاهدين الثلاثة، أيام الأزمة المالية في مصر،
وسقوط أسعار القطن. فقال شوقي:

يَا مَنْ لَشَعْبِ رُزُؤُهُ فِي مَالِهِ
الْمَلِكُ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ قَطْنٌ فَلَمْ
الْفَاطِمِيَّةُ شَيَّدَتْ مِنْ عِزِّهِ

(١) أي إذا أتى الوطن مبشراً بأنهم قادمون إليه من غيبتهم، كان تأثير هذه البشرى فيه، كثائر قميص يوسف في أبيه يعقوب.

(٢) الأخدان: الأصدقاء، مفرداها خدن.

فرعونُ والهرمانُ من بنيانهِ
بذكائه وأثاره ببنانهِ
تتعجبُ الأجيالُ من اتقانهِ
في الجوّ وارتفعتُ على كيوانهِ^(١)
من نحتِ أولكم ومن صوّانهِ

بالقطنِ لم يرفعِ قواعدَ ملكه
لكن بأولِ زارعِ نفضِ الثرى
وبكلِّ محسنِ صنعةٍ في دهره
وبهمةٍ في كلِّ نفسٍ حلقتُ
ملكٌ من الأخلاقِ كان بناؤه

ما قاله، يوم أطلق أحد الشبان المفتونين الرصاص على سعد زغلول

وقال في الزعيم الأكبر، سعد باشا زغلول عندما أطلق عليه الرصاص أحد الشبان،
فأنجى الله سعدًا ووقى مصر شرًا مستطيرًا:

ودقَّ البشائرَ رُكبائها
وكبَّرَ في الماءِ سَكَّانها
عُبابُ الخطوبِ وطوفانها
وضلَّ المقاتلَ عدوانها
فلا جُرحت فيكِ أوطانها
وطوقَ جيدك إحصانها
مثارُ السريرةِ غضبانها
ميولُ النفوسِ وأضغانها
ومن دونِ نفسكِ إيمانها
وتأبى الأمورُ وسلطانها
مصيرُ الأمورِ وأحيانها
ويلعبُ بالنارِ ولدانها
يُجيلُ السياسةَ غلمانها

نجا وتمائل رُبَّانها
وهلَّلَ في الجوّ قيَومها
تحوَّلَ عنها الأذى وانثنى
نجا (نوحها) من يدِ المعتدي
فيا (سعدُ) جرحك ساء الرجال
وقَتك العنايةُ بالراحتينِ
رماكِ على غِرّةٍ يافعُ
وقدما أحاطت بأهلِ الأمورِ
تلمَّسَ نفسكِ بين الصفوفِ
يريدُ الأمورَ كما شاءها
وعند الذي قَهَرَ القيصرينِ
أرى مصرَ يلهو بحدِّ السلاحِ
وراحَ بغيرِ مجالِ العقولِ

(١) كيوان: اسم كوكب زحل [لفظ فارسي دخيل على العربية].

ولا همة القول عمرائها
وتقبل أخرى وأعوائها
وبالعلم تشتد أركانها

وما القتل تحيا عليه البلاد
ولا الحكم أن تنقضي دولة
ولكن على الجيش تقوى البلاد

وهذا ما قلناه دائماً، وما قد انتهت إليه مصر بهذه المعاهدة الأخيرة مع الإنكليز، فليكن
لمصر الجيش المهيب، فكل شيء يتسوق بعد ذلك.

فأين النبوغ وأين العلوم
وأين من الخلق حظ البلاد
وأين الفنون واثقائها؟
إذا قتل الشيب شبانها؟

وفي هذه القصيدة، كلام عن ضرورة السودان لمصر، يجدر أن نأثره، ويجب على كل
مصري أن يحفظه عن ظهر قلبه. ولقد أراد الله، بفضل خصام إنكلترا مع إيطاليا في هذه
السنة، أن يعود المصريون إلى السودان، فليُشّر شوقي في قبره.

ويا سعد أنت أمين البلاد
ولن نرتضي أن تُقدّ القناة
قد امتلأت منك أيمانها
ويُبتّر من مصر سودانها

أي لن نرضى أن تفصل قناة السويس عن مصر، ولا أن يُبتّر عنها السودان.

وحجّتنا فيهما كالصباح
فمصر الرياض وسودانها
وما هو ماء ولكنّه
تتمم مصرا ينابيعه
وليس بمعيبك تبيانها
عيون الرياض وخُلجانها
وأهلوه منذ جرى عذبه
وأما الشريك فعلاته
كما تتم العين إنسانها
عشيرة مصر وجيرانها
هي الشركات وأقطانها

يريد بالشريك إنجلترا، وإنها تريد فصل السودان عن مصر لمشروعاتها الزراعية. وأنا
أقول ليس للقطن فقط، يقصد الإنجليز الاستيلاء على السودان، ولكن ليجعلوا لجام مصر
دائماً في قبضة أيديهم، فإن مصر هي النيل، وإذا كان النيل بيد الإنكليز، فكيف تخرج عن
إرادتهم مصر؟ ثم يقول:

و حربٌ مضت نحن أوزارُها
و كمْ من أتاك بمجموعةٍ
فأين من (المنش)^(٢) بحر الغزالِ
وأين التماسيح من لُجّةِ
ولكن رؤوسٌ لأموالِهِم
ودعوى القويِّ كدعوى السباعِ
وخيلٌ خلتُ نحن فرسانُها^(١)
من الباطلِ الحقُّ عنوائها
وقيضُ (نيانزا) وتهتائها؟^(٣)
يموت من البرد حيتائها؟
يُحركُ قرنيه شيطانها
من النار والظفر برهانها

أي أين بلاد الإنكليز من السودان؟ وما الصلة بين المانش وبحر الغزال؟ والحال هي كقول القائل:

سهمٌ أصابَ وراميه بذي سَلَمٍ^(٤) من في العراق لقد أبدعتِ مرمكِ

ولكن دعوى القويِّ على الضعيف، كدعوى الضواري المفترسة، براهينها من النيوب، وأدلتها من الأظفار، لا ترجع إلى قوّة المنطق، بل إلى شهوة الافتراس والجشع في الأكل.

قصيدة شوقي عن الكائنة البلقانية، وحواش تاريخية للمؤلف

ومن كلمات شوقي التي تقصر عن وصفها الكَلِم، وشوارده التي يسهر الخلق جراها ويختصم، قصيدته في الحرب البلقانية. وهي التي يُسمّيها بالأندلس الجديدة، فقد نظمها وفي قلوب المسلمين نار الله الموقّدة، ممّا جرى على الإسلام في حرب البلقان، فطاشت لذلك العقول وطارت الأفئدة. وكان نصيب شاعر الإسلام من تلك الفادحة بقدر رقة شعوره ورهافة حسّه، وسهمه من الالتياح، على ما حلّ بمسلمي البلقان، على نسبة شفوف طبعه ونفاسه نفسه، فقال وأرسلها للقرون والأجيال، وناطها بالأيام واللّيال:

يا أختَ أندلسِ عليك سلامٌ هوتِ الخلافةُ عنكِ والإسلامُ
نزلَ الهلالُ عن السماءِ فليتها طويّتِ وعمّ العالمين ظلامُ
أزرى به وأزاله عن أوجهِ قدّرَ يحطّ البدرَ وهو تمامُ

(١) أي باشروا حرباً، كتنا نحن أسلحتنا، على خيل كتنا فرسانها، ولكن ليكون الملك لهم.

(٢) المانش: بحر أوروبي، بين بريطانيا وفرنسا.

(٣) التّهتان: تتابع المطر وانصبابه.

(٤) ذو سَلَم: وادٍ في الحجاز.

يُودَع بلاد الروملي، ويقول: أصابك ما أصاب أختك الأندلس من قبل، ونزل الهلال
فيك عن سمائه يريد بالهلال الراية العثمانية التي نزلت في تلك البلاد عن عليائها، بحكم
قَدَرٍ يُنْقِصُ البدر بعد تمامه، كأنه يقول: إذا تَمَّ شيءٌ بدا نقصه، وكأنه يشير إلى قول القائل:

وإنَّ البدرَ أولُّه هلالٌ
وآخره يعودُ إلى الهلالِ
ثمَّ يقول:

جرحانِ تمضي الأمتان عليهما
بكما أُصيبَ المسلمون وفيكما
لم يُطَوِّ مآتمها وهذا مآتمٌ
ما بين مصرعها ومصرعكِ انقضت
خَلَّتِ القرون كليلَةً وتصرَّمت
والدهرُ لا يألُو الممالكَ منذرًا
هذا يسيلُ وذاك لا يلتامُ
دُفِنَ اليراعُ وغُيِّبَ الصَّمْصَامُ
لبسوا السوادَ عليكِ فيه وقاموا
فيما نحبُّ ونكرهُ الأيامُ
دُؤْلُ الفتوحِ كأنها أحلامُ
فإذا غفلنَ فما عليه ملامُ

يقول: إنَّ جُرح الأندلس لَمَّا يلتئم، ولا يزال في قلوب العرب منه نزيز، وإذا بجُرح
البلقان بدأ يسيل، وقد أدمى قلوب الترك، وإنَّ كِلَا الأمتين لَمَنكوبة بكلِّ من هاتين الكائنتين
اللَّتين دُفِنَ القلم والسيف فيهما. وهذه المئات الأربع من السنين، التي مضت بين مآتم الأندلس
ومآتم البلقان، كانت فيها الأيام تجري تارةً فيما نحبُّ، وطورًا فيما نكره. يشير بقوله فيما
نحبُّ، إلى فتوحات آل عثمان في بلاد البلقان، حتَّى انتهوا إلى المَجَر وبولونيا، وحصروا
فيينا [عاصمة النمسا]، ولولا قليل لفتحوها. وفي قوله فيما نكره، إلى الجَزْر الذي عقب
ذلك المدَّة، والمصائب التي نزلت بالإسلام في السنين الأخيرة، حتَّى انقضت أيام تلك الفتوحات
كأنها لم تكن. وقد كانت هذه المثلاث تفرع المسلمين، حتَّى يتنبهوا لشئونهم وينهضوا كما
نهض غيرهم، فلبثوا يَغْطُونَ في نومهم، وتركوا الحبل على الغارب، فليس على الدهر ملام
إذا كانوا هم لبثوا غافلين عن شأنهم. ثمَّ يقول:

مقدونيا والمسلمونَ عشيرةٌ
أترينهم هانوا وكان بعزُّهم
إذ أنتِ نابُ اللَّيْثِ كلُّ كتيبةٍ
كيف الخؤولةُ فيكِ والأعمامُ؟
وعلوهم يتخايلُ الإسلامُ؟
طلعتُ عليكِ فريسةٌ وطعامُ

وتغيّر الساقى وحالَ الجامُ
وشهدتِ كيف أُبيحتِ الآجامُ؟
وهل الممالكُ راحةٌ ومنامُ؟
وأراكِ سائغةً علتك زحامُ
بالمُلكِ منهم علةٌ وسقامُ
رُكنًا على هامِ النجومِ يُقامُ
وقيودُ هذا العالمِ الأوهامُ
نظرتُ بغيرِ عيونهنَّ الهامُ
عشراتِ أخلاقِ الشعوبِ قيامُ

ما زالت الأيام حتى بُدلتُ
أرأيتِ كيف أُدِيلَ من أسدِ الشرى
زعموكِ همًا للخلافةِ ناصبًا
ويقولُ قومٌ كنتِ أشأمَ موردٍ
ويراكِ داءَ المُلكِ ناسُ جهالةِ
لو آثروا الإصلاحِ كنتِ لعرشهم
وهم يُقيّدُ بعضُهم بعضًا به
صُورُ العمى شتى وأقبحها إذا
ولقد يُقامُ من السيوفِ وليس من

يقول: أي مقدونية - مقدونية هي قسم مما يُسميه الأتراك بالروملي، والروملي عبارة عن القسم الأمامي من شبه جزيرة البلقان، كان يحتوي على ست ولايات عثمانية هي: أدرنة، وسلانيك، ومانستر، وقوصوة، وأشقودرة، ويانيا؛ والولايات الثلاث الأخيرة هي بلاد الأرناؤوط. يسأل عنك المسلمون، لأنهم مهما تنوّعت أجناسهم فهم عشيرة واحدة، فإذا سألوا عنك فإنما يسألون عن أخوالهم وأعمامهم، أترينهم ذلوا بعد ذلك العز؟ وبعد أن كانت كلّ كتيبة تطلع عليهم، تعود فريسة لهم؟ نعم، قد تحوّلت الأيام وسُقيت بغير الكأس التي كنتِ تشربين بها، وأدِيل من الآساد، واستباح الأعداء آجامها القديمة، وزعم بعض الناس أن وجودك يا مقدونية كان على الخلافة مشؤمًا، وأنه كان همًا ناصبًا، وهل الممالك تكون للراحة وتُدار بدون تعب؟ وإذا كنتِ موردًا وبيًا، فلماذا تتزاحم عليك الدول؟ إن الذين يرون هذا الرأي، إنّما هم قوم جهالة، كانوا علةً في جسم هذه السلطنة العثمانية، وبدلاً من أن يدلوا بهذه الأقوال الدنيئة، كان عليهم أن يُصلحوا الإدارة في الروملي، فكانت تكون لهم ركنًا عاليًا وحصنًا حصينًا. ولكن هؤلاء الضالين يثون هذه الأوهام في الناس، فيأخذها بعض الناس عن بعض، ويلوكونها بألسنتهم بدون تدبُّر، وللعمى صور شتى، وأنها قد تعمى منها الأبصار، ولكن تعمى أكثر منها القلوب التي في الصدور؛ وأنه قد ينهض الشعب من بعد الهزيمة، وقد تعود بقية السيف إلى النمو، ولكن المصيبة التي لا نهوض منها ولا إقالة لها، هي عثرة الأخلاق وانحطاط الهِمَم.

قلت: حالف المنطق أقوال شوقي في جميع مصادره وموارده، ولولا ذلك لم يكن شاعر هذا العصر بالاتفاق، فبلاد البلقان كانت الحصن الحصين للدولة العثمانية، وكانت تستورد منها خزانة السلطنة أعظم دخلها، لا سيّما القسم الذي ذهب على أثر الحرب الروسية العثمانية، وهو ولايات الطونة، وهي اليوم بلاد البلغار وقسم من رومانيا. وكان وجود الروملي في يد الدولة، واقياً للأناضول نفسه، أي كانت أوروبا العثمانية مجنّاً^(١) لآسية العثمانية. وما كان على أولئك المعترضين بدلاً من اعتراضهم وتهوينهم أمر ذهاب الروملي، إلا أن يهبوا لإصلاح إدارتها، وينشدوا وسائل استبقائها، لأنه شرط ضروري لحماية السلطنة، وجعل عاصمتها اسطنبول، التي هي مركز لا نظير له في العالم، وسطاً في المملكة لا طرفاً لها. أفلا ترى أنها بعد أن ذهبت الروملي، صارت من ثغور المملكة، ولم يبقَ بينها وبين العدو إلا مسافة ساعات معدودات؟ فتذكّر الإنسان في أمرها قول الشاعر، وهو بيت قديم:

كانت هي الوسط المحميّ فانتقصتُ
منها الحوادثُ حتى أصبحت طرفاً

فالأستانة التي كانت وسطاً محمياً قبل ذهاب الولايات البلقانية من يد الدولة، أصبحت طرفاً، يكاد يكون عورة لقرب العدو منها وسهولة غارته عليها، وقد شاهدنا ذلك بأعيننا أيام الحرب البلقانية، وكنت أنا نفسي في الأستانة، فكنا نسمع فيها أصوات المدافع من شطلجة، حيث كان الجيش البلغاري يحاول دخول الأستانة. ولأياً^(٢) في ذلك اليوم، قدر الأتراك أن يدحروا البلغار إلى الورا. وهي الواقعة الوحيدة التي وقفوا فيها من حرب البلقان. ولولاها لاستولى البلقانيون على عاصمة آل عثمان. فقول من قال، إن الروملي كانت للدولة همماً ناصباً، هو ضلال مبین، ورأى من لا يريد التعب ولا يُحسن إدارة الممالك.

وفي هذه المسألة، أراني وشوقي متواردين على رأي واحد، وليست هذه بالمرّة الوحيدة التي أجدني فيها وإياه على وفاق، كأن قلبينا قلب واحد، وكأننا نفكر عن خلية دماغ واحدة، فإنه لما استردت الدولة أدرنة، مستفيدة من اختلاف البلغار مع حلفائهم الصرب واليونان، دعت الدولة وفدًا عربيًا إلى الأستانة، لبعض مُذاكرات تتعلّق بالعرب، وكنت أنا من أعضاء ذلك الوفد الثمانية، فدعتنا الدولة لزيارة أدرنة، وتهنئة أهلها على رجوعهم إلى حضن الدولة. فلما وصلنا إلى تلك البلدة أقاموا لنا حفلة عظيمة، كان فيها أعيان البلدة وضباط الجيش العثماني، فأنشدتُ في ذلك الحفل قصيدة ميمية، أتذكّر منها الأبيات التالية:

(١) المجنّ: الدرع.

(٢) لأى: شدة، وهنا بمعنى عناء.

قصيدة المؤلف في استرداد أدرنة

فِدَى لِحِمَانَا كُلِّ مَنْ يَمْنَعُ الْحِمَى
فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ نَمُوتَ أَعِزَّةً
تَأَمَّلْتُ فِي صَرْفِ الزَّمَانِ فَلَمْ أَجِدْ
وَلَمْ أَرَ أَنَايَ عَنْ سَلَامٍ مِنَ الَّذِي
يَقُولُونَ وَجْهَ السِّيفِ أَيْضُ دَائِمًا
تَجَاهَلُ أَهْلُ الْغَرْبِ كُلَّ قَضِيَّةٍ
وَكَابَرُ قَوْمٌ يَنْظُرُونَ بِأَعْيُنٍ
انظُرْ إِلَى قَوْلِ شَوْقِي:

صَوَّرَ الْعَمَى شَيْئًا وَأَقْبَحَهَا إِذَا
نَظَرْتَ بَغِيرَ عَيُونِهِنَّ الْهَامُ

وَالِي قَوْلِي: (أَلَا عَمَّهُ الْأَلْبَابُ أَعْمَى مِنَ الْعَمَى)

وذلك في عرض الكلام على وجوب الدفاع عن الروملي وعدمه، فتعلم اتحادنا في الفكر. ثم إنني أقول في آخر هذه القصيدة ما يأتي:

فَمَنْ مَبْلَغِ الْبُلْغَارِ أَنَا إِلَى الْوَعَى
وَإِنَّ جَمِيعَ الْعَرَبِ وَالْتَرِكِ أُخُوَّةُ
وَلَيْسَ يَزَالُ الْعُرْبُ وَالْتَرِكُ أُمَّةً
وَقُولُوا لَهُمْ (بَأْتِ سَعَاد) فَلَا يَزَلْ
فَلَا يُطْمَعُنْكُمْ فِي أَدْرَنَةَ مَطْمَعُ
أَدْرَنَةُ صَارَتْ عِنْدَنَا تِلْوًا مَكَّةَ
سَتَلْبِثُ عُثْمَانِيَّةَ رَغْمَ أَنْفِكُمْ
وَأُخْوَانُنَا الْأَتْرَاكُ نَزَحَفُ تَوَامَا
عَلَيْهِمْ إِلَيْهِمْ يَبْتَغُونَ تَقْدُمًا
حَنِيفِيَّةً بِيضَاءَ لَنْ تَتَقَسَّمَا
فَوَادِكُمْ صَبًا عَلَيْهَا مُتِيَّمَا
وَلَا تَفْتَحُوا فِي شَأْنِهَا أَبَدًا فَمَا
وَمَاءُ الْمَرِيحِ الْيَوْمَ أَشْبَهَ زَمْزَمَا
وَأَنْفِ الْأَلَى مَنَا يَصِيحُونَ لَوْ مَا

فأنت ترى أيضًا أن الذين كان يُعرض بهم شوقي، ويجعلهم علة للملك وسقمًا في

(١) العمى للعين كالعَمَّة للعقل.

جسم الدولة، هم الذين كنت أُعَرِّضُ بهم أنا أيضًا، وأقول إننا استرددنا أدرنة برغم الأعداء من الخارج، وبرغم هؤلاء المضلين المثبطين من الداخل.

ثمَّ يقول شوقي:

ومُبَشِّرٍ بالصلح قلتُ لعله خيرٌ عسى أن تصدقَ الأحلامُ
تركَ الفريقان القتالَ وهذه سلِمَ أمرٌ من القتالِ عُقامُ

يقول: إنَّ الفريقين قد تثاركا القتال، ويقال إنَّه سينعقد الصلح، ولكن هذا الصلح، الذي تذهب فيه ولايات الروملي من يد الدولة كره أكثر من القتال. ثمَّ يقول:

- ينعي إلينا المَلِكُ ناعٍ لم يطأ أرضًا ولا انتقلت به أقدامُ
برقٌ جوائبه صواعقُ كلِّها ومن البروق صواعقٌ وغمامُ
إن كان شرٌّ زار غيرَ مُفارقٍ أو كان خيرٌ فالمزارِ لِمَامُ
بالأمس (أفريقا) تولتْ وانقضى مُلكٌ على جيدِ الخِصَمِ جسامُ
نظمَ الهلالُ به ممالكَ أربعًا أصبحنَ ليس لعقدِهِنَّ نظامُ
من فتحِ هاشمٍ أو أميةٍ لم يضع أساسها تترٌ ولا أعجامُ
واليومَ حُكْمُ الله في مقدونيا لا نَقْضَ فيه لنا ولا إبرامُ
كانت من الغربِ البقيةَ فانقضتْ فعلى بني عثمانٍ فيه سلامُ

يقول: جاءنا البرق بخبر هذا الصلح، ومن البروق، صواعق نقمة ومنها غمائم رحمة، فأما نحن معاشر المسلمين، فبروقنا كلِّها صواعق، وإذا كان الشرُّ زارنا فهو غير مُفارق، وإذا كان الخير زارنا فلِمَامًا. واللِّمَامُ أو الغِبُّ هو الزيارة في الأحيان. وبالأمس، ذهب لنا في إفريقية بمالك أربع: مصر وطرابلس وتونس والجزائر. كانت راية الهلال تخفق فوقها، فانطوت عنها، وهي أقطار لم يفتحها مسلمو التتر ولا العجم، ولكنها من فتح الخلفاء الراشدين، وبني أمية من بعدهم. واليوم، نُفِّذُ حُكْمَ الله في مقدونية على أيدي البلقانيين، ومن ورائهم الدول الأوروبية متَّحدة علينا. وقد كانت هذه الولايات الست، المُسمَّاة بالروملي، بقية المَلِكِ العثماني في أوروبة، وقبلها كانت له مملكة البلغار، ومملكة رومانيا، ومملكة الصُّرب، ومملكة ألبانيا، ومملكة اليونان، ومملكة المَجَر، وبلاد بوسنة والهِرِسِك، كلِّها تابعة للسلطنة العثمانية.

فذهبت تلك الممالك في القرن الماضي، ولحقت به هذه البقية الباقية في هذه النوبة، فعلى مُلك بني عثمان في أوروبا السلام. ثمَّ قال:

أخذَ المدائنَ والقريَّ بخناقها
غَطَّتْ به الأرضُ الفضاءَ وجوَّها
تمشي المناكرُ بين أيدي خَيْلهِ
ويحُثُّه بأسمِ الكتابِ أقيسةٌ
ومسيطرون على الممالكِ سُخرت
من كلِّ جزارٍ يروم الصدرَ في
سِكِّينهُ ويمينهُ وحزامهُ
جيشٌ من المتحالفين لهُامٌ^(١)
وكست مناكبها به الأكامُ
أتى مشى والبغْيُ والإجرامُ
نشطوا لما هو في الكتابِ حرامُ
لهم الشعوب كأنها أنعامُ
نادي الملوكِ وجَدُّه غَنامُ
والصَّولجانُ جميعها آثامُ

قال: إنَّ الدولَ البلقانيةَ تحالفت على الدولة العثمانية - وكان تحالفها على هذه، بواسطة قيصرِ الروسية وتمت كفالتة، فهو الذي نظم شتات دول البلقان، وشجَّعهُنَّ على محاربة تركيا، وقد لقاها الله جزاءه بعد الحرب العامة، فقتله البلاشفة شرَّ قتل، يمكن أن يتصورها العقل لأنهم بعد أن نفوه وحبسوه، زحفت الجيوش الروسية التي يقودها أعداء البولشفيك لتستخلص القيصر من محبسه، فعجَّل هؤلاء بقتله أمام عائلته، وقتل عائلته أمامه. فأطلقوا عليهم الرصاص في لحظة واحدة، وكان هو وامرأته وابنه، وليّ العهد، وبناته الأربع، وسقن جيوشاً جرّارة، تغطّت بها الأرض زاحفة صوب تركيا، والمناكير والقبائح والفظائع تمشي بين يديها، فقد كانت جيوش البلقانيين ترتكب من قتل الأهالي الوادعين، واستباحة أعراض النساء، ذوات الصون والستر، ونهب الأموال وإهانة شعائر دين الإسلام، ما لم يقع نظيره إلا في الأندلس. ولذلك سمّى شوقي البلقان بالأندلس الجديدة.

وكما كانت حروب الأندلس وفظائعها تُغشى بتحريض القسوس، الذين يُخالفون في أعمالهم جميع ما قرأوا في كتابهم الإنجيل، كذلك كانت الصليبية البلقانية، يؤجج نارها الأحبار، والقسيسون، من بلغار ويونان وصربيين، وكان الملوك الأربعة: ملك البلغار، وملك اليونان، وملك الصرب، وملك الجبل الأسود، ينشرون المناشير الحربية التي لا تزال نصوصها محفوظة، كأنها محرّرة في القرون الوسطى، من الحثّ على استئصال المسلمين، والتحريض على قتالهم بغير هوادة بأسم النصرانية.

(١) الجيش اللّهام: الجيش العظيم، كأنه يلتهم كلّ شيء.

نعم، تقضي أمانة التاريخ أن نذكر كون الجيش الصربي تجنّب الأثام في معاملة المسلمين، أكثر من الجيشين البلغاري واليوناني. وقد رفعنا يومئذٍ الاحتجاجات إلى الدول العظام، بناءً على كون هذه الفظائع مخالفة لحقوق الأمم وللإنسانية، وقلنا إن من واجبات الدول بحسب التكافل الإنساني والتعاون المدني، أن تُقيم النكير على البلقانيين من أجلها، وكان لهذا الفقير إليه تعالى، برقية من الآستانة في غاية التأثير والشدة، إلى السير إدوارد غراي، ناظر الخارجية الإنجليزي، أطلع على صورتها بعد إرسالها كامل باشا، الصدر الأعظم، وذلك بواسطة صديقي المرحوم محمد باشا الشريعي، فأعجب بها الصدر جدًّا، وأرسل يشكرني عليها. ولكن من جهة النتيجة لم تعمل الدول أدنى عمل يدلّ على أنها تزن المسلمين بميزان واحد مع البلقانيين، ولا مع سائر البشر. ولا سمعنا أنها خاطبت دول البلقان، ولو من قبيل النصيح، بالاعتدال في سيرهن، أو بمراعاة حقوق الإنسانية، في أثناء الحركات الحربية. ولا نبض عرق لجمعية أوروبية من تلك الجمعيات التي لا يُحصى عددها، المتشدّقات بحفظ حقوق الإنسان.

وقد بلغ عدد الذين هاجروا من مسلمي البلقان، فرارًا من وجه الأعداء، بعد أن سمعوا بما حلّ بإخوانهم على الحدود مائة وخمسين ألف نسمة، دخلوا إلى الآستانة حتى غصت بهم الجوامع والمدارس على كثرتها، وكان ذلك في قلب الشتاء، وفشت فيهم الكوليرة، وكانت خطوب الدولة تشغلها عن إيوائهم وإطعامهم، فقامت مصر، حماها الله، في تلك الأزمة مقامًا لا ينسأ لها تاريخ الإسلام بل التاريخ العام. فأرسلت إليهم الإعانات التي كفلت نجاة هؤلاء الأخوان المهاجرين من الموت، بردًا وجوعًا، إلى أن تمكّنت الدولة من إجازتهم إلى الأناضول. وقد كان ما أعانت به مصر الجيش العثماني في تلك الحرب أربعمائة ألف جنيه، وما وزعته من الإعانات على هؤلاء المهاجرين مائة وخمسين ألف جنيه. وكنت أنا من جملة أعضاء اللجنة التي وزعت الإعانات من قبيل لجنة الإعانة الكبرى بمصر، التي كان يرأسها أمين هذه الأمة الأمير عمر طوسون، أمتع الله الإسلام بطول حياته. وإليه وإلى الأمير محمد علي توفيق، رئيس الهلال الأحمر، كُتبت برقيات استمدادًا واستعجالًا بالإعانات كلما قدمت طائفة من المهاجرين، وكانت جميع تلك البرقيات تقريبًا بقلم كاتب هذه السطور، وأنا الذي أبرق للأمير عمر طوسون بسقوط سلانيك، ووجود ١٥٠ ألف نسمة من المسلمين فيها، تحت خطر الموت جوعًا. فما مضى على هذه البرقية إلا بضعة أيام حتى وصلت البواخر من مصر إلى ميناء سلانيك، ثم إلى ميناء "قوالة"، مشحونة بالأرزاق والألبسة وجميع الحوائج، التي كفلت إنقاذ أولئك المساكين من الموت، وتخفيف ويلات

إخواننا، مسلمي مقدونية، أجمع. فجزى الله كِنَانته مصر خيرًا عن هذه المبرّات، التي وإن كانت بحسب الشرع فرضًا عليهم، لا مِتّة لهم، فإنّه لا يجوز للتاريخ أن يغفلها ولا يجوز للأمة التركية بخاصّة أن تتناساها.

ثمّ يقول شوقي عن ملوك الدول البلقانية، الذين تولّوا تلك الآثام، ما هو واضح لا يحتاج إلى تفسير ولا إلى تعليق. ومن الغريب أنهم ارتكبوا تلك الموبقات بأسم السيّد المسيح، بزعمهم. والحال، أن سبيل المسيح كان كلّهُ محبّة ورحمة كما لا يخفى، وكان ينهي عن سفك الدماء بكلّ حال، وإلى هذا أشار شوقي بقوله:

عيسى سبيلك رحمةٌ ومحبّةٌ
ما كنتَ سفكَ الدماءِ ولا امرءًا
يا حاملَ الآلامِ عن هذا الورى
أنتَ الذي جعلَ العبادَ جميعهم
أنتَ القيامةُ في ولايةِ يوسفِ
في العالمين وعصمةٌ وسلامٌ
هانَ الضّعافُ عليه والأيتامُ
كثرتَ علينا بأسمِكَ الآلامُ
رحمًا وبأسمِكَ تُقطعُ الأرحامُ
واليومَ بأسمِكَ مرّتينَ تُقامُ

يريد بيوسف، صلاح الدين بن أيوب، وأنّ الحرب الصليبية وقعت في أيامه، واليوم قد تجددت أولاً وثانيًا. ثمّ يقول:

واليوم يهتفُ بالصليبِ عصائبُ
خلطوا صليلك والخناجرَ والمدى
أو ما تراهم ذبّحوا جيرانهم
كَمْ موضعٍ في حجرِ نعمتهِ غدا
وصبيّةٌ هتكتُ خميلةً طهرها
وتناثرتُ عن نوره^(١) الأكمام^(٢)

هل قيل في هتك أعراض الأبيكار، أبلغ من هذا القول وأشدّ تأثيرًا في النفس؟
وأخي ثمانين استُبيح وقاره
وغيره حرب ظامئ وأدوه لم
لم يُغنِ عنه الضعف والأعوام
يعطفهم جرح له وأوام^(٣)

(١) الثور: الزهر الأبيض عامّة، وزهر الشجر المشمر خاصّة. والهاء في "نوره" ترجع إلى الطهر.

(٢) الكم: هو غطاء هذه الزهور.

(٣) الأوام: العطش الشديد.

ضلّوا السبيل من الذهول وهاموا
والنطعُ إن طلبوا القرار مُقامُ

ومهاجرين تنكّرت أوطانهم
السيفُ إن ركبوا الفرارَ سبيلهم

لعمري، ليس في ما وصفه شوقي هنا شيء من المبالغة، فقد جرى من البلقانيين كلّ هذه الأفعال، وأوروبا تنظر كأنها جاهلة، بل كانت في الحقيقة مرتاحة إلى قهر المسلمين وإعنتهم، حتّى لا يرفعوا رؤوسهم. ودليل ارتياحها، أنها لو أرادت وجزمت، لما تجرّأ البلقانيون طرفة عين، على مخالفتها. ثمّ بعد أن سرد شوقي ما سرد من هذه الفجائع، التفت نحو الأتراك، فنصحهم بالوثام وعذّلهم على الانقسام، وقال لهم:

قدّر تطيشُ إذا أتى الأحلامُ^(١)
أمم تُضاع حقوقُها وتُضامُ
بعضاً فقدّمَا جارت الأحكامُ
فالحمدُ من سلطانها والذامُ^(٢)
عدلٌ وملءُ كِنانتيه سهامُ
لا الكتبُ تدفعه ولا الأقلامُ
دخلوا على الأسدِ الغياضَ وناموا
صبراً وصفحاً فالجناةُ كرامُ
ما للبناء على السيوفِ دوامُ
والعدلُ فيه حائطٌ ودعامُ

يا أمة (بفروق) فرّق بينهم
فيمَ التخاذلُ بينكم ووراءكم
لا يأخذنَّ على العواقب بعضكم
تقضي على المرء الليالي أوله
من عادة التاريخ ملءُ قضائه
ما ليس يدفعه المهندُ مُصلّتنا
إنّ الألى فتحوا الفتوحَ جلائلاً
هذا جناه عليكمو آباؤكم
رفعوا على السيفِ البناءَ فلم يدُم
أبقى الممالك ما المعارفُ أسهُ

قال لهم: إنّ القدر إذا نزل تطيش له الأحلام، ولكن يجدر بكم أن تدروا التخاذل فيما بينكم، والجدل فيمن كان مخطئاً ومن كان مصيباً. فإنّ وراءكم وأنتم مشغولون بالفتن الداخلية أمماً تضام وتُهان وتوكل حقوقها. فدعوا الخطأ والصواب إلى التاريخ، واعلموا أنه إن لم يكن سيفٌ يدفع الظلم، لم يكن للأقلام قبل بدفعه. لقد فتح آباؤكم هذه البلدان وناموا على فتوحاتهم، ولم يفكروا في أنّ هذه الأمم المغلوبة، لا تزال تترصد حتّى تثور وتأخذ بالثأر. فالخطأ إنّما هو خطأ آباءكم الذين أحسنوا الظنّ، وصفحوا عن الذنب، ووثقوا دائماً بالنصر؛ ثمّ هناك عيبٌ آخر وقع في البناء الذي بنوه، وهو أنهم رفعوه على رؤوس الحراب،

(١) الأحلام: العقول.

(٢) الذام: الذم.

ووقفوا على تحصيله بالعلم ودعمه بالعدل. ولَمَّا كان ملك السيف لا يدوم، كانت هذه العاقبة منتظرة لكم. ثمَّ يقول:

وقفَ الزمانُ بكم كموقفٍ (طارقٍ) اليأسُ خَلْفَ والرجاءُ أمامُ
الصبرُ والإقدامُ فيه إذا هما قتلا فأقتلَ منهما الإحجامُ

أي أنَّ موقفكم اليوم أصبح كموقف طارق بن زياد، يوم أجاز إلى الأندلس، وتواقف مع لذريق، ملك الإسبانيول، فقال لجيشه: البحر وراءكم والعدو أمامكم، فلا نجاة لكم إلا بالإقدام، لأنكم إذا انهزمتم فليس وراءكم إلا البحر. وهذا يا رجال السلطة العثمانية هو موقفكم اليوم. ولنقل إنَّ في إقدامكم هلكًا، فالجواب عليه، أنَّ الهلك الذي في الإحجام هو أوكد من الهلك الذي في الإقدام. ثمَّ يقول لهم: لو أنكم أحستتم إدارة البقية الباقية من ملك آل عثمان، لكانت لكم بها دولة وصولاً لا يُفتَّ في عَضُدِهما.

هذي البقية لو حرصتم دولةً صالَ الرشيدُ بها وطالَ هشامُ
قسم الأئمة والخلائف قبلكم في الأرض لم تُعدَلْ به الأقسامُ
سرت النبوة في ظهور فضائه ومشى عليه الوحي والإلهامُ
وتدفَّقَ النهران فيه وأزهرت بغدادُ تحت ظلاله والشامُ
أثرت سواحله وطابت أرضه فالدرُّ لُجٌّ^(١) والنُّضارُ^(٢) رَغامُ^(٣)

أي أنَّ صولة الرشيد كلها وطائلة هشام بن عبد الملك، وعزة أولئك الخلائف، إنما كانت بهذه البلاد التي بقيت لكم، وهي نِعَم الأقسام إذا تقاسم البشر الأرض، وفيها ظهر الأنبياء: موسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام، وفيها جرى الفرات ودجلة وازدهرت الشام وبغداد. ثمَّ ذكر أدرنة وحسن دفاع شكري باشا عنها، فقال:

شرفاً أدرنة، هكذا يقف، الحمى للغاصبين وتثبت الأقدامُ
وتُرَدُّ بالدمِ بقعةٌ أُخِذَتْ به ويموت دون عرينه الصُّرغامُ
والملك يؤخذ أو يُردِّد ولم يزل يريثُ الحسامَ على البلاد حسامُ
علمَ الزمانُ مكانَ (شكري) وانتهى شكرُ الزمانِ إليه والإعظامُ

(١) فالدرُّ لُجٌّ: أي كثيرٌ كاللُجِّ؛ واللُّجُّ: معظم الماء.

(٢) النُّضار: الذهب.

(٣) الرِّغام: التراب، أي أنه لكثرة صار كالتراب.

يذكر أن شكري باشا وقف من أدرنة موقف مدافع، ثابت الأقدام، ولم يُسَلَّم شبرًا من أرضها إلا بالدم، وهذا هو حقّ الدفاع. فاستحقّ بذلك سُكْر الناس وإجلالهم. ولمّا دخل ملك البلغار إلى أدرنة، ترك لشكري باشا سيفه عند الاستسلام، إعجابًا ببسالته وثباته.

والحقّ، أنّ شكري باشا، لولا أن مَسَّ جيشه الجوع، ما كان يمكن أن يدخل البلغار والصُّرب عليه في أدرنة، مهما طال الحصار، ولكنه لم يبقَ للجيش زاد يقتات به.

ومن حيث أننا ذكرنا في التعليق على الأبيات السابقة شيئًا من قصّة الحرب البلقانية، حُبًّا في إظهار فضل شوقي فيما سجّله شعره من هذا الموضوع، فلا بأس بأن نورد تحت هذه الأبيات ما نعلمه بنفسنا، لا نقلًا عن رواية ولا حكاية عن سَمّار، وهو: أنه لما كان شكري باشا تحت الحصار، وجد رسولاً أنفذه إلى الآستانة، يلتمس من الباب العالي أن ينجدوه ولو بعشرة آلاف جنيه، ليشتري بها رزقًا للجيش. وجاء الرسول فحدّثنا بالخبر، وكنت أنا ومحمّد باشا الشريعي، وكامل باشا جلال، لأننا كُنّا ندير لجنة الإعانات والهلال الأحمر المصري، وعلمنا أنهم كانوا في الباب العالي لم يجدوا المال في الحال، وأشاروا إلى الرسول بالتلّوم إلى أن يجدوه. والحال، أنّ شكري باشا كان من الانتظار على أحرّ من النار، فقرّرت لجنة الإعانة المصرية على مسئوليتي أنا ورفاقي، لا سيّما الشريعي، إرسال العشرة آلاف جنيه إلى شكري باشا بأسم الجرحى والمرضى، وذهب بها الرسول وعاد بورقة الوصل.

ومن هذه الحادثة وحدها يعلم القارئ اللأواء التي وصل إليها الجيش العثماني أثناء حصار أدرنة.

وبناء على ما علمناه من أزمة الجيش، وأزمة مسلمي أدرنة، الذين كانوا يموتون جوعًا بعد سقوط أدرنة في أيدي البلغار، التمسنا من الهلال الأحمر المصري ببرقيات مكرّرة كتبها كلّها بقلمى، أنّ الهلال الأحمر في مصر، يطلب من إنجلترا التوسُّط لدى حكومة البلغار بأن تسمح بدخول بعثة الهلال الأحمر المصري إلى أدرنة. فتوسّطت الحكومة الإنجليزية، وأمكن الهلال الأحمر المصري، جزى الله أهله خيرًا، من إغاثة مسلمي أدرنة الذين كان عددهم يربى على أربعين ألف نسمة، وكان الجوع يفتك بهم. ولمّا ذهبنا، نحن الوفد السوري، الذي تقدّم الكلام عليه، إلى أدرنة بعد استرداد الدولة لها، شاهدت بعثة الهلال الأحمر المصري لا تزال هناك. وقد كان والي أدرنة، الحاجّ عادل بك، أعدّ للوفد ولي أنا من الجملة مكانًا للمبيت، فاستأذنته في الذهاب إلى محلّ الهلال الأحمر المصري، وبتُّ هناك، بناءً على أنني

كنت من مفتشيه في أثناء الحرب البلقانية. ولما نهضت صباحًا، شاهدت بعيني ألوفًا من مسلمي أدرنة، بأيديهم السطول يأخذون بها الحساء من مطبخ الهلال الأحمر، فتعجبت من كثرة عددهم. فقال لي رجال الهلال الأحمر: لو رأيت الحالة قبل أن تسترجع الدولة أدرنة، لرأيت عجبًا، فالآن إنما نطعم ثلاثة أو أربعة آلاف، وأمّا من قبل فقد كنّا نعول ثلاثين أو أربعين ألفًا. فهذا ما شاهدته بعيني فضلًا عن كونه عملاً، كنت أنا، والله الحمد، من الساعين فيه، وكان المصريون الكرام، هم السبب في إتمامه، بحيث أنقذوا من الهلاك عشرات الألوف من أخوانهم مسلمي تلك البلاد. ولا بأس أن يكون للتاريخ مكان من كتاب أدب، لا سيّما إذا تعلق بالحمية والإنسانية.

ثمّ قال أحمد شوقي:

صبراً أدرنة كلُّ مُلكٍ زائل	يوماً ويبقى المالكُ العلامُ ^(١)
خَفَتَ الأذَانُ فما عليكِ موحدٌ	يسعى ولا الجُمعُ الحِسانُ تُقامُ
وخبّت مساجدُ كُنَّ نوراً جامعاً	تمشي إليه الأُسُدُ والآرامُ ^(٢)
يدرُجْنَ في حرمِ الصلاةِ قِوانتاً ^(٣)	بيضُ الإزارِ ^(٤) كأنهنَّ حمامُ
وعفت ^(٥) قبورُ الفاتحينِ وفُضَّ عن	حُفَرِ الخلائفِ جندلُ ^(٦) ورجامُ ^(٧)
نُبِكت على قعساءِ عزّتها كما	نُبِكت على استعلائها الأهرامُ
في ذمّةِ التاريخِ خمسةُ أشهرٍ	طالتُ عليكِ فكلُّ يومٍ عامُ
السيفُ عارٍ والوباءُ مُسلطُ	والسَّيلُ خوفٌ والثلوجُ ركامُ
والجوعُ فتاكٌ وفيكِ صحابةُ	لو لم يجوعوا في الجهادِ لصاموا

وهذا ما أشرنا إليه في حديثنا عن هذه الحرب المشؤومة، واستمداد قائد أدرنة القوات

الضروري.

(١) المالك العلام: الله سبحانه.

(٢) الآرام: الغزلان.

(٣) القنوت: الطاعة والدعاء.

(٤) بيض الإزار: كناية عن أصحاب الطهر والعفاف.

(٥) عفت: اضمحلت وامتح.

(٦) الجندل: الحجارة.

(٧) الرجّام: (لغة) ما يُبنى عليه البشر.

عَرَضَ الحَرَائِرِ لَيْسَ فِيهِ سِوَامُ
مِمَّا يَصُبُّ اللهُ لِـ الأَقْوَامِ
وَكَذَا يُبَاعُ المُلْكُ حِينَ يُرَامُ
سُمُّ الحِصُونِ وَمِثْلُهُنَّ عِظَامُ
جُشْتًا فَلَا غُبْنَ وَلَا اسْتِدْمَامُ

ضنوا بعرضك أن يُباع ويُشترى
ورمى العدا ورميتهم بجهَنمِ
بعث العدو بكل شبرٍ مهجّةٍ
ما زال بينك في الحصار وبينه
حتى حواكٍ مقابرًا وحويته

يصف هنا كيفية الدفاع عن أدرنة كما تقدّم الكلام عليه، بأن شكري باشا لم يبع منها شبرًا إلا بعد أن غطاه دمًا، وأنه لم يُسلم البلدة إلا بعد أن فتك بجيشه الجوع والمرض، فكان تسليمًا شريفًا أعذر فيه ذلك القائد الباسل إلى قومه، وحفظ فيه شرف أمته. ثم ذكر كيف آلت إليه أدرنة بعد غلبة البلغار عليها. ولا شك في أن نظم شوقي هذه القصيدة، وقع في المدة التي هي بين تسليم أدرنة للبلغار، واسترداد تركيا لها، فلذلك قال شوقي: خفت الأذان من أدرنة، فما فيها موحد يسعى ولا جمعة تُقام... إلخ.

وبعد ثلاثة أو أربعة أشهر من قول شوقي هذا، كنت أنا أقول في قصيدتي الميمية التي تقدّم بعضها:

لدار بني عثمان سورًا ومِعصما
وأما علينا ما أعزّ وأكرما
بأهلك من أهل البسيطة أرحما
أصاروا إلى تلك الجنان جهنما
وأبعذت في وادي الضلالة مزعما
رجالاً غدوا عمّا تكيدون نوما

(أدرنة) يا أمّ الحصون ومن غدت
فديتُك ربعًا ما أبرّ بأهله
عمرناك أحقبا طوالاً فلم نزل
فلما أتاك المصلحون بزعمهم
ألا قلّ لفردينان أسرفت عاديًا
وهاجمت والأحلاف غدرا وغيلة

وذلك، أن الدول البلقانية الأربع، اتحدت على قتال الدولة العثمانية تحت كفالة قيصر الروس، وتأمرت بجميع ما بقي من الملك العثماني في أوروبا. والأتراك غافلون عمّا يكيد لهم البلقانيون، مشغولون بالشقاق بعضهم مع بعض. ولما فاجأ البلقانيون تركيا بالحرب، كانت قد صرفت جيشًا عظيمًا لها في الروملي إلى أوطانه، ممّا يدلّ أعظم دلالة على الغفلة التي كانت فيها. ثم أقول:

رجالاً مضى بعضٌ ببعضٍ تشاجرًا
تعرض هذا الملك منكم ومنهمو
فكان قضاء الله فيهم مُحْتَمًا
لسهمين كلٍّ منهما انقضَّ أسهُما
ثمَّ يقول عن استرداد أدرنة، عند ما زحف إليها القائد عَزَّتْ باشا، وطرده البلغار منها:
(أدرنتنا) لو كان للصخر ألسُنٌ
فما من فتى إلا وأجهشَ بالبُكا
ولا غادةٌ إلا وكفكفَ دمعها
ولا منبرٌ إلا وأورقَ بهجةً
وقرَّت عيون المصطفى في ضريحه
وهناه في الفردوس عيسى بن مَرِّما

ولمَّا ذهبنا إلى (أدرنة) كما سبق الكلام عليه، شهدنا صلاة الجمعة في جامع السلطان سليم، وهو من الجوامع الكبرى في العالم الإسلامي، لا ينقص جلالته عن السليمانية، والفاخر والسلطان أحمد وغيرها من الآستانة، وازدحم الجمع في تلك الجمعة لما بلغ أهل أدرنة مجيء وفد عربي يهتئهم بالرجوع إلى الدولة. وكنا قد استصحبنا من استانبول صديقنا الأستاذ الشيخ أحمد الفقيه، من علماء مكة المكرمة، ومن أفصح الناس لسانًا، وأشجاهم صوتًا، وكان في القديم إمامًا للشريف عون الرفيق، أمير مكة. فالشيخ أحمد الفقيه، رحمه الله، خطبَ في تلك الجمعة على منبر جامع السلطان سليم، واستنزل العَبْرَات في خطبته المؤثرة، وكان للناس في أربع زوايا الجامع نشيج وشهيق من ذكرى الفجائع التي حلت بالإسلام، وخروج ذلك البلد من يد الدولة، ثمَّ من ذكرى استرداد الدولة له، وتبدُّل ذلك المأتم عرسًا، وذلك الخوف أمنًا، وتلك الوحشة أنسًا. وإلى هذا، وإلى جيش عَزَّتْ باشا، أُشير بقولي:

تعجلتمو منا ثغورًا شواغِرًا
فهلا وقد جاء الخميسُ عَرَمَرَمًا

أي أنكم هاجمتم ثغورنا على غرّة، والجيش الذي كان مرابطًا فيها، قد صرفته الدولة إلى أوطانه، وصارت ثغورها عورة عند ذلك، فما أمكن استدعاؤه تحت السلاح من جديد حتى كتمت قد أوغلتم في البلاد وأصبح التلافي صعبًا. فأما الآن وقد زحف إليكم الجيش على أهبة وعلى تعبئة، فلماذا لا تنهدون إليه؟

(١) رجعه وأرجعه: رده.

(٢) حَمَمَة الجياد: صوتها عندما تطلب العلف، وهو دون الصهيل.

خميسٌ إذا النياتُ صحَّت رأيته
تأملُ أهاضيبَ الجبال وقد رَسَتْ
تضيءُ نواحيه بغرّة عِزّةٍ
يليه من الأبطال كلُّ غضنفرٍ
تراهم ليوثًا في الوغى وضياعًا
ثمّ أقول في حالة أهل أدرنة بعد استردادها:

يُخَيِّم مَعَهُ نصرُهُ حيثُ خَيِّمًا
وحدّثُ عن البحر المحيظِ وقد طمى
مشيِّع ما تحت الضلوع غَشْمَشْمَا^(١)
إذا عبسَ الموتُ الزوامُ تبسّمًا
وفي أفقِ الناديِ بُدورًا وأنجمًا

فيا لك من يوم غدا في خطوبنا
وكانت بقايا السيف تبكي فأصبحت
عسى كلّ يوم بعد يوم أدرنةٍ
وليسَ على المولى عزيزٌ بأن نرى

كشادخة غرّاء في وجه أذهما
تُضاحِكُكُمْ طُرًّا ملائكةُ السما
يعود على الإسلام عيدًا وموسمًا
هناّ محاذك العزاء المُقدّمًا

وهذا الشطر الأخير تضمين لبيت قديم من قصيدة أظنها لأبن نباتة^(٢)، يُهنئ فيها ملكًا تولى العرش بعد أبيه. ولقد كان في الواقع استرداد أدرنة بعد تلك الكائنة البلقانية الفجيعة، أشبه بغرّة بيضاء في وجه جوادٍ أدهم. وأذكر أنني كنت دخلت أنا والمرحوم محمّد باشا الشريعي، على السلطان محمّد رشاد، رحمه الله، وكان وقتئذٍ في قصر يلدز، فبعد أن جلسنا في حضرته أظهر التألم من الحوادث التي قضت بهزيمة الدولة في حرب البلقان، ثمّ تبسّم وقال: "لكن أدرنة استرداد يله متسلي أولدق"، أي أننا مع هذا قد تسلّينا باسترداد أدرنة.

قصيدة شوقي في الانقلاب العثماني

ومن قصائد شوقي التي سارت بها الرُكبان، منظومته في الانقلاب العثماني وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني، قال فيها:
سَلْ يَلْدِزًا ذاتَ القصورِ
هل جاءها نبأ البدورِ؟

(١) الغَشْمَشْم: الشجاع العنيد، ويريد به "أحمد عزت باشا قائد الجيش".
(٢) ابن نباتة السعدي، (٩٣٨ - ١٠١٥). شاعر كبير، مدح سيف الدولة الحمداني.

يَلْدِرُ معناه بالتركية النجم، وكان اسم القصر الذي يقيم به السلطان عبد الحميد، وهو على رابية مشرفة على البوسفور؛ وشوقي يريد أن يقول إن هذا النجم جاءته نوبة الأفل كالبدر الذي يطلع ثم يغيب:

لَو تَسْتَطِيعُ إِجَابَةً	لَبَكَّتَكَ بِالدمعِ الغزيرِ
أخنى عليها ما أنا	خ على الخورنق والسدير ^(١)
ودها الجزيرة ^(٢) بعد إس	حاعيل والملك الكبيرِ
ذهب الجميع فلا القصور	ر تُرى ولا أهل القصورِ
فلك يدورُ سعوذُه	ونحوسُه بيدِ المديرِ
أين الأوانسُ في ذرا	ها من ملائكةٍ وحورِ
المُترعاتُ من النعي	م الراويات من السرورِ
العائراتُ من الدلا	لِ الناهضاتُ من الغرورِ
الأمراتُ على الوُلا	ةِ الناهضتُ على الصدورِ

الصدور جمع صدر، وكان يقال لكبير وزراء السلطنة العثمانية "الصدر الأعظم"، وفي هذا البيت مبالغة بلا شك، لأن جوارى القصر السلطاني، لا سيما حظايا السلطان كان لهن نفوذ الكلمة في العصر القديمة، لا في الزمن الأخير، ولكن شوقي قال هذا لطلاوة الشعر، ثم يقول:

الناعماتُ الطيبا ت العرفِ أمثالُ الزهورِ

يلاحظ هنا أن الزهر لا يُجمع على الزهور، بل على الأزهار، وجمع الجمع الأزاهر^(٣)، ولكن قد توجد هذه اللفظة في كتابات المُحدثين:

الذاهلاتُ عن الزما	نِ بنشوة العيشِ النضيرِ
من كلِّ بلقيس ^(٤) على	كرسيِّ عزَّتْها الوثيرِ

(١) الخورنق والسدير من قصور المناذرة بالحيرة.

(٢) يريد بالجزيرة القصر، الذي يقيم به الخديوي اسماعيل بمصر.

(٣) يأخذ الأمير شكيب أرسلان، في حسبانته، أن لفظ "زهر وزهور" هو لفظ دخيل على العربية، فلا يتشدّد في قياسه جمعه، وعربيه: ربحان ورياحين.

(٤) بلقيس: ملكة سبأ من أرض اليمن.

أمضى نفودًا من زُبَيْدَةَ^(١) في الإمارة والأمير
بين الرفارف والمشأ
رف والزخارف والحري
والروض في حجم الدنا
والبحر في حجم الغدير^(٢)
والدرُّ مُؤْتَلِقُ السَّنا
والمسك فياح العبير
ك وفوق غارات المغير
في مسكن فوق السُّما
والخيل والجَمُّ الغفير
بين المعازل والقنا
ل نهاية النجم المغير
سموه يلدز والأفو

ويلاحظ هنا على قوله "المغير" إن كانت بمعنى الآفل، فصوابه الغائر، يقال غارت الشمس غيارًا وغُورًا أي غربت؛ ولعلّ شوقي أراد بقوله "المغير" أي المُسرِع، فلا غبار على البيت حينئذٍ.

دارت عليهنّ الدوا
أمسينَ في رِقّ العبيد
تُرُّ في المَخادعِ والخُدورِ
ما ينتهينَ من الصلا
مدِ وبتنَ في أسرِ العشيرِ
يطلبنَ نصرةَ ربهنَّ
ة ضراعةً ومن النذورِ
صَبَغَ السواد حيرهنَّ
وربهنَّ^(٣) بلا نصيرِ
أنا إن عجزت فإنّ في
وكان من يقق الحُبورِ
بُردي أشعر من جريرِ

مضى الشاعر هنا على طريقته في الفخر، وهو مثل قوله:

إنّ الذي قد ردّها وأعادها
في بُردتِك أعاد في البُحُري

ثمّ قال:

خَطَبُ الإمام على النظيرِ
عِظَةُ الملوِكِ وعِبرَةُ الأ
م يعزّ شرحًا والنشيرِ
يام في الزمنِ الأخيرِ

(١) زبيدة: زوجة هارون الرشيد.

(٢) وذلك، أن البوسفور يضيق حتى كأنه بعض الأنهر.

(٣) ربهنّ: الأول هو الله، والثاني هو السلطان.

صَعَّ فِي الْفَوَادِ وَفِي الضَّمِيرِ

وَاللَّهُ يَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ

شَيْخِ الْمَلُوكِ وَإِنْ تَصَعَّدَ

نَسْتَغْفِرُ الْمَوْلَى لَهُ

في كتاب الله (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا، يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) في سورة المائدة. وفي سورة الشورى (أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ).

أَوْلَى بِبَاكِ أَوْ عَذِيرِ

بَيْنَ الشَّمَاتَةِ وَالنَّكِيرِ

فِي يَدِ الْمَلِكِ الْغَفُورِ

لَ وَلسَنَ بِالْحُكْمِ الْقَصِيرِ

لَكَ فِي الْكَبِيرِ وَفِي الصَّغِيرِ

وَنَرَاهُ عِنْدَ مُصَابِهِ

وَنَصُونُهُ وَنُجِّلُهُ

عَبْدَ الْحَمِيدِ حَسَابُ مِثْلِكَ

سُدَّتِ الثَّلَاثِينَ الطَّوَا

تَنْهَى وَتَأْمُرُ مَا بَدَا

يريد أن يقول، إنه كان أمرًا ناهيًا، على الكبير والصغير من رعيته، وفي الكبير والصغير من شؤون المملكة.

عَدُّ الْكَوَاكِبِ مِنْ مُشِيرِ

لَا تَسْتَشِيرُ وَفِي الْحِمَى

يقول: كنت مستبدًا برأيك، لا تقبل عليك مشيرًا، مع أنه كان عندك وزراء، ممّن لهم رتبة مشير، لا يأخذهم العدّ. وفي هذا شيء من المبالغة، لأنّ عبد الحميد طالما استشار وأخذ برأي أعيوانه، وإنّما كان يفترق عن غيره من الملوك الدستوريين، بكونه لا يتقيّد بإشارة أحد منهم.

حِ وَاللَّهُوكِ لَدَى الْبُكُورِ

كَسَجُودِ مَوْسَى فِي الْحُضُورِ

بِالذَّلِّ أَقْوَامَ الظُّهُورِ^(١)

ر وَكُنْتَ دَاهِيَةَ الْأُمُورِ؟

كَمْ سَبَّحُوا لَكَ فِي الرُّوَا

وَرَأَيْتَهُمْ لَكَ سُجَّدًا

خَفَضُوا الرُّؤُوسَ وَوَتَّرُوا

مَاذَا دَهَاكَ مِنَ الْأُمُورِ

★ (دهاك) بمعنى أصابك، وأما (داهية) فمعناها باقعة، وفي البيت جناس بين دهاك وداهية. كما أنّ البيت، الذي مرّ قبل هذا بثلاثة أبيات، جناسًا معنويًا بين (تستشير) (ومشير).

(١) أي كانوا ينحنون أمامك حتى تصير ظهورهم كالأقواس من الانحناء، وإنّما كان وترها الخضوع لك.

ثم قال:

ما كنت إن حدثت وجد
أين الروية وأنا
إن القضاء إذا رمى
ت بالجزوع ولا العثور
ة وحكمة الشيخ الخبير؟
دك القواعد من تبير

الثيران، بالثنية، جبلان مفترقان، يصبّ بينهما أفاعية، وهو وادٍ يصبّ من منى، يقال لأحدهما ثبير «غينا»، وللآخر ثبير الأعرج. وقالوا ثبير جبل بمكة بينها وبين عرفة، سُمِّيَ ثبيراً برجل من هذيل، مات في ذلك الجبل فسُمِّيَ به. وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا الإفاضة يقولون: أشرق ثبير كي ما نغير. فإنهم كانوا إذا أشرقت الشمس من ناحية ثبير، أغاروا إلى النحر أي أسرعوا. وبمكة أثيرة غير هذا، منها: ثبير الزنج، وثير الخضراء، وثير النصب، وهو جبل المزدلفة وثير الأحذب. واشتقاق اللفظة هو من (ثبره عن الأمر) يثيره، بالضم، ثبراً إذا احتبسه. قيل إن ثبيراً سُمِّيَ ثبيراً، لأنه يوارى حراء. ثم قال:

دخلوا السرير عليك يح
أعظم بهم من أسري
قالوا اعتزل قلت اعتزل
صبروا لدولتك السني
أوذيت من دستورهم
وغضبت كالمنصور أو
صنّوا بضائع حقهم
هلاً احتفظت به احتفا
هو حلية الملك الرشيد
وبه يبارك في المما
تكمون في ربّ السرير
ن وبالخليفة من أسير
ت الحكم للملك القدير
ن وما صبرت سوى شهر^(١)
وحننت للحكم العسير
هارون في خالي العصور^(٢)
وضننت بالدنيا الغرور
ظاً مرحّب فرح قدير
د وعصمة الملك الغرير
لك والملوك على الدهور

(١) أي أنهم صبروا على حكمك المطلق ثلاثين سنة، وبعد أن أجبروك على إعلان الشورى لم تصبر أنت عليها سوى بضعة أشهر، حتى حاولت أن تقوضها.

(٢) أي أردت أن تستبد، استبداد أبي جعفر المنصور، أو حفيده هارون الرشيد، ولكن هذا الوقت، غير ذلك الوقت.

قال إنهم حرصوا على حق الرعية الضائع، وحرصت أنت على تحكيم إرادتك، وليس هذا بحق، ولقد كنت تحسن لو تلقيت الدستور بصدرٍ رحبٍ وعينٍ قرّة، فإنّ الدستور للملك العاقل الرشيد حلية، وللملك الذي لا يملك التدبير عصمة ووقاية، والدستور بركة على الممالك والملوك، ما دام قائماً. ثمّ خاطب الجيش العثماني الذي خلع عبد الحميد، فقال:

يا أيُّها الجيشُ الذي	لا بالدعيّ ولا الفخورِ
يخفى فإن ربيع الحمى	لفت البريّة بالظهورِ
كاللّيث يُسرف في الفعا	لِ وليس يُسرف في الزئيرِ

يقول إنّ الجيش العثماني يخفى بعدم تدخّله في السياسة وإدارة الملك، حتّى إذا ربيع حمى الملك بشيء من النوازل، وثب وظهر بكلّ قوته، فهو كثير الفعل قليل الضوضاء. وهذان البيتان هما من أبداع ما قال شوقي، ولكته مع الأسف قد بدأ منذ خلع هذا الجيش للسلطان عبد الحميد، يتعرّض للسياسة وللإدارة، ودخول الجيوش في سياسة الممالك طالما كان قاصماً لظهورها. ولم يكن انهزام هذا الجيش العثماني في الحرب البلقانية خالياً من هذا السبب. قال:

يتلو الزمانُ صحيفةً	غراءً مُذهبةً ^(١) السطورِ
في مدح (أنورك) الجري	ءِ وفي (نيازيك) الجسورِ

«أنور» كان ضابطاً صغيراً، عندما ثار بشرذمة من العسكر في بلاد الروملي، يطلب إعادة الدستور، وكذلك «نيازي» الذي ثار مثله في بلاد الأرناؤوط، فطار صيتهما في ذلك الوقت، وما زال أحدهما أنور يرقى حتّى صار ناظراً للحربية العثمانية.

يا (شوكت) الإسلام بل	يا فاتح البلد العسيرِ
وابن الأكارم من بني	(عمر) الكريم على (البشير)
القابضين على الصليب	ل كجدهم وعلى الصريرِ
هل كان جدك في ردا	ثك يوم زحفك والكرورِ
فقنصت صياد الأسو	دِ وصدت قناص النورِ
وأخذت يلدز عنوة	وملكت عنقاء الثغورِ

(١) مُذَمَّبة: تخفيف مُذَمَّبة.

كان شائعاً يوم جرت هذه الحادثة، أن محمود شوكت باشا، الذي قاد الجيش المُسمّى بجيش الحركة، الذي زحف من سلانيك إلى استانبول، وخالعَ السلطان عبد الحميد هو، من ذرية الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وليس ذلك بصحيح، فمحمود شوكت باشا هو من عائلة كرجية الأصل، استوطنت بغداد وصارت من بيوتات الوجاهة فيها، ويقال إنَّ بينها وبين آل العمري في الموصل مصاهرة، فإن كان محمود شوكت باشا، يُمْت إلى عمر، رضي الله عنه، بنسب فيكون من جهة الأمهات لا الآباء. وأما قوله: (عمر الكريم على البشير) فمعناه أنه العزيز على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنَّ البشير من أسمائه.

ولأخي نسيب، رحمه الله، في دخول جيش الحركة إلى استانبول زحفاً من سلانيك، تحت قيادة محمود شوكت باشا، قصيدة رثاءة أملاها عليه التأثر بما كنا فجعنا به، من استشهاد ابن عمنا، الأمير محمد المصطفى أرسلان، الذي كان أحد نواب الأمة، ورئيساً للجنة الأمور الخارجية في مجلس النواب؛ وكان الحزب الحميدي قد ثار على الحكومة غيظاً بجمعيّة «الاتحاد والترقي» التي كانت قوام الحكومة، حينئذٍ، وخذعوا العساكر وساقوها إلى ساحة أياصوفية، حيث أرادوا الفتك بالنواب، ولكنهم بعد أن فتكوا بالأمير محمد أرسلان وناظم باشا، ناظر العدلية، وقع فيهم الرعب، وبلغهم أن عساكر أخرى من أنصار الدستور آتية للاقتصاص منهم، ففترقوا، ولكن فتكوا بكثيرين من أنصار الدستور، وانتدب السلطان عبد الحميد، توفيق باشا صدرًا أعظم، مكان حسين حلمي باشا، الصدر الذي وقعت عليه الثورة، وتوارى عن الأنظار.

ولما بلغ الاتحاديين، الذين كان مركز جمعيتهم سلانيك، ما وقع في الأستانة قرروا الزحف إلى الأستانة بجيش سلانيك، وانضم إليه جيش أدرنة. ونشر محمود شوكت باشا بياناً للأمة العثمانية عن الأسباب التي حملت على هذه الحركة، وهي أن الرجعيين ثاروا في العاصمة ونادوا بسقوط الحكومة الدستورية، وتجمعت العساكر التي أثاروها في ساحة مجلس النواب، أو (المبعوثين) وقرروا الفتك بهم، واستشهد بأيديهم الأئمة مبعوث الأمة، محمد أرسلان بك، وناظر العدلية، ناظم باشا، ولذلك يزحف جيش الحرية لإعادة الدستور وتوطيده والاقتصاص من الجناة.

ثم دخل الجيش، ولم تحصل له مقاومة إلا أمام بعض الثكن العسكرية، لأنَّ السلطان خشي عاقبة الحرب الداخلية. وكان توفيق باشا، الصدر الجديد، أشار عليه بعدم المقاومة،

تخفيفاً للشر؛ فلما استولى جيش الحرّية على العاصمة، أُنفذ الاتّحاديون أنور بك، ومعه جماعة، فأبلغوا السلطان وجوب التخلّي عن الملك، فلم يسعه إلاّ الطاعة، فأرسلوه إلى سلانيك حيث تخصّص له قصر أقام به إلى ما قبل الحرب البلقانية بقليل، فردّوه إلى الأستانة وأنزلوه بقصر "بكلربك"، حيث مات سنة ١٩١٧.

أما قصيدة أخي في محمود شوكت باشا^(١)، فهي هذه:

محمود شوكت ما خشيت فروقا	حتى مهدت من الصواب طريقا
سقيًا لهمتك التي قد شاكت	يوم المغار من الرياح خريقا ^(٢)
يا من تداركت الخلافة بعدما	أمسى بها الخطرُ الأجلُ حقيقا
إسمع لقمريّ المديح وقد غدا	غصنُ النجاح بجانبك وريا
بك قد أراد الله أن يمحو البلا	ويلمّ شملَ الدولةِ المفروقا
ما إن أتاح من الظلام دجينة	حتى أتاح من الهلالِ شروقا

ومنها:

لك عند أمتك التي أنقذتها	فضل يطوق جيدها تطويقا
أنحى عليها الخائنون بكيدهم	فرددت سهم أذاهم المرشوقا
أنفوا من الشورى وطاب لديهم	قتل الكرام دعارة وفسوقا
خفقت قلوب الظالمين بقدر ما	شهدوا لمنصور اللواء خفوقا
سدروا ^(٣) فما أبقى التحيرُ السنّا	منهم ولا أبقى التخوفُ سوقا
تلقاهم صفر الوجوه كأنهم	دهنوا المحاجرَ والجباه خلوقا ^(٤)

ومنها:

أمطرت من ديم المنايا بعدما	قدمت من لمع السيوف بروقا
لما أهنت القصر في شرفاته	أكرمت بيتا في الحجاز عتيقا

(١) هو الأخ الأكبر للأمير شكيب، الأمير نسيب أرسلان (١٨٦٨ - ١٩٢٧).

(٢) خريق الرياح: عصفها.

(٣) سدروا: تحيروا.

(٤) الخلق: نوع من الطيب يغلب عليه الزعفران الأصفر.

سبحان من ترك العزيز رقيقا	بات المتوجُّ في إسارك عنوة
فغدا تناغيها لديك شهيقا	وذعرت سرب الغيد في أكتانها
ما شارفت نكدًا ولا ترنيقا ^(١)	من للحسان وقد تميسُ بنعمة
مما دهاها البين والتفريقا	جزعت على الدنيا عشية آتت
بدم يرُدُّ الياسمين شقيقا	ورأت أزهارها يبلدز خضبت

إن شوقي وإن كان أودع خطابه للسلطان عبد الحميد، ما أودعه من اللوم في القلب الجميل، لم ينسَ ولاه للخليفة السابق طالما تغنى بمدائح، فلهذا أشار بوجوب توقيره، وحفظ كرامته، وتذكُّر إمامته، والإغضاء عن سيئاته، متروكا حسابا إلى الله الذي سيفصل فيه. وما زال شوقي يوصي بالسلطان عبد الحميد في شخصه إلى الآخر، ولكن شوقي لم يكن يهّمه السلطان عبد الحميد لأجل شخصه، بل لأجل منصب الخلافة الذي كان يتقلده، وهو منصب تهوي إليه أفئدة جميع المسلمين. وهذا المنصب لا يزول بزوال عبد الحميد، بل قد شغله الآن أخوه، السلطان محمد رشاد، الذي بويع سلطانا وخليفة بأسم محمد الخامس. فالشاعر الإسلامي الأمين، عملاً بمبدأه الذي لا يحيد عنه، يودّع السلف ويحيي الخلف، لأن الخلافة يجب أن تبقى. وهو يهدي إلى الخليفة الجديد، سلام أهل مصر، الذين بايعوه في من بايعه من الأمة الإسلامية، فيقول:

المؤمنون بمصرَ يُهـ	مدون السلام إلى الأمير
ويبايعونك يا محمَّ	د في الضمائر والصدور
قد أمّلو لهلالهم	حظَّ الأهلة في المسير
فابلغ به أوج الكما	ل بقوة الله النصير
أنتَ الكبيرُ يُقلِّدو	نك سيفَ (عثمان) الكبير
شيخ الغزاة الفاتح	ين حسامه شيخُ الذكور

يُهنئ السلطان محمداً الخامس بتقليده سيف آل عثمان. ومن عادة هذا البيت الكريم أنهم عند مبايعة السلطان يُقلِّدونه سيف جدّه عثمان، وذلك في حفلة عظيمة تُقام في مقام الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، المدفون كما لا يخفى في آخر خليج

(١) رنق الماء: كذّر.

إستانبول. ويكون الذي يُقلد السلطان هذا السيف، شيخ الطريقة المولوية المنسوبة إلى مولانا جلال الدين الرومي، يستدعونه من قونية إلى الآستانة، ليقوم بهذا التقليد. وهي عادة قديمة، ولم يريدوا أن يُغيروها طول الدهر، حتى تولّى السلطان محمد وحيد الدين، الملقّب بمحمد السادس، وهو السلطان الأخير من بني عثمان. فلما جرت حفلة تقليد السيف في مقام أبي أيوب الأنصاري، وذلك في السنة الأخيرة من الحرب العامة. كان المجاهد الكبير، السيّد أحمد الشريف السنوسي، قد قدّم بغواصة من طرابلس الغرب إلى الآستانة، فأثر السلطان أن يجعل تقليده سيف آل عثمان من يد السيّد السنوسي، رضي الله عنه.

ثمّ يقول:

م العادل النزّه الجدير	بشرى الخلافة بالإما
بإسلام من حُفِر القبور	الباعث الدستور في ال
وبعثته قبل النشور	أودى معاويةً به
نورٌ تلاً فوق نُور	فعلى الخلافة منكما

يقول شوقي لمحمد الخامس: إنَّ الحكم المقيد قد بُعثَ في أيامك، بعد أن كان الخليفة معاوية ابن أبي سُفيان قد طوى بساطه، فأنت نشرته من جديد وأنشأته استئنافاً. يشير إلى أنَّ الحكم الشوري لم يستبب إلا مدة الرسول، عليه السلام، وخلفائه الراشدين الأربعة، رضي الله عنهم. وبعد ذلك جاء معاوية، فحوّل الخلافة إلى ملك عُضوض^(١)، وجعلها بالإرث لا بالانتخاب. والله وارث الأرض ومن عليها.

قصيدة لشوقي في النسيب، ومعارضتها لأخي نسيب

هذا، ومن قصائد شوقي في النسيب، قوله:

مُضْنَاكَ جَفَاءُ مَرَقْدُهُ	وَبَكَاهُ وَرَحَّمَ عُوْدُهُ
حَيْرَانُ الْقَلْبِ مُعَذِّبُهُ	مَقْرُوحُ الْجَفْنِ مُسَهِّدُهُ
أُودَى حَرَقًا إِلَّا رَمَقًا	يُبْقِيهِ عَلَيْكَ وَتُنْفِدُهُ
يَسْتَهْوِي الْوُرُقَ تَأْوَهُهُ	وَيُذِيبُ الصَّخَرَ تَنْهَدُهُ

(١) تقول: هو عُضُّ مُلْكٍ: أي شديد القيام عليه؛ وتُجمع على عُضُوض.

وِينَاجِي النِّجْمَ وَيُتَعَبُهُ
وَيُعَلِّمُ كُلَّ مُطَوَّقَةٍ
كَمْ مَدَّ لَطِيفِكَ مِنْ شَرِّكَ
فَعَسَاكَ بَغْمُضٍ مُسْعِفُهُ
الْحَسَنُ حَلَفْتُ بِيُوسُفِهِ
قَدْ وَدَّ جَمَالَكَ أَوْ قَبَسَا
وَتَمَنَّتْ كُلُّ مَقْطُوعَةٍ
جَحَدَاتُ عَيْنِكَ زَكِيَّ دَمِي
قَدْ عَزَّ شُهُودِي إِذْ رَمَتَا
وَهَمَمْتُ بِجَيْدِكَ أُشْرِكُهُ
وَهَزَزْتُ قَوَامِكَ أَعْطِفُهُ
سَبَبٌ لِرِضَاكَ أَمْهَدُهُ
بَيْنِي فِي الْحَبِّ وَبَيْنَكَ مَا
مَا بَانَ الْعَاذِلُ يَفْتَحُ لِي
وَيَقُولُ تَكَادُ تُجَنُّ بِهِ
مَوْلَايَ وَرُوحِي فِي يَدِهِ
نَاقُوسُ الْقَلْبِ يَدُقُّ لَهُ
قَسَمًا بِثَنَائِيَا لَوْلَاهَا
وَرِضَابٍ يُوَعِدُ كَوَثْرَهُ
وَبِخَالٍ كَادَ يَحُجُّ لَهُ
وَقَوَامٍ يَرُوي الغِصْنَ لَهُ
وَبِخَصْرٍ أَوْهَنُ مِنْ جَلْدِي
مَا خَنْتُ هَوَاكَ وَلَا خَطَرْتُ

وَيُقِيمُ اللَّيْلَ وَيُقَعِدُهُ
شَجْنَا فِي الدَّوْحِ تُرَدُّهُ
وَتَأَدَّبَ لَا يَتَصَيَّدُهُ
وَلَعَلَّ خِيَالَكَ مُسْعِدُهُ
وَالسُّورَةُ أَنْتَكَ مُفْرَدُهُ
حَوْرَاءُ الْخُلْدِ وَأَمْرَدُهُ
يَدَاهَا لَوْ تُبَعَثُ تَشْهَدُهُ^(١)
أَكْذَلِكْ خَدُّكَ يَجْحَدُهُ
فَأَشْرْتُ لَخَدُّكَ أَشْهَدُهُ
فَأَبَى وَاسْتَكْبَرَ أَصِيدُهُ
فَنَبَا وَتَمَنَّعَ أَمْلَدُهُ
مَا بَالُ الْخَصْرِ يُعَقِّدُهُ
لَا يَقْدِرُ وَاشِ يُفْسِدُهُ
بَابُ السُّلْوَانِ وَأَوْصِدُهُ
فَأَقُولُ وَأَوْشِكُ أَعْبُدُهُ
قَدْ ضَيَّعَهَا سَلِمْتُ يَدُهُ
وَحَنَائِيَا الْأَضْلَعُ مَعْبُدُهُ
قَسَمُ الْيَاقُوتِ مُنْضِدُهُ
مَقْتُولُ الْعَشْقِ وَمُشْهَدُهُ
لَوْ كَانَ يُقْبَلُ أَسْوَدُهُ
نَسَبًا وَالرَّمْحُ يُفْنِدُهُ
وَعَوَادِي الْهَجْرِ تُبَدِّدُهُ
سَلَوِي بِالْقَلْبِ تُبَرِّدُهُ

(١) أي صواحيبات امرأة العزيز اللواتي قطعن أيديهن، لما رأين يوسف.

وقد عارضها أخي نسيب بهذه القصيدة، التي أحببت أن أعرضها للقراء في جانب

قصيدة شوقي، وهي هذه:

هل أنت بعطفك مُنجدهُ	مُضناك عصاهُ تجلدهُ
أحناء الأضلع موقدهُ	منهوك الجسم به كمدُ
ووميضُ البرق يُسهدهُ	ترجيع الورق يهيجه
أحشاهُ لعز تردهُ	وله نفس لو ما خفتُ
دنف يتهامس عودهُ	إن تهجره فعزاوك في
قد زود نورك فرقدهُ	لا يسري طيفك في غلسِ
يستبكي الصخر توجدهُ	ما حال فؤادي في شغفِ
ويروح الخد يُخدهُ	إذ يغدو الصدغ يُصدعهُ
فيقوم الفرع يُصفدهُ ^(١)	ويكّر الطرف فيأسرهُ
لولا الآمالُ تكمدهُ	والصدُّ له جرحٌ جللُ
يُشقيه الحبُّ ويسعدهُ	أفدي مولاي فكلّ فتى
فوزاً يتقطع حسدهُ	كم فزت بمراى طلعته
سُكراً ما فاه مُعربدهُ	وسكرتُ براح شمائله
أترى شكواي تُؤودهُ	غصنٌ أغرتني رفتهُ
يهوى الأغصان مُغردهُ	والشعر صُداحٌ في وله

أقول: ما يُخالج نفسي عند قراءة هذا الشعر، سواء المعارض أو المعارض، وهو أنه ليس فيه كبير أمر، وأنّ هناك صنعة تعمدها الشاعران اللذان قيدهما هذا الوزن، فأصبحا له أسيرين يُسخران له المعاني ويجران القوافي. ولا جرم، أنّ الوزن والقافية طالما حكما على الشاعر، وسلباه حرية التصرف في إبراز معانيه كيف شاء، ولهذا كان أطول الشعراء باعاً وأعلامهم درجة من تراه حراً وهو مقيد. ولكن بحراً كهذا الذي نظماً عليه، وإن كان مُرقصاً، يُعجب القارئ بمقاطعه ويلدّ بحبه، ترى الشاعر فيه راسفاً في قيد ثقيل، يمنعه أن يجري جريه المعتاد.

(١) يصفده: يجعله في الأصفاد، وهي سلاسل القيود.

قصيدة شوقي في شكسبير

ولشوقي قصيدة في شكسبير، بالغ في مدح عظمة الإنكليز، فقال:

أعلى الممالك ما كرسيه الماء	وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة (المنش) حلاكم أبوتكم	ما لم يطوق به الأبناء آباء
ملك يطاول ملك عزته	في الغرب باذخة في الشرق قعاء
تاوي الحقيقة منه والحقوق إلى	ركن بناء من الأخلاق بناء
أعلاه بالنظر العالي ونطقه	بحائط الرأي أشياخ أجلاء
وحاطه بالقنا فتیان مملكة	في السلم زهر ربي في الروع أرزاء
يُستصرخون ويرجي فضل نجاتهم	كانهم عرب في الدهر عرباء
ودولة لا يراها الظن من سعة	ولا وراء مداها فيه علياء
عصماء لا سبب الرحمن مُطرح	فيها ولا رحم الإنسان قطعاء
تلك الجزائر كانت تحتهم ركنًا	وراءهن لباعي الصيد عنقاء
وكان ودهم الصافي ونصرتهم	للمسلمين وراعيهم كما شاءوا

لا نزاع في عظمة الإنكليز المادية، وفي كثير من عظمتهم المعنوية، وإن كانت هذه قد غدت تتضاءل في نظر الناس شيئًا فشيئًا، وصار ثوبها يشف عما تحته. وعلى كل حال، فقد أصاب شوقي بتقيد ود الإنكليز الصافي للمسلمين بفعل "كان"، إذ أننا إذا نظرنا إلى العصر الأخير، لا نجد لهذا الود أثرًا يستحق أن ينوه به. ثم قال في شكسبير:

ما أنجبت مثل شكسبير حاضرة	ولا نمت من كريم الطير غناء
نالت به وحده إنكلترا شرقًا	ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاء

كان كارليل يقول: إن شكسبير أفضل عندنا من الهند.

لم تكشف النفس لولاه ولا بليت ^(١)	لها سرائر لا تحصى وأهواء
شعر من النسق الأعلى يؤيده	من جانب الله إلهام وإيحاء

(١) بليت: امتحنت.

سبق لي كلام نقله المنفلوطي^(١)، وهو أن الشعر، هو من الوحي بمكان الدرجة الثانية من الأولى.

ثم إنه يخاطب شكسبير، فيقول له: قد أفضيت إلينا عن الحياة، بأسرار لم يكشفها حتى الآن شاعر قبلك، فهل تقدر أن تفضي إلينا بشيء عما بعد الحياة؟ فإن السرّ هو هنا.

يا صاحبَ العُصْرِ الخالي ألا خبرٌ
عن عالم الموتِ يرويهِ الألباءُ
أما الحياةُ فأمرٌ قد وصفتَ لنا
فهل لِمَا بعدُ تمثيلٌ وإدناءُ

ثم يسأله عن جمجمته ماذا جرى عليها بعد موته، فيقول:

بمَن أمتك قُلْ لي كيف جمجمةٌ
كانت سماءَ بيانٍ غيرِ مُقلعةٍ^(٢)
فأصبحت كأصيصٍ^(٣) غيرِ مُفتقدٍ
وكيف باتَ لسانٌ لم يدعِ غرضًا
عفا فأمسى ذنابى عقربِ بليّتٍ
وما الذي صنعت أيدي البلى بيدٍ
في كلِّ أنملةٍ منها إذا انبجستُ
وأين تحت الثرى قلبٌ جوانبهُ
تُصغي إلى دَقِّهِ أذنُ البيانِ كما
لئن تمسّى البلى تحت الترابِ به
غبراءُ في ظلماتِ الأرضِ جوفاءُ
شؤبوبها^(٤) عسلِ صافٍ وصهباءُ^(٥)
جَفَّتْهُ ريحانةٌ للشعرِ فيحاءُ
ولم تفتّه من الباغين عوراءُ
وسُمها في عروقِ الظلمِ مَسَاءُ
لها إلى الغيبِ بالأقلامِ إيماءُ
برقٌ ورعدٌ وأرواحٌ وأنواءُ
كأنهنَّ لوادي الحقِّ أرجاءُ
إلى النواقيسِ للرهبانِ إصغاءُ
لا يؤكّلُ الليثُ إلا وهو أشلاءُ

وصفَ جمجمة شكسبير بما لم يصف به شاعر رأس شاعر، وقال إن رأسًا جبارًا كهذا الرأس لا يسطو عليه إلا الثرى الذي يجعله أجزاء، كالليث لا يؤكّل إلا إذا صار أشلاء. ومن

(١) المنفلوطي: هو مصطفى لطفى المنفلوطي (١٨٧٦ - ١٩٢٤)، من مشاهير الكتاب في مصر، درس في الأزهر، وكان مع الأمير شكيب

أرسلان من تلاميذ الشيخ محمد عبده، من مؤلفاته "النظرات" و"العبرات".

(٢) مُقلعة: ذاهبة.

(٣) الشؤببون: الدفعة من المطر.

(٤) الصهباء: الخمر.

(٥) الأصيص: نصف الجرّة يُزرع فيها الرياحين.

أحسن ما ورد في هذه القصيدة ذكره للمدنية العصرية، التي كان ترقى الإنسان فيها بالعلم، سبباً لزيادة تفتنه في ضروب القتل والإفناء. فهو يقول:

يا واصفَ الدمِ يجري ههنا وهنا قُمْ انظرَ الدمَ فهو اليومَ دماءُ

قال: يا شكسبير قد كنت تصف الدم يجري من هنا ومن هناك أشبه بجداول، وتجد ذلك فظيغاً، فقم اليوم وانظر الدم، فإنه ليس بجداول ولا بأنهار، ولكنه دماء، أي بحر عجاج متلاطم بالأمواج، ثم قال:

لاموك في جعلك الإنسان ذئبَ دمٍ واليومَ تبدو لهم من ذاك أشياءُ
وقيلَ أكثرَ ذكَّرَ القتلِ ثمَّ أتوا ما لم تسعهُ خيالاتٌ وأنباءُ
كانوا الذئابَ وكان الجهلُ داءَهُمُ واليومَ علمهم الراقى هو الداءُ

قصيدة شوقي في كتاب حافظ عَوْض عن تاريخ مصر الحديث

ولشوقي أبيات في كتاب "فتح مصر الحديث" للأستاذ الفاضل السياسي المحنك، حافظ بك عَوْض، يبدأ فيها بذكر الصحاب الأمين الذي هو الكتاب. فيقول:

أنا من بدّلَ بالكُتُبِ الصّحَابا لم أجد لي وافيّاً إلاّ الكتابا
صاحبٌ إن عِبْتَهُ أو لم تَعِبْ ليس بالواجد للصاحبِ عابا
صالح الإخوان يبغيك التّقى ورشيدُ الكُتُبِ يبغيك الصوابا

ثمّ اختصّ التاريخ، من بين الكتب بزيادة الإجلال، فقال:

غالِ التاريخِ واجعَلْ صُحْفَهُ من كتابِ الله في الإجلالِ قاباً^(١)
واطْلُبِ الخُلْدَ ورُمُهُ منزلاً تجد الخُلْدَ من التاريخِ بابا
عاشَ خَلْقٌ ومضوا ما نقصوا رُقعة الأرضِ ولا زادوا الترابا
أخذَ التاريخُ ممّا تركوا عملاً أحسنَ أو قولاً أصابا

يقول: كم عاش أمم وأقوام ومضوا، فما قدروا أن ينقصوا الأرض، ولا أن يزيدوها حبة

(١) قابا: قريباً (مطلقاً).

تراب، وإنما تركوا ما حفظه لهم التاريخ لا غير. وهو كما قال الآخر، وهو ابن دريد:

وَأَمَّا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لَمَنْ وَعَى

ثُمَّ يَصِفُ الْقَوْمَ بَدُونَ تَارِيخٍ لَهُمْ، فيقول:

مَثَلُ الْقَوْمِ انْسَا تَارِيخَهُمْ كَلْقِيطِ عِيٍّ فِي النَّاسِ انْتِسَابَا

أَوْ كَمَغْلُوبٍ عَلَى ذَاكِرَةٍ يَشْتَكِي مِنْ صِلَةِ الْمَاضِي انْقِضَابَا^(١)

ثُمَّ يَصِفُ الْعَرَبِيَّةَ الْفَصْحَى، أَيْدَ اللَّهِ سُلْطَانَهَا، فيقول:

إِنَّ لِلْفَصْحَى زَمَامًا وَيَدًا تَجَنَّبُ السَّهْلَ وَتَقْتَادُ الصُّعَابَا

لِغَةِ الذَّكْرِ لِسَانَ الْمَجْتَبَى كَيْفَ تَعْيَا بِالْمُنَادِينَ جَوَابَا

كُلُّ عَصْرِ دَارُهَا إِنْ صَادَفَتْ مَنْزِلًا رَحْبًا وَأَهْلًا وَجَنَابَا

يقول: إن لغة القرآن ولسان المصطفى، عليه السلام، ليست باللغة التي يعيها إجابة من يناديها إلى البيان، عن ضرب من ضروب القول والإعراب عن خالنج، مهما دق، من خوالج النفس، وهي لعمري مليئة بحوائج كل عصر بشرط أن تجد من يحسن الاطلاع على دقائقها والاضطلاع بحقائقها. ثم يذكر كيف كان الأزهر هو الكوكب الوحيد في دجنة أيام الممالك. فيقول: ٣٥٣٥

ظَلَمَاتٍ لَا تَرَى فِي جُنْحِهَا غَيْرَ هَذَا (الْأَزْهَرِ)^(٢) السَّمْحِ شَهَابَا

زَيْدَاتِ الْأَخْلَاقِ فِيهِ حَائِطًا فَاحْتَمَى فِيهَا رَوَاقًا وَقِبَابَا

قَسَمًا لَوْلَاهُ لَمْ يَبْقَ بِهَا رَجُلٌ يَقْرَأُ أَوْ يَدْرِي الْكِتَابَا

ولشوقي وصف للجبرتي^(٣) المؤرخ ينطبق عليه أحسن انطباق، فهو يقول عنه:

صَحْفُ الشَّيْخِ وَيَوْمِيَّاتِهِ كَزَمَانَ الشَّيْخِ سُقْمًا وَاضْطِرَابَا

مِنْ حَوَاشٍ كَجَلِيدٍ لَمْ يَذُبْ وَفُصُولٍ تَشْبَهُ التَّبْرَ الْمَذَابَا

وَالْجَبْرَتِيُّ عَلَى فِطْنَتِهِ مَرَّةً يَغْبَى وَحِينًا يَتَغَابَا

(١) انقباضًا: انقطاعًا.

(٢) الأزهر: مسجد في القاهرة، صار معهدًا يضم عددًا من الكليات، بناه جوهر الصقلي بأمر المعز الفاطمي سنة ٩٧٠م. هو اليوم أهم جامعة إسلامية في العالم.

(٣) الجبرتي، عبد الرحمن (١٧٥٤ - ١٨٢٢). مؤرخ مصري معروف تخرّج في الأزهر، له "عجائب الآثار".

أي أنه يجمع الفطنة والغباوة في نسقٍ واحدٍ، وهو من الأصل فطن، شديد الذكاء، إلا أنه قد يتغابى أحياناً بحسب غرضه.

ثمَّ يذكر أيام مصر في حروبها، فقال إنَّ المصريين فيها، لهم وعليهم. ففي وقعة نصيبين التي يقول لها الأتراك وقعة نذب لبسوا رداء الفخر، وفي وقعة التلّ الكبير، التي على أثرها احتلَّ الإنكليز مصر، التحفوا رداء الدلّ. ثمَّ يذكر وقعة الأهرام، ووصف جيش نابليون. فقال:

شهِدَ (الجيزيُّ)^(١) منهم عصبَةٌ لبسوا الغارَ على الغارِ اعتصابا
كذئاب القفر من طول الوغى واختلافِ النَّعَمِ لونا وإهابا
قَادَهُم للفتح في الأرض فتىً لو تَأَنَّى حَظَّهُ قَادَ السحابا

ثمَّ ذكر عجز المصريين، يوم اقتحم بلادهم بونا برت. فقال:

وبنو الوادي رجالاتُ الحمى وقفوا من ساقَةِ الجيشِ ذنابى
موقفَ العاجز من خلف الوغى يحرسُ الأحمالَ أو يسقي مُصابا

زهرية مرنان لشوقي

هذا، ولما كان شوقي يابى إلا أن يجيد في كلّ لون، من ألوان التأثر بمظاهر الحياة، عالج أيضًا الزهريات، بما يناسبها من شعره نضارة ورونقا، فقال في الربيع:

أذار أقبلَ قَمُ بنا يا صاحِ حيّ الربيعَ حديقةَ الأرواحِ
واجمَع ندامى الظرفِ تحتَ لوائه وانشرِ بساحتهِ بساطَ الراحِ
صفوُّ أتيحَ فخذُ لنفسك قسطها فالصفوُّ ليس على المدى بمُتاحِ
واجلسِ بضاحكةِ الرياضِ مصفِّقًا لتجاوبِ الأوتارِ والأقداحِ
واستأنسننَّ من السُّقاةِ برفقةِ غرِّ كأمثالِ النجومِ صباحِ
واجعلِ صبوحكِ في البكورِ سليلَةً للمنجبين: الكرمِ والتفاحِ

(١) الجيزي: هرم الجزيرة.

ثمَّ يذكر الحَمَام، فيقول:

بِيضُ القلانسِ في سوادِ جلابِبِ
رَتَّلَنَ في أوراقِهِنَّ متلاحِنًا

ثمَّ يقول عن الربيع:

ملكُ النباتِ فكلَّ أرضِ دارُهُ
منشورةٌ أعلامُهُ من أحمرِ
لبستُ لمقدَمِهِ الخمائلُ وشيها
يغشى المنازلَ من لواحِظِ نرجسِ
ورؤوسُ منشورِ خَفَضُنَ لعِزِّهِ
الوردُ في سُرُرِ الغصونِ مفتَحُ
مرَّ النسيمِ بصفحتَيْهِ مقبلاً
هتكَ الردى من حسنه وبهائه
يُنْبِيكَ مصرعُهُ وكلُّ زائلُ
ويقاتقُ^(١) النسرين في أغصانها
والياسمينُ نقيُّه ولطيفُهُ
متألقُ خَلَلُ^(٢) الغصونِ كأنه
والجُلنارُ^(٤) دم على أوراقه
وكانَ محزونَ البنفسجِ ثاكلُ
والسَّروُ في الحِبرِ السوابغِ كاشفُ
والنخلُ ممشوقُ القُدودِ مُعَصَّبُ

حُلَيْنَ بالأطواقِ والأوضاحِ
كالراهباتِ صبيحةِ الإفصاحِ

تلقاه بالأعراسِ والأفراحِ
قانِ وأبيضَ في الربى لَمَاحِ
ومرخنَ في كَنَفِ له وجَناحِ
أنا وأنا من ثُغورِ أقاحِ
تيجانهُنَّ عواطِرَ الأرواحِ
متقابلُ يُثني على الفَتَّاحِ
مرَّ الشِّفاءِ على خدودِ مِلاحِ
بالليل ما نسجتُ يدُ الإصباحِ
إنَّ الحياةَ كغُدوةٍ ورَواحِ
كالدُرِّ رُكَّبَ في صدورِ رماحِ
كسريرةِ المتنزهِ المِسماحِ
في بُلجَةِ الأفنانِ^(٣) ضوءُ صباحِ
قاني الحروفِ كخاتمِ السِّفاحِ
يلقى القضاءَ بخَشيةٍ وصلاحِ
عن ساقِهِ كمليحةِ مِفرَاحِ
متزيّنُ بمناطقِ ووشاحِ

(١) يقاتق: مفردهما يَقَق، وأبيضُ يَقَق: أي شديد البياض.

(٢) خَلَل: خِلال.

(٣) الأفنان: الأغصان المستقيمة.

(٤) الجُلنار: لفظ دخيل على العربية من الفارسية، ويعني: زهر الرمان.

تحت المراوح في نهارٍ ضاحٍ
نُضدَّت عليه بدائعُ الألواحِ
بركَّتْ وأخرى حلَّقَتْ بجَنَاحِ

كبناتِ فرعونَ شهدنَ مَواكبًا
وترى الفضاءَ كحائطٍ من مَرَمَرٍ
الغيمُ فيه كالنَّعامِ بدينةً

إلى أن يقول في وصف السواقي التي ترفع الماء:

رُعنَ الشجِيَّ بأنةٍ ونُواحِ
الباكياتُ بمدمعِ سَحَّاحِ
والماءُ في أحشائها ملُواحِ

وجرتُ سواقٍ كالنوادبِ بالقري
الشاكياتُ وما عرفنَ صبابه
من كلِّ باديةِ الضلوغِ غليلةِ

وما زال الشعراء يصفون أنين السواقي والنواعير، وأشهر هذه في الأنين والبكاء، نواعير مدينة حماة، على وادي العاصي، التي صارت مضرب المثل لارتفاع دواليها التي قد يبلغ الواحد منها ثمانية أمتار، فيكون لها أنين يُسمع إلى مسافة بعيدة. هذا وليس في زهريات الشعراء أجمع، ما يبذل زهرية شوقي هذه، التي قدّمها إلى الكاتب الروائي الشهير (هول كين)، وختمها بخطاب له، يقول فيه:

منها يدُ الكُتَّابِ والشُّراحِ
توراةِ والفرقان^(١) والإصحاح^(٢)
فالقيصرُ فذى الجلالِ (صلاح)

(هول كين) مصرُ روايةٌ لا تنتهي
فيها من البُرديِّ والمزمور^(١) وال
(ومنا) و(قمبيز) إلى إسكندرِ

يريد بصلاح، صلاح الدين الأيوبي، بعد ذكره أعظم من ملكوا مصر، ثم يقول لهذا الكاتب العظيم:

فابعث خيالك يأت بالمفتاحِ

تلك الخلائقُ والدهورُ خزانةُ

قصيدة شوقي في مسجد أياصوفيا

وله في مسجد أياصوفيا:

هديّةُ السيّد للسّيّدِ

كنيسةٌ صارت إلى مسجدِ

(١) المزمور: واحد (المزامير) وهي الأناشيد، وديننا هي الأدعية التي كان يترنم بها «داود» عليه السلام.

(٢) الفرقان: القرآن الكريم، لأنه فرّق بين الحقّ والباطل.

(٣) الإصحاح: عنوان عددٍ من الكتب الأساسية في اللغة والدين والشريعة.

كانت لعيسى حَرَمًا فانتَهتْ
شَيْدَهَا الرُّومُ وَأَقْيَالُهُمْ
تُنْبئُ عَنْ عِزِّ وَعَنْ صَوْلَةٍ
مَجَامِرُ الْيَاقُوتِ فِي صَحْنِهَا
وَمِثْلُ مَا قَدْ أُودِعَتْ مِنْ حَلْيٍ
كَانَتْ بِهَا الْعِذْرَاءُ مِنْ فَضَّةٍ
عَيْسَى مِنَ الْأُمِّ لَدَى هَالَةٍ
جَلَاهُمَا فِيهَا وَحَلَاهُمَا

ومنها:

قد جاءها (الفتاح) في عصبية
رمى بهم بُنيانها مثل ما
وما توانى الروم يفتدونها

ثمَّ يقول عن السلطان محمد الفاتح:

بفاتحِ غَازٍ عَفِيفِ الْقَنَا
أَجَارَ مَنْ أَلْقَى مَقَالِيدَهُ
وَنَابَ عَمَّا كَانَ مِنْ زُخْرُفٍ
فِي الْإِشَارِ بَيْنَنَا بَعْدَهُ
بَاقٍ كَثِيرٍ الْقُدْسِ مِنْ قَبْلِهِ
فَلَا يَغُرُّنْكَ سَكُونُ الْمَلَا

بُنْصُرَةَ الرُّوحِ إِلَى أَحْمَدٍ
عَلَى مِثَالِ الْهَرَمِ الْمُخَلَّدِ
وَعَنْ هَوَىِّ لِلدِّينِ لَمْ يَخْمُدِ
تَمْلَأُهُ مِنْ نَدَّهَا الْمُؤَقَّدِ
لَمْ تُتَّخَذْ دَارٌ وَلَمْ تُحْشَدِ
وَكَانَ رُوحُ اللَّهِ مِنْ عَسْجَدِ
وَالْأُمُّ مِنَ عَيْسَى لَدَى فَرْقَدِ
مَصُورُ الرُّومِ الْقَدِيرِ الْيَدِ

من الأسودِ الرُّكْعِ السُّجْدِ
يصطدمُ الجِلْمُدُ بِالْجِلْمُدِ
والسيفِ فِي الْمُفْدِيِّ وَالْمُفْتَدِي

لا يَحْمِلُ الْحَقْدَ وَلَا يَعْتَدِي
مِنْهُمْ وَأَضْفَى الْأَمْنَ لِلْمُرْتَدِي
جَلَالَةَ الْمَعْبُودِ فِي الْمَعْبَدِ
أَقَامَ لَمْ يَقْرُبْ وَلَمْ يَبْعُدِ
لَا نَنْتَهِي مِنْهُ وَلَا يَبْتَدِي
فَالشَّرَّ حَوْلَ الصَّارِمِ الْمُغْمَدِ

إني أرى المختار من شعر شوقي، إنما يكثر في الأوابد ووصف المباني والمشاهد، وكل ما له صلة بالتاريخ، فلذلك يعلو في هذه السموات ما لا يعلو في غيرها، فشعره في المواضيع التاريخية والملاحم ينحط عنه كل سبيل بلاغة، ولا يرتقي إليه طير فصاحة، ولذلك أفضل قصائده، في هذه المقامات الهائلة، على قصائده في الغزل والنسيب والثناء والمديح، مع رقة الأولى وجزالة الثانية.

وانظر الآن إلى قصيدته السينية الأندلسية، فإن شوقي في أيام الحرب الكبرى، قد ارتحل إلى الأندلس، وزار أفخر مآثر العرب فيها، قال: وكان البُحْتُري، رحمه الله، رفيقي في هذا الترحال وسميري في الرحال، فإنه أبلغ من حلّي الأثر، وحيى الحجر، ونشر الخبر، وحشر العبر، ومن قام في مآثم على الدول الكبرى... إلخ. ثم استشهد بالعماد الأصفهاني، صاحب "الفتح القُسي في الفتح القُدسي"، وهو قوله: فانظروا إلى إيوان كسرى وسينية البُحْتُري، في وصفه، تجددوا الإيوان قد خرت شعفاته وعُفرت سُرفاته، وتجددوا سينية البحتري قد بقي بها كسرى في ديوانه، أضعاف ما بقي شخصه في إيوانه. اهـ

قلت: من حيث أراد شوقي معارضة البحتري في سنيته الكسروية، فيحسن أن نورد قصيدة البحتري هذه، وبعدها قصيدة شوقي، ثم نقابل بينهما. ولا يُعيب شوقي إن قصر عن البحتري، ثالث ثلاثة مع أبي تمام والمتنبي.

سينية البحتري في إيوان كسرى

وترفعتُ عن جَدَا ^(١) كلّ جيس ^(٢)	صُنْتُ نفسي عمّا يَدُنْسُ نفسي
ر التماسًا منه لتعسي ونكسي	وتماسكتُ حين زعزعتني الده
طففتها الأيام تطفيفَ بخسٍ	بُلُغٌ من صُبابَةِ العيشِ عندي
عَلَلِ شُرْبُهُ ووارِدِ خِمْسِ ^(٣)	وبعيدٌ ما بين واردةِ رِفهِ ^(٤)
لأهواه مع الأَخْسِ الأَخْسِ	وكانَ الزمانُ أصبحَ محمو
بعد بيعي الشّامَ بَيْعَةَ وَنُكْسِ ^(٥)	واشترائي العراقَ خِطَّةَ غَبْنِ
عند هذي البلوى فتنكرَ مَسِيّ	لا تزرني مُزاوِلًا لاخْتِبَارِي
آياتٍ على الدنيئاتِ شُمْسِ ^(٦)	وقديمًا عهدتني ذا هِنَاتِ ^(٧)

(١) الجَدَا: العطاء.

(٢) الجيس: اللثيم الجبان.

(٣) وارِدَةٌ رِفَهُ: أي يَرِدُ الماءُ كلَّ يومٍ متى يشاء.

(٤) وارِدِ خِمْسِ: أي يَرِدُ الماءُ كلَّ أربعةِ أيامٍ.

(٥) الوكس: الخسارة في المتاجرة.

(٦) الهنات: الخِصَال، وتكون في الشرور والأذى.

(٧) الشُّمْسُ: مفرها شمس، أي الصعب المراس.

ولقد رابني نُبوُّ ابنِ عمِّي
 وإذا ما جُفيتُ كنتُ حَرِيًّا
 حضرت رَحليَّ الهومُ فوجَّه
 أتسلى عن الحظوظِ وآسى
 ذكَّرتنيهمُ الخطوبُ التوالي
 وهم خافضون في ظلِّ عالٍ
 مغلقٌ بابه على جبل القَب
 حللٌ لم تكن كأطلالِ سعدي
 ومساعٍ لولا المحاباةُ متي
 نقلَ الدهرُ عهدُهَنَّ عن الجِدَّةِ حتَّى غَدَوْنَ أنضاءَ لَبَسِ
 فكأنَّ الجِرْمَازَ من عدمِ الأَنسِ

بعد لينٍ من جانبِيه وأُنسِ
 أن أرى غيرَ مُصبحٍ حيثُ أُمسي
 تٌ إلى أبيضِ المدائنِ (١) عُنسي (٢)
 لمحلٌّ من آلِ ساسانِ (٣) درسِ (٤)
 ولقد تُذَكِّرُ الخطوبُ وتُنسي
 مُشرفٍ يُحسِرُ العيونَ ويُخسي
 قى إلى دارتي خِلاطٍ ومكسِ (٥)
 في قِفارٍ من البسَابِسِ (٦) مُلَسِ (٧)
 لم تُطَقها مسعأةُ عنسٍ وعبسِ (٨)
 وإخلاله بَنِيَّةُ رَمَسِ

(الجِرْمَاز) بالكسر؛ بناء عظيم كان عند أبيض المدائن، وقد عفا أثره، جاء ذلك في تاج العروس. وقد أشرنا إلى هذا عمداً، لأنه لا يوجد في العربي لفظ الجِرْمَاز، وإنما يوجد (الجرموز)، قالوا عنه إنه الحوض المَّتَّخَذُ في قاعٍ أو رَوْضَةٍ، ويكون مرتفع الأعضاء فيسيل منه الماء ثم يُفَرِّغ بعد ذلك. وقيل الجرْموز، البيت الصغير، وقيل الجرْموز الزكيَّة، فوجب التنبيه إلى أنَّ الجِرْمَاز مكان معيَّن.

لو تراه عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيالي
 وهو يُنْبِيكَ عن عجائبِ قومِ

جَعَلْتَ فيه مَأْتَمًا بعد عُرْسِ
 لا يُشَابُ البِيانُ فيهم بَلَبَسِ

(١) أبيض المدائن: قصر كِسرى، للونه الأبيض.

(٢) عُنسي: نياقي، مفردها: ناقة..

(٣) آل ساسان: ملوك الفرس، من نسل أرشيد حفيد ساسان، رأس السلالة الساسانية.

(٤) دَرَس: بال.

(٥) خِلاط ومكس: موضعان.

(٦) البسَابِس: القِفار، مفردها بَسِيس، وهو القَفْر الخالي من الأرض.

(٧) المِلَس: مفردها أَمَلَس وملسان، وهي الفلاة الواسعة لا نبات فيها.

(٨) عنس: قبيلة قحطانية من اليمن؛ وعبس: قبيلة عدنانية من نجد. يريد أنه لو لم يكن عربيًّا، لقال إنَّ مساعي الفرس، أي مكركاتهم، لم تتركها قبائل العرب.

فإذا ما رأيت صورة إنطا
والمنايا موائل وأنو شر
في اخضرار من اللباس على أص
وعراك الرجال بين يديه
من مشيح يهوي بعامل رُمح
تصف العين أنهم جيد أحياء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى
قد سقاني ولم يصرّد أبو الغو
من مدام تقولها هي نجم
وتراها إذا أجدت سرورًا
أفرغت في الزجاج من كل قلب
وتوهمت أن كسرى أبروي

ما اهتديت إلى الآن إلى معنى البلهيد، الذي هو لفظ فارسي فيما يظهر.

حلم مطبق على الشك عيني
وكان الإيوان من عجب الصند
يتظني من الكآبة أن يب
مزعجًا بالفراق عن أنس الف
عكست حظه الليالي ويات ال
فهو يبدي تجلّدًا وعليه

كية ارتعت بين روم وفرنس
وأن يزجي الصفوف تحت الدرّفس^(١)
فر يختال في صبيغة ورس^(٢)
في خفوت منهم واغماض جرس
ومليح من السنان بترس
تتقراهم يداي بلمس
ث على العسكرين شربة خلّس
أضوا الليل أو مجاجة شمس^(٣)
وارتياحًا للشارب المتحسي
فهي محبوبه إلى كل نفس
ز معاطي^(٤) والبلهيد^(٥) أنسي

أم أمان غيرن ظني وحنسي
عج جوب^(٦) في جنب أرعن^(٧) جلس^(٨)
بدو لعيني مصبح أو ممسي
عز أو مرهقا بتطبيق عرس
مشتري فيه وهو كوكب نحس
كلكل من كلاكل الدهر مرسي

(١) الدرّفس كدقمس، وهو العلم الكبير، وقد قالوا إن هذا البيت هو بيت هذه القصيدة.

(٢) الورس: الزعفران.

(٣) مجاجة الشمس: ريقها، أي شعاعها.

(٤) معاطي: يعاطيني الشراب، أي يشاريني.

(٥) البلهيد: مغني كسرى، ذكره ياقوت في الكلام على قصر (شيرين) حظية كسرى.

(٦) الجوب: الترس.

(٧) أرعن: البناء العظيم، أو جبلاً غليظاً، في جنبه الإيوان كأنه ترس في استدارته.

(٨) جلس: غليظ، أحمق.

لم يَعِبِهِ إِنْ بُزَّ مِنْ بُسْطِ الدِّي
مِشْمَخِرٌ تَعَلُّوْا لَهُ شَرَفَاتٌ
لَابَسَاتٌ مِنَ الْبِيَاضِ فَمَا تُب

بِاجٍ وَاسْتَلُّ مِنْ سِتْوَرِ الدِّمْقَسِ
رُفَعْتُ فِي رَعُوسِ رِضْوَى وَقُدْسِ^(١)
صِرٌّ مِنْهَا إِلَّا غَلَائِلَ بُرْسِ

(الْبُرْس) هُوَ الْقَطَنُ، وَ(الْغَلَائِل) جَمْعُ غَلَالَةٍ بِالْكَسْرِ وَهُوَ شَعَارٌ يُلْبَسُ تَحْتَ الثَّوْبِ وَتَحْتَ الدَّرْعِ،

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ (فَلَائِل) جَمْعُ فَلِيلَةٍ وَهُوَ الشَّعْرُ الْمَجْتَمِعُ، وَلَكِنْ الْأَوَّلُ هُوَ الْأَقْرَبُ.

لَيْسَ يَدْرِي أَصْنَعُ إِنْسٌ لَجِنٌ
غَيْرَ أَتَى أَرَاهُ يُشْهَدُ أَنْ لَمْ
فَكَأْتِي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقَوِ
وَكَأَنَّ الْوَفُودَ ضَاحِينَ حَسْرَى
وَكَأَنَّ الْقِيَانَ وَسَطَ الْمَقَاصِدِ
وَكَأَنَّ اللَّقَاءَ أَوَّلُ مِنْ أُمِّ
وَكَأَنَّ الَّذِي يَرِيدُ اتِّبَاعًا
عَمَرْتُ لِلْسُرُورِ دَهْرًا فَصَارَتْ
فَلَهَا أَنْ أُعَيْنَهَا بِدَمُوعٍ

سَكَنُوهُ أُمَّ صُنْعُ جِنٍّ لِإِنْسٍ
يَكُ بَانِيهِ فِي الْمَلُوكِ بِنِكْسِ^(٢)
مَ إِذَا مَا بَلَغْتَ آخِرَ حَسِّي
مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزُّحَامِ وَخُنْسِ^(٣)
رُيْرَجَّحْنَ بَيْنَ حُوٍّ^(٤) وَلُغْسِ^(٥)
سِ وَوَشْكُ الْفِرَاقِ أَوَّلُ أَمْسِ
طَامِعٌ فِي لُحُوقِهِمْ صُبْحَ خَمْسِ
لِلتَّعْزِي رِبَاعُهُمْ وَالتَّأْسِي
مَوْقِفَاتٍ عَلَى الصَّبَابَةِ حُبْسِ

(مَوْقِفَات) حَقَّقَهَا أَنْ تَكُونَ (مَوْقِفَات)، وَلَكِنْ الْبَحْتَرِي تَكَلَّمَ هُنَا بِلُغَةِ تَمِيمٍ، فَكَانُوا يَقُولُونَ (أَوْقِف)

بِمَعْنَى (وَقِف) وَأَنْكَرَهَا الْأَصْمَعِيُّ وَقَالَ الْكَلَامُ (وَقِف) بِغَيْرِ أَلْفٍ؛ وَجَاءَ عَنْ بَعْضِهِمْ مَا يُمَسَّكُ بِالْيَدِ يُقَالُ

فِيهِ (أَوْقِفْتَهُ)، وَمَا لَا يُمَسَّكُ بِالْيَدِ يُقَالُ فِيهِ (وَقِفْتَهُ).

ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي
غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي
أَيَّدُوا مُلْكَنَا وَشَدُّوا قُؤَاهُ

بِاقْتِرَابِ مِنْهَا وَلَا الْجِنْسُ جِنْسِي
غَرَسُوا مِنْ ذِكَائِهَا خَيْرَ غَرَسِ
بِكُمَاةٍ تَحْتَ السُّنُورِ^(٦) حُمْسِ

(١) رِضْوَى وَقُدْسٌ: جَبَلَانِ.

(٢) النِّكْسُ: الْمَقْصَرُ عَنْ غَايَةِ الْكِرَامِ.

(٣) الْخُنْسُ: الْمَتَأَخَّرُونَ.

(٤) حُوٌّ، الْحُوٌّ مِنَ الْحَوَّةِ: أَيِ سَمْرَةٍ فِي الشَّقَّةِ.

(٥) اللَّغْسُ، مِنَ اللَّغْسِ: أَيِ سَوَادٍ يُسْتَحْسَنُ فِي الشَّقَّةِ.

(٦) السُّنُورُ: نَوْعٌ مِنَ الدَّرُوعِ.

وأعانوا على كتائب أريا
وأراني من بعد أكلف بالإش

طَ بطعن على النحورِ ودَغَسِ
رافِ طُراً من كلِّ سِنخٍ (١) وإسٍ (٢)

مَنْ تأمل في هذه القصيدة وما ختمها به البحري، لم يجد نظمها مجرداً لإجلال الفنّ والتنويه بعظمة البنيان، الذي لا تزال فخامته دليلاً على عظمة الملوك الذين بنوه، وبعدهم في العمران. وإنما اتخذها أبو عبادَةَ فرصةً للتغني بمجد فارس، التي كان ينتسب إليها كثيرون من أمراء الدولة العباسية، ومن هؤلاء مَنْ كان يسني العطاء للبحري، ويواصل إجازته، بحيث لم يكن يدع فرصة يتغنى بها بمجد فارس، إلا يتورّدها ولكم، جاء ذلك في شعره، فمنه قصيدة يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل، قال فيها:

إشادة أبي عبادَةَ بمجد العَجَمِ

كِسرويُّ عليه منه جلالٌ
وترى في روائه بهجة المُلد
وإذا ما أشارَ هبَّتْ صبا المسد
يا ابنَ سهلٍ وأنتَ غيرُ مُفِيقٍ
إنَّ للمهرجانِ حقاً على كلِّ كبيرٍ من فارسٍ وصغيرٍ
عيدُ آبائك الملوكِ ذوي التي
من قُبادٍ ويزدَجِرْدٍ وقَيرو
شاهدوه في حَلبةِ المُلِكِ يغدو
وله فيه أيضاً من قصيدة أخرى:
مجدُ سهلٍ والفضلِ والحسنِ والإح
كِسرويّونَ أوليِّونَ في السُّؤ

يملاً البهوّ من بهاءٍ ونورِ
كِ إذا ما استوفاه صدرُ السريرِ
كِ وخِلتَ الإيوانَ من كافورِ
من بناءِ العلياءِ أخرى الدهورِ
جانِ أهلِ النهى وأهلِ الخيرِ
زَ وكِسرى وقيلهم أزدشيرِ (٣)
نَ عليه في سُنْدُسٍ وحريرِ
سانِ في مجدكِ الرفيعِ الشريفِ
دَدِ بيضُ الوجوهِ سُمُّ الأنوفِ

(١) السنخ: الأصل.

(٢) الإس: أصل كلّ شيء.

(٣) كلّ هذه أسماء ملوك الفرس.

وقال فيه أيضًا، ولم يغفل نسبة الساساني ولا تاجه الخسرواني:

آل سهل أنتم عيون بني سا
سان جودًا ونجدةً وحلوما
كسروي تلقاه في الحرب ليثا
قسورياً وفي الندي حكيمًا

وقال أيضًا من قصيدة أخرى:

قد ورثت العلياء عن أزدشير
وأرى الليل والنهار سواءً
وقبازٍ وعن أنو شروانٍ
حين تبدو بوجهك الإضحيان^(١)

وقال أيضًا:

أفتى بني الحسن بن سهل أنهم
لا توجبن لكرم أصلك منةً
فتيان فارس نجدةً وحلوما
لو كنت من عكل^(٢) لكنت كريما

وللبحتري في أحمد بن علي الإسكاف، ويظهر أنه كان من غطاريف^(٣) فارس:

همّة ترذل الدنيا ونفس
وعلى في الصهبدين^(٤) ودنا
شرفت إن تهّم بالإشراف
قدمته قوادم^(٦) الريش منهم
أنها في الزيود والأعواف^(٥)
رهط سابور^(٩) ذي الجنود وطلاً
حين خاست^(٧) بأخرين الخوافي^(٨)
ب مساعي سابور ذي الأكتاف

(١) الإضحيان: يريد بها المضيء، وهو في الأصل اليوم المضيء الذي لا غيم فيه.

(٢) عكل: أبو قبيلة، فيهم غباوة.

(٣) غطاريف: مفردا غطريف، أي السخي، والسري، السيد والحسن.

(٤) الصهبذ: فارسي مُعَرَّب، وهو في الجيش، وجماعة الأكراد، كالأمير في العرب.

(٥) الزيود والأعواف: جمع زيد وعوف، ويريد بهم العرب.

(٦) القوادم: الريشات التي في مقدم الجناح، وهي كبار الريش.

(٧) الخوافي: صغار الريش، وهي تحت القوادم.

(٨) خاست: غدرت.

(٩) سابور أو شابور، (٢٤١ - ٢٧٢)، ابن أردشير بن بابك الأول، أول الملوك الساسانية وهو (ذو الجند). وسابور الثاني ابن هرمز، وهو

ذو (الاكتاف).

وصف البحري لواقعة بحرية

وله في مدح أحمد بن دينار بن عبد الله، وكان أمير البحر، وقد غزا بلاد الروم، ويظهر أنه من أصل فارسي:

تُظَنُّ النجومَ الزُّهْرَ بَتْنِ خلائفَا
هو الغيثُ يجري من عطاءٍ وناثِلِ
ولمّا تولّى البحرَ والعجودُ صِنُوهُ
أضافَ إلى التدبيرِ فضلَ شجاعةِ
لأبلجَ من سرِّ الأعاجِمِ أزهَرَ
عليكَ فَحُذِّ من صَيِّبِ الغيثِ أو ذَرِّ^(١)
غدا البحرُ من أخلاقه بين أبحرِ
ولا عزمَ إلا للشجاعِ المُدبِّرِ

وله في وصف مركبه الخاص:

غَدُونَا على الميمونِ صُبْحًا وإنمّا
أطلَّ بعِطْفِيهِ ومَرًّا كأنمّا
إذا زمجرِ النوتي^(٢) فوقَ عَلاتِهِ
إذا عصفتُ فيه الجنوبُ اعتلى لهُ
إذا ما انكفى في هبوةِ الماءِ خِلتَهُ
وحوْلِكَ رُكّابونَ للهولِ عاقروا
إذا رشقوا بالنارِ لم يكُ رشقُهُم
صدمتَ بهم صُهْبَ العثانين^(٣) دونهم

ثم يقول:

يسوقون أسطولا كان سفينهم
سحائب صيف من جهام وممطر

(١) ذر: اترك ودع.

(٢) النوتي: البحار، الملاح.

(٣) البرد المحبّر: الثوب الموشى المزين.

(٤) الدارع: لباس الدرع.

(٥) الحاسر: من كان بلا درع.

(٦) يريد (بصُهْب العثانين) الروم، الذين غزاهم ذلك الأمير بحرًا.

كَأَنَّ ضَجِيحَ الْبَحْرِ بَيْنَ رِمَاحِهِمْ
فَمَارُمْتَ حَتَّى أَجَلْتَ الْحَرْبُ عَنْ طُلَى^(١)
عَلَى حِينٍ لَا نَقَعُ تَطْوُحَهُ الصَّبَا
وَكُنْتَ ابْنَ كِسْرَى قَبْلَ ذَاكَ وَبَعْدَهُ
جَدَحْتَ لَهُ الْمَوْتَ الدُّعَافَ فَعَاغَهُ
مَضَى وَهُوَ مَوْلَى الرِّيحِ يَشْكُرُ فَضْلَهَا
إِذَا الْمَوْجُ لَمْ يَبْلُغْهُ إِدْرَاكُ عَيْنِهِ
تَعَلَّقَ بِالْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ بَعْدَمَا
وَلَهُ فِيهِ أَيْضًا مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَهُ سَلْفٌ فِي آلِ فَيْرُوزَ بَرَزُوا
مَرَازِبَةُ الْمُلْكِ الَّتِي نَصَبَتْ لَهُمْ
لَهُمْ بُنْيَ الْإِيوَانُ فِي عَهْدِ هُرْمُزِ
وَدَارَتْ بَنُو سَاسَانَ طُرًّا عَلَيْهِمْ

وَلَهُ أَيْضًا فِي مَدْحِ يَعْقُوبَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ صَالِحٍ:

كَرِيمٌ مِنْ أُرُومَةِ شَيْرِزَادِ
وَمَا تَخْفَى الْمَكَارِمُ حَيْثُ كَانَتْ

وَلَهُ فِي مَدْحِ الْحَسَنِ بْنِ مَخْلَدٍ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ كَانَ فَارِسِيَّ النَّسَبِ:

قَوْمٌ أَشَادَ بَعْلِيَاهُمْ وَوَرَثَهُمْ

إِذَا اخْتَلَفَ التَّرَجِيْعُ عَوْدَ مُجْرَجِرٍ^(١)
مُقَطَّعَةٍ فِيهِمْ وَهَامٍ^(٢) مُطَيَّرٍ
وَلَا أَرْضَ تُلْفَى لِلصَّرِيحِ الْمُقَطَّرِ^(٣)
مَلِيًّا بِأَنْ تَوْهِيَ صَفَاةَ^(٤) ابْنِ قَيْصَرَ
وَطَارَ عَلَى الْوِاحِ سَطْبِ مُسْمَرٍ
عَلَيْهِ وَمَنْ يُؤَلِّ الصَّنِيْعَةَ يَشْكُرُ
ثَنِي فِي انْحِدَارِ الْمَوْجِ لِحِظَّةِ أَخْزَرَ^(٥)
تَنْقِصُهُ جَرِيُّ الرَّدَى الْمُتَمَطَّرِ

عَلَى الْعُجْمِ وَانْقَادَتْ لَهُمْ حَفْلَةُ الْعُرْبِ
مَنَابِرُهُ الْعَظْمَى جِبَابِرَةُ الْحَرْبِ
وَأَحْكَمَ طَبِعُ الْخُسْرَوَانِيَّةِ^(٦) الْقُصْبِ
مَدَارَ النُّجُومِ السَّائِرَاتِ عَلَى الْقُطْبِ

تُفَخِّمُهُ الْجَهَارَةَ وَالْبَيَانَ
وَلَا أَهْلُ الْمَكَارِمِ حَيْثُ كَانُوا

كِسْرَى ابْنَ هُرْمُزِ نَجْدًا وَاضِحَ الْأَمَنِ^(٨)

(١) لَكَ أَنْ تَقُولَ (عَوْدَ مُجْرَجِرٍ) أَي مُصَوِّتٍ، مِنْ جَرَجَرَ أَي صَوَّتَ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ إِنَّهُ كَبِيرٌ مِنَ الْإِبِلِ يَرُدُّ رُغَاءً فِي حَنْجَرَتِهِ، مِنْ جَرَجَرَ الْبَعِيرِ أَي رَدَّ رُغَاءَهُ.

(٢) الطُّلَى: الْأَعْتَاقُ.

(٣) الْهَامُ: الرُّوْسُ.

(٤) قَطَّرَ الشَّخْصَ: صَدَعَهُ صَدْعَةً شَدِيدَةً.

(٥) الصَّفَاةُ: لَفْظٌ دَخِيلٌ عَلَى الْعَرَبِيَّةِ مِنَ السَّرْيَانِيَّةِ، وَتَعْنِي الصَّخْرَةَ.

(٦) الْأَخْرَزُ: مَنْ ضَاغَتْ عَيْنُهُ.

(٧) الْخُسْرَوَانِيَّةُ: سِيُوفُ الْفَرَسِ، نَسَبَةٌ إِلَى (خُسْرُو)، أَي كِسْرَى «بِالْفَارْسِيَّةِ».

(٨) (الْأَمَنِ) يُسَكِّنُ وَيُحَرِّكُ.

تسمو بواذخ ما بينون من شرفِ
الفاعلون إذا لُذنا بظلمهم
لله أنتم فأنتم أهلُ مآثرةِ
إن جئتموها فليست بكر أنعمكم
أيام رد أنوشروان ملكتهم
وله في ابراهيم بن المدبر:

نشدوا في بني المدبر عهداً
في المحلّ الجليل من رتبة المدا
للندی الأول الأخير الذي برّ
هي أكرومة نمت من بني سا
للصريح الصريح والأشرف الأشد
وله في إسماعيل بن نبيخت:

ما للمكارم لا تريد سوى أبي
والى أبي سهل بن نبيخت انتهى
نسباً كما أطردت كعوب مثقف
يُفضي إلى ييب ابن جوزرز الذي
أعقاب أملاك لهم عاداتها
الوارثون من السرير سراته
والضاربون بسهمه معروفة

كما سما الهضب من نهلان أو حصن
ما يفعل الغيث من شؤبويه الهتن
في المجد معروفة الأعلام والسّنن
ولا ببدء أياديكم إلى اليمن
على عميدهم سيف ابن ذي يزن

غير مستقصر ولا مذموم
ك استقلت والمذهب المستقيم
ز والسؤدد الحديث القديم
سان في خير منصب وأروم
رف إن عدّ والصميم الصميم

يعقوب اسحق ابن إسماعيل
ما كان من غرر لها وحجول
لذن يزيدك بسطة في الطول
شهر الشجاعة بعد قرط خمول
من كل نيل مثل مد النيل
عن كل رب تحية مأمول
في التاج ذي الشرفات والإكليل

قد استوفينا هنا أكثر ما تهافت عليه البحري، من الإشادة بمجد العجم، وذكر ملكهم القديم وحسبهم الصميم، ولا نزاع في أن ممدوحيه، من أمراء الدولة العباسية، الذين ينتمون إلى الفرس، كانوا أولي حسب ضخم وسؤدد فخم، ولكن لم نجد مثل البحري في شعراء العرب، من يُنوه بمجد العجم بإسراف، فلا عجب إن نظم تلك القصيدة الخالدة في وصف إيوان كسرى، وانتهى منها إلى مدح فارس، وذكر مواقف رجال الفرس من خدمة الخلافة الإسلامية.

سينية شوقي

ولنعد الآن إلى شوقي، ونثبت سينيته الأندلسية التي يليق أن تُقرَن بسينية البحتري.
يقول شوقي إنه اتخذ قصيدة البحتري مثلاً، ونسج على منوالها، وقد صرّح عن ذلك بقوله: ثم جعلت أروضُ القول على هذا الروي، وأعالجه على هذا الوزن، حتى نظمت هذه القافية المهلهلة، وأتمت هذه الكلمة الرِيضة. اهـ

وقد تأملت في معارضة شوقي للبحتري، فوجدت القسم الأول من قصيدته نازلاً نزولاً بارزاً عن طبقة البحتري، إلا أنه عندما وصل إلى الأوابد، وشرع في وصف الملاحم والوقائع، رجع فأخذ يعلو حتى قارن البحتري، سائراً وإياه الكتف مع الكتف. قال:

إختلاف النهار والليل يُنسي	أذكر لي الصبا وأيام أنسي
وصيفا لي مُلاوة ^(١) من شباب	صورت من تصوّراتٍ ومَسّ
عصفت كالصبا للعب ومرّت	سنة حلوة ولذّة خلّس
وسلا مصر هل سلا القلبُ عنها	أو أسا جرحه ^(٢) الزمان المؤسّي؟

جانس شوقي هنا بين "سلا" و "سلا"، الأولى من السؤال والثانية من السلو، وقد سبق لي هذا الجناس نفسه، ولم أكن أطلعت على شعر شوقي هذا، وهو في قولي في رثاء الشيخ عبد القادر الشيبّي، سادن^(٣) البيت الحرام، رحمه الله.

سلاني هل على بُعدِ سلاني	وهل كان الغيابُ سوى العيان؟
--------------------------	-----------------------------

ثم قال:

كلّما مرّت الليالي عليه	رقّ والعهدُ في الليالي يُقسّي
مستطار إذا البواخرُ رتّت	أولَ الليلِ أو عوتُ بعد جرسِ
راهبٌ في الضلوعِ للسفنِ قطنُ	كلّما تُرنّ شاعهنّ بنقسِ

(١) (الملاوة) مثلثة: البرهة من الدهر.

(٢) أسا الجرح: داواه.

(٣) السادن: خادم الهيكل.

يا ابنة أليم ما أبوك بخيل
أحرامٌ على بلابله الدو
كلُّ دارٍ أحقُّ بالأهلِ إلاَّ

ماله مولعاً بمنعٍ وحبسٍ
ح حلالٌ للطيرٍ من كلِّ جنسٍ
في خبيثٍ من المذاهبِ رجسٍ

ما رأيت في هذا الشعر إلى هنا سوى التكلف والتعمُّل، كأنما شوقي يقطع في صَوَّان
فلشدَّ ما لقي من عناء المعارضة، وقد حاول مباراة مثل البحترى، إلا أنه ما لبث أن أسلس له
القول، فقال:

نفسِي مِرْجَلٌ وقلبي شراعٌ
فاجعلي وجهك (الفنار) ومجرا
ثمَّ يقول:

بهما في الدموع أُسْري وأُرْسِي
كِيَدِ الشَّغْرِ بَيْنَ رَمْلِ وَمَكْسٍ^(١)

وطني لو سُغِلْتُ بالخُلْدِ عَنْهُ

نازعثني إليه في الخُلْدِ نَفْسِي

هذا بيت خالد ومعنى طريف، أي أنه لو سكن الجنة لَبَقِيَ يَنْزِعُ إِلَى وَطْنِهِ مِصْرَ، وَكَأَنَّهُ
يشير إلى بيت المتنبي:

خَلَقْتَ أَلَوْفًا لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصُّبَا
ثمَّ يقول:

لِفَارَقْتُ سَيْبِي مَوْجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا

وهفا بالفؤاد في سَلْسَبِيلِ

ظَمًا لِلسَّوَادِ مِنْ (عَيْنِ شَمْسٍ)^(٢)

شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جَفُونِي

شَخْصُهُ سَاعَةً وَلَمْ يَخْلُ حَسِي

يَصْبِحُ الْفِكْرُ وَ(الْمَسَلَّةُ) نَادٍ

يَهْ وَ(بِالسَّرْحَةِ الزَكِيَّةِ) يُمَسِّي

وَكَأَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيُّكَا

نَعَّمْتَ طَيْرُهُ بِأَرْخَمِ جَرَسِ

هِيَ بَلْقَيْسُ فِي الْخَمَائِلِ صَرْحٌ

مِنْ عِبَابٍ وَصَاحِبٌ غَيْرُ نَكْسِ

حَسْبُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّيْلِ عَرَسًا

قَبْلَهَا لَمْ يَجْنَ يَوْمًا بَعْرَسِ

لَبَسْتَ بِالْأَصِيلِ حُلَّةً وَشِي

بَيْنَ صَنْعَاءَ فِي الثِّيَابِ وَقَسِ

(١) (الشَّغْر) هُوَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةُ، وَهَذَا هُوَ اسْمُهَا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَانِ؛ (وَالرَّمْلُ وَالْمَكْسُ) هُمَا مِنْ ضَوَاحِيهَا.

(٢) عَيْنُ شَمْسٍ: مِنْ ضَوَاحِي الْقَاهِرَةِ، فِي مِصْرِ الْجَدِيدَةِ، هِيَ هِيلِيُولِسُ الْقَدِيمَةِ.

يُنسب (الوشي) عادة إلى صنعاء، وهنا مكان آخر تنتسب إليه الثياب وهي القسيّة، وهي ثياب من كتّان مخلوط من حرير، كانت تُجلب من بلدة يقال لها القس، بين العريش والفرما، من أرض مصر، وهي على ساحل البحر الملح، قال في تاج العروس إنّها خُربت من زمان ولم يبقَ إلاّ آثارها. وهناك تلّ عظيم من رمل، خارج في البحر الشامي. قال، وقد يكسر القاف في (قس)، وأهل مصر يقولونه بالفتح.

قدها النيل فاستحت فتواتر
وأرى النيل كالعقيق^(١) بوادي
ابن ماء السماء ذو الموكب الفخ
منه بالجسر بين عريّ ولبس
ه وإن كان كوثر المتحسي
م الذي يحسر العيون ويخسي^(٢)

أخذ جملة "يحسر العيون ويخسي" من كلام البحتري. ثمّ قال:

لا ترى في ركابه غير مثن
ورأى الجيزة الحزينة ثكلى
أكثرت ضجّة السواقي عليه
وقيام النخيل صفّر شعرًا
وكان الأهرام ميزان فرعو
أو قناطره تأتق فيها
روعة في الضحى ملاعب جن
(ورهيّن الرمال) أفطس إلاّ
تتجلى حقيقة الناس فيه
بجميل وشاكر فضل غرس
لم تُفق بعد من مناحة رميس^(٣)
وسؤال اليراع^(٤) عنه بهمس
وتجرّدن غير طوق وسلّس^(٥)
ن بيوم على الجبابر نخس
ألف جاب وألف صاحب مكس
حين يغشى الدجى حماها ويغسي^(٦)
أنه صنّع جنّة غير فطس^(٧)
سبع الخلق في أسارير إنسي

(١) وادي العقيق: هو في المدينة المنورة وكانت فيه، أيام عمران المدينة، القصور الباذخة والجنان الغناء.

(٢) يخسي: من خسا البصر، أي كلّ وأعيا.

(٣) يريد (برمس) الملك رمسيس، ولكن رخم الاسم نظير قولهم: "يا حار" أي يا حارث، و"يا أحم" أي يا أحمد. والترخيم نوع من أنواع البديع، وفي بديعية ابن حجة الحموي "كالأغصان حين تمي" أي تميم وتميل وتميد.

(٤) اليراع: هنا هو القصب.

(٥) سلّست النخلة: ذهب كرتها محرّكة، وهو أصول السعف الغلاظ.

(٦) يغسي: يُظلم.

(٧) يشير إلى أبو الهول.

لعبَ الدهرُ في ثراه صبيًّا
ركبتُ صيِّدُ المقاديرِ عيني
فأصابتُ بهِ الممالكِ كِسرى
يا فؤادي لكلِّ أمرٍ قرارُ
عَقَلْتُ لُجَّةَ الأمورِ عقولاً
غَرَقْتُ حيثُ لا يُصاحُ بطافِ
فلكُ يكسِفُ الشَّموسَ نهاراً
ومواقيتُ للأُمورِ إذا ما
دولُ كالرجالِ مُرتَهَناتُ
وليالٍ من كُلِّ ذاتِ سشوارِ

والليالي كواعباً^(١) غيرِ عُنسِ
له لنقدٍ ومِخْلَبِيه لفرسِ
وهِرَقِلاً والعبقريَّ^(٢) الفرنسي
فيه يبدو وينجلي بَعْدَ لُبْسِ
كانت الحوتَ طولَ سَبحِ وُغَسِ^(٣)
أو غريقٍ ولا يُصاخُ^(٤) لحسِّ
ويسومُ البَدورَ ليلةً وَكُسِ^(٥)
بَلغَتْها الأُمورُ صارت لِعَكْسِ
بقيامٍ من الجدودِ وتَغَسِ
لَطَمْتُ كُلَّ رَبٍّ رومٍ وفُرسِ

من هنا بدأ شوقي يُسامِتُ^(٦) البحترى، لأنه إنَّما يستولي على أمد الإجابة في الملاحم.
ثمَّ قال:

سدَّدتُ بالهِلالِ قوساً وسَلَّتْ
حكمتُ في القرونِ (خوفو) و(دارا)
أين مروانُ في المشارِقِ عرشُ
سَقِمْتُ شمسُهُم فرَدَّ عليها
ثمَّ غابت وكلَّ شمسِ سوى هاتِي
وَعَظَّ البحترى إيوانَ كِسرى
رُبَّ ليلٍ سریتُ والبرقُ طِرْفِي

خنجرًا ينفذانِ من كُلِّ ثُرْسِ
وعَفَّتْ وائِلاً وألوتِ بعبسِ
أُمويُّ وفي المغاربِ كرسِي^(٧)
نورَها كلُّ ثاقِبِ الرأْيِ نَطْسِ
كُ تَبَلَى وتنطوي تحتِ رَمْسِ
وشَفَّتني القصورُ من عبدِ شمسِ^(٨)
وبساطِ طويتُ والريحُ عَنسِي

(١) الكاعب: مفردُها كاعِب، وهي الجاريةُ الناهدةُ الصُّدرِ.

(٢) العبقريُّ الفرنسي: هو نابليون بوناپرت.

(٣) غَسَّ في البلاد: دخلَ فيها، ومضى قُدُماً.

(٤) أصاخُ السَّمع: أضغى واستمع.

(٥) ليلةُ الوكس: هي ليلةُ دخولِ البدرِ في نجمِ منحوس.

(٦) يسامت: يسير على النسقِ نفسه.

(٧) أي كان لبني أمية في الشام عرشُ عمِّ الإسلام، وفي قرطبة كرسِي خُصَّ الأندلس.

(٨) أي أن إيوانَ كِسرى، كان موعظةً للبحترى، وأمَّا أنا فبلغْتُ منِّي غايةَ الوعظ، قصور بني أمية آل عبدِ شمس.

أَنْظِمَ الشَّرْقَ فِي الْجَزِيرَةِ بِالْغَرِّ

بِ وَأَطْوَى^(١) الْبِلَادَ حَزَنًا^(٢) لِلدَّهْسِ^(٣)

فِي دِيَارٍ مِنَ الْخَلَائِفِ دَرَسٍ

وَمِنَارٍ مِنَ الطَّوَائِفِ طَمَسٍ

كان أمراء بني أمية في قرطبة، لا يقدرّون أن يدعوا الخلافة، فلم يكن يقال لهم الخلفاء، بل كان هذا اللقب لبني العباس، بل كان يقال لأمرء قرطبة الخلائف كناية عن أنهم ذرية الخلفاء آبائهم الذين كانوا بالشام، وبقي ذلك إلى زمان الناصر عبد الرحمن الثالث، فهو أول من تلقب بالخليفة من أمراء قرطبة.

وأما الطوائف فهم ملوك الأندلس المتفرقون، بعد أن انشتر سلك الخلافة فيها مثل: بني جهور في قرطبة، وبني ذي النون في طليطلة، وبني هود في سرقسطة، وبني رزين في السهلة، والموالي العامريين في بلنسية ودانية، وبني صمادح في المرية، وبني عباد في إشبيلية، وبني الأفطس في بطليوس، وهلمّ جرا.

وَرُبِّيَ كَالْجَنَانِ فِي كَنْفِ الزَّرِّ

تَوْنِ خَضِرٍ وَفِي ذِرَا الْكُرْمِ طُلْسٍ^(٤)

لَمْ يَرُغْنِي سِوَى ثَرَى قُرْطَبِيٍّ

لَمَسْتُ فِيهِ عِبْرَةَ الدَّهْرِ خَمْسِي

يَا وَقِي اللَّهِ مَا أَصْبَحَ مِنْهُ

وَسَقَى صَفْوَةَ الْحَيَا مَا أَمْسِي

قَرِيَةً لَا تُعَدُّ فِي الْأَرْضِ كَانَتْ

تَمَسُّكَ الْأَرْضِ أَنْ تَمِيدَ وَتُرْسِي

غَشِيَتْ سَاحِلَ الْمَحِيطِ وَغَطَّتْ

لُجَّةَ الرُّومِ مِنْ شِرَاعٍ وَقَلْسٍ^(٥)

رَكِبَ الدَّهْرُ خَاطِرِي فِي ثَرَاها

فَأَتَى ذَلِكَ الْحِمَى بَعْدَ حَدْسٍ^(٦)

فَتَجَلَّتْ لِي الْقُصُورُ وَمَنْ فِيهِ

هَا مِنْ الْعِزِّ فِي مَنَازِلَ قُغْسٍ

مَا ضَفَّتْ قَطَّ فِي الْمُلُوكِ عَلَي نَذ

لِ الْمَعَالِي وَلَا تَرَدَّتْ بَنَجْسٍ

وَكَأَنِّي بَلَغْتُ لِلْعِلْمِ بَيْتًا

فِيهِ مَالُ الْعُقُولِ مِنْ كُلِّ دَرَسٍ

قُدْسًا فِي الْبِلَادِ شَرْقًا وَغَرْبًا

حَجَّةُ الْقَوْمِ مِنْ فِقِيهِهِ وَقِسِّ

(١) أي أطوي شرق الجزيرة الأندلسية وغربها وأجوب وعرها وسهلها.

(٢) الحزن: ما غلظ من الأرض.

(٣) الدهس: السهل ليس رمل ولا تراب.

(٤) طلس: مفرداها أطلس، وهو ما لونه أسود تخالطه غبرة.

(٥) القلس: حبل السفينة.

(٦) الحدس: هنا ليس الظن والتخمين، بل هو بمعنى السير على غير هداية.

كانت قرطبة في وقتها مدينة العلماء، لم يخرج من العلماء من خرج من قرطبة لا في الكمية ولا في الكيفية، وكان إذا أجمع أهالي قرطبة على شيء فعليه تكون الفتوى، وكان فيها العلم بأنواعه وفنونه. وكما كانت قرطبة عاصمة الإسلام في العلم، فقد كان إلى جانب علماء المسلمين فيها أحرار وأقسة يفتون في دين النصرانية، ولهم بيع وأديار مشهورة.

وعلى الجمعة الجلالة والنا
صر نور الخميس تحت الدرفس
يُنزل التاج عن مفارق (دون)
ويُحلّي به جبين (البرنس)

يتكلّم عن الخليفة عبد الرحمن الناصر، وعن جلاله الجَمع التي كان يشهدها في المسجد الأعظم بقرطبة أو في مسجد الزهراء، المدينة التي كان شيدّها لسكنها، في سفح جبل العروس من قرطبة، ويقول إنه كان نوراً للجيش تحت العلم الكبير، وكانت تلجأ إليه ملوك الإفرنج والإسبان وغيرهم، وربما خلع بعضها وأدال لبعضها من بعض.

ولنضرب مثالا على ذلك، ما جاء في نفع الطيب:

(وفي سنة ٤٤ بعد الثلاثمائة، جاء رسول أردون يطلب السلم، فعقد له (أي الناصر). ثم بعث في سنة خمس وأربعين يطلب إدخال فردلند، قومس قشتيلة في عهده، فأذن له في ذلك وأدخل في عهده. وكان غرسية بن شانجة، قد استولى على جليقية بعد أبيه شانجة بن فرويلة، ثم انتقض عليه أهل جليقية، وتولّى كبرهم قومس قشتيلة، فردلند المذكور، ومال إلى أردون بن ردمير. وكان غرسية بن شانجة حافداً لطوطة، ملكة البشكونس، فامتعضت لحافدها غرسية، ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين، مُلقية بنفسها في عقد السلم لها ولولدها شانجة بن ردمير الملك، وإعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه، ونصره من عدوه. وجاء الملكان معها، فاحتفل الناصر لقدمهم، وعقد الصلح لشانجة وأمه، وبعث العساكر مع غرسية، ملك جليقية، فردّ عليه ملكه. وخلع الجلالقة طاعة أردن إليه، وبعث إلى الناصر يشكره على فعلته، وكتب إلى الأمم في النواحي بذلك، وبما ارتكبه فردلند قومس قشتيلة في نكته ووثوبه، ويعيره بذلك عند الأمم. ولم يزل الناصر على موالاته وإعانتته إلى أن هلك. ولما وصل رسول كِلدة، ملك الإفرنج بالشرق، وصل معه رسول ملك برشلونة وطركونة راغباً بالصلح، فأجابه الناصر. ووصل بعده رسول صاحب رومة، يخطب المودة، فأجيب). انتهى كلام ابن خلدون ببعض اختصار.

قلنا: لم يبقَ ملك من ملوك ذلك العصر الذي عاش فيه الناصر، إلا أرسل إليه وفده يخطب وده، وأعظمهم أوتون، إمبراطور ألمانية، الذي طالما تبادل السفارات مع الخليفة الناصر، وكذلك إمبراطور القسطنطينية، الذي كان يُرسل إلى الناصر الهدايا والألطف ويوفد الوفود الحافلة.

وإلى ذلك أشرت في قصيدتي الأندلسية التي قلت فيها:

وصقرُ قُرَيْشٍ حين جاء مُشَرِّدًا فأنشِبَ فيهم أيّ ظفرٍ مُظْفَرٍ
وشادَ بهاتيك القواصي إِمارةً لها أجفَلَ المنصورُ والدُ جَعْفَرِ

يقال إنَّ أبا جعفر المنصور هو الذي لُقِّب عبد الرحمن الداخل بصقر قُرَيْشٍ، وقال
«الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبينه».

وخلَّفَ أملاكًا سَمَوْا وخالَتْفا أُسودَ عرينٍ منهم كلُّ مخدرِ
كفى بالإمام الناصر الفدُّ عاهلاً كسا أمةَ الإسلامِ حلَّةَ مفخرِ
تُقبَلُ أملاكُ الفرنجةِ كَفَّهُ ويقصدُ عالي بابهِ وفدُ قيصرِ
غداةَ تجلَّى للخلافةِ رونقُ به ظهرَ الإسلامِ أروعَ مظهرِ
وأضحت بها الزهرا تَميدُ جموعها فيا لك من يومٍ أغرَّ مُشهرِ
تلعثمَ فيه كلُّ رَبٍّ فصاحة فُعَيَّوا سوى قاضي الجماعة منذرِ

إشارة إلى المحفل النادر، الذي احتفل به الخليفة الناصر لوفود صاحب القسطنطينية، وذلك في قصره الزهراء، وانتدبَ كثير من العلماء للكلام في ذلك المحفل، فأرتجَ عليهم من شدة المهابة، وتكلَّم ارتجالاً القاضي منذر بن سعيد البلوطي، وكانت خطبة رنانة وهي مذكورة في الكتب.

ولا تُهمل المُستنصرِ الحكم الذي تلاه ومنَ يستنصر الله ينصرِ
غدت قبةُ الإسلامِ قرطبة العلى وسارقت الزوراء لحظة أزورِ
وبارى فيها بني العباس فيها أمية وجرّوا على بغداد ذيلَ التبخرِ
وكان بها العمران يزخر مثلما تلاطمُ أمواجُ الخِصمِ المهدرِ
ولما رأيتُ المسجد الجامع الذي بقرطبةٍ من فوق فوق التصوُّرِ

عَضُّتْ عَلَى كَهْيِ بَكْلِ نَوَاجِذِي
 هُوَ الْجَامِعُ الطَّامِي الْعُبَابُ بَوَقْتِهِ
 ظَلَلَتْ بِهِ بَيْنَ الْأَسَاطِينِ سَائِحًا
 تَخَيَّلَتْهُ وَالذِّكْرُ يُتْلَى خِلَالَهُ
 تَأْمَلُ خَلِيلِي كَمْ هُنَا مِنْ مُهَلَّلٍ
 وَكَمْ أَزْهَرَتْ فِيهِ أَلُوفُ مَصَابِحٍ
 وَكَمْ قَارِئٍ بِالسَّبْعِ فِي وَسْطِ حَلَقَةٍ
 وَكَمْ عَالِمٍ يُلْقِي عَلَى الْجَمْعِ دَرَسَهُ
 وَكَمْ مَلِكٍ ضَخْمٍ وَكَمْ مِنْ خَلِيفَةٍ
 تَسُدُّ فِجَاجَ الْمَغْرِبِينَ جِيوشَهُ

كان الخليفة الناصر يأتي إلى المسجد، في الجمع المشهودة مرتدياً ثوباً تواضعاً منه لله

تعالى.

أَسَاطِينٌ قَدْ تُحْصَى بِأَلْفٍ وَأَكْثَرٍ
 يَذُوبُ لَهَا قَلْبُ الْحَنِيفِ الْمَفْكَرِ
 حَدَائِقُ نُصَّتْ مِنْ جَمَادٍ مُسْجَرٍ
 لَهَا نَسَبٌ مِنْ مَقْطَعِ مُتَخَيَّرِ
 مَعَادِنِ شَتَى مِنْ فِلْزٍ وَمَرْمَرِ
 لَدَى الْفَرِيِّ تَهْزَا بِالْحَدِيدِ الْمُعْضَفَرِ
 فَصَالَتْ بِهَا الصَّنَاعُ صَوْلَةَ عَنْتَرِ
 مَقَاطِعَ جُبْنٍ أَوْ قَوَالِبَ سُكَّرِ
 أَكَالِيلِ دُرٍّ فِي قَلَائِدِ جَوْهَرِ
 مِنَ الصَّخْرِ فِي مِثْلِ الطَّرَازِ الْمُحْبَرِ

خَلِيلِي تَأْمَلُ كَالْعَرَائِسِ تَنْجَلِي
 أَسَاطِينٌ مِنْ صُمِّ الْجَمَادِ مَوَائِلُ
 تَرَاهَا صَفُوقًا قَائِمَاتٍ كَأَنَّهَا
 مِنَ الْعُمْدِ الْأَسْنَى فَكَلُّ يَتِيمَةٍ
 أَجَادَتْ تَحْرِيهَا قُرُومُ أُمِيَّةٍ
 نَبَتْ دُونَهَا زَرْقُ الْفُؤُوسِ وَأَصْبَحَتْ
 وَلَكِنْ لِفَضْلِ الْفَرْنِ أَلَقْتَ قِيَادَهَا
 فَبَيْنَا هِيَ الصَّمُّ الصَّلَادُ^(١) إِذْ انْتَهَتْ
 عَرَائِسُ لِلتَّخْرِيمِ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ
 وَوَجَّهَ إِلَى الْحَرَابِ طَرْفَكَ يَنْسَرِحُ

(١) الصَّمُّ الصَّلَادُ: الصَّخُورُ الصَّلْبَةُ.

وحدّق بهاتيكَ النقوشِ وزهوها
وبالقبة العلياءِ يبدو شعاعها
لو أنّ الثريا في سماها تعرّضت

كأنّ فاتها صناعها منذ أشهرٍ
بألمع من زهرِ النجومِ وأزهرٍ
لظلت تحدى للثريا وتزدري

ثمّ نعود إلى سينية شوقي:

سِنَّةٌ من كرىٍ وطيفُ أمانٍ
وإذا الدارُ ما بها من أنيسٍ

وصحا القلبُ من ضلالٍ وهجسٍ
وإذا القومُ ما لهم من مُحِسِّ

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ، هَلْ تَحْسِبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾^(١).

ورقيقٍ من البيوت عتيقٍ

جاوز الألفَ غيرَ مذمومِ حَرَسِ

(الحرس) بفتح أوله فسكون، هو الدهر أو قطعة منه، يقال مضى عليه حرس من الدهر، وهو يريد بهذا البيت العتيق مسجد قرطبة. ثمّ يقول:

أثرٌ من محمّدٍ وتراثٌ
بلغَ النجمَ ذروةً وتناهى

صارَ للروحِ ذي الولاءِ الأمسُّ
بين ثهلانٍ في الأساسِ وقُدسِ

قُدسُ جبلٍ عظيمٍ بأرضِ نجدٍ، قال الأزهري قدس وآرة جبلان لمزينة وهما معروفان بحذاء سقيا مزينة، وقيل في الحجاز جبلان كلّ منهما اسمه قدس: قدسُ الأبيض وقدسُ الأسود، وهما عند ورقان، وكلاهما لمزينة. والقدس أيضًا البيت المقدّس.

مرمرٌ تسبحُ النواظرُ فيهِ
وسوارٍ كأنها في استواءِ
فترةُ الدهرِ قد كستُ سطرِيها^(٢)
ويحها كمّ تزينت لعليمِ

ويطولُ المدى عليها فترسي
ألفاتُ الوزير^(٣) في عرضِ طرسِ
ما اكتسى الهدبُ من فتورٍ ونعسِ
واحد الدهرِ واستعدت لخمسِ^(٤)

(١) سورة الريم: الآية ٩٨.

(٢) يعني بالوزير: ابن مقلة الخطاط الشهير.

(٣) السطر بالسكون وبالتحريك: الصف من الشيء.

(٤) يريد أن يقول كمّ تزينت لعالم من أفراد الدهر، واستعدت لإقامة الصلوات الخمس. ولو قال كمّ تزينت لإمام، كان أحسن.

وكانَّ الرفيف في مسرح العين مِلاءً مُدَنَّرَاتِ الدَّمَقْسِ^(١)
 وكانَّ الآيات في جانبِيه
 يتنزَّلْنَ من معارج قُدُسِ
 منبرٌ تحت (منذر) من جلال
 لم يزل يكتسيه أو تحت (قُس) ^(٢)

فأما منذر فقد كان مشهوراً بالعدل والصلابة في الحق، وقد تولَّى قضاء الجماعة في الأندلس، وكان الناصر وولده المستنصر يبالغان في تعظيمه، ولكنَّه لشدة ورعه، لم يكن يتوقَّف عن تقرير الخليفة إذا رأى منه ما يوجب ذلك، ولما كان الناصر كلفاً بالبناء وأمره في هذا الباب مشهور، وقد بنى الزهراء التي قدَّروا النفقة على بنائها بثلاثمائة ألف دينار كلَّ عام، واستمرَّ ذلك خمسة وعشرين عاماً حتَّى قيل إنَّ ما أنفقه على الزهراء، بلغ ١٥ من مائة من دُخْل الدولة كلَّها، وبلغ من انهماكه بالبناء فيها أنه تأخَّر ثلاث جُمع متواليات عن شهود صلاة الجمعة بمسجد الزهراء، وكان القاضي منذر بن سعيد خطيب ذلك المسجد فلم يصبر على هذا الإهمال، ولما صلَّى الخليفة بعد ذلك صلاة الجمعة، عرض منذر به في الخطبة تالياً في أول خطبته قوله تعالى: ﴿أَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٍ تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ. فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ. أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعَيْونَ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا سِوَاءَ عَلَيْنَا أَوْعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾^(٣). ثمَّ أخذ يتكلَّم ما يناسب تلك الآية مقرِّعاً، وموبِّخاً، وموردًا ما جاء في هذا المعنى في كتاب الله إلى أن تلا ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بِنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. لَا يَزَالُ بِنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٤). وكان الناصر يسمع ويعلم، أنَّ القاضي منذرًا إنَّما يشير إليه. ثمَّ قرن منذر بن سعيد هذه الآي العظام بالأحاديث النبوية والآثار المروية، وأضاف إليها من بلاغته النادرة وفصاحته الساحرة، حتَّى خشع كلَّ المُصَلِّين ذلك اليوم، ورقوا وبكوا، وضجَّوا وتضرَّعوا إلى الله تعالى أن يغفر لهم، وبكى الخليفة نفسه معهم واستعاذ بالله من سخطه، إلاَّ أنه وجد في نفسه على (منذر) لغلظ ما قرَّعه به، فشكا ذلك لولده الحَكَم (المستنصر)، وقال: والله، لقد

(١) الدمقس: الحرير.

(٢) يريد (منذر) القاضي منذر بن سعيد البلوطي، و(بُقْس) قُس بن ساعدة. أي بخطيب نظيره في الفصاحة.

(٣) سورة الشعراء: الآيات ١٢٨ إلى ١٣٥.

(٤) سورة التوبة: الآيات ١٠٩ و ١١٠.

تعمدني منذر بخطبته، وما عنى بها غيري، وكاد بعصاه يقرعني. وأقسم لا يُصَلِّي الجمعة وراء منذر، وجعل يلتزم صلاتها، وراء أحمد بن مطرف، أمام المسجد الأعظم في قرطبة، ويجانب الصلاة بجامع الزهراء، حيث يؤم منذر بن سعيد. فقال له الحكم: ما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك، والاستبدال بغيره منه إذ كرهته؟ فقال له الناصر: أمثل منذر بن سعيد، في فضله وخيره وعلمه، يُعزَل لإرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد، هذا ما لا يكون، وإني لأستحي من الله أن لا أجعل بيني وبينه في صلاة الجمعة شفيعاً، مثل منذر في ورعه وصدقه، ولكنه أخرجني فأقسمت. وكوددتُ أني أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، إن شاء الله تعالى، فما أظننا نعتاض منه أبداً. اهـ. فتأمل في عظمة أخلاق هذا الخليفة العظيم، وفي إنصافه من نفسه.

ومكانُ الكتاب يُغريك رِيًّا^(١) وَرِدِهِ غَائِبًا فَتَدْنُو بِلِمَسِ
صَنَعَةَ (الداخل) المَبَارَكِ فِي الْغَرِ بِ وَآلٍ لَهُ مِيَامِينَ شُمْسِ^(٢)

ثم انتهى شوقي من قرطبة، وبدأ بذكر حمراء غرناطة، فقال:

مَنْ لِحَمْرَاءَ جُلَّلْتَ بَغْبَارِ الدِّ هِر كَالجُرْحِ بَيْنِ بُرِّ وَنُكْسِ
كَسْنَا الْبَرْقِ لَوْ مَحَا الضُّوْءُ لِحَظًا لَمَحَّتْهَا الْعِيُونَ مِنْ طَوْلِ قَبْسِ
حِصْنُ غَرْنَاطَةَ وَدَارُ بَنِي الْأَحْ مَرٍ مِنْ غَافِلٍ وَيَقْظَانِ نَدْسِ^(٣)
جَلَّلَ الثَّلْجُ دُونَهَا (رَأْسَ شِيرِي) فَبَدَا مِنْهُ فِي عَصَائِبِ بَرْسِ^(٤)
سَرْمَدٌ شَيْبُهُ وَلَمْ أَرِ شَيْبًا قَبْلَهُ يُرْجَى الْبَقَاءَ وَيُمْسِي
مَشَتْ الْحَادِثَاتُ فِي غَرْفِ الْحَمِ رَاءَ مَشِي النَّعِيِّ فِي دَارِ عُرْسِ
هَتَكْتَ عِزَّةَ الْحِجَابِ وَفَضَّتْ سُدَّةَ الْبَابِ مِنْ سَمِيرٍ وَأُنْسِ
عَرَصَاتٌ تَخَلَّتْ الْخَيْلُ عَنْهَا وَاسْتَرَا حَتَّ مِنْ احْتِرَاسِ وَعَسِ
وَمَغَانٍ عَلَى اللَّيَالِي وَضَاءُ لَمْ تَجِدْ لِلْعَشِيِّ تَكَرَّارَ مَسِ

(١) رِيًّا الورد: عطره.

(٢) الشمس: الأباة.

(٣) الندس: الفهم.

(٤) عصائب برس: أي بيض كالقطن.

لا ترى غيرَ وافدينَ على التا
نقلوا الطرف في نضارة آسِ
وقبابٍ من لا زورِدٍ وتِبْرِ
وخطوطٍ تكفّلت للمعاني

ريخ ساعينَ في خشوعٍ ونكسٍ^(١)
من نقوشٍ وفي عُصارةِ ورُسِ
كالرُبي السُّمِّ بين ظلِّ وشمسِ
ولألفاظها بأزينِ لبسِ

أذكّر بين الكتابات التي قرأتها على جدران الحمراء بالخط المذهب، قصيدة لأبن زمرك من كتاب بني الأحمر.

وترى مجلسَ السباعِ خلاءً
لا (الثريا)^(٢) ولا جوارِي الثريا
مرمرٌ قامت الأسودُ عليه
تنثرُ الماءَ في الحياضِ جُماناً
آخرَ العهدِ بالجزيرةِ كانت
فترها تقولُ رايةُ جيشِ
ومفاتيحُها مقاليدُ مُلكِ
خرجَ القومُ في كتائبِ صُمِّ
ركبوا بالبحارِ نعشاً وكانت

مُفِرَّ القاعِ من ظباءٍ وخُنسِ
يتنزّلنَ فيه أقمارَ إنسِ
كَلَّةُ الظفرِ لِيناتِ المَجَسِّ
يتنزّي على ترائبِ مُلسِ
بعد عركِ من الزمانِ وصرَسِ^(٣)
بادَ بالأمسِ بين أسرٍ وحَسِّ
باعها الوارثُ المُضيعُ ببخسِ
عن حفاظِ كموكبِ الدفنِ خُرْسِ
تحت آبائهم هي العرشِ أمسِ

يقول إن السفن كانت لهم في الآخر نعشاً، كما كانت في الأول عرشاً، فقد جاءوا الأندلس راكبين البحر ففتحوها، ثم أعادهم أعداؤهم ركوباً في البحر لما برحوها.

رُبَّ بانٍ لهادمٍ وجموعِ
إمرأةِ الناسِ هِمَّةٌ لا تأتي
وإذا ما أصابَ بُنيانَ قومِ

لُمُشِتٌ ومحسنٍ لمخسِ
لجبانٍ ولا تستنى لجبِسِ
وهي خُلِقَ فإنَّه وهي أُسِّ

(١) يصف زائري تلك المعاهد، الذين إنما يأتون ليشاهدوا آثار تاريخ ماضٍ:

(٢) الثريا: إحدى ملكات بني الأحمر.

(٣) صرَسَ الزمانُ القومَ: اشتدَّ عليهم.

(٤) الجبِس: الجبان.

بعد أن أشار إلى انقراض مُلك العرب، بوَّهي أخلاقهم، أحبَّ أن يعِظ أبناء وطنه مصر، حتَّى يتبَّهوا ويتجنَّبوا النبوات والغفلات التي بمثلها تضيع الممالك. فقال:

يا دياراً نزلتُ كالخُلدِ ظِلًّا
محسِناتِ الفصولِ لا ناجرٌ فيهِ
لا تحسِّ العيونُ فوق رُبَّها
كُسيَتُ أفرُخي بظِلِّك ريشًا
هم بنو مصر لا الجميلُ لديهم
من لسانِ على ثنائِكَ وقفٌ
حسبهم هذه الطلولُ عِظاتِ
وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما
وجنَى دانيًا وسلسالِ أنسِ
ها بقيظٍ ولا جمادى بقرسِ^(١)
غيرَ حورِ حُوِّ المِراشفِ^(٢) لُغسِ
وربَّا في رُبِّاكِ واشتدَّ غرسي
بمُضاعٍ ولا الصنيعُ بمَنسي
وجنانِ على ولائِكَ حبسِ
من جديدِ على الدهورِ ودرسِ
ضي فقد غابَ عنك وجهُ التَّاسي

قصيدة شوقي في آثار الأقصر

وخطب روزفلت، الرئيس الأسبق للولايات المتحدة، عندما زار الصعيد بالقصيدة التالية:

أيُّها المُنتحي بأسوان داراً
إخْلَعِ النَعْلَ واخْفِضِ الطرفَ واخْشَعِ
قِفْ بتلك القصورِ في اليمِّ غرقى
كعذارى أخفينَ في الماءِ بضاً
مُشْرِفاتِ على الزوالِ وكانت
شابَ من حولها الزمانُ وشابَتِ
رُبَّ نَقشٍ كائِماً نَفْضَ الصا
ودِهانِ كلامِ الزيتِ مرَّتْ
كالثريِّا تريد أن تنقِصًا
لا تحاول من آية الدهر غِصًّا
مُمسِكًا بعضُها من الذعرِ بعضا
سابحاتِ به وأبدينَ بَصًّا
مُشْرِفاتِ على الكواكبِ نَهْضًا
وشبابُ الفنونِ ما زال غِصًّا
نُعُ منه اليدينِ بالأمسِ نَفْضًا
أعصرُ بالسراجِ والزيتِ وُصًّا^(٣)

(١) بقرس: يبارد.

(٢) حُوِّ المِراشفِ: أي سُمُرُ الشفاه.

(٣) وُصًّا: أي وضاء.

حَسُنَتْ صِنْعَةٌ وَطَوَّلًا وَعَرَضًا
لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ نَبْضًا
عَزَمَاتٌ مِنْ عَزْمَةِ الْجِنِّ أَمْضَى

وَخَطُوطٍ كَأَنَّهَا هُدْبُ رَيْمٍ
وَضَحَايَا تَكَادُ تَمْشِي وَتَرَعَى
وَمَحَارِيبٍ كَالْبُرُوجِ بَنَتْهَا
ثُمَّ يَقُولُ:

فَسَكَبْتُ الدَّمُوعَ وَالْحَقَّ يُقْضَى
كَيْفَ سَامَ الْبَلَى كِتَابَكَ فَضًّا
مَنْ يَصُنُّ مَجْدَ قَوْمِهِ صَانَ عَرَضًا
كَانَ حَتَّى عَلَى الْفِرَاعِينَ غَمُضًا
يَا سَمَاءَ الْجَلَالِ لَا صَرْتِ أَرْضًا
وَتَوَلَّتْ عَزَائِمُ الْعِلْمِ مَرْضَى

يَا قِصُورًا نَظَرْتُهَا وَهِيَ تَقْضِي
أَنْتِ سَطْرٌ وَمَجْدٌ مِصْرَ كِتَابٍ
وَأَنَا الْمَحْتَفِي بِتَارِيخِ مِصْرٍ
رُبَّ سِرٍّ بِجَانِبَيْكَ مُزَالٍ
قُلْ لَهَا فِي الدِّعَاءِ لَوْ كَانَ يُجْدِي
حَارَ فَيْكَ الْمَهْنَدِسُونَ عَقُولًا

شوقي يعارض ابن سينا

ولشوقي معارضة لقصيدة الشيخ الرئيس، أبي علي ابن سينا، التي مطلعها:
وَرَقَاءُ ذَاتُ تَعَزُّزٍ وَتَمْنَعِ

هَبَطَتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ

فقال شوقي:

هَذِي الْمَحَاسِنُ مَا خُلِقْنَ لِبُرْقِعِ
سِتْرِ الْجَلَالِ وَبُؤْدُ شَاوِ الْمَطَّلَعِ
زَيْدِيهِ حُسْنِ الْمُحْسِنِ الْمُتَبَرِّعِ

صُمِّي قِنَاعَكَ يَا سَعَادَ أَوْ أَرْفَعِي
الضَّاحِيَاتُ الضَّاحِكَاتُ وَدُونَهَا
يَا دَمِيَّةَ لَا يُسْتَزَادُ جَمَالَهَا

يخاطب النفس فيقول لها تبرّجي أو تستري، فإن محاسنك ما خبقت حتى يسدل فوقها نقاب، فهي محاسن ضاحية ظاهرة، وإن كان متناولها بعيداً، وستر جلالها حاجباً بينها وبين التأمل فيها، إن حسنك ليس عليه من مزيد، أفلا تريد أن تزيد به بالإحسان؟

لِلضَّارِعِينَ وَعِطْفَةٍ لِلخُشَّعِ
إِنَّ الْعُرُوسَ كَثِيرَةَ الْمُتَطَّلَعِ
إِنَّ الْحِجَابَ لِهَيْئِنِ لَمْ يَمْنَعِ

مَاذَا عَلَى سُلْطَانِهِ مِنْ وَقْفَةٍ
بَلْ مَا يَضْرُكُ لَوْ سَمَحَتْ بِجَلْوَةٍ
لَيْسَ الْحِجَابُ لِمَنْ يَعَزُّ مَنْأَلَهُ

يقول: أنتِ تحرصين على حجابك، والحال أنَّ الحجاب أنتِ في غنى عنه، لأنه لا وصال إليك وما كان الحجاب إلا لغير المنيع.

أنتِ التي اتَّخذَ الجمال لعزّه
وهو الصَّنَاعُ يصوغُ كلَّ دقيقةٍ
لمسِّتِكِ راحتُه ومَسِّكِ رُوْحُه
اللَّهَ^(١) في الأحبار من متهالكِ
من كلِّ غاوٍ في طويةٍ راشدٍ
يتوهَّجون ويُطفأون كأنهم
علموا فضايق بهم وشقَّ طريقهم
من مظهرٍ ولسرّه من مَوْضِعٍ
وأدقَّ منك بنانه لم تصنعِ^(٢)
فأتى البديعُ على مثالِ المُبدعِ^(٣)
نضوٍ ومهتوكِ المُسوحِ مصرّعِ
عاصي الظواهر في سريرةٍ طيِّعِ
سُرُجٌ بمعتركِ الرياحِ الأربعِ
والجاهلون على الطريقِ المهيعِ

يقول: إنَّ الأجيال والحكماء هلكوا من العناء في البحث عن حقيقة النفس، ومنهم مَنْ غوى في سبيل الرشاد وعصى وهو يريد الطاعة، وكانوا كلِّما آنسوا نارًا خبت، فهم أبدًا بين وميض وخمود أشبه بمصابيح لعبت بها الرياح، وما كان العلم في هذا المقام إلا ليزيدهم خيالاً. أمَّا العامة الجهلاء فهم سائرون على سواء السبيل، لأنهم مؤمنون متوكِّلون لا يتفلسفون. وهنا يتذكَّر الإنسان قول الفخر الرازي: «اللَّهُمَّ إيمانًا كما إيمان العجائز».

ثمَّ يقول:

ذهبَ ابنُ سينا لم يفز بكِ ساعةٌ
هذا مقامٌ كلُّ عزٍّ دونه
فمحمَّدٌ لكِ والمسيحُ ترَجَّلا
ما بال أحمدِ عيِّ عنكِ بيانه
وتولَّتِ الحكماء لم تتمتعِ
شمسُ النهارِ بمثله لم تطمعِ
وترجَّلتِ شمسُ النهارِ ليوشعَ^(٤)
بل ما لعيسى لم يقلُّ أو يدَّعي

يقال إنَّ شوقي كان قد جعل هذا الشطر (بل ما لعيسى لا يقول ويدَّعي)، فلاحظ عليه بعضهم بأنه لو قال ذلك لكان المعنى ما بال عيسى لا يشرح لنا حقيقة النفس، وهو يدَّعي

(١) يحكم بأن الجمال صناع اليد، وأنه صنع بدائع كثيرة، ولكنَّه لم يصنع أدقَّ وألطف من النفس.

(٢) البديع يأتي بمعنى المُبدع، ومنه قوله تعالى: ﴿بديع السموات والأرض﴾، وهو يأتي أيضًا بمعنى المُبدع كما هو هنا. (المؤلف)

وفي القرآن الكريم صيغٌ كثيرة، يكون فيها (فَعِيل) بمعنى (مفعل)، ومفعولٍ بمعنى (فاعل). [المحقَّق]

(٣) نُصِبَ اسمُ الجلالة «الله» على الاستغاثَة.

(٤) يوشع: أحدُ أنبياء بني إسرائيل، دعا الله أن يؤجِّل له الغروب، فأجابته، وثنى الشمس عن غروبها.

معرفة ذلك، فعاد شوقي وغير ما قاله أولاً وقال: «بل ما لعيسى لم يقل أو يدع»، أي لم يقل عن النفس شيئاً، ولا ادعى أنه قال عن النفس شيئاً.

ولسانُ موسى انحلَّ إلا عقدةً
لما حللتِ بآدم حلَّ الحُبِّي^(١)
وأرى النُّبوةَ في ذراكٍ تكرّمت
وسقتُ قُرَيْشَ على لسانِ محمَّدٍ
ومشتُ بموسى في الظلامِ مشردًا
حتى إذا طويتُ ورثتِ خلالها
من جانبيكِ علاجها لم ينجعِ
ومشى على الملاءِ السجودِ الرُّكعِ
في يوسفٍ وتكلّمت في المرُضعِ
بالبابليّ من البيانِ المُمتعِ
وحدثه في قُللِ الجبالِ اللّمعِ
رُفَعَ الرحيقُ وسِرُّه لم يُرفعِ^(٢)

النيل في شعر شوقي

ولشوقي يخاطب النيل، وجدير بالشاعر الذي أنجبه هذا الوادي، أن يكون له منه خطاب شهير:

من أيّ عهدٍ في القرى تندفقُ
ومن السماء نزلت أمٌ فُجرت من
وبأيّ عينٍ أمٌ بأية مُزنةٍ^(٣)
وبأيّ نولٍ أنت ناسجُ برودةٍ
تسوّدُ ديباجًا إذا فارقتها
في كلّ آونة تُبدّل صِبغةً
تسقي وتطعم لا إناؤك ضائقُ
والماء تسكبه فيسبك عسجدًا
وبأيّ كفٍّ في المدائن تُغدقُ
عليها الجنان جداولاً تترقرقُ
أم أيّ طوفان تفيض وتفهقُ^(٤)
للضفتين جديدها لا يخلقُ
فإذا حضرت اخضوضر الإستبرقُ^(٥)
عجبًا وأنت الصابغ المتأنقُ
بالواردين ولا خوائك^(٦) ينفقُ
والأرض تغرقها فيحیی المغرقُ

(١) أي لما نفخك الله في آدم، استوى قائمًا ومشى يباري الملائكة.

(٢) أي حتى إذا طويتُ وبقيت أنتِ خلالها، رُفعتُ وبقى أثرها كما يبقى أثر الرحيق بعد رفعه.

(٣) المزنة: المطرة.

(٤) تفهق: من فهق الإناء، أي امتلأ حتى صار يتصبّب.

(٥) الاستبرق: الحرير.

(٦) الخوان: المائدة ما دام عليها الطعام.

أخلفت راووقَ الدهور ولم تزل
 حمراءُ في الأحواض إلا أنها
 دينُ الأوائل فيك دينُ مروءة
 لو أن مخلوقًا يؤلّه لم تكن
 جعلوا الهوى لك والوقارَ عبادةً
 دانوا ببحرٍ بالمكارم زاخرٍ
 مُتقيّدٍ بعهوده ووعوده
 يتقبّلُ الوادي الحياةَ كريمةً
 بكَ حَمَاءُ كالمسك لا تترَوِّقُ^(١)
 بيضاءُ في عُنُقِ الثرى تتألَّقُ
 لم لا يؤلّه من يقوتُ ويرزُقُ
 لسواكَ مرتبةُ الألوهة تَخْلُقُ^(٢)
 إنَّ العبادةَ خشيةٌ وتعلُّقُ
 عذبِ المِشَارِعِ مَدُّهُ لا يُلْحَقُ
 يجري على سَنَنِ الوفاءِ ويصدقُ
 من راحتِكَ عميمةٌ تتدفَّقُ

ومهما قيل في النيل فهو قليل، إلا أن شوقي جاء من وصف النيل بما يناسب جلاله وجماله، ولا أظنّ شاعرًا قديمًا ولا حديثًا وصف النيل بمثل هذه الإجادة. ثمّ إنه انتقل من وصف النيل إلى وصف الفراعنة وأهرامهم، فلا نعلم أحدًا جاء بمثل قريه في هذا الباب، فقد قال:

أين الفراعنة الأولى استدرى^(٣) بهم
 الموردون الناسَ منهلَ حكمةٍ
 الرافعونَ إلى الضحى آباءهم
 عيسى ويوسف والكليم^(٤) المصعق^(٥)
 أفضى إليه الأنبياء ليستقوا
 فالشمس أصلهم الرّوضيُّ المَعْرِقُ

منذ وجد الإنسان على الأرض لم يجد في نظره أجلّ وأنفع من الشمس، فلذلك عبدها كثير من بني الإنسان قبل أن جاء الأنبياء، فأخبروهم بأنّ هذه الشمس هي أيضًا مخلوقة، وهي مادّة لا تقدر على شيء بنفسها، وإنما الذي تجب له العبادة هو الذي أوجد الشمس، وسائر الشموس السابحة في الأفلاك ودبرها، وهو وراء المادّة وفوق الطبيعة، وهو العلة الأولى، وهو الأزلى، وهو الأبد، فمنذ جاء الأنبياء، ارتقت عبادة البشر وسَمَت إلى الأفق اللائق بهذه النفس الناطقة، ولكن الأقدمين، من شدّة إجلالهم للشمس جعلوها هي مصدر كلّ شيء ورفعوا إليها أنساب ملوكهم.

(١) تترَوِّقُ: من رَوَّقَ الشراب، أي صفّاه.

(٢) تَخْلُقُ: أي تكون خليفة جديرة.

(٣) استدرى (بفلان): التجأ إليه، واستدرى بالشرح: استظلّ بها.

(٤) الكليم: موسى عليه السلام.

(٥) يقال صعقته السماء وأصعقته.

وكانما بين البلى وقبورهم

عهدٌ على أن لا مساس وموثقٌ

فحجابهم تحت الثرى من هيبةٍ

كحجابهم فوق الثرى لا يُحرقُ

لم يصف أحد الموميا، ولم يمثّل معناها بمثل ما وصفها شوقي. ثمّ يقول:

بلغوا الحقيقة من حياةٍ علمها

حُجُبٌ مكثفةٌ وسِرٌّ مُغلقٌ

وتبينوا معنى الوجود فلم يروا

دون الخلود سعادةً تتحقّقُ

والحقيقة، هي أنهم حاولوا الخلود فلم يقدرُوا عليه، فاعتاضوا منه بتخليد الأجسام،

بعد أن يئسوا من خلود الحياة في هذه الدنيا.

يبنون للدنيا كما تبني لهم

خربًا غرابُ البين فيها ينعقُ

فقصورهم كوخٌ وبيتٌ بداوةٍ

وقبورهم صرْحٌ أشمٌ وجوسقٌ^(١)

رفعوا لها من جندلٍ وصفائحٍ

عمدًا فكانت حائطًا لا يَشْتَقُ^(٢)

ثمّ قال في الأهرام:

ولمَن هياكلٌ قد علا الباني بها

بين الثرى والثرى تتنسّقُ

منها المُشيدُ كالبروج وبعضها

كالطّود مُضطجعٌ أشمٌ مُنطقٌ^(٣)

جُدُدٌ كأول عهدها وحيالها

تتقادمُ الأرضُ الفضاء وتعتقُ

من كلّ ثقلٍ كاهلُ الدنيا به

تعبٌ ووجهُ الأرض عنه ضيقُ

عالٍ على باعِ البلى لا يهتدي

ما يعتلي منه وما يتسلّقُ

متمكّنٌ كالطّود أصلًا في الثرى

والفرعُ في حرمِ السماء مُحلّقُ

هي من بناء الظلم إلا أنه

يبيضُ وجهُ الظلم منه ويُشرقُ

لم يُرهق الأممُ الملوكُ بمثلها

فخرًا لهم يبقى وذكرًا يعبقُ

ثمّ يذكر عادة المصريين القدماء في إلقاء عذراء في النيل كلّ سنة، في يوم مخصوص،

وموسم كانت تحتفل به الفراعنة، فيقول:

(١) جوسق: قصر.

(٢) يشفق: يتزعزع.

(٣) منطق: مرتفع لا يبلغ السحاب رأسه.

ونجيبة بين الطفولة والصبا
كان الزفاف إليك غاية حظها
في كل عام دُرَّةٌ تلقى بلا
حولُ تسائلُ فيه كلُّ نجيبةٍ
والمجدُّ عند الغانياتِ رغبةٌ
حتى إذا بلغت مواكبها المدى
وكسا سماء المهرجان جلاله
وتلقت في اليم كلُّ سفينةٍ
ألت إليك بنفسها ونفيسها
خلعت عليك حياءها وحياتها
وإذا تنهى الحبُّ واتفق الفدى

عذراء تشربها القلوبُ وتعلقُ
والحظُّ إن بلغ النهاية موبقٌ^(١)
ثمن إليك وحرّةٌ لا تُصدّقُ^(٢)
سيقت إليك متى يحولُ فتلحقُ
يُغنى كما يُغنى الجمالُ ويُعشَقُ
وجرى لغايته القضاءُ الأسبقُ
سيفُ المنيّةِ وهو صلتُ يبرقُ
وانثال بالوادي الجموعُ وحدقوا
وأنتك شيقّةٌ حواها شيقُ
أعزُّ من هذين شيءٌ يُنفقُ؟
فالروحُ في باب الضحية أليقُ

ما وصف هذا المشهد الغريب من عبادة النيل، قبل شوقي، شاعر بمثل هذا الوصف الذي بلغ فيه الإحسان مداه الأقصى، وظنّي أنه لن يباريه فيه شاعر آخر. ولقد أبطل الإسلام عادة تقديم بكر كل سنة للنيل، لأن الإسلام لا يعرف عبادة ماء، ولا سماء، ولا بشر، ولا حجر، ولا خشب، ولا شجر، ولا شيء من الأشياء كلها، إنما هو عبادة الواحد الأحد، خالق كل شيء بحكمته، سبحانه وتعالى، عمّا يصفون.

ما العالم السفلي إلا طينة
ما كان فيها للزيادة موضع
منبثة في الأرض تنتظم الثرى
منها الحياة لنا ومنها ضدّها
والزرع سنبله يصيب وحبّه
وتشدُّ بيت النحل فهو مُطنبٌ
أزلية فيه تُضيء وتُفسقُ
والى حماها النقص لا يتطرقُ
وتنال ممّا في السماء وتعلقُ
أبداً نعود لها ومنها نُخلقُ
منها فيخرج ذا وهذا يُفلقُ
وتمدُّ بيت النمل فهو مُروقُ

(١) موبق: مهلك.

(٢) أي لا تعطى صداقها. (المؤلف)

تُصدّق: من أصدّق الرجل المرأة، أي ستم لها صداقها (مهرها). [المحقّق]

وتظلُّ بين قوى الحياةِ جوائلاً
لا تستقرّ دوائلاً لا تُمحقُّ
هي كلمةُ الله القدير وروحه
في الكائنات وسرُّه المُستغلقُ

(الكلمة) بفتح فسكون، وكذلك بكسر فسكون، وكذلك بفتح فكسر، والجمع (كلمات) و(كَلِم) وهو ما ينطق به الإنسان، مفردًا كان أو مركَّبًا. وأمَّا (كلمة الله) فهي خلقه، يقال كلمات الله أي مخلوقاته. وقيل في عيسى، عليه السلام، إنَّه كلمة الله، وفسَّروا ذلك أنه انتفع به وبكلامه، على حدِّ قولهم، سيف الله وأسد الله. وقيل بل لأنَّ الله تعالى خلقه بمجرد كلمة "كن"، من غير أب، أي ألقى الكلمة ثمَّ كوَّنها بشرًا^(١). ومعنى الكلمة معنى الولد، قاله الأزهرى في تفسير قوله تعالى (بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم)، أي يبشرك بولد اسمه المسيح. وقيل كلمة الله بمعنى مشيئته وقدرته، وقيل غير ذلك كما في تاج العروس. والظاهر أنَّ شوقي يريد (بكلمة الله) هنا المادَّة التي خلقها الله وبروحه هذه الحياة التي بثَّها فيها، إلى أن قال:

فتنت عقولَ الأولين فألهوا
من كلِّ شيءٍ ما يروعُ ويخرقُ^(٢)
سجدوا للمخلوقِ وظنوا خالقًا
مَن ذا يُميِّزُ في الظلامِ ويفرقُ

قال إنَّ الناس في القَدَم، فُتِنوا بهذه المادَّة فألهوها، وبدلاً من أن يعبدوا الخالق، عبدوا المخلوق، لأنَّ الإنسان كما أنه لا يميِّز في الظلام لا يميِّز في الصَّلال. ثمَّ قال عن صلال البشر:

يدعونَ خلفَ السترِ آلهةً لهم
ملاؤا الندىَّ جلالهً وتابَّقوا^(٣)
واستحجبوا الكُهَّانَ هذا مُبلغٌ
ما يهتفونَ به وذاك مُصدِّقُ
لا يُسألونَ إذا جرت أفاضهم
من أين للحجرِ اللسانُ الأذلقُ

ثمَّ ذكر مآثر مصر التاريخية، مخاطبًا وادي النيل:

أصلُ الحضارةِ في صعيدك ثابتٌ
ونباتها حَسَنٌ عليك مُخلِّقُ^(٤)
وُلِدَت^(٥) فكنتَ المهْدَ ثمَّ ترعرعت
فأظَّلها منك الحَفِيُّ المُشفِقُ

(١) مصداقًا للقول: "في البدء كان الكلمة".

(٢) يخرق: هنا، بمعنى ما كانوا يرونه من خوارق، وهي أمورٌ تتعدَّى العقل.

(٣) تابَّق: استتر.

(٤) مُخلِّق: مُتطيِّب.

(٥) يعود الضمير في (وُلِدَت) إلى الحضارة.

ملأت ديارك حكمةً ماثورُها
وبنت بيوت العلم باذخة الذرى
واستحدثت ديناً فكان فضائلاً
مهّد السبيل لكل دين بعده
يدعو إلى برٍّ ويرفعُ صالحاً
للناس من أسراره ما علّموا
إلى أن يقول:

وصلاة مريم فوق زرعك لم يزل
وخطى المسيح عليك روحاً طاهراً
وودائع الفاروق^(٢) عندك دينه
بعث الصحابة يحملون من الهدى
فتح الفتوح من الملائك رزق
يبنون لله الكنانة بالقنا

في الصخر والبردي الكريم منبِق^(١)
يسعى لهن مغربٌ ومشرقٌ
وبناء أخلاقٍ يطول ويشهقُ
كالمسك رياه بأخرى تفتقُ
ويعاف ما هو للمروءة مخلقُ
ولشعبة الكهنوت ما هو أعمقُ

يزكو لذكراها النبات ويسمقُ
بركات ربك والنعيم الغيدقُ
ولواؤه وبيانه والمنطقُ
والحق ما يحيي العقول ويفتقُ
فيه ومن (أصحاب بدر)^(٣) رزق^(٤)
والله من حول البناء موفقُ

يذكر فتح الإسلام لوادي النيل. ثمّ ينهي هذه الكلمة التي تاهت على الكلمات،
وجرت من مطارف الحكمة ما يندر في ماضٍ وآتٍ بخطاب للوادي هو هذا:

خلق يودّعه وخلق يطرقُ
خود عرائس خدرهن المهرق^(٥)
أملأه حبّ ليس فيه تملقُ
سنطيرُ عنها وهي عندك ترزقُ

كنف كمعنٍ أو كساحة حاتم^(٥)
وعليك تجلّى من مصونات النهى
لي فيك مدحٌ ليس فيه تكلفُ
مما يحمّلنا الهوى لك أفرخُ

(١) منبِق: مُصنّف.

(٢) الفاروق: لقب عمر بن الخطّاب.

(٣) أصحاب بدر: الذين شهدوا وقعة بدر.

(٤) الرزق: الصّف من الناس.

(٥) معن بن زائدة وحاتم الطائي: كانا من أجواد العرب، فعُرفَ «معن» بالحلم و«حاتم» بالسخاء.

(٦) المهرق: الصحيفة.

وتكادُ فيه بغير عرقٍ تخفقُ
منا ومنك بهم أبرُّ وأرفقُ

تهفو إليهم في الترابِ قلوبنا
تُرجى لهم والله جَلَّ جلاله

يقول لوادي النيل: إنَّ ثنائي عليك ليس فيه تكلف، وحبِّي لك ليس من باب التزلف،
ويكفي أننا نترك عندك أولادنا تُرزق في جوانبك، بعد أن نكون افترقنا عنهم، فإننا نفكرُ
فيهم ولو كنا ترابًا. وما زال شوقي من أبرِّ الناس بأهله ووطنه، ولكنَّه في الآخر مع شدة
حبِّه لوادي النيل، لم يشأ أن يعبد عبادَةَ المصري القديم، فإنَّه مسلم لا يعبد غير الله، فهو
يقول للنيل: أنت المرَجَّى لأولادي وإنَّما الله تعالى من فوقك، هو أبرُّ بهم منِّي ومنك.

كلمة شوقي في الطيران

ولشوقي قصيدة في الطيران والطيارات، نظمها عندما كان أمر الطيارة عجبًا - ولم يزل
عجبًا - وكان الناس لما يألَفوا مثل اليوم هذه الأعجوبة المعدودة من المعجزات العصرية،
فقال شوقي:

مَلَكَ القومُ من الجوّ الزّماما
أسرجوا الرّيح وساموها^(١) اللّجاما
آيةً للعلم آتاهما الأناما

قُم سليمانُ بساطُ الرّيح قاما
حين ضاق البرُّ والبحرُ بهم
صار ما كان لكم معجزةً

ثمَّ يقول:

هل رأيتَ الطيرَ قد زفَّ وحاما
بجناحيه كما رُغت النّعاما
سبحَ الحوتُ بدأ ماءٍ وعاما
طارد النسرُ على الجوّ القطاما^(٢)

رفعوا لولبها فاندفعت
شال بالأذنب كلُّ ورمى
تنبري في زرقِ الأفق كما
بعضها في طلب البعض كما

(١) سامَ فلانًا الأمر: كلّفه وآياه.

(٢) القطامي: الصقر.

إلى أن يقول:

طَلْبَةٌ قَدْ رَامَهَا آبَاؤُنَا
أَسْقَطْتُ (إِيكَار)^(١) فِي تَجْرِبَةٍ
وَابْتِغَاهَا مَنْ رَأَى الدَّهْرَ غَلَامًا
(وَابْنَ فِرْنَانَ) فَمَا اسْطَاعَا قِيَامًا

يشير إلى العباس بن فرناس القرطبي الأندلسي، الذي كان من العلماء، أول من حاول الطيران، وكانت كنيته أبا القاسم، وكان مع علمه بالعلوم الطبيعية أديبًا مشهورًا، عاش في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني، صاحب الأندلس، وقيل إنه أول من ابتنى طائرة وطار بها، ولكنه لم يُحسِن التحيُّل في أمر نزولها، فسقطت به ومات.

فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ أَوْدَى نَفْرٌ
خَلْفَاءُ الرُّسُلِ فِي الْأَرْضِ هُمُ
شَهْدَاءُ الْعِلْمِ أَعْلَاهُمْ مَقَامًا
قَطْرَةٌ مِنْ دَمِهِمْ فِي مَلِكِهِ
يَبْعَثُ اللَّهُ بِهِمْ عَامًا فَعَامًا
ثُمَّ يَقُولُ فِي مَغْزَى الطَّيْرَانِ:
تَمَلُّوا الْمَلِكَ جَمَالًا وَنِظَامًا

رَبِّ إِنْ كَانَتْ لَخَيْرٍ جُعِلَتْ
وَأَنْ اعْتَزَّ بِهَا الشَّرُّ غَدًا
فَأَجْعَلِ الْخَيْرَ بِنَادِيهَا لِيَزَامَا
فَأَمَلًا الْجَوَّ عَلَيْهَا رُجْمًا
فَتَعَالَتْ تُمَطِّرُ الْمَوْتَ الزُّوَامَا
رَحْمَةً مِنْكَ وَعَدْلًا وَانْتِقَامًا

نقول: مع الأسف إنَّ الشرَّ قد اعتزَّ بهذه الطَّيَّاراتِ اعتزازًا، جاء فوق ما كان يخشاه شوقي، وصارت تمطر الموت الزوام، في كلِّ مكان تقع فيه حرب، وصارت عمدة في القتال الحديث، وأخذت الدول التي تزعم أنها تريد نشر المدنية ونصر الإنسانية في العالم، تُطِير من هذه الطَّيَّاراتِ أسرابًا، ترمي منها بالموت الزوام على الضعفاء، الذين لا قبل لهم بمقاومتها، وكثيرًا ما تقتل النساء والأطفال والعاجزين، وتدمر البيوت على رؤوس أصحابها.

وقد تحرك عرق الإنسانية بكثير من رجال السياسة والعلم، وحاولوا حمل جمعية الأمم على اتِّخاذ قرار يمنع القتال بالطَّيَّارات، ففشلوا وإلى الآن لا يزال اعتماد الدول الأكبر على القتال في الجوّ، ونرى الدول يكثر بعضها بعضًا في عدد الطَّيَّارات، التي لا تشتغل معامل الأسلحة بشيء شغلها بها. ثمَّ قال شوقي:

(١) إيكار: إله يوناني ابن دايدالوس، في (الميثولوجيا) حاول الطيران بجناحين من شمع، فسالا من أشعة الشمس، فسقط على ساحل جزيرة عُرفت فيما بعد بجزيرة "إيكاريا".

مُلْكُ هَذَا الْجَوِّ فِي مَنَعَتِهِ
حَسَدُ الْإِنْسَانِ سِرِّيَّهِ بِمَا
دَخَلَ الْعِشَّ عَلَى أَنْسُرِهِ
أَيُّهَا الشَّرِقُ انْتَبِهْ مِنْ غَفْلَةٍ
لَا تَقُولَنَّ عِظَامِي أَنَا
طالما للنجم والطيور استقاما
أوتيا في ذورة العزّ اعتصاما
أترى يَغشى من النجم السّناما؟
مات مَنْ في طرقات السّيلِ ناما
في زمانٍ كان للناس عِصاما

ثمّ قال في إظهار الفرق بين قدرة الخالق والمخلوق:

خالق العصفورِ حَيَّرَ بِهِ
أَفَنُوا النّقْدَيْنِ فِي تَقْلِيدِهِ
أَمَمًا بادوا وما نالوا المُرَامَا
وهو كالدرهم ريسًا وعظاما

ما قاله في توت عنخ آمون

وقال في توت عنخ آمون^(١)، وحضارة مصر القديمة:

درجتُ على الكنزِ القرونُ
خَيْرُ السِّيَوفِ مَضَى الزَمانُ
فِي مَنْزِلِ كُمُحَجَّبِ الْإِلِ
حَتَّى أَتَى الْعِلْمَ الْجَسُوعُ
وَالْعِلْمَ (بَدْرِيٌّ)^(٢) أَحِلَّ
هَتَكَ الْحِجَالَ عَلَى الْحِضَا
وَأَنْدَسَ كَالْمَصْبَاحِ فِي
حُجْرٍ مَمْرَدَةٌ الْمَعَا
لَا تَهْتَدِي الرِّيحُ الْهَبُوعُ
وَأَتَتْ عَلَى الدُّنُ السَّنُونُ
نُ عَلَيْهِ فِي خَيْرِ الْجَفُونِ^(٣)
غَيْبَ اسْتَسَرَّ عَنِ الظَّنُونُ
رَفِضَ خَاتَمَهُ الْمَصُونُ
لَأَهْلِهِ مَا يَصْنَعُونَ
رَةِ وَالخُدُورَ عَلَى الْفَنُونُ
حُفِرَ مِنَ الْأَجْدَاثِ جُونُ^(٤)
قَلِّ فِي الثَّرَى سُمُّ الْحِصُونُ
بُ لَهَا وَلَا الْغَيْثُ الْهَتُونُ

(١) توت عنخ آمون، (القرن ١٤ ق.م): فرعون من السّلالة المصرية.

(٢) الجفون: مفرد ما جفن، وهو غمد السيف.

(٣) يشير إلى ما ورد في الأثر، من أنّ أهل بدر مغفورة لهم ذنوبهم، (إلا الكباثر).

(٤) جُون: سُود [وهي لفظة ضدّ]، أي أنّها تعني أبيض كذلك.

خانت أمانةَ جارها
يا ابنِ الثواقبِ من (رَع)
نسبٌ عريقٌ في الضحى
أرأيتَ كيف يؤوب من
حبِّ الخلودِ بنى لكم
لم يأخذِ المتقدِّمو
حتى تسابقتم إلى الـ
لم تتركوه في الجليـ
هذا القيامُ فقلْ لنا الـ
البعثُ غايةً زائلـ
السبقُ من عاداتِكـ

والقبرُ كالدنيا يخونُ
وابنَ الزواهر من (أمون)
بذَّ القبائلَ والبطونُ
غَمِرِ القضاءِ المُغرَقونُ؟
خُلِقًا به تتفرَّدونُ
نَ به ولا المتأخِّرونُ
إحسانٍ فيما تعملونُ
ل ولا الحقيِر من الشؤونُ
يومُ الأخيرُ متى يكونُ؟
فانِ وأنتم خالِدونُ
أترى القيامةَ تسبقونُ؟

ثمَّ يصف تلك الآثار التي وُجدت تحت الأرض، وإليك أنموذجًا من وصفه:

وبكلِّ رُكنٍ صورة
وترى الدُّمى فتخالها انـ
صورٌ تُريكُ تحرُّكًا
ويمرُّ رائع صمتهـ
صحبَ الزمانَ دهانها
خدعَ العيونَ ولم يزل
غلمانُ قصرِك في الرُّكا
والبوقُ يهتفُ والسها
وكلابُ صيدِك لُهثُ

وبكلِّ زاويةٍ رَقين^(١)
تثرت على جنباتِ زون^(٢)
والأصلُ في الصورِ السكونُ
بالحسِّ كالنطقِ المُبينِ
حينًا عهيدًا بعد حينٍ
حتى تحدى اللامسينُ
بِ يُناولونَ ويطرَدونُ^(٣)
مُ ترنُّ والقوسُ الحنونُ
والخيلُ جنَّ لها جنونُ

(١) الرقین: الرقيم، وهو الكتاب.

(٢) الزون: معرض الأصنام.

(٣) يطرَدون: يزاولون الصيد.

ل وتارة تشبّ^(٤) الحزون
 ح وفي مناقرها أنين
 ة في المدائن محضرون
 س عن شمالك واليمين

الوحش تنفر في السهو
 والطير ترسف في الجرا
 وكان آباء البريّ
 وكان دولة آل شم

قصيدة شوقي في دمشق

ولشوقي قصيدة دمشقية يوم زار دمشق، غير القصيدة الطائفة الصيت التي قالها يوم ضرب تلك الحاضرة بالقنابر:

مشت على الرسم أحدث وأزمان
 رث الصحائف باق منه عنوان
 وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
 فهل سألت سرير الغرب ما كانوا؟
 في كل ناحية ملك وسلطان
 سرى به الهم أو عادته أشجان
 واليوم دمعي على (الفيحاء) هتان^(١)
 ونيرات وأنواء وعقبان
 ولا زهت ببني العباس (بغدان)^(٢)
 هل في المصلّى أو المحراب مروان؟
 على المنابر أحرار وعبدان
 إذا تعالى ولا الأذان آذان

قُم ناجِ جَلِقْ وانشد رسم من بانوا
 هذا الأديم كتاب لا كفاء له
 بنو أمية للأنباء ما فتحوا
 كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم
 عالين كالشمس في أطراف دولتها
 يا ويح قلبي مهما انتاب أرسهم
 بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم
 في الأرض منهم سماوات وألوية
 لولا دمشق لما كانت (طليطلة)
 مررت بالمسجد الحزون أسأله
 تغير المسجد الحزون واختلفت
 فلا الأذان آذان في منارته

(١) فعل (وثب)، لا بُدَّ من أن يتعدى بحرف، ولكن شوقي عداه بلا حرف، على نزع الخافض.

(٢) يريد أن يقول، إنه بكى آثار بني أمية عندما كان بالأندلس، واليوم يبكي آثارهم وهو في دمشق.

(٣) يشير إلى أن فتح الأندلس كان الأصل فيه دمشق، وأن عاصمة بني أمية، هي التي استلحقت عاصمة القوط، ولولا عاصمة بني أمية لما كانت عاصمة بني العباس، الذين انتزعوا منهم الخلافة موحدة. و(بغدان) لغة في بغداد.

الحقيقة، أن الأذان لا يزال كما كان، وإنما اختلف تأثيره في الأذان، وعسى كل شيء يعود إلى أصله.

آمنتُ بالله واستثنيتُ جنَّتهُ دمشقُ رَوْحٌ وجنَّاتُ وريحانُ

عاد فاستثنى دمشق، وقال: آمنت بالله. يقلد الدمشقيين في كلماتهم لأنهم يستعملون هذه الجملة كثيراً في موضع العجب.

قال الرفاقُ وقد هبتُ خمائلُها
جرى وصفقَ يلقانا بها (بردى)
دخلتها وحواشيها زمرُدةٌ
وربوةُ الوادِ في جلبابِ راقصةٍ
والطيرُ تصدحُ من خلفِ العيونِ بها
وأقبلتُ بالنباتِ الأرضُ مختلفاً
وقد صفى (بردى) للريحِ فابتردتُ
ثمَّ انثتُ لم يزل عنها البلالُ^(١) ولا
خَلَّفْتُ (لبنان) جنَّاتِ النعيمِ وما
حتى انحدرتُ إلى فيحاءِ وارقةٍ
نزلتُ فيها بفتيانِ جَحَاجِحَةٍ
بيضِ الأسرَّةِ باقٍ فيهمُ صيدٌ
يا فتيةَ الشامِ شكراً لا انقضاءَ له
خميلةُ الله وسَّتْها يداهُ لكم
شيدوا لها الملكَ وابنوا ركنَ دولتها

الأرضُ دارٌ لها الفيحاءُ بستانُ
كما تلقاكُ دون الحُلْدِ رضوانُ
والشمسُ فوق لُجَيْنِ الماءِ عقيانُ
الساقُ كاسيةٌ والنَّحرُ عُريانُ
وللعيونِ كما للطيرِ ألحانُ
أفواقهُ فهو أصباغٌ وألوانُ
لدى ستورِ حواشيهنَّ أفنانُ
جفَّتْ من الماءِ أذبالٌ وأردانُ
نبئتُ أنَّ طريقَ الحُلْدِ لبنانُ^(٢)
فيها الندى وبها (طيُّ) و(شيانُ)^(٣)
أباؤهم في شبابِ الدهرِ غسانُ
من عبدِ شمسٍ وإن لم تبقَ تيجانُ
لو أنَّ إحسانكم يجزيه شكرانُ
فهل لها قيمٌ منكم وجنَّان^(٤)؟
فالملكُ غرسٌ وتجديدٌ وبُنيانُ

(١) البلال: البلبل.

(٢) أي ظننت أن لبنان هو الجنة، ولكن بعدما أفضت منه إلى دمشق، علمت أنه لم يكن لا طريق الجنة.

(٣) اختص بالذكر من قبائل العرب طياً، التي منها حاتم وشيان، التي يُنسب إليها معن بن زائدة.

(٤) (الجنَّان) بمعنى البستاني، لفظة مولدة، لم نعثر عليها في كتب اللغة، وقد استعملها صاحب نفع الطيب من المتأخرين. (المؤلف)

صاحب كتاب "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب" هو أبو العباس أحمد المقرئ، المتوفى سنة ١٦٣١م. [المحقق]

وَأَنْ يَبِينَ عَلَى الْأَعْمَالِ إِتْقَانُ

الْمَلِكُ أَنْ تَعْمَلُوا مَا اسْطَعْتُمْ عَمَلًا

لِمَطْلَبٍ فِيهِ إِصْلَاحٌ وَعَمْرَانُ

الْمَلِكُ أَنْ تُخْرِجَ الْأَمْوَالَ نَاشِطَةً

أصاب شوقي هنا شاكلة الداء، الذي به انحطّ الشرق وتقهقر العالم الإسلامي، وهو عدم ائتلاف أهلها على الإنفاق على المصالح العامة، بخلاف الأوربيين الذين كان أكبر عوامل نجاحهم وفلاحهم، بذل كل واحد منهم على قدر حالته، في مصلحة الجمهور. ثمّ قال:

الْمَلِكُ أَنْ تَتَلَقَّوْا فِي هَوَى وَطَنِ
تَفَرَّقَتْ فِيهِ أَجْنَاسٌ وَأَدْيَانُ

كنا نتمنى لو عاش شوقي إلى هذا العهد، وشهد انحلال المسئلتين المصرية والسورية، باستقلال كل من القطرين الشقيقتين، فكان لذلك الليل الصّباح غناء يرقص الجماد، كما كان له، من أجل استيلاء الأجانب عليهما نواح يذيه.

حنين شوقي من الأندلس إلى وطنه مصر

ولشوقي قصيدة نظمها وهو في منفاه بالأندلس، أيام الحرب العامة، يحنّ فيها إلى مصر وطنه، ويعارض قصيدة ابن زيدون في ولادة بنت المستكفي^(١)، وهو يخاطب حمام وادي الطلح، الذي بظاهر إشبيلية:

نشجى لواديك أم تأسى لوادينا

يا نائح الطلح أشباه عوادينا

قصت جناحك جالت في حواشينا

ماذا تقص علينا غير أن يدا

أخا الغريب وظلا غير نادينا

رمى بنا البين أيكّا غير سامرنا

من الجناحين عي لا يلبينا

إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصّع

إنّ المصائب يجمعن المصابينا

فإن يك الجنس يا ابن الطلح فرقنا

وأكثر أبيات هذه القصيدة شبهاً بقصيدة ابن زيدون، وهي التي تلي:

ومن مصون هواهم في تناجينا

يا من نغار عليهم من ضمائرنا

عن الدلال عليكم في أمانينا

ناب الحنين إليكم في خواطرنا

(١) ولادة بنت المستكفي، (المتوفى عام ١٠٩١م). شاعرة أندلسية من بيت الخلافة، اشتهرت بأخبارها مع الوزين (ابن زيدون) و(ابن عبدوس).

جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
وما غلبنا على دمعٍ ولا جلدٍ
ونابغي كأن الحشرَ آخره
نطوي دُجَاهُ بجرْحٍ من فراقِكُمُ
إذا رسا النجمُ لم ترقاً محاجرُنَا

في النائباتِ فلم يأخذ بأيدينا
حتى أتتنا نواكم من صياصينا^(١)
تُميتنا فيه ذكراكم وتُحيينا
يكاد في غلَسِ الأسحارِ يطوينا
حتى يزولَ ولم تهدأ تراقينا

المكتب في شعر شوقي

وما أطف كلمات شوقي، وصفه حياة المكتب، وكيف يتدرج الناشئ في أطوار الحياة:

ألا حبذا صُحبةُ المكتبِ
ويا حبذا صِبيَّةُ يمرحون
كأنهم بسَماتِ الحياةِ
يُراحُ ويُغدى بهم كالقطيعِ
إلى مرتعِ ألفوا غيره
ومستقبلٍ من قيود الحياةِ
فِراخُ بأيكِ فمن ناهضِ
مقاعدهم من جناح الزمانِ
عصافيرُ عند تهجِّي الدروسِ
خليّون من تبعاتِ الحياةِ
جنونُ الحدائثِ من حولهم
عدا فاستبدَّ بعقلِ الصبيِّ
لهم جرسٌ مطربٌ في السراحِ

وأحبُّ بأيامه أحبِّ
عنانُ الحياةِ عليهم صبي
وأنفاسُ ريحانها الطيبِ
على مشرقِ الشمسِ أو مغربِ
وراعِ غريبِ العصا أجنبي
شديدٍ على النفسِ مُستصعبِ
يرُوضُ الجناحَ ومن أزغبِ
وما علموا خطرَ المركبِ
مِهَارُ^(٢) عراييدُ^(٣) في الملعبِ
على الأمِّ يلقونها والأبِ
تضيقُ به سعةُ المذهبِ
وأعدى المؤدبِ حتى صبي
وليس إذا جدَّ بالمطربِ

(١) الصياصي: الحصون العالية، وكل ما امتنع به.

(٢) المهارة: مفردا مهر، وهو ولد الفرس.

(٣) عراييد: مفردا عرييد، وهو الكثير العريدة، وهي هنا الشدة في الشيء.

إلى أن يقول:

قطيع يُزَجِّيه راعٍ من الده
أهابت هِراوته بالرفاق
وصرَّفَ قطعانهُ فاستبدَّ
أرادَ لمن شاءَ رَعِي الجديبِ
ورَوَى على رِيها الناهلات
وَألقى رقابًا إلى الضاريين
وليس يبالي رضا المستريحِ
وليس بمُبْقٍ على الحاضرين
مر ليس بليِّن ولا صُلْبِ
ونادت على الحِيَدِ الهُرْبِ
ولم يخشَ شيئًا ولم يرهَبِ
وأنزلَ مَنْ شاءَ بالمُخْصِبِ
ورَدَّ الظمَاءَ فلم تشرَبِ
وضنَّ بأخرى فلم تُضْرَبِ
ولا صَجَرَ الناقمِ المُتَعَبِ
وليس بياكٍ على الغُيْبِ

ثمَّ ذكر دخول الإنسان في دور الكهولة بعد أن ودَّع الشباب:

حياةٌ يغامرُ فيها امرؤُ
وصارَ إلى الفاقة ابنُ الغنى
وقد ذهب الممتلي صحَّةً
وكَمَّ مُنجِبٍ في تلقي الدروس
وغابَ الرفاقُ كأنَّ لم يكن
إلى أن فنوا ثلَّةً ثلَّةً
تسلَّحَ بالناب والمِخْلَبِ
ولاقي الغنى ولدُ المثربِ
وصحَّ السقيمُ فلم يذهبِ
تلقى الحياة فلم يُنجِبِ
بهم لك عهدٌ ولم تَصْحَبِ
فناءَ السرابِ على السَّبَسبِ

إذا وضعتَ هذا الشعر في شعر المتنبي لم تفرِّقه عنه. وما زال شوقي أشبه الشعراء المحدثين بأبيه أبي الطَّيِّب، لا سيَّما إذا طرق باب الحكمة وتكلَّم في الأوابد.

كلمة شوقي عن لبنان

ولشوقي قصيدة عن لبنان، من جملتها هذه الأبيات:

لبنانُ والخُلْدُ اختراعُ الله لم
هو ذروةٌ في الحُسنِ غيرَ مَرومةِ
يوسمُ بأزِينَ منهما ملكوتهُ
وذرى البراعةِ والحجى بيروتُهُ

هَامُ السَّحَابِ عَرُوشُهُ وَتَخَوْتُهُ
 إِلَّا لَهُ سُبُحَاتُهُ وَسُمُوتُهُ
 فِي السُّؤْدَدِ الْعَالِيِ لَهُ وَنَعْوَتُهُ
 وَشِثَاوُهُ يَبْدُ الْقَرَى جَبْرُوتُهُ
 وَالذِّمْنُ مِنْ عَطَلِ النَّحُورِ مُرُوتُهُ^(١)
 مَسْكُ الْوَهَادِ فَتَيْقُهُ وَفَتَيْتُهُ
 وَكَأَنَّ أَحْلَامَ الْكَعَابِ بِيوتُهُ
 بَسْرُ السَّرُورِ يَجُودُهُ وَيَقُوتُهُ^(٢)
 وَكَأَنَّ أَقْرَاطَ الْوَلَائِدِ توتُهُ
 صَوْتُ الْعَتَابِ ظَهُورُهُ وَخَفُوتُهُ
 وَصَحُّ الْعُرُوسِ تُبَيْتُهُ وَتُصَيْتُهُ^(٣)

مَلِكُ الْهَضَابِ السُّمُّ سَلْطَانُ الرَّبِي
 سِينَاءُ شَاطِرُهُ الْجَلَالُ فَلَا يَرَى
 وَالْأَبْلَقُ الْفَرْدُ انْتَهتْ أوصَافُهُ
 جَبَلٌ عَلَى آذَارِ يَزْرِي صَيْفُهُ
 أَبهى مِنْ الْوَشِيِّ الْكَرِيمِ مَرُوجُهُ
 يَغْشَى رَوَابِيَهُ عَلَى كَافُورِهَا
 وَكَأَنَّ أَيَّامَ الشَّبَابِ رَبُوعُهُ
 وَكَأَنَّ رِيْعَانَ الصُّبَا رِيْحَانُهُ
 وَكَأَنَّ أَثْدَاءَ النَّوَاهِدِ تِينُهُ
 وَكَأَنَّ هَمْسَ الْقَاعِ فِي أُذُنِ الصِّفَا
 وَكَأَنَّ مَاءَهُمَا وَجَرَسَ لُجَيْنِهِ

يظهر من البيتين الأخيرين، أن شوقي استلطف وادي عين زحلة^(٤)، وهناك نبعان: أحدهما يقال له نبع القاعة، والآخر نبع الصفا، والمسافة بينهما قصيرة، يجتمعان فيسيل منهما نهر الصفا الذي ينحدر إلى البحر عند الدامور. وقد عبّر شوقي عن القاعة بالقاع، وليس كذلك بل هو بالتاء، والقاع في اللغة هو الأرض السهلة المطمئنة ولا محلّ له هنا، وإنما سُمّيَ أحد هذين النبعين بنبع القاعة، لأنه يخرج من مغارة تراها كأنها منحوتة، باليد فأطلقوا عليها اسم القاعة التي هي البهو عند أهل الشام، وهكذا يُسمّى أهل الجبل هذا الكهف.

كلمة شوقي عن حرية المرأة

ولشوقي شعر في حفلة نسائية عظيمة، انعقدت تحت رئاسة السيّدة هدى شعراوي:
 قُلْ لِلرِّجَالِ طَفَى الْأَسِيرِ طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطِيرُ

(١) المُرُوت: مفرد ما مرّت، وهي المفازة بلا نبات.

(٢) يقوته: يُطعمُهُ من قُوت.

(٣) تُصَيْتُهُ: تجعله يُصَوِّت.

(٤) لعلّ الكاتب أراد (عين زحلته) لأنّ التَّبَعِينَ، اللذين ذكرهما، هما فيها.

أوهى جناحيه الحديد	مُدَّ وَحَزَّ سَاقِيهِ الْحَرِيرُ
ذهب الحجابُ بصبره	وَأَطَالَ حَيْرَتَهُ السَّفُورُ
هل هيئتِ درجُ السما	ءِ لِهْ وَهَلْ نَصَّ الْأَثِيرُ؟
وهل استمرَّ به الجنا	حُ وَهَمَّ بِالنَهْضِ الشَّكِيرُ؟ ^(١)
وسما لمنزله من الد	نِيَا وَمَنْزَلُهُ خَطِيرُ
ومتى تُسأسُ به الريا	ضُ كَمَا تُسَاسُ بِهِ الْوَكُورُ؟
أو كلَّ ما عند الرجا	لْ لِهْ الْخَوَاطِبُ وَالْمَهُورُ؟
والسجنُ في الأكواخ أو	سَجْنٌ يُقَالُ لَهُ الْقَصُورُ
تالله لو أنَّ الأد	يَمَ جَمِيعَهُ رَوْضٌ وَنُورُ
في كلِّ ظلِّ رِبوةٌ	وَبِكُلِّ وَاَرْفَةِ غَدِيرُ
وعليه من ذهبِ سيا	جُ أَوْ مِنَ الْيَاقُوتِ سِوَرُ
ما تمَّ من دون السما	ءِ لِهْ عَلَى الْأَرْضِ الْحُبُورُ
إنَّ السماءَ جديرةٌ	بِالطَّيْرِ وَهُوَ بِهَا جَدِيرُ
هي سرجُه المشدود وه	وَعَلَى أَعْنَتِهَا أَمِيرُ
حرية خُلِقَ الإنسا	ثُ لَهَا كَمَا خُلِقَ الذُّكُورُ

نعم، وكلَّ من هاتين الحرَّيتين، لا يجوز أن تكون مُطلقة كما يتوهم البعض، بل يجب أن تكون مقيدة بقيود الشرع، وإلَّا فسدَّ المجتمع وانتشرت الإباحة، وهذا التقيّد بقيود الشرع لا يعني أسر المرأة ولا قصرها في الحجال، غير مشتركة في الحياة العامة. ثمَّ يخاطب قاسم بك أمين، رحمه الله، فيقول له:

يا قاسم انظر كيف سا	رَ الْفِكْرُ وَانْتَقَلَ الشُّعُورُ
جابت قضيتك البلا	دَ كَأَنَّهَا مِثْلُ يَسِيرُ
ما الناسُ إلاَّ أوَّلُ	يَمْضِي فَيُخَلِّفُهُ الْأَخِيرُ

(١) الشكير: صفار الريش بين كباره.

موشح أندلسي لشوقي

ولشوقي موشح أندلسي، في عبد الرحمن الداخل، الذي لقبه أبو جعفر المنصور، وهو
عدوه، بصقر قريش:

مَنْ لِنِضْوٍ يَتَنَزَّى أَلْمَا
حَنَّ لِلْبِنَانِ وَنَاجَى الْعَلْمَا
بَلْبَلٌ عِلْمُهُ الْبَيْنُ الْبَيَانُ
فِي سَمَاءِ اللَّيْلِ مَخْلُوعُ الْعِنَانُ
كَلَّمَا اسْتَوْحَشَ فِي ظِلِّ الْجِنَانِ
ارْتَدَى بُرْنَسَهُ وَالتَّثْمَا
وَيُرَى ذَا حَدَبٍ إِنْ جَثْمَا

بَرَّحَ الشُّوقُ بِهِ فِي الْغَلَسِ
أَيْنَ شَرْقِ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَلَسِ
بَاتَ فِي حَبْلِ الشُّجُونِ ارْتَبَكَا
ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَيْهِ شَبَكَا
جُنَّ فَاسْتَضْحَكَ مِنْ حَيْثُ بَكَى
وَخَطَا خَطْوَةَ شَيْخِ مُرْعَسِ^(١)
فَإِنْ ارْتَدَّ بَدَا ذَا قَعَسِ^(٢)

ثمَّ يقول:

يَا شَبَابَ الشَّرْقِ عَنَوَانَ الشَّبَابِ
حَسْبُكُمْ فِي الْكُرْمِ الْمُحَضِّ اللَّبَابِ
فِي كِتَابِ الْفَخْرِ (لِلدَّخْلِ) بَابُ
فِي الشَّمُوسِ الزُّهْرِ بِالشَّامِ انْتَمَى
قَعَدَ الشَّرْقُ عَلَيْهِمْ مَاتَمَا

ثَمَرَاتِ الْحَسْبِ الزَّاكِي النَّمِيرُ
سِيرَةٌ تَبْقَى بَقَاءَ ابْنِي سَمِيرِ^(٣)
لَمْ يَلِجْهُ مِنْ بَنِي الْمَلِكِ أَمِيرُ
وَنَمَى الْأَقْمَارَ بِالْأُنْدَلَسِ
وَانْتَشَى الْغَرْبُ بِهِمْ فِي عُرْسِ

ثمَّ أخذ يسوق قصَّة بني أمية مع بني العباس، وكيف ثارت بين العائلتين الثارات إلى
أن تغلبت العباسية على الأموية، وأخذ بنو العباس يقتلونهم في كلِّ سهل وجبل. فقال:

جُزِيَتْ مِرْوَانَ عَنْ آبَائِهَا
وَمِنَ النَّفْسِ وَمِنْ أَهْوَائِهَا
مَا أَرَاقُوا مِنْ دَمَاءٍ وَدَمُوعُ
مَا يُوَدِّيهِ عَنِ الْأَصْلِ الْفُرُوعُ

(١) المُرْعَس: من رَعَسَ الرَّجُلُ، إِذَا مَشَى مَشْيًا ضَعِيفًا مِنَ الْإِعْيَاءِ.

(٢) الْقَعَس: ضَدُّ الْحَدَبِ، وَهُوَ تَنَوُّ الصَّدْرِ.

(٣) (ابْنِي سَمِير): اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ.

وتغطت بالمصاليب الجذوعُ

حاصدَ السيفِ وبيءَ المحبسِ

همسَ الشاني وما لم يهمسِ

خلتِ الأعوادُ من أسمائها

ظلمتُ حتى أصابتَ أظلمًا

فطِنًا في دعوة الآلِ لَمَّا

قال إنَّ الظالمين من بني أمية وأعوانهم: كيزيد بن معاوية، والحجاج بن يوسف، وغيرهما، قد كانوا السبب فيما لقيه أعقابهم من ظالمين مثلهم من بني العباس وأعوانهم: كأبي العباس السفاح، وأبي مسلم الخراساني وغيرهما، وما ظالم إلا سيئلي بأظلم. ثم ذكر كيف نجا عبد الرحمن بن معاوية سبجًا بالفرات، ومعه أخوه وهو ولد، فبعد أن خاض الولد وراء أخيه في الماء غلب عليه الخوف، وناداه الجند من عن الشاطئ، ليعود وله الأمان، فانخدع بقولهم فرجع فقتلوه، وأخوه عبد الرحمن يرى قتله بعينه من الشاطئ الآخر. قال شوقي:

حدثُ خاض الغمارَ ابنُ ثمانُ

فكأنَّ الموجَ من جندِ الزمانُ

صائحٌ صاحَ به: نلتَ الأمانُ

شاةً اغترتْ بعهدِ الأطلسِ^(١)

وقلوبُ الجندِ كالصخرِ القسي

صحبَ الداخلَ من أخوته

غلبَ الموجُ على قوتهِ

وإذا بالشط من شقوتهِ

فانشى منخدعًا مستسلمًا

خضبَ الجندُ به الأرضَ دمًا

ثم أتى على قصة عبد الرحمن، ونجاته، وانسلاله إلى المغرب واختفائه، ثم إجازته إلى الأندلس وغلبته على تلك الأرض، بعد أن لقي من الأهوال ما تشيب له ذواتب الأطفال، وكيف صبر، وآل به الصبر الجميل إلى الملك، فاستخرج شوقي العبرة اللازمة. ولم يزل في الحكم والمواعظ، الشاعر الذي لا يسق له غبار ولا يصطلى له بنار.

أو إذا شئتَ حياةَ فالرجا

إن هي اشتدت وأملُ فرجا

لم يكن يأملُ منها مخرجا

فمضى من غده لم يئسِ

أبعدَ الغمرِ وأقصى اليبسِ

أيها اليائسُ متُ قبل المماتِ

لا يضيقُ ذرعكُ عند الأزماتِ

ذلكَ الداخلُ لاقى مظلماتِ

قد تولّى عزُّه وانصرما

رام بالمغربِ ملكًا فرمى

نعم، كان عبد الرحمن بن معاوية، من أفحل رجال الإسلام في عقله، وتدييره، وصبره، وشدة بأسه، ولكن كان وراءه عظمة اسم بني أمية. ذكر صاحب "أخبار مجموعة" في فتح الأندلس وذكر أمرائها، وهو أقدم تاريخ عربي لها، أنه لما وصلت رسل عبد الرحمن ابن معاوية، إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري، أمير الأندلس، يلتمس منه تمكينه من الإجازة إلى الأندلس والسكن بها، كان أجمع في البداية أن يسمح له بدخولها، وانصرف الرسل، وقد حصلوا على هذا الوعد، ثم ما ساروا أكثر من ساعة حتى سمعوا صائحاً يصيح خلفهم ليتوقفوا، فإذا الصميل بن حاتم بن شمر بن ذي الجوشن، الذي كان بمقام الوزير عند الأمير يوسف الفهري، يقول لهم: كنا قد أجبنا دعوة ابن معاوية، ولكننا رويناً في هذا الأمر، فوجدنا أن عبد الرحمن بن معاوية هو من قوم، لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، إن أول سيف يسلّ عليه هو سيفي. وهكذا انقطع رجاء جماعة عبد الرحمن من ربيعة ومُضَر في نصرته، وإنما استمالوا اليمانية لما كان في صدورهم من الأحقاد على المضرية.

قال في "أخبار مجموعة" نقلاً عن رسل عبد الرحمن: فألفينا قوماً وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم، ورغبوا في عقد بني أمية بالأندلس. ثم ساق القصة إلى آخرها. وخلصتها، أن عبد الرحمن بن معاوية لم يتمكن من الأندلس إلا بواسطة عداوة اليمانية للمضرية، الذين كانوا جماعة يوسف الفهري، وكان اسم بني أمية ملياً بأن ينهض به مهما كان مهيض الجناح، على أن عبد الرحمن كان جامعاً بين الاسم والفعل.

أبيات شوقي عن زحلة من لبنان

ولشوقي قصيدة يصف بها زحلة من لبنان، لا نحب أن نختم هذا الكتاب بغير ذكر بعض أبياتها الرشيقة:

سَيِّغَتْ أَحْلَامِي بِقَلْبِ بَاكِ ولمحتُ من طُرق الملاحِ شباكي

ومنها:

بِئْسَ البَقَاعُ وَأُمَّمٌ بِرَدُونِيَّهَا^(١) طيبي كجَلَّقَ واسكبي بَرَدَاك

(١) البردوني: هو نهر زحلة.

أَفِيَتْ سِدَّةٌ عَدْنِهِنَّ رَبُّكَ
لَتَهْلَلُ الْفَرْدَوْسُ ثُمَّ نَمَاكَ
لِمَ يَا زُحَيْلَةُ لَا يَكُونُ أَبَاكَ؟

ودمشق جنات النعيم وإنما
قسماً لو انتمت الجداول والرُّبى
مرآكٍ مرآه وعينك عينه
ثمَّ يقول:

في العاجِ من أيِّ الشعابِ أتاكِ
صنَّينُ والحرمونُ فاحتضناكِ

يمشي إليك اللَّحْظُ في الديباجِ أو
ضمت ذراعَيْها الطَّيْبَةَ رِقَّةً

جبل صنَّين من أعلى قمم لبنان، وهو مطلق على زحلة من الغرب، والحرمون، هو جبل الشيخ الذي قمته تعلو عن البحر ثلاثة آلاف وخمسمائة متر، وهو يقابل زحلة من جهة الشرق وبينهما سهل البقاع. ثمَّ يقول:

تحت السماء من البلاد فداكِ
أرضاً تمخَّضُ بالشموسِ سواكِ

شرفاً عروس الأرز كلَّ خريدةٍ
أدباوك الزُّهْرُ الشُّمُوسِ ولا أرى

كلام شوقي عن استقلال سورية وذكرى شهدائها، وأولهم يوسف العظمة

وله قصيدة عن استقلال سورية وذكرى شهدائها، جاء فيها:

لأهلِ الواجبِ ادَّخَرَ الكمالاً^(١)
ولو عاً بالصغائرِ واشتغالا
ولكن أنعمَ الأحياءِ بالآلا
وإن قالوا فأكرمهم مقالا
دماً حرّاً وأبناءً ومالا
أهابَ بدمعه شجنٌ فسالا
وأضحى اليوم بالشهداء غالى
أكانَ السلمُ أمْ كانَ القتالا

كأنَّ الله إذ قسمَ المعالي
ترى جدّاً ولست ترى عليهم
وليسوا أرغداً الأحياءِ عيسا
إذا فعلوا فخيرُ الناسِ فعلاً
وإن سألتهمُ الأوطانُ أعطوا
بني البلدِ الشقيقِ عزاءِ جارِ
قضى بالأمسِ للأبطالِ حقاً
يُعظَّمُ كلَّ جهدٍ عبقرِيٍّ

(١) هذه الصفات التي ذكرها شوقي، خص بها بني معروف، أمّا الرسول الذي أعطاه الكتاب، فكان أرسله كل من سلطان باشا الأطرش والأمير عادل أرسلان إلى شوقي.

ذكرت المهرجانَ وقد تجلّى
تسلّل في الزحامِ إليّ نضوءُ
رسولِ الصابرينِ ألمّ وهنّا
دنا منّي فناولني كتابًا
وجدتُ دمُ الأسودِ عليه مسكًا
كأنّ أساميَ الأبطالِ فيه
رواةُ قصائدي قد رتلوها
ثمّ يقول:

ووفدَ المشرقينِ وقد توالى
من الأحرارِ تحسبُهُ خيالًا
وبلّغني التحيّةَ والسؤالًا
أحسّت راحتيّ له جلالًا
وكان الأصلُ في المسكِ الغزالي
حواميمٌ على رِقِّ تتالي
وغنّوها الأسنّةَ والنصلا

سأذكرُ ما حيثُ جدارَ قبرِ
مُقيمٍ ما أقامت (ميسلونُ)
تغيبُ عظمةَ العظمتِ فيه

بظاهرِ جلقِ ركبِ الرمالا
يذكُرُ مصرعُ الأسدِ الشبالا
وأولُ سيّدِ لقيّ النبالا

يذكر يوسف بك العظمة، قائد الجيش السوري، الذي استشهد في وقعة ميسلون، ثمّ يقول عنه:

أقام نهاره يلقى ويلقى
فكفّن بالصوارمِ والعوالي
إذا مرّت به الأجيال تترى

فلما زال قرصُ الشمسِ زالا
وغيبَ حيثُ جالَ وحيثُ صالا
سمعتَ لها أزيزًا وابتهاالا

كلمة شوقي عن تمثال نهضة مصر

وله في تمثال نهضة مصر:

جعلتُ حُلاها وتمثالها
وأرسلتها في سماء الخيال
وإني لغريدُ هذي البطاح
ترى مصرَ كعبةَ أشعاره

عيونَ القوافي وأمثالها
تجرُّ على النجمِ أذيالها
تغذّي جناها وسلسالها
وكلّ مُعلّقةٍ قالها

وتلمحُ بين بيوتِ القصيد

حجالَ العروس وأحجالها^(١)

أدارَ النسيبَ إلى حبّها

وولّى المدائحَ إجلالها

لم يخالف شوقي طريقته في التيه بشعره، على نسق المتنبي، الذي كان تيّاهًا بعبقريته، وليس هذا بوجه الشبه الوحيد بينهما. ثمّ قال:

فؤاد ارفعِ السُّترَ عن نهضةِ

تقدّم جدُّك أبطالها

ورُبَّ امرئٍ لم تلذّه البلادُ

نماها ونبّه أنسالها

وليس اللالكئُ ملكَ البحور

ولكنّها ملكٌ من نالها

وما كعليّ ولا جيله

إذا عرضت مصرُ أجيالها

بنوا دولةً من بنات الأسنَد

ة لم يشهد النيل أمثالها

يقول إنّ محمّد عليّ، وإن لم يكن مصريًا في نسبه، فقد أسّس لمصر دولة لم يشهد وادي النيل مثلها.

قصيدة شوقي في عيدهِ الخمسيني

ولمّا احتفلَ بعيدِ شوقي الخمسيني سنة ١٩٢٧، وأنشد الشعراء في ذلك المحفل العظيم، القصائد التي شرّقتُ وغرّبتُ، أجابهم عليها بهذه القصيدة التي نأخذ من أبياتها ما نجعله مسك الختام لهذا الكتاب، الذي أهديناه إلى روحه العبقريّة، وإلى عشاق شعره من أبناء العربية. قال:

مرحبًا بالربيعِ في ريعانهِ

وبأنواره وطيبِ زمانهِ

رقتُ الأرضُ في مواكبِ آذا

رَ وشطّ الزمانُ في مهرجانهِ

ومضى في وصفِ الربيعِ إلى أن قال:

نغمٌ في السماءِ والأرضِ شتّى

من معاني الربيعِ أو ألحانهِ

أين نورُ الربيعِ من زهرِ الشع

ر إذا ما استوى على أفنانهِ؟

(١) الحجال: مفردهما حَجَلَة، وهي بيت العروس، والأحجال: الخلاخيل.

سرمدُ الحُسنِ والبِشاشَةِ مَهما
حَسَنٌ في أوانِهِ كلُّ شَيءٍ
مَلِكٌ ظِلُّهُ على رِبوَةِ الخُدِّ
أمرَ اللهُ بالِحَقِيقَةِ والحِكمِ
لَم تُشرْ أُمَّةٌ إلى الحَقِّ إلاَّ
تَلتمسَهُ تجدُهُ في إِبَانِهِ
وَجَمالُ القَريضِ بَعدَ أوانِهِ
دُ وكرسيُّهُ على خَلِجانِهِ
مَمةٌ فَالتَفَّتَا على صَوَلِجانِهِ
بُهَدَى السُّعْرِ أو خُطى سَيطانِهِ

وكان لا بُدَّ لشوقي من ذكر ملك البلاد، في حفلة عيدهِ هذا، فقال:

ظَلَلتني عَنايَةٌ من (فؤادِ)
ورعاني رَعى الإلهُ له (الفا
ظَلَّل اللهُ عَرشَهُ بأمانِهِ
رُوقَ) طِفلاً ويومَ مَرجوِّ شانِهِ

وقد وصل الفاروق إلى اليوم الذي أشار إليه شوقي، بعد تسع سنوات من قوله هذا، وبويعَ الفاروق ملكاً على مصر والسودان، موفّقاً منصوراً، إن شاء اللهُ، وزاد تيمُّنُ الناسِ به، نيل وادي النيل استقلاله التام لدى استهلال ملكه.

ثمَّ ذَكَرَ سَعَدَ زَغلُولَ، فقال:

مَنبِرَ الحَقِّ في أمانَةٍ (سَعَدِ)
لَم يَرِ الشَرقُ دَاعيًّا مِثْلَ سَعَدِ
وَقِوامُ الأُمورِ في مِيزانِهِ
رَجَّةٌ من بَطاِحِهِ ورِعانِهِ^(١)

ثمَّ يَذكَرُ عَيدَهُ الَّذي تَداعى إِلَيهِ الشُعراءُ، فقال:

يا عَكاظًا تَأَلَّفَ الشَرقُ فيهِ
حَمَلتُ مَصرُ دُونَهُ هِيكَلَ الدِ
وُطِدَتَ فيكَ من دَعائِمِها الفِصحى
إِنَّمَا أنتَ حَلِيبَةٌ لَم يُسَخَّرِ
تَتبارى أَصائِلُ الشامِ فيهِها
مَوكِبُ السُّعْرِ حَرَكَ المَتنَبِّي
من فِلسطِينِهِ إلى بَغانِهِ
بِينَ وِروحِ البِيانِ من فِرقانِهِ
وُشدَّ البِيانُ من أركانِهِ
مِثْلُها لِلكلامِ يَومَ رِهانِهِ
والمِذاكِي العِتاَقُ^(٢) من لَبانِهِ
في ثِراءٍ وَهَزٍّ من حِسانِهِ^(٣)

(١) الرُّعان: رؤوس الجبال.

(٢) المِذاكِي العِتاَق: من صفات الخيول الأصيلة، وأراد بها أقطاب الأدب في لبنان.

(٣) حِسانه: هو الشاعر المخضرم حسان بن ثابت، شاعر الرسول (صلعم).

قد عرفنا بنجمه كل أفق
لست أنسى يداً لأخوانِ صدقِ
رُبَّ سامي البيان نَبَّهَ شاني
كان بالسبقِ والميادينِ أولى

واستبنا الكتابَ من عنوانه
منحوني جزاءَ ما لم أعانه
أنا أسمو إلى نباهة شأنه
لو جرى الحظُّ في سِواءِ عنانه

يريد أن يقول من باب التواضع، إنه كان في الشعراء، مَنْ هو أولى منه بالسبق في هذا الميدان، ولكنه هو نهض بحظه ففات غيره، لا بفضل على غيره.

إنما أظهروا يدَ الله عندي
ما الرحيقُ الذي يذوقون من كَرِّ
وهبوني الحمامَ لذة سَجْعِ
وَتَرِّ في اللِّهامةِ ما للمُغني

وأذاعوا الجميل من إحسانه
مي وإن عشتُ طائفاً بدنانه
أين فضلُ الحمام في تحنانه؟
من يدٍ في صفائه وليانه

ثمَّ قال، وهي نزعة شرقية لم تفارقه طول حياته، كنا نودُّ أن تكون عند كلِّ مصري وكلِّ شرقيٍّ وعند كلِّ عربيٍّ بخاصة.

كان شعري الغناء في فرح الشر
قد قضى الله أن يؤلِّفنا الجرَّ
كلِّما أنَّ بالعراقِ جريحُ
وعلينا كما عليكم حديدُ
نحن في الفكرِ بالديارِ سِواءُ

قِ وكان العزاء في أحزانه
حُ وأن نلتقي على أشجانه
لمسَ الشرقُ جنبه في عمانه
تتنزى الليوث في قضبانه
كلُّنا مُشفقٌ على أوطانه



خاتمة الكتاب

ولقد فككتنا، والله الحمد، هذه القيود، وبهذا ختمنا هذا الكتاب، الذي كان ذمّة عليّ لأخ رعيته ورعاني مدّة أربعين سنة، ولشاعر عظيم بايعناه جميعاً بإمارة الشعر في هذا العصر. وكان السيّد الإمام^(١)، صاحب المنار رحمه الله، قد كتب أنّ شكيب أرسلان كان أول مَنْ لَقَّبَ شوقي بأمير الشعراء. وليس من سعادة للمرء في هذه الحياة، مثل أن يحبّ مَنْ يحترم وأن يحترم مَنْ يحبّ، وقد كان هذا شأني مع أحمد شوقي، رحمه الله، وأبقى كلماته على الدهر حلية للأدب ومفخرة للغة العرب.

وكان الفراغ من إملاء هذا الكتاب لسبعِ بقينَ من رجب الفرد

سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وألف

والحمد لله أولاً وآخراً

(١) السيّد الإمام صاحب المنار: هو محمّد رشيد رضا.

فهرست المحتويات

٥	★ كلمة لا بد منها
٧	★ مقدمة الناشر
٩	★ صداقة الشعر بين أميرين، أمير البيان وأمير الشعراء / بقلم أ. نجيب البعيني
٢٣	★ مقدمة الكتاب (الأمير شكيب أرسلان)
٢٤	- زيارتي الأولى لمصر
٢٧	- أول ما قرأت لشوقي
٣٠	- اجتماعنا الأول في باريس
٣٢	- صداقة ومكاتبات
٣٤	- معارضات
٤١	- صنعة الشعر وإبداع شوقي فيها
٤٢	- انصراف شوقي إلى الشعر
٤٣	- القول في مدح الأمراء والملوك
٤٦	- عفة لسان شوقي وبعده عن الهجاء
٤٩	- شوقي في بداية أمره
٥٠	- شوقي كما ترجم نفسه
٥٢	- نموذج من رسائل شوقي
٥٣	- شوقي في سورية
٥٤	- زيارتي لمصر في أيام الحرب الطرابلسية
٥٤	- استطراد
٥٥	- في طريقي إلى بنغازي وعودتي
٥٥	- استطراد آخر
٥٦	- جفوة لا سبب لها
٥٨	- اجتماع بعد انقطاع
٥٩	- حفلة السوق الخيرية
٦٢	- سفر المؤلف إلى حرب طرابلس
٦٢	- مشاهدته لشوقي بعد رجوعه منها وذلك في سراي رأس التين
٦٣	- التقاء الأخوين في استانبول، في أول الحرب العامة

- ٦٣ - اقتراح شوقي على المؤلف عيادة السلطان للخديوي
- ٦٦ - لقاء في باريس بعد الحرب العامة
- ٦٧ - في مقهى الجامع
- ٦٧ - شوقي الناثر
- ٦٧ - كلمة المنفلوطي في شوقي والمؤلف
- ٦٨ - مثال من ثنر شوقي
- ٧١ - شوقي واليازجي
- ٧٣ - علم اليازجي وتعبته
- ٧٥ ★ رد المؤلف على اليازجي في الدفاع عن شوقي
- ٧٥ - لعل للعدراء عذراً
- ٨٢ - أثر المقال في نفس اليازجي
- ٨٤ - رد للمؤلف على اليازجي
- ٨٤ - كل ينفق مما عنده
- ٩١ - المؤلف يرثي اليازجي
- ٩٣ - عود إلى شوقي
- ٩٣ - أحمد شوقي بك
- ٩٤ - مداعبة بين شوقي والمؤلف
- ٩٨ ★ الوداع الأخير
- ٩٩ ★ قصيدة المؤلف في مهرجان شوقي
- ١٠٢ ★ أبيات للمؤلف أيضاً
- ١٠٢ - بيئات كانت ضالّة فوجدت
- ١٠٥ ★ رأي المؤلف في أشعر الشعراء
- ١٠٥ - كلام عن المتنبي، ووجه الشبه بينه وبين شوقي
- ١١٠ - قبيل وفاة شوقي
- ١١٠ - خبر وفاته
- ١١١ - قصيدة المؤلف في رثاء شوقي
- ١١٦ ★ من الذي راض شوقي وحافظاً
- ١١٦ - مراسلات المؤلف مع محمود سامي
- ١٢٦ ★ أمائيل في شعر شوقي
- ١٥٦ - دفع اعتراض

- ١٥٦ - رأي للمؤلف
- ١٥٧ - عود إلى غرر شوقي
- ١٥٩ - استطراد ورأي في المديح
- ١٦١ * من معارضات شوقي
- ١٧٠ - عود إلى شوقي
- ١٧٩ * شعر شوقي في الرثاء
- ١٩٥ - شعره العائلي
- ١٩٦ - الحكايات في شعر شوقي
- ٢٠٢ - شعر الملاحم
- ٢٣٧ * شوقي والخلافة
- ٢٤٢ - قصيدة في المولد النبوي
- ٢٤٦ - ملحمة شوقي في حرب اليونان
- ٢٥٣ - قصيدة شوقي بمناسبة مجيء (ملنر) إلى مصر
- ٢٥٥ * رثاء المؤلف لمحمد فريد، رحمه الله
- ٢٥٧ - قصيدة شوقي في مشروع ٢٨ فبراير
- ٢٦٠ - قصيدة شوقي في تأجيل حفلة تتويج ملك إنكلترا
- ٢٦٠ - قصيدة شوقي في ذكرى كارنافون
- ٢٦١ - قصيدة شوقي في تكريم الريحاني
- ٢٦٢ - رأي المؤلف في قديم الشعر وجديده
- ٢٦٣ - إحدى قصائد شوقي في السلطان عبد الحميد
- ٢٦٥ - شوقي نصير الصون والعفاف
- ٢٦٨ - شوقي يدمم عل رذيلة الانتحار
- ٢٧١ - شوقي يتوجع على بيروت ...
- ٢٧٢ - وصف شوقي لاستانبول
- ٢٧٤ * قصيدة شوقي في اللورد كرومر يوم عزل عن مصر
- ٢٧٩ - قصيدة شوقي في الثورة السورية
- ٢٨٦ - قصيدة شوقي في السلطان حسين
- ٢٨٧ - قصيدة شوقي في أبي الهول
- ٢٨٩ - قصيدة شوقي في الأزهر
- ٢٩٠ - قصيدة شوقي في الرحالة حسنين
- ٢٩١ - قصيدة له في حفلة تكريم

- ٢٩٣ - ما قاله يوم أطلق أحد الشباب المفتونين الرصاص على سعد زغلول
- ٢٩٥ - قصيدة شوقي عن الكائنة البلقانية، وحواش تاريخية للمؤلف
- ٣١٠ - قصيدة المؤلف في الانقلاب العثماني
- ٣١٩ - قصيدة لشوقي في النسيب، ومعارضتها لأخي النسيب
- ٣٢٢ - قصيدة شوقي في شكسبير
- ٣٢٤ - قصيدة شوقي في كتاب حافظ عوض عن تاريخ مصر الحديث
- ٣٢٦ - زهرية مرنان لشوقي
- ٣٢٨ - قصيدة شوقي في مسجد أياصوفيا
- ٣٣٠ - سينية البحري في إيوان كسرى
- ٣٣٤ - إشادة أبي عبادة بمجد العجم
- ٣٣٦ - وصف البحري لواقعة بحرية
- ٣٣٩ - **★ سينية شوقي**
- ٣٥١ - قصيدة شوقي في آثار الأقصر
- ٣٥٢ - شوقي يعارض ابن سينا
- ٣٥٤ - النيل في شعر شوقي
- ٣٦٠ - كلمة شوقي في الطيران
- ٣٦٢ - ما قاله في توت غنخ آمون
- ٣٦٤ - قصيدة شوقي في دمشق
- ٣٦٦ - حنين شوقي من الأندلس إلى وطنه مصر
- ٣٦٧ - المكتب في شعر شوقي
- ٣٦٨ - كلمة شوقي عن لبنان
- ٣٦٩ - كلمة شوقي عن حرية المرأة
- ٣٧١ - موشح أندلسي لشوقي
- ٣٧٣ - أبيات شوقي عن رحلة من لبنان
- ٣٧٤ - كلام شوقي عن استقلال سورية وذكرى شهدائها، وأولهم يوسف العظمة
- ٣٧٥ - كلمة شوقي عن تمثال نهضة مصر
- ٣٧٦ - قصيدة شوقي في عيده الخمسين
- ٣٧٩ - **★ خاتمة الكتاب**
- ٣٨١ - **★ فهرست المحتويات**

